كتاب

(أسرار القرآن)

الجزء الاول

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

للجزء الأول من ((أسرار القرآن))

الحمد لله قوله حق، وحكمه عدل، وكلامه هدى، ووحيه نور، ورحمته واسعة، وعفوه عظيم، وفضله كثير، وعطاؤه جزيل.

والصلاة والسلام على نورك المشرق في القلوب المطمئنة بذكرك، وسرك الساري في عوالم ملكك وملكوتك، الدال عليك بك سبحانك، سدرة منتهى علوم الخلائق، من جملته بكمال الأوصاف وجميل الأخلاق سيدنا ومولانا محمد، نعمتك العظمى على عبادك، ورحمتك الواسعة العامة في الدنيا لجميع خلقك، والخاصة في الآخرة لمن سبقت لهم الحسنى من جنابك العلي. وعلى آله الدعاة إلى الله، الأدلاء على مرضاة الله، المخلصين في توحيد الله، المظهرين لأمر الله ونهيه، عباده المكرمين، الذين لا يسبقونه في القول، وهم بأمره يعملون. ورحمة الله وبركاته على صحابته الهادين المهديين. ورضي الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام، ونضر الله وجه خليفته الأول الإمام الممتحن السيد أحمد ماضي أبي العزائم عليه السلام.

وبعد، فنقدم دار الكتاب الصوفى ((الطبعة الثالثة))[1] لتفسير القرآن للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم المسمى ((أسرار القرآن)) .

(١) الطبعة الأولى صدرت في أول رمضان ١٣٦٩ هـ الموافق ١٧/٦/ ١٩٥٠ م وقام بإصدارها الإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبو العزائم عليه السلام، والطبعة الثانية غرة صفر ١٤٠١ هـ الموافق ٨ ديسمبر ١٩٨٠ م.

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت :

إن كنه كلام المولى جل اسمه، لا يقف عليه وعلى أسراره، إلا من ارتضاه واختصه وانتجاه من بريته، فالعقول المحددة المقيدة، لم يتأت لها خوض غمار ذلك البحر الخضم، ودرك رموز تلك المعجزة الخالدة، وما اشتملت عليه من أسرار هذه الحياة الدنيا من حين نشأتها حتى نهايتها.

إن كتاب الله الكريم، ببلاغة بيانه، وفصاحة أسلوبه، حير عقول البلغاء وفطاحل اللغة ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [(١)] .

وبما حوى من المعارف والعلوم والأسرار الكونية، أثبت أنه كلام الله الذي لا يبلى مع الجديدين،وأنه أجل من أن يحيط بكنهه وصف الواصفين، والاعتراف بالعجز بين يدي ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾[(٢)].

إن إعجاز القرآن لم يقف عند هذا الحد ، بل كل ناحية من نواحيه معجزة في ذاتها ، فدساتيره العقائدية .. وقوانينة التشريعية .. وأنظمته الرصينة .. تحقق للبشرية أبلغ ما تتطلع إليه من سعادة في تدبير شئون الحياة.

فكما أنه كتاب توحيد وإيمان .. وكتاب تشريع وسنن .. وكتاب تأمل وعبادات .. وكتاب بلاغة وأدب .. فهو قبل كل ذلك كتاب جمع فأوعى ، فيه تبيان كل شيء ((**وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**))[(٣)] ففيه أصول كل العلوم ، وفيه

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨.

(٢) سورة هود آية ١.

(٣) سورة النحل آية ٨٩

الحكمة والموعظة الحسنة ، وفيه كل ما يتطلبه ويحتاج إليه الإنسان في نشأتيه الدنيوية والأخروية .

وصف الأئمة لكتاب الله الكريم :

يصف أمير المؤمنين **الإمام علي** عليه السلام كتاب الله الكريم في خطبة بليغة فيقول:

((ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه ، وسراجا لا يخبو توقده ، وبحرا لا يدرك قعره ، ومنهاجا لا يضلّ نهجه ، وشعاعا لا يظلم ّضوؤه ، وفرقانا لا يخمد برهانه ، وتبيانا لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزا لا تهزم أنصاره، وحقا لا تخذل أعوانه .فهو معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبيناته ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا يترفه المستترفون ،وعيون لا ينضبها الماتحون،ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون ، وأكام لا يجوز عنها القاصدون . جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعا لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء ، ونورا ليس معه ظلمة ، وحبلا وثيقا عروته ، ومعقلا منيعا ذروته ، وعزا لمن تولاه ، وسلمًا لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذرا لمن انتحله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وحاملا لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلما لمن وعى ، وحديثا لمن روى ، وحكما لمن قضى))[1].

ويصف الإمام أبو العزائم عليه السلام تمسك أبناء طريقته بالقرآن فيقول :

((القرآن المجيد مورد آل العزائم الروي ، وروضهم الجني ، وحوضهم المورود، وكوثرهم المشهود ، وميزان أحوالهم ، ومرجع مقاماتهم ، يسألونه قبل العمل، فإن أذن سارعوا ، وإن منع تركوا واستغفروا ، فهو الإمام الناطق وإن صمت ، لأنهم

---

(١)نهج البلاغة .ج ٣ : ٩ع - ٧٠

يسمعونه عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فتسمعه آذان قلوبهم حضورا ووجــودا ، وإن كان التالي له إنسانا آخر . وقفت بهم همتهم العلية على القــرآن فــأحلوا حلالــه ، وحرموا حرامه ، لو أمرهم بقتل أنفسهم لقتلوها ، أو بمفارقــة أمــوالهم وأولادهــم لفارقوها ، فرحين بالسمع والطاعة ، تجلت لهم حقائق القرآن جلية ، وانبلجت لهــم أنواره العلية ظاهرة ، فلم تبق بهم همة إلا في القرآن ، ولا رغبة إلا فيه ، أحبوا القرآن حبا ينبيء عن كمال حبهم للمتكلم سبحانه ، كاشفهم الله تعالى بمــراده في كلامــه العزيز ، حتى كان الرجل منهم إذا سئل : لم تعمل هذا ؟ يقول : أمرني القــرآن ، ولم تترك هذا ؟ يقول : نهاني القرآن، وإذا طلب منه أمر يقول : مه حتى أستشير القرآن ، فيقرأ القرآن المرة والمرتين، حتى تتضح له حقيقة حاله ، وسر قصــده ، فيســارع إلى التنفيذ ، أو إلى الترك .

فالقرآن طهور الحب ، وحلل القرب ، ولا يوفق للعمل بــالقرآن إلا مــن جذبته العناية ، واقتطعته المشيئة ، واختطفته محبة الله السابقة له .

واعلم أنه لا يجد فهم القرآن عبد فيه أدنى بدعة ، أو مصر على ذنب ، أو في قلبه كبر، أو مقارف لهوى قد استكن في قلبه ، أو محب الدنيا ، أو عبد غير متحقــق بالإيمان ، ولا من هو واقف عند مبناه غافل عن معناه ، ولا ناظر إلى قــول مفســر ساكن إلى علمه الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، فهؤلاء كلهم محجوبون بعقــولهم ، مردودون إلى ما يقرر في علومهم ، موقفون مع ما تقرر في عقولهم ، أما العبد الــذي يجد حلاوة القرآن ، ويكاشف بمشاهدته ، فهو من قرأ ملقيا السمع بين يدى سميعه ، مصغيًا إلى سر كلامه ، شهيد القلب لمعاني صفات شهيده ، ناظرا إلى قدرته ، تاركا لمعقوله ، متبرئا من حوله وقوته ، معظما للمتكلم ، واقفا على حدوده ، مفتقــرا إلى

الفهم بحال مستقيم ، وقلب سليم ، وصفاء يقين ، وقوة علم وتمكين ، سمــع فصــل الخطاب ، وشهد علم غيب الجواب)) [(١)].

أسماء القرآن وأوصافه :

سمى الله القرآن بأسماء ، فمن أسمائه :

١- **القرآن** : قال تعالى في سورة الحشر آية ٢١ : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾.

٢- **الكتاب** : قال تعالى في سورة الكهف آية (١) : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّمًا** ... ﴾ .

٣- **الفرقان** : قال تعالى في سورة الفرقان آية (١) : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ .

٤- **كلام الله** : قال تعالى في سورة التوبة آية (٦) : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

٥- **الذكر** : قال تعالى في سورة الحجر آية (٩) : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾. كما وصف القرآن بأوصاف عــدة منـها : الشـفاء، القصص، الحكيم ، الحكمة ، الحبل ، الصراط المسـتقيم ، العزيـز ، الموعظة ، المجيد ، بلاغ ، بصائر ، بيان ، التتريل ، الوحي، الرحمـة ، النذير ، المهيمن ، وغيرها من الأوصاف المناسبة للقرآن .

---

(١)راجع كتاب : الطهور المدار على قلوب الأبرار) للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام الطبعة الثانية ص٨٥

التفسير :

التفسير في اللغة : الاستبانة ، وفى الاصطلاح : علم يُبحث فيه عن معاني ألفاظ القرآن وخصائصه . فالنظر في القرآن الكريم من حيث كونه كلاما له دلالة ومعنى، ولله تعالى فيه هدف وقصد، ومن أجل بيان هذه الدلالة، وشرح المعنى، وإيضاح القصد، والإفصاح عن الهدف، نشأ ((علم التفسير)) الذي تكفل بتلك الغايات . ولا بد لطالب هذا العلم من مؤهلات منها العلوم العربية بشتى أقسامها، وعلم الفقه وأصوله، ومنها علم الحديث وعلم الكلام، ومنها علم التجويد والقراءات، ومنها أسباب الترول والناسخ والمنسوخ ..

تسلسل المفسرين:

إن الله عز شأنه هو أول مبين لكتابه، لأنه أعلم بكلامه ومراده، ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ** ﴾ [(١)] وقوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ [(٢)] وإذا راجعنا الآيات التي جاءت فيها كلمة «يسألونك » أو كلمة «يستفتونك » فهمنا منها أن الله سبحانه وتعالى تولى بيان الأمور وتفسير الأحكام .

وبعد تفسير الله تبارك يأتي تفسير الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لقوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم** ﴾ [(٣)] وقوله : ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ** ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة آل عمران أية ٧

(٢) سورة البقرة أية ١٨٧.

(٣) سورة النحل أية ٤٤.

(٤) سورة النحل أية ٦٤.

ويأتي تفسير الصحابة بعد تفسير الرسول ﴿ﷺ وآله﴾، ويعد الإمام علي عليه السلام أول من تكلم في تفسير القرآن من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لعلمه بكتاب الله وتأويله، وقد وضع ابن عطية المفسر ترتيبا للصحابة في التفسير فقال: إن صدر المفسرين والمؤيد منهم هو على بن أبي طالب الذي يقول:

((لو أردت أملي وقر – الحمل الثقيل – بعير على الفاتحة لفعلت)) ويتلوه عبد الله بن عباس الذي دعا له الرسول بفهم الوحي والتتريل، وقد نما هذا الاستعداد في نفس عبد الله بن عباس لملازمته للإمام علي عليه السلام، وخاصة بعد انتقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى .. فالإمام علي عليه السلام– كما نعلم – باب هذا المنهل الفياض من علوم النبوة . ومن ثم كانت مأثورات عبد الله بن عباس ورواياته في تفسير آيات الكتاب، أول ما عرف من التفسير التي تستند في جملتها على الحديث والأثر، وهذا النهج من التفسير بالأثر والحديث من العلوم التي تفرد بها البيت النبوي .

فلما كان العصر العباسي، وازداد اتصال العرب بحضارات الفرس والرومان واليونان والهند ،حدث الامتزاج الفكري وتمخض من هذا المزج عقل عربي مكتمل، يجمع في أحكامه بين المنقول والمعقول .

وفى القرن الثالث والرابع الهجري بلغت الحضارة الإسلامية مكانه الذروة، وانعكست هذه الجوانب الفكرية في التشريع الإسلامى، وكان للتفسير الحظ الأوفر من هذه الجوانب، فتعددت مذاهب المفسرين، فمنهم من آثر جانب المنقول فاكتفى في تفسيره بما جاء بالحديث والأثر، كما فعل ابن جرير الطبري والجلال السيوطي في كتابه : ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور))، ومنهم من جعل للمنطق والجدل والفلسفة النصيب الأوفر من تفسيره، مثل الفخر الرازي .

وكما تلونت بعض التفاسير بالمناهج الفكرية، تلونت كذلك بالمناهج اللغوية البحتة، مثل تفسير ((البحر المحيط)) لابن حيان الأندلسي . وبرزت البلاغة في تفسير ((الكشاف)) للزمخشري، واقتصر بعضها على الأصول الفقهية كالقرطبى وابن عطية وابن العربي والجصاص .

وفي القرن الخامس، عرف شيخ الطائفة الإمامية وفقيهها، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب: ((البيان الجامع لكل علوم القـرآن))، ثم السيد الشريف الرضى الموسوي صاحب كتاب : ((حقائق التتريل ودقائق التأويل)) وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني، وعبد الملك الثعالبي .

وفي القرن السادس، اشتهر جار الله الزمخشري، صاحب ((الكشـاف))، وكذلك أبو علي الفضل بن الحسن الفاضل الطبرسي صـاحب كتـاب : ((مجمـع البيان)) وأبو البقاء العكبري، وأبو محمد البغوي، وابن الدهان .

وفي القرن السابع، اشتهر البيضاوى صاحب التفسير المشهور المسمى ((بأنوار التتريل)) وعرف ابن رزين، والشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي صاحب الفتوحات، وابن عقيل النحوي، ومحمد بن سليمان البلخي المعروف بابن النقيب .

وفي القرن الثامن، عرف الشيخ بدر الدين الزركشي الفقيه الشافع، وابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي، وابن حيان الأندلسي صاحب كتابي ((البحر)) و ((النهر)) في التفسير، ومحمد بن عرفة المالكي، وابن النقاش .

وفي القرن التاسع، عرف البقاعي صاحب «نظم الـدرر في تناسـب الآي والسور» والمولى الجاحى، وبرهان الدين بن جماعة، وعلاء الدين القرامانى صـاحب «بحر العلوم في التفسير »، والجلال السيوطي صاحب « الإتقان في علوم القرآن ».

وفى القرن العاشر، عرف الشيخ علي بن يونس السنباطي صـــاحب مختصـــر «مجمع البيان »، والعلامة ابن كمال باشا أحمد بن سليمان بن كمال الرومي، وأبـــو السعود العماري مفتي القسطنطينية صاحب التفسير «إرشاد العقل السليم إلى مزايـــا الكتاب الكريم » والشيخ أبو يحي زكريا بن محمد الأنصاري .

وفى القرن الحاد عشر، عرف الشيخ علي القاري، والشيخ حسن البـــوريني، والشيخ بهاء الدين العاملى الكركى صاحب تفسير «عين الحياة » والشيخ خير الدين الرملي، والشهاب الخفاجي .

وفى القرن الثاني عشر ، عرف الشيخ العارف عبد الغني النابلسي صـــاحب «التحرير الحاوي في شرح تفسير البيضاوي » والسيد هاشم البحـــراني صـــاحب « البرهان في تفسير القرآن ».

وفى القرن الثالث عشر، اشتهر الألوسي صاحب التفســـير المســـمى «روح المعانى » والسيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق بكتابه «در الأسرار ».

الإمام أبو العزائم مجدد القرن الرابع عشر :

جاء تفسير القرآن للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم بالجديد الذي لم يسبق إليه، لأن المفسر للقرآن الذي لا يأتي بالجديد، لا يملك عقلا ملـــهما مـــن الله ورسوله، وإنما يملك عقلا قارئا، يرتسم فيه ما يقرأه لغيره، فإذا وقف المفسر عند حد من الحدود، ثم جاء اللاحق وترسم خطاه لا يتجاوزها ولو بخطوة واحدة، كان مقلدًا لا مجددًا .

فبالتجديد يدوم النقاء للدين ، وتستمر البراءة للشريعة من الشذوذ الفكري، ومن الزوائد والإضافات، ومن البدع والخرافات . كما أنه هو الطريق الأوحد لتقرير أحكام الشريعة التي تستدعيها وتطلبها التطورات والـــتغيرات المســـتحدثة في واقـــع

الإنسان، بحكم التطور الذي يحدثه مرور الزمان وتغير المكان، حتى لا يبـــدو الـــدين عاجزا عن مسايرة ركب الحياة المتطورة باستمرار .

ولكل هذا قرر الرسول صلوات الله وسلامه عليه في حديثه : « إِنَّ ٱللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ لأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مَائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا » (١) بل إن الرسول يقـــرر أن التجديد مطلوب كذلك للإيمان فقال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه : «جَـــدِّدُوا إِيمَانَكُمْ»(٢) فلما سألوه : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟! قال : «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ ».

ويقول محيي الدين بن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية باب حضرة الحكمة : «... يتلو المحفوظ من القرآن، فيجد في كل تلاوة معنى لم يجده في الـــتلاوة الأولى، مع أن الحروف المتلوة هي هي بعينها، وإنما الموطن والحال تجدد، ولابد مـــن تجدده، فإن زمان التلاوة الأولى غير زمان التلاوة الثانية » فلابد إذن لمعاني القرآن من أن تتجدد المجددين في الإسلام . ومن هؤلاء الـــذين هيـــأهم الله كمنـــارات للأمـــة الإسلامية، على رأس القرن الرابع عشر الهجري، كي يجدد للأمة الإســـلامية دينـــها، الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام.

ويجري تفسير الإمام «أسرار القرآن » مع الآية حيث تجري، ويكشف معناها حيث تشير، ويوضح دلالتها حيث تدل، فهو تفسير حكيم حينما تشتمل الآية علـــى الحكمة، وهو تفسير أخلاقي حين ترشد الآية إلى الأخلاق، وهو تفسير فقيـــه حـــين تتعرض الآية لفقه، وهو تفسير اجتماعي حين تبحث الآية في الاجتماع .

---

(١) جاء في سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني في أول كتاب الملاحم من باب ما يذكر في القرن المائة واتفق الحفاظ على تصحيحه منهم الحاكم في مسنده والبيهقي في المدخل والحافظ بن حجر .

(٢) رواه أحمد بن حنبل في المسند .

ويعد كتاب : «أسرار القرآن » دائرة لمعارف القرآن .

الإمام أبو العزائم من أئمة العترة المحمدية :

أئمة العترة المحمدية، هم أعلم الناس بأسرار كتاب الله الحكيم، بعد جـــدهم صلوات الله وسلامه عليه وأبيهم عليّ عليه السلام ، فهم منار الهدى، وينابيع الإيمان واليقين، وقد أيد ذلك الكتاب والسنة، فالعترة هم الأدلاء على القرآن والعاملون بفضله .

فلا مناص أن يكون الكتاب خليفة لرســـول الله ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾، غـــير أن مداركنا قاصرة عن الوصول إلى هذه الكلية الواسعة في كتاب الله، فلابد إذن مـــن أن يكون له قوم يعرفون مدى ما فيه، ويعلمون ما حواه، قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ...... ﴾ (١)

ولو أهمل الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ الإشارة والإرشاد إلى الراســـخين في العلـــم وأصحاب التأويل، لساغ أن يزعم كل ناعق بضلالة لأنه الراسخ في العلم وصـــاحب التأويل، فالأئمة من أهل البيت هم الكتاب الناطق الكاشفون عن أســـرار الكتـــاب الصامت .

فلا غرو أن يأت تفسير القرآن للإمام المجـــدد الســـيد محمـــد ماضـــي أبي العزائم عليه السلام، فرع العترة الزكية والذرية النبوية الحسني من جهة والدته والحسيني مـــن جهة والده (٢) كاشفا عن أسراره مبينا لعلومه، لأنه كما سبق أن ذكرنا هـــو الإمـــام المجدد لزمننا هذا، الذي ورث العلم النافع والفضيلة عن الرسول صلوات الله وســـلامه عليه، عن الوحي عن الفيض الأعلى، وهو من أهل البيت الذين أذهـــب الله عنـــهم

---

(١) سورة آل عمران آية ٧

(٢) راجع : (نيل الخيرات بملازمة الصلوات)

الرجس وطهرهم تطهيرا، ومن العترة التي تركها النبي ﴿ﷺ وآله﴾ في أمته لتكـــون بيانا عن كتابه، والتي ينجو المستمسك بها من مهاوي الضلال .

آثار الإمام العلمية :

تزخر المكتبة الإسلامية بآثار الإمام العلمية، في التفســـير والعقيـــدة والفقـــه والتصوف، والفتاوى والسيرة والمواجيد :

فى جانب تفسير القرآن :

هذا السفر الجليل « أسرار القرآن »

فى جانب العقيدة :

١- كتاب : عقيدة النجاة

٢- كتاب : الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها

فى جانب العلوم الفقهية :

١- **كتاب** : أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ **وآله**﴾

٢- صيام أهل المدينة المنورة .

٣- هداية السالك إلى علم المسالك.

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين :

١- سيرة النبي ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما اختلف فيه من السنة والبدعة .

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر .

٥- تحذير الدين من بيع أراضي فلسطين .

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين .

٧- إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين .

٨- وسائل نيل المجد الإسلامي .

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ .

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج في الإسراء والمعراج.

٢- بشائر الأخيار في مولد المختار ﴿ﷺ **وآله**﴾ .

٣- مشارق البيان في فضائل شعبان .

٤- لبيك اللهم لبيك .

٥- الهجرة.

فى جانب المسرحيات الإسلامية :

١- محكمة الصلح الكبرى .

٢- العالم والتاجر والفلاح .

٣- المقتصد والمسرف والفاسد .

٤- السياسي والحكيم الغشيم .

٥- الصالح واللص والسكري .

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات .

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية في الصلاة على خير البرية.

٣- أكمل الصلوات على سيد الكائنات ﴿ ﷺ **وآله**﴾ .

٤- إلهي إلهي إلهي

٥- أدعوني استجب لكم .

في جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار .

٥- من جوامع الكلم .

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك .

١٠- مصطلحات الصوفية.

١١- آداب آل العزائم.

١٢- دروس تزكية النفوس.

١٣- موارد أهل الصفا.

١٤- قبس من المضنون.

١٥- الصوفية والتصوف.

فى جانب المواجيد :

١- مواجيد شهر رجب، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان .

٢- المواجيد العزمية في مواجهة الروضة الحسينية .

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب المجلد الأول والمجلد الثانى والمجلد الثالث.

٤- مزامير من المزامير .

التعريف بالإمام أبي العزائم عليه السلام :

- ❖ انبثق فجر ميلاده عليه السلام في مدينة رشيد، بضريح سيدي زغلول، وكان لولادته ظاهرة عجيبة، حيث ولدته أمة السيدة ((آمنة المهدية)) أثناء زيارتها لضريح سيدي زغلول، عندما فاجأها المخاض في يوم السابع والعشرين من شهر رجب ١٢٨٦ هـ .

- ❖ استأثر الإمام أبو العزائم في طفولته بعناية أبيه ((السيد عبد الله المحجوب)) دون بقية إخوته، لما يلوح عليه من مخايل النبل، ولما ألهمه الله من مكنون العلم .

- ❖ حفظ عليه السلام القرآن الكريم بمكتب بلدته – محلة أبو علي مركز دسوق محافظة كفر الشيخ - ولما بلغ عليه السلام السادسة عشرة من عمره، توجه إلى الأزهر الشريف، فاشتغل في تلقي العلوم، مع المحافظة على ما تألفه نفسه من دوام زيارة أهل البيت وأولياء الله الصالحين، ثم التحق بكلية دار العلوم، وظهر نبوغه وتفوقه في طلب العلم . وكان هذا تعهدا إلاهيا لهذا الذي يوشك أن يصبح فيما بعد إماما عارفا، بصيرا ربانيا، مبارك الخطوات .

❖ تخرج الإمام من كلية دار العلوم، وعمل بالتدريس، حتى صــار أســتاذا للشريعة الإِسلامية بكلية غردون بالخرطوم، وقد وجد الإمــام أن العــالم العربي الممتد من سواحل الأطلنطي في الغرب، إلى الخليج العربي في الشرق، تعرض لغزو الاستعمار، الذي تسابقت ممالكه وجمهورياته لاغتصاب أراضى الإمبراطورية العثمانية، وفى سنة ١٨٣٠ م استولت فرنسا على الجزائر، وفي سنة ١٨٨٠ م نزلت جيوشها تونس تحت الحمايــة، وفي ســنة ١٨٨٢ م أناخت بريطانيا بمصر، وفي سنة ١٩١١ م فاجأت قوات إيطاليــا ســاحل طرابلس .

❖ هكذا بدا للإمام أبي العزائم عليه السلام أن العالم العربي والإِسلامي، قد تعــرض من جديد لحرب صليبية تستهدف كيانه القومي وعقائده الدينية، فوقــف مناديا بالجهاد تحت لواء الخلافة الإسلامية، فأقصاه الحاكم الإِنجليزي عــن وظيفته في ١٩١٥/٨/١ م لتحذيره المســلمين مــن الوقــوع في حبائــل الاستعمار، فاستقبل عليه السلام أمر الإِقصاء بصدر رحب، لأنه كان يجاهــد في سبيل الله .

❖ أسس جماعة آل العزائم سنة ١٣١١ هـــ والطريقة العزمية سنة ١٣٥٣هـــ ومقرهما ١١٤ شارع مجلس الشعب .

❖ وكان للإِمام أبي العزائم عليه السلام دور كبير في ثورة ١٩١٩ م فمطابعــه الــتي كانت تطبع مؤلفاته العلمية حولها لطبع المنشورات ضد الاحتلال الإنجليزي لجمعية اليد السوداء التي كان يتعقبها الإنجليز في كل مكان، واعتقل الإمام أبو العزائم وابنه الأكبر سيدي السيد أحمد ماضي أبو العزائم أكثر من مرة . كما وقف عليه السلام من جميع حكام مصر وزعمائها، موقف المعارض كلمــا لانت قناهم لمفاوضة المستعمر الغاصب، فكان يوجه النصح في مجلاته وكتبه

وفى الصحف لسعد زغلول ولغيره من زعماء الأحزاب، ليصــرفهم عــن مهادنة الإنجليز، مبينا لهم مغبة مساومة المستعمر على حقوق الأمة .

❖ بعد أن قررت الجمعية الوطنية بأنقرة في ٢/ ٣/ ١٩٢٤ م إبعاد الخليفة عن تركيا، وتخليه عن الخلافة، ونظرا لتعدد أدعياء الخلافة فقد دعا الإمام أبــو العزائم إلى عقد مؤتمر عام بمكة سنة ١٩٢٦ م تمثل فيه جميــع الشــعوب الإسلامية لتعود مياه الخلافة إلى مجاريها، الأمر الذي أغضب الملك فــؤاد، فجند جنوده وأنشأ جماعة أخرى للخلافة الإسلامية، وبذلك أصبحت هناك هيئتان للخلافة الإسلامية، إحداهما حكومية يرعاها الملك فؤاد، والأخــرى شعبية برئاسة الإمام أبي العزائم[1]، وعندئذ أعلن الإمام بأن مصــر دولــة محتلة، وحكامها قد تربوا في أحضان الأجانب، ودانوا بفكرهم، ومن ثم فلا يكون لهذا البلد في ظل الاستعمار، وفى ظل هذه الشرذمة من الحكــام، أن يتصدر ملكها عرش الخلافة الإسلامية .

❖ وقد انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى يوم الخميس ٢٧ رجــب ١٣٥٦ هــــ ودفن في روضته التي أعدها لنفسه في مسجده بشارع مجلس الشعب قبــل وفاته بسنتين .

❖ خليفته الأول : الإمام الممتحن السيد أحمد ماضي أبو العزائم عليه السلام، وهــو الابن الأكبر للإمام، شكل عمرا جديدا لدعوة والده الإمام، وقام بنشر تراثه العلمي، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم ٢٠ ربيع أول سنة ١٣٩٠ هــــ ودفن بجوار والده الإمام .

---

(١) أنظر كتاب : (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) للدكتور محمد محمد حسين ، الطبعة الثالثة – بــيروت – ص ٥٢ الجزء الثانى.

تلك هي حياة الإمام أبي العزائم الصورة الآدمية لمعاني القرآن، والتفسير الحـــي لحقائق الفرقان، والمثل الكامل للنور المفاض من قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَـــاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾(٣) وقوله تعالى:﴿ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً** ﴾(٤) وقوله تعـــالى: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** ﴾(٥) وقوله تعالى:﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾(٦) .

والله أسأل أن ينفع بهذا السفر العظيم من يقرأه ويدرسه، وأن يدخر لي أجر ما بذلت فيه من جهد، وأتوسل إليه بالنبي وآله، عليه وعليهم أفضل الصلوات وأزكـــى التحيات .

دار الكتاب الصوفي

٤ رجب ١٤١٣ هـــ

٢٨ ديسمبر ١٩٩٢ م

الخليفة الثاني

السيدعزالدين ماضي أبو العزائم

---

(١) سورة الإسراء آية ٧١.

(٢) سورة الرعد آية ٧.

(٣) سورة فاطر آية ٢٤.

(٤) سورة القصص آية ٥.

(٥) سورة الأنبياء آية ٧٣ .

(٦)سورة البقرة آية ١٢٤.

مقدمة الطبعة الأولى

للإمام الممتحن

السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام

١٣٦٩ هـــ - ١٩٥٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل من سماء فيوضاته حياة الأنفس من الحكمة والعرفـــان، فسالت أودية القلوب بقدرها من العلم والبيان، سبحانه أنزل القرآن تبايـنًا لكل شيء، شفاء وهدى ونورًا، وحفظه سبحانه وتعالى من التغيير والتبديل بما شاء سبحانه، وبمن شاء، فتح به جل جلاله آذانًا صما وأعينًا عميا، وأطلق به ألسنًا خرسا، خَدمَةُ صَفوةٌ مِنْ عبادة المقربين، فألهمهم الصواب في القول والعمل والحال، وجعل لهم نورًا يفقهون به كلامه سبحانه، ولسانًا يبينون به أسرار كتابه العزيز . وهم القائمون بالحجـــة لله على عباده، الدالون على الله، الذين أطلعهم على حكمة أحكامه ومراده . وهم أنجـــم الهدى المشرقة في سماء الدلالة عليه جل جلاله، وسرج البيان عند غياهب الشـــبهات، وكثائف الظلمات، يحيي الله بهم موات القلوب، ويجدد بهم سنن الهـــدى. والصـــلاة والسلام على السراج المنير، ورحمة الله العامة لجميع خلقه، ونعمة الله العظمى علـــى عباده، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله.

وبعد : فيقول أحمد ماضي أبو العزائم إني والحمد لله قد نعمت في حضـــانة سيدى ووالدى الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم متغذيًا بلبـــان العرقـــان، متحدًا مع العباد والزهاد من تلاميذ سيدنا الإمام عليه السلام ، وكنت أحرص الناس علـــى تلقي الدروس الخاصة التي كان يلقيها عليه السلام من تفسير القرآن الكريم، وعلوم الســـنة المطهرة السمحاء، وأحرص الناس على اقتباس تلك الأنوار مع كثرة اشتغالي

بتلقي الدروس المختلفة بالجامعات . على أن أكثر طلبة هذا العلم الإلهي كانوا يتلقونه من سيدي الوالد إملاء، محافظة على تلك الأنفاس الطاهرة، وكنت متخـــذًا لى أصدقاء من خاصة أهل الصفا، فإذا فرغنا من الدروس راجع بعضنا البعض ما تلقاه في مذكراتنا، ثم عرضناه على الإمام ﵇ فكان يسره ذلك ﵇، وقد كان يبين لنا ما أبهم علينا ويفصل ما أجمل مزية يخصنا بها، فكنا نتحقق أن هذا إذن من سيادته لجمـــع تلك الدرر والنفائس، ولا نزال على تلك الحالة طيلة حياته ﵇.

نرجع فيما تلقيناه من الدروس إلى خاصة تلاميذه، ثم عليه ﵇ أخيرًا . وقد التمسنا منه ﵇ أن ننشر ما تلقيناه من هذه المشكاة النورانية، فسمح لنا ﵇ بذلك

وها هو (الجزء الأول) يصدر في ثوبه القشيب من حسن الطباعة، وجـــودة الورق، ودقة التصحيح يتناسب مع جلال هذا التفسير . وإن أنس لا أنس ما قام بـــه الخيرة من أفراد آل العزائم بوادى النيل وعلى رأسهم محمد أفندي غـــازى عبـــد الله وأخي وحبيي إبراهيم افندى الخطيب وَاعِظ آل العزائم بوادي النيل من جهد مـــادي وأدبي ما كان فاتحة لتحقيق رغبة الإمام وتحقيق رجائنا في طبع هذه الـــدرر الغـــوالي الكاشفة لأسرار القرآن وغوامضه .

على أني إن شاء الله قد وطدت العزم على تحقيق آمال العالم الإسلامي في نشر كل مؤلفات الإمام . مواصلا نشر التفسير جزءًا بعد جزء حتى يعم النفع به للإنسانية جمعاء سائلا الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إعلاء لكلمته وإحياء لسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾.

فشكرت المولى جل وعلا على الإِذن وتوجهت إليه سبحانه مستعينًا بعنايتــه الربانية متوسلا بحبيبه ومصطفاه ﷺ وآله، أن يؤيدنا الله بروحانيــة حبيبــه ﷺ وآله ، ويجعل هذا العمل مقبولا لديه نافعًا شافعًا إن شاء الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد الله الذي لم يخل الأرض من قائم له سبحانه بحجة . إما ظاهرًا مشهورًا وإما باطنًا مستورًا . لئلا تبطل حجج الله وبيناته . والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء الذي لا نبي بعده . من أكمل الله لنا به ديننا الذي ارتضى لنا وأتم لنا علينـــا بـــه ﴿ﷺ وآله﴾ نعمته فرفعه إليه بعد أن أمكن الله لنا في الأرض بالحق وحفظ فينا كتابه العزيز وسنة نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ ومنهج السلف الصالح وتفضل فأدام لنا فضـــله بإقامـــة عباد اجتباهم وألهمهم فقه دينه، وأذن لهم في البيان فبينوا للناس في كل عصر الأحكام الشرعية المتعلقة بكل حادث لم يكن في عصر أئمة الهدى لأن القرآن المجيد كتاب الله الذي لا ينسخ . ففيه تبيان كل شيء، حتى قال عليٌّ عليه السلام (لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله) .

وبعد : فيقول خديم الفقراء محمد ماضي أبو العزائم، إن العلماء ورثة الأنبياء قد شرحوا القرآن المجيد في كل عصر بما يناسب أهله لا بقدر الكلام لأن الكلام صـــفة المتكلم قال تعالى : (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) **يعني** في كل شيء : فليس كالقرآن شيء من الكلام حتى يحيط الشارح له بحقيقة . وقد صرنا في زمان انصرف الناس فيه عن القرآن والسنة إلى آراء أهل الأهواء وجهالة أهل الحظ من المبتدعين . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ولكن تعداه إلى ما هو أفسد للعقيدة من الاقتداء بالضالين المضلين من أعداء الإسلام فقلدوهم فيما يضر ولا ينفع وهم لا يزالون يجهلون حقائق محسوسة ملموسة في الصناعات التي بلغوا فيها مبلغ النحل في صناعته فهم يجهلون حقيقـــة الكهربـــاء وحقيقة النور والظلمة وهي تحت سلطان الحس فكيف يصلون إلى الغيب المصون، قال سبحانه : ﴿ **مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَـــا كُنـــتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ أنا لا ألوم قومًا حرموا العقل القابل للحق ومنحوا العقـــل

القابل للصناعات والفنون لأنهم أضل من الأنعام، ولكني ألوم من أكرمهم الله بالإسلام وجعل لهم أبوين مسلمين كيف يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؟! لكل تلك المقتضيات رغبت في أن أخدم إخوتي المسلمين بشرح القرآن المجيد شرحًا تستبين به لأهل هذا العصر أنواره الماحقة لظلم أهل الطغيان وظلمة أهل الجحود والله ولـــي وحسبي ونعم الوكيل .

﴿ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

الاستعاذة : لفظها ﴿ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴾ ومعناها لغة الالتجاء إلى الله تعالى والاستجارة به عند الإضطرار والعجز عن دفع ما لا قبل للعبد به، وعن نيل ما لا بُدَّ له منه، وهي ، حقيقة طهرة النفس من شوب الشرك لأن الإنسان مهما نسى حقيقته التي هي العدم أو بدءه الذي هو الماء المهين الخارج من مجرى البول مرتين وغرته نعمة الله تعالى عليه من العافية والجاه والمال والأولاد ونفوذ الكلمة وما حصله من الفنون والصناعات، أصابته البلايا من حيث لا يحتسب، وتفرق قلبه في أودية الهموم، وحرم التنعم بما آتاه الله فإن دام على ذلك وفارق الحياة الدنيا مات على شعبة من شعب الكفر أو النفاق كما قال سبحانه ﴿ **الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾.

فإذا سبقت للمؤمن الحسنى تحقق عجزه بنفسه عن دفع الشر وجلب الخير، فاستعاذ بالله متحققًا بأنه سبحانه هو الذي يمنح الخير بقدرته لمن يشاء ويعطي التوفيق بحكمته ويحفظ العبد برحمته من الوقوع في المعاصي والمخالفات والبليات فقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم معتقدًا أن الله تعالى يسمع دعاءه ويعلم ما في نفسه من الإخلاص ثم قال من الشيطان الرجيم يعني من كل ضار مفسد أو عدوّ قاهر أو من شياطين الإنس أو من شياطين الجن الذين يوسوسون في الصدور أسرع الله إليه بخفي لطفه فأعاذه وأجاره ومكن له في الأرض وبدله أمنًا بعد الخوف وهداه صراطه المستقيم، لأن الاستعاذة كمال التجرد من الحول والقوة والتبرئة من الثقة بغير الله وبالتحقيق بتلك المعاني كمال التوحيد .

ومن استعاذ بالله عند كل عمل من أعماله التي أجلها قراءة القرآن مستحضرًا تلك المعانى أعاذه الله حقًا وتولاه ووالاه قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ**

بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ لأنه تحقق بما يحبه الله، ومن لم يستعذ بالله فهـــو عبـــد مغرور وكله الله إلى نفسه فتخبط في النوائب وتلظى في سعير الهموم، وسلط الله عليه نفسه وماله وعلمه وأولاده، فكانوا عذابًا له في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وإنا لنرى أهل هذا الزمان تركوا الاستعاذة بالله فضرب الله بعضـــهم بـــبعض ومكن منهم من كانوا أذلاء . والواجب علينا أن نتدارك الأمـــر بالالتجـــاء إلى الله والعمل بوصايا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

﴿ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ حكمة الافتتاح بالبسملة ﴾

افتتح سبحانه الكتاب العزيز بالبسملة ليعلم عباده الأدب معه سبحانه واستحضار ذكر اسمه عند كل عمل أو قول أو حال ذي شأن، وبذلك يكون المسلم حاضر القلب مشاهدًا غيبًا مصونًا من دقائق علم التوحيد، لأن المسلم يقول أبتدىء ببسم الله أو أعمل أو أصنع أو أؤلف أو آكل باسم الله فلا ينسى في كل شأن من شئونه أن يذكر ربه مراعيًا العبادة الخالصة في ذكره – وكيف ينسى المسلم ربه وهو جل جلاله تتره عن أن ينساه . فالبسملة حجة قائمة لمن يقولها مراعيًا معناها على أنه حاضر القلب مع ربه كثير الذكر له جل جلاله كما قال سبحانه ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** ﴾ .

﴿ حكم البسملة ﴾

يجب النطق بها في الصلاة عند من يقولون إنها آية من الفاتحة وهم قراء الكوفة ومكة وفقهائها وهو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وحجتهم إثبات السلف الصالح لها في المصحف أما قراء المدينة والبصرة والشام فلا يرونها آية من الفاتحة ويرون إثبات السلف لها للتبرك، فيكون الافتتاح بها في الصلاة أو في كل عمل ذي شأن سنة، ويكره عندهم الجهر بها في الصلاة وهو مذهب الإمام مالك ومذهب أبي حنيفة ومن تابعهما .

﴿ حكمة الترغيب فيها ﴾

قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾:(كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ فَهُوَ أَبْتَرُ) والمعنى ناقص وقليل البركة وهذا الحديث الشريف يشير إلى أن

الابتداء بالبسملة يدل على حضور القلب مع الله تعالى رعاية للتوحيد لأنه سبحانه هو الفاعل المختار، فإذا ابتدأ بالبسملة أثبت عجزه عن القيام بالعمل أو العجز عن إتمامه فالتجأ إلى الله مستعينًا به سبحانه فحصلت له العناية من الله وكتب من الذاكرين وسجل له عمله في سجل العبادة لأن العبادة كلفنا الله بها لشكره وذكره .

﴿ بركة بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

من بركاتها طمأنينة القلب بنجاح العمل أو بالسلامة من سوء عاقبته . ومن بركاتها شرح صدر العامل فرحًا بتوفيق الله بذكرها، ومنها أن يقلده أبناؤه وإخوانه فيكون أعان على خير وسنبين معنى الاسم : الله و الرحمن والرحيم، في الفاتحة .

﴿ الفاتحة ﴾

﴿ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ۞ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ۞ .

هي سبع آيات وسميت الفاتحة لافتتاح المصحف بها، وقد تضمنت مع قصرها جميع معاني القرآن والكتب السماوية من قبله لأن الله سبحانه وتعالى افتتحها بصيغة الحمد لنفسه بنفسه ورضي بهذه الصيغة من خلقه لأنه طالبنا بحمده فعجزنا فرضي منا بما حمد به نفسه . ولفظة ﴿ الحمْدُ ﴾ دلت على توحيد الأسماء والصفات كلها، لأن الحامد لابد وأن يكون موحدًا للمحمود معتقدًا اتصافه بكمال الأسماء والصفات، محبًا له مسارعًا إلى طاعته فمن لم يعتقد تلك العقيدة فليس بحامد الله تعالى . وليس المراد مجرد ألفاظ تتلى إنما المراد رعاية معاني تلك الألفاظ وذوق العقل والنفس منها ما دلت عليه بالمطابقة أو بالتضمين أو بالالتزام فإذا زكت نفسه أفلح فكوشف بتفريد الله تعالى بالصفات المحمودة التي بها ينال الخلق الخير بفضله سبحانه لأنه غني عنهم غنى يجعله يختص بالحمد دون غيره فلا يحمد سواه جل جلاله فيترقى من العلم **إلى الذوق** ومنه إلى الشهود.وهذا هو الذي إذا قال الحمد لله شهد توحيد الأسماء والصفات أشرقت عليه أنوارها. قوله تعالى ﴿ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هو الاسم الأعظم الواجب الوجود لذاته المفرد العلم الدال على الإله الحق دلالة جامعة لجميع الأسماء الحسنى الإلهية الأحدية الجامع للجمال والجلال والبهاء والنور والضياء والكمال لذاته بذاته . ومن الأثر ترك التكلم في اشتقاقه وجموده . ومن اصطلم في إلهانية الرب جل جلاله واصطنع لهيمنته سبحانه غاب عن الموجودات وفر من المكونات علوًا وسفلا كما قال تعالى :

(فَفِرُّوا إِلَى اللهِ) وأهل العزائم منحهم الله النور الذي به أفردوا حضرة هذا الاسم المقدس بالقصد دون غيره لما في جميع الأسماء من الصفات التي تدعو السالك إلى التأله لها إلا هذا الاسم الأعظم فإنه مع دلالته على جميع الكمالات إجمالا لا يلحظ من اصطفاهم الله في حالة الإلهانية غير الأحدية في العماء وغيب الغيب تفريدًا للحضرة العلية بالقصد وفرارًا من الغين إلى العين . ذكره حضورًا طمأنينة للقلوب والنطق به وجودًا خروج من الظلمات إلى النور . وهو سبحانه وتعالى ولي المؤمنين قال تعالى (فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ) لا يخلص إيمان مؤمن من الشوب إلا إذا تأله له دون غيره وهو جل جلاله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ الرحمن هو المنعم في تلك الدار الدنيا، والرحيم هو المنعم بالخير الدائم في الآخرة . وفى ذكرهما إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى عامل الخلق بالرحمن الرحيم فأبدعهم وأنشأهم وخلقهم بمشيئته وإرادته لا لعلة ولا سبب بل بفضله وبرحمته وأمدهم بما به قوام حياتهم ضروريا وكماليا بحيث لو فقد عنصر من عناصر هذا الكون لهلك العالم أجمع . ومثال ذلك الهواء والماء والشمس والأرض المنبسطة التي يسر لنا حرثها والبناء عليها والسير فيها . ولو كانت أباطح وجبالا لهلك الإنسان لتعذر الحياة عليها . ولذلك ورد في الأثر الشريف: (سبقت رحمتي غضبي) ولو أن الغضب سبق الرحمة ما أبقى على ظهرها من دابة قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ وقد بين الله تعالى التوحيد بيانًا مفصلا لا يحتاج إلى بيان بعده .

قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي يوم القيامة – يوم يقوم الناس لرب العالمين – يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله – يوم توفى كل نفس ما كسبت– يوم ينفع الصادقين صدقهم - يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا هو يوم الدين الذي تتميز فيه المراتب وتنكشف الحقيقة على ما هي عليه، فتظهر الربوبية بأجلى معانيها من الكبرياء والعظمة والجلال ماحقة لكل حقيقة غيرها، و لم يبق إلا الحي القيوم فيقول تتره وتعالى ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ إظهـــارًا لعظمتـــه وتفريده بالقوة والقدرة ثم يجيب نفسه بنفسه ﴿ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فإذا شاء سبحانه أن يعيد النشأة الأخرى أمر السماء أن تمطر ماء كمني الرجال أربعين سنة حتى تذوب فتصير كالعجينة فيأمر سبحانه وتعالى أربع رياح عاصفة تعتقم الأرض مـــن جهاتهـــا الأربع فترجها رجًا وتدكها دكا حتى تصبر الجبال كثيبًا مهيلا وتقوى صدمات الرياح فتجعل الجبال هباء منثورًا، وهي ، ما نعرف صلابة وقوة فيكف بـــالأرض ويوجـــد سبحانه في كل ذرة من ذرات الهيكل الإنساني قوة جاذبية تجمع بعضها ببعض لشـــدة رج الأرض ودكها، حتى إذا تكونت الأجساد وصارت الأمم أطوارًا طبقة فوق طبقة أسكن الرياح سبحانه وأعادها إلى مهاها ثم أمر بالنفخة الثانية فتفيـــق الأرواح مـــن صعقها وتهب كالجراد المنتشر، كل روح تسارع إلى بيتها الذي سكنت فيه في حياتها الدنيا وهو جسمها .

وهذه هي كيفية النشأة الأخرى وهي ، أشبه بالنشأة الأولى لآدم عليه الســـلام وليست كالنشأة الأولى لأبنائه تحتاج إلى إمناء وحمل ووضع ورضاع فإن لكل نشـــأة أسبابًا وضعها سبحانه .

وتلك الأسماء المقدسة التي هي – الله – ورب العالمين – والرحمن الـــرحيم – ومالك يوم الدين تشير لأهل العلم بالله تعالى إلى أنه سبحانه منفرد بالإيجاد والإمـــداد فإذا لاحت لهم ساطعة الغيب المصون في تلك الأسماء المقدسة عرفوا أنفسهم أنهم عبيد مقهورون وعباد مربوبون، ثم تحققوا بمعرفة الله تعالى معرفة جعلتهم يفردونه بالعبـــادة دون غيره وذاقوا حلاوة عجزهم عن القيام بما يجب عليهم لحضرته العلية من العبـــادة فأيقنوا أنه المعين لا غيره فرتلوا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾قولا وعلمًا وشهودًا لأن

مراتب التلاوة سماع فتصديق فعلم فشهود – ولما كان البيان بالقول والعمل لا ينتج شهود الحقيقة ولا فقه الحكمة بل ولا مشاهدة الآيات الدالة على تفريد الله تعالى بالألوهة والربوبة أدهم الله تعالى، فعلمهم الدعاء بطلب الاتصال بمن هداهم بقوله سبحانه :﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾ والصراط . والطريق . والسبيل . والمنهج . والمنهاج . والشارع . والشرعة . والشريعة ألفاظ مترادفة لما يوصل إلى المقصود من المكان المضرب للسير فيها بشرط أن يكون أقرب من غيره وأسلم . وفى هذا إشارة إلى أن المسافر إلى الله تعالى لابد وأن يقطع المسافات التي بينه وبين ربه وتلك المسافات هي تلقي العقيدة الحقة من العلماء بالله ومجاهدة النفس لتزكيتها لتتجمل بالأخلاق الفاضلة . ورياضة النفس لتراقب ربها بحسن معاملة الخلق، ابتغاء مرضاة الحق جل جلاله وتطهير القلب بالرياضة ليكون بيتًا معمورًا بمشاهدة سواطع العظمة ولوامع الجلال رهبة وخشية وبأنوار الجمال والبهاء رجاء وأنسًا وحبا والتمسك بآراء أهل اليقين ومذاهب أهل التمكين، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى:﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم ﴾ ممن بدلوا نعمة الله كفرًا وهم اليهود ﴿ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ ممن ضلوا السبيل فجعلوا لله ندا أو ولدًا أو شبيهًا أو شريكا وهم النصارى.

والفاتحة كنز التوحيد وسر الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، وهي ، الصلاة، وهي ، السبع المثاني والقرآن العظيم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : قال الله عز وجل : إني قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل – فإذا قال العبد : (**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : (**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**) قال الله : أثنى عليَّ عبدي . وإذا قال : (**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) قال : مجدني عبدي . وإذا قال : (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل وإذا قال : (**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ**

الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .

﴿ سورة البقرة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣﴾

معلوم أن هذه السورة الشريفة مدنية أنزل الله قبلها سورًا كثيرة بمكة، بين فيها مقامات التوحيد وقبائح الشرك بالله تعالى لمناسبات دعوة أهل مكة . ولما كانت آيات القرآن المجيد يكثر فيها تكرار الألفاظ الدالة على معان كثيرة لبيان علـــم أو لكشـــف حقيقة أو لتفصيل حادثة، اقتدينا بأئمة الهدى من المفسرين بالأثر الذين يفصلون معاني اللفظة في كل آية ذكرت فيها أولا . ويلمعون إليها عند ذكرها ثانيًا والاقتـــداء هـــم حفظًا للعلم والأثر.

قوله تعالى : ﴿ الم ﴾ . معلوم أن العلماء بالتأويل تتفاوت مقاماتهم في العلم، فمنهم الراسخون فيه، ومنهم و منهم . ولكل فريق تأويل في هـــذه الآيـــة الشـــريفة وكلهم على حق لأنهم مجتهدون، والآيات الشريفة تتحمل كل تلك المعـــانى، وقـــول بعضهم : الله أعلم بمراده، كلمة يقولها كل مؤمن ولو أطلعه الله على مكنون العلم – قال الله تعالى :﴿ **وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء**﴾فمن شاء الله أن يحيطه بشيء من العلم أحاطه به، وعندي أن الله تعالى كشف تلك الحقائق لمن شـــاء ممـــن اجتباهم فعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ومن هذا التأويل في قوله ﴿ **الـــم** ﴾، فالألف إشارة إلى لفظة (أنا) واللام إلى (الله) والميم إلى كلمة (أعلم)فكأنه سبحانه وتعالى يقول : أنا الله أعلم أو أنا الله الملك، ويكون قسما كأنه سبحانه وتعالى يقول أقسم بى أنا الله الملك . وما بعده جواب للقسم . ومن التأويل ﴿**الـــم** ﴾ اسم للسورة – ومنه

﴿ الــم ﴾ إشارة إلى حروف الهجاء وأن هذا الكتاب منها – ومن التأويل (الــم) آية متشابهة تقول للعقل : أنت عاجز لا تقوى على تحصيل العلم بمراده سبحانه إلا إذا وقفك للتقوى وعلمك ما لم تكن تعلم . قال الله تعالى﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ فهي إشارة إلى سجود العقل عجزًا عن إدراك كلمة عربية مركبة من حروف الهجـاء وليس في ذلك التكليف مالا يطاق إنما فيه الحث على التمسك بتقوى الله تعالى، فـإن المضنون به من العلم لا ينال إلا بفادح المجاهدة وكيف لا والله تعالى يقـول : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ وعلى تلك الإشارة (آلم) و (المص) (و الر) و (حم) وغيرها أسماء الله تعالى أوهي الاسم الأعظم – قال علـيٌّ عليـه السلام يوم حرب الخوارج (حمعسق) ودعا الله تعالى بالحديث الشـريف (أعـوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) . وهذا الحديث يشـير إلى أن كلمـات الله التامات هي هذه الآيات الموضوعة في أوائل بعض السور ولا يسـتعاذ إلا بأسمـاء الله تعالى فهي أسماء الله . ومن التأويل أن تلك الآيات أعمار لقوم . فالألف لسنة واحدة واللام لثلاثين والميم لأربعين . ومن التأويل أن كل حرف منها دل على معان كـثيرة علمها من علمها بفضل من الله تعالى وتلك الأسرار العلية يعلمها أهل التقوى بطريق الإلهام إذا تطهروا بالتوبة حتى أحبهم الله تعالى لخضوعهم لسلطان الشريعة ومجاهدتهم لأنفسهم مجاهدة تجعلهم مجانسين لعالم الطهر والصفاء عمار ملكوت الله الأعلى، فتفتح لهم أبواب السماء للسياحة فيها ليروا من آيات الله الكبرى ما تطمئن به قلوبهم وتلوح لهم غرائب الحكمة وأسرار بدائع إبداع الله تعالى وهم الصديقون والشهداء . ومـن قصرت بهم هممهم عن التشبه بأهل المجاهدة فالأولى أن لا يجمعوا على أنفسهم بـين الحرمان من الخير والإنكار على أهله . فإن الذين راضوا عقـولهم بعلـوم الرياضـة اخترعوا من الصناعات والفنون ما به طاروا في الجو وغاصوا في البحار، بل اخترعـوا من أنواع الصناعات ما حير العقول واستعبد العباد ودمر البلاد . فكيف بمن جاهـد نفسه حتى زكت فجانست العالم الأعلى وشهدت ما هنالك من بهاء وضـياء ونـور

وجلال . منحنا الله التسليم لله تعالى ولرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ والأدب مع القرآن المجيد .
وورد في الحديث أن لكل حرف من القرآن ظهرًا وبطنًا وحدًا ومطلعًا . فتح الله لنا كنوز القرآن وسقانا جرعة من شرابه الطهور، وأعاد لنا مجد سلفنا بالعمل به إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ أشار سبحانه وتعالى إلى الكتاب باسم الإشارة الدال على البعد مع أن الكتاب قريب من الذاكرة فأشار إليه بما يدل على البعد لعلو مكانته أو لعظمة مُنزله سبحانه، والكتاب هنا هو القرآن ﴿ لاَ رَيْبَ ﴾ أي لاشك، والريب هو شك مع سوء ظن. ومعنى انتفاء الريب عنه كمال التحقيق بأنه منزل من عند الله تعالى وأنه صحيح ومعجز . وتلك الحقائق معترف بها من أعدى أعداء القرآن لأن فطاحل الفصحاء من سادات العرب عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله وعجزهم هذا حجة قاطعة على عجز غيرهم من العالم أجمع بالأولى . فإذا شك ممرور أو معتوه لا يعتبر حكمه على الكتاب بأن فيه ريبًا . كما لو ادعى صناع أوربا بأن علماء الأزهر يجهلون الأحكام الشرعية مثلا كانت دعواهم باطلة، لأنهم ليسوا أهلا للحكم على هذا، والجاهل عدو نفسه فكيف يحكم على غيره، والخبر إنما هو لعاقل ثبت لديه علو القرآن الكريم علوًا سجدت له عقول فرسان البلاغة. فالقرآن المجيد من حيث نظمه معجز، ومن حيث أخباره عن الأمم السابقة صادق ومن حيث الأدب الذي أدب الله به أنبياءه وأولياءه جذاب للأرواح، ولو أنا شرحنا فضائل القرآن وما جمع الله فيه من العلوم والأسرار لعجزنا عن حصرها . وقد بينت في كتاب (الإسلام نسب) بعض العلوم التي احتوى عليها القرآن . وللكتاب العزيز أسماء كثيرة منها : القرآن، والفرقان، والنور والذكر، والتبيان، وغيرها وكل اسم من هذه الأسماء علم على آيات دالة على معان خاصة بهذا الاسم يعلمها من جعل الله لهم نورًا في قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ كلمة (فيه) إن كانت خبرًا (لـــلا) في (لا ريب) فهي لنفي الريب عن الكتاب وإن كانت خبرًا مقدمًا لهدى فهي لإثبـــات الهداية . وعلى جعلها خبرًا للاريب يكون ﴿ هُدًى ﴾ حالا عاملها اسم الإشارة وهو صفة للكتاب : والقرآن هدى للعالمين كما أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ رحمة للعـــالمين والهدى هو الدلالة والبيان والقرآن دال مبين . وإن كانت الدلالة لا تقتضي لذاتها نيل البغية ولا الوصول إلى الغاية المنشودة لأن الله جل جلاله جعل الدلالة حجة لمن سبقت لهم منه سبحانه الحسنى . وجعلها حجة على من سبقت لهم السوءى فصدهم الشيطان عن السبيل . فالكتاب الكريم دال مبين موصل للبغية في الحقيقة ونفس الأمر . ولكن من أعمى الله بصائرهم وجعل في آذاهم وقرًا وعلى أبصارهم غشاوة يكون علـــيهم عمى . وتلك الحقيقة تظهر آثارها في أهل النفوس الخبيثة، الضالين المضـــلين الـــذين حرموا العقل الذي يعقل عن الله فاشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة . وقفـــوا عند العقول المكتسبة التي تفوّق عليهم فيها صناع أوربا وأمريكا فحكموا بهـــا علـــى الغيب المصون، كما حكم الصناع على المادة من أجسام المعادن . وهؤلاء شر علـــى المسلمين من الشيطان الرجيم وأضر من الوحوش الكاسرة ولا يخلو عصر من شياطين الإنس الذين يبدلون نعمة الله كفرًا وهم الأخسرون أعمالا في الدنيا، عمـــار الـــدرك الأسفل من النار في الآخرة لأنهم يدعون الإسلام وهم أعداؤه الألداء . حفظنا الله من شرورهم . ومثالهم في هذا الكون المحسوس كالخفافيش التي تنكر ضوء الشمس لضعف أبصارها . والشمس علية جلية : إذن فالقرآن هدى حقيقة للمتقين وهو حجة علـــى من لم يسعدوا بتوفيق الله إياهم . والتقوى خوف يهجم على القلب يجعلـــه يراعـــي

الأدب خشية الوقوع في الغضب . والتقوى لغة هي الوقاية من الوقوع فيما يضر دنيا أو دينًا . وهي ، أربعة أنواع : تقوى النار، وتقوى اليوم، وتقوى الرب، وتقوى الله تعالى . قال سبحانه : ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ﴾ وقال جل جلاله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ وقال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ﴾ وهناك تقوى أخرى وهي ، السياسة الحكيمة التي يراعيها أهل الرحمة في أخلاقهم ومعاملتهم لدوام الصفاء ومداراة للناس – أما السياسة التي هي الخديعة والكيد فهي من أخلاق الشياطين، وكم دمرت مدنًا. وأبادت أممًا .حفظنا الله من شرور أهلها، وتقوى كل مسلم بحسب مقامه فهي عند العصاة التوبة النصوح . وعند العلماء : الخشية من الله تعالى . وعند أهل مقام الإحسان : مراقبة جلال الله تعالى وعظمته سبحانه حتى يكون المتحقق بمقام الإحسان كأنه في معية الله تعالى يراه حقيقة أو يعتقد أن الله يراه، ومسلم يعتقد أن الله معه بعلمه وسمعه وبصره كيف يغفل عن ذكره أو يتعدى حدوده . وهنا يحسن .

أن نبين تقوى أهل مقام الإيمان في معنى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) وهي ، أن توحد الله فلا تجحده، وأن تشكره فلا تكفره، وأن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وهي ، التقوى التي منحها الله رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام وورثتهم وهي ، عندهم أيضًا انكسار القلب بين يدى مقلب القلوب والأبصار . ودليل ذلك قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) فلكل مسلم مقام في التقوى . والقرآن هدى حقيقة وفيه هدى ولكن للمتقين وعلى غيرهم عمى – وصرف أهل الضلال عنه أو معارضة أهل النفوس الخبيثة له لا يمنع من أنه هدى بل تقوم الحجة على أن هؤلاء القوم أضل من الأنعام . قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ سمعت الأرواح عن الله تعالى قوله (فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فاشتاقت إلى أن يبين الله تعالى لها خصال المتقين من

عقيدة وأعمال وأحوال ومعاملات وأخلاق والله أعلم بمراد عباده وبما به نيل كمالهم فبين الله لنا ما اشتاقت إليه أرواحنا، وعلى هذا يكون **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)** صفة للمتقين والإيمان هو تصديق المتكلم فيما يخبر عنه . تصديقًا يقتضي لذاته المسارعة إلى عمل ما يأمر به من الخير ويحث على التباعد عما ينهى عنه من أنواع الشرور وفوق الإيمان علم، وفوق العلم ذوق وفوق الذوق شهود، به طمأنينة القلب، قال سبحانه لخليله ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِن** ﴾ وقوة الإيمان تكون بحسب قوة الذي يبين لنا هذا الغيب بالعبارة فالإيمان بأخبار الرسل أقوى مراتب الإيمان لأهم أقاموا الحجة بالمعجزة على أهم رسل الله إلينا . وليس كل إنسان يحتاج إلى المعجزة لأن الله سبحانه وتعالى خلق نفوس أهل الإيمان من نور ملكوته وهم أهل التسليم للحكمة متى سمعوها . وأكثر من سارعوا إلى الإسلام هم خيرتهم، والذين يحتاجون إلى المعجزة إذا ظهرت لهم سلموا وأسلموا – أما النفوس التي خلقت من أردأ جواهر النفوس، فإنهم لا يسمعون إلا بالقوة القاهرة وهم المنافقون ولا يخلو منهم زمان . فإن أنواع النفوس التي خلقها الله تعالى لا تختلف حقائقها في كل زمان : فمثل النفوس العنادية، والنفوس النزاعة إلى الجحود، والنفوس الإنكارية، والنفوس السبعية، والنفوس الإبليسية . لا يخلو منها زمان . وهم أعداء الحق وعباد الحظ والهوى كما أن النفوس التي صيغت من أصفى الجواهر النورانية نزاعة إلى الخير والحكمة، لأن الله تعالى وهب لها القابل لهذا الفيض المقدس .

هذه الآية الشريفة من جلائل آيات الثناء والمدح لأهل الإيمان، وكم من آية مدح الله بها المؤمنين مدحًا وقف العقل عن إدراك حكمة هذا المدح والثناء . كما أنه سبحانه وتعالى أكثر في الكتاب العزيز من ذم الكافرين والتشنيع عليهم، وقد التبس على كثير من أهل العلم هذا الموضوع حتى وقعوا فيما حظر الله عليهم فصار بعضهم يكفر بعضًا لجهلهم بحقيقة العلم والإيمان، وما كان لمسلم أن يكفر مسلمًا إلا إذا خرج مما دخل به وهو الإقرار بالشهادتين واعتقاد وجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج . ومتى كان المسلم مجملا بهذه الحقائق فهو مؤمن لا يكفر بخطيئة يعملها، ولا بترك سنة

سهوًا أو نسيانًا أو غفلة ولا بفهم حكم من أحكام الشريعة يخالف فيه غيره من نظرائه ما لم يجحد معلومًا من الدين بالضرورة . وهنا أعرف العلم والإيمان ليتميز المؤمن والعالم وليرتدع الذين يحكمون على أهل الإيمان بالكفر فإن ذلك حكم بكفر من كفر من ليس بكافر عند الله تعالى وعند رسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وعند العلماء الراسخين في العلم ونحن لا نزال نرى في بعض كتب العلم الحكم بكفر بعض طوائف من المؤمنين، لمخالفتهم في رأي أوفهم أو عقيدة .

العلم : المعلوم لا يكون علمًا للنفس إلا إذا تصورت رسومه – إذا تقرر هذا فالعلم تصور النفس رسوم المعلوم في ذاتها، وشتان بين هذا وبين الإيمان الذي هو تصديق المخبر في خبره من غير أن تتصور النفس رسوم المعلوم في ذاتها . وبين العلم والإيمان فرق عظيم جدًا عند العلماء الربانيين .

والإيمان كما تقدم هو تصديق المخبر فيما أخبر به . فإذا ارتاض ونظر بعين المتدبر المفكر اشتاق إلى العلم فحصل العلم النافع الذي يكسب القلوب خشية من الله تعالى لأنه يتمثل صورة المعلوم على جوهر نفسه فيكون كأنه يرى المعلوم رؤية تأثير على النفس والجسم والحس تحفظ الجوارح من تعدي حدود الله وتحفظ الجسم من الوقوع فيما حرم الله وتحفظ العقل من التخبط في بيداء الحظ والهوى، ولابد من الإيمان قبل العلم وإلا عاش الإنسان جاهلا لأن أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى بما يجب على الناس أن يصدقوا به من معاني الكمالات الإلهية، وتتريه ذاته عز وجل وما وصف به نفسه سبحانه وتعالى لا تدركه الأرواح فضلا عن العقول لأن النفوس لا يمكنها أن تتصور رسومه أو تبين معانيه قبل التصديق الذي هو الإيمان والإقرار الذي هو حجة على التصديق بل وقبل مجاهدة النفس لتزكيتها وتطيرها من كثافة الجهل وظلمات العقائد الباطلة والآراء الفاسدة والحظوظ والأهواء .

الإيمان هو الإقرار والتصديق بدون تصور رسوم المعلوم في ذات النفس، وبذلك يظهر الفرق بين العلم والإيمان، ولذلك دعا الأنبياء أممهم إلى الإقرار والتصديق أولا ثم حثوهم على طلب المعارف الحقيقية بدليل قوله عز وجل :﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ ولم يقل سبحانه يؤمنون بالشهود ثم حثهم على طلب العلم بقوله تعالى : ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ – ثم مدح فقال : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾وقال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ**﴾ وكفى بهذا فرقًا بين العلم والإيمان .

وأول الإيمان هو تصديق الأنبياء للملائكة فيما يخبر ونهم عنه مما هو فوق إدراك النفوس البشرية قبل أن تخبر الملائكة الأنبياء . فالتصديق بأخبار الملائكة من الرسل عليهم الصلاة والسلام أول الإيمان وإذن فالتصديق سابق على الخبر كما قال تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ واعلم أن الملائكة محتاجون إلى الإيمان فهم متفاوتون في درجات العلوم كما أخبر الله عنهم فقال : ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ** ﴾ لأن أشرف الملائكة حملة العرش الذين هم في أعلى المقامات في العلوم وهم أيضًا محتاجون إلى الإيمان كما أخبر عنهم سبحانه بقوله جل ثناؤه﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ وأنت أيها الراغب في السعادة محتاج إلى الإيمان بقول المخبر لك الذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف إن لم تؤمن بما يخبرك به حرمت أشرف العلوم وأجل المعارف.

واعلم أنه ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك في أول الأمر إلا حسن الظن بصدقه على ممر الأزمان لتظهر لك حقيقة ذلك فلا تطالبه بالبرهان في أوله، ولكن سلم له وذق من لطيف عبارته وجميل إشارته وعليِّ أحواله وشريف أعماله، ما به تتروح روحك وتزكو نفسك وينكشف لبصيرتك صدق ما يقول وحقيقة ما يفعل .

ظهر لك يأخي سر قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ وإنما اختلف أهل التأويل بسبب العلماء الذين لم يحصلوا العلم النافع الذي يجعل النفس تتصور رسوم المعلوم فيكسبها الخشية من الله تعالى، فحكموا على المقلد بالكفر ثم اختلفوا فقام بعضهم يكفر بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا وصار، تكفير المسلم عندهم كتحية بعضهم بعضًا فإنا نسمع عن بعض العلماء أنه يحكم بالكفر على من خالف سنة وذلك كله من الجهل بحقيقة الإسلام مع أن الله تعالى أثنى على الذين يؤمنون بالغيب ورفع درجاهم عنده .

والإيمان الذي هو التصديق، يورث العلم ولا علم بغيره لأنه متقدم الوجود على العلم إذ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم طالبوا الأمم بالإقرار بما أخبروهم به وبالتصديق بما هو غائب عن إدراك حواسهم وتصور أوهامهم فإذا أقروا بألسنتهم سموهم عند ذلك بالمؤمنين ،ثم طالبوهم بتصديق القلب كما قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ فإذا وقع التصديق بالقلب سموهم الصديقين كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ .

وأنواع الناس في العلم والإيمان ثلاثة : نوع رزق العلم ولم يرزق الإيمان وهم المسارعون لتحصيل حطام الدنيا من يد أهلها بما أوتوا من علم الأحكام والاختلافات وعلم اللسان، وقد حذرنا رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ منهم . ونوع رزق الإيمان ولم يرزق العلم وهؤلاء إذا ماتوا على الاستقامة كانوا ممن مدحهم الله تعالى . ونوع رزق الإيمان والعلم، وهم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ**﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ وقوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ ونيل الخير كله متوقف على الإيمان أولا، ثم على السعي لتحصيل العلم النافع بالبصيرة النافذة والفكر الثاقب .

قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ الصلاة لغة : الدعاء . واصطلاحًا : هـي أقوال باللسان وأعمال بالجوارح والله سبحانه وتعالى أمرنا بإقامة الصلاة وأثنى سبحانه وتعالى على الذين يقيمون الصلاة وشنع على الساهين عنها بقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ والصلاة عماد الدين، وشكر بجميع الجوارح لرب العالمين ومناجاته تعالى بكلامه العزيز بها يتجمل العبد بأجمل حلله التي بها يجمله ربه ويحبه ويقبل عليه .. وإقامة الصلاة هي خشوع القلب فيها خشوعًا تخشع به الجوارح لمواجهة القلب لمقلبه في الصلاة . وفى الحديث القدسي بسند الإمام أبي طالب المكي . قال الله تعالى في الكتب السالفة : (لَيْسَ كُلُّ مُصَلٍّ أَتَقَبَّلُ صَلاَتَهُ إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ صَلاَةَ مَنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي وَلَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَيَّ وَأَطْعَمَ ٱلْفَقِيرَ ٱلْجائعَ لِوَجْهِي) وقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (مَنْ صَلّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ مِنَ لدُّنْيا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) وقد جمع الله لنا في الصلاة عبادة جميع الأنواع من عمار سمواته إلى رتبة الجماد، فقيامنا فيها كقيام الحافين حول العرش، المسبحين المهللين المكبرين، وركوعنا تترل إلى مرتبة الحيوانات إظهارًا لكمال الذل لله تعالى في حال القيام له بما فرض علينا. والسجود تترل إلى رتبة النباتات لنلصق وجوهنا بالتراب ذكرى لنشأتنا الأولى التي هي من التراب، وشهودًا لما جملنا الله به من الحياة والحس والحركة والعقل والروح، فنذكر ونشكر . والجلوس للتشهد كالجبال تترل إلى رتبة الجماد لنشهد ما يتفضل الله به علينا بتسخير جميع مخلوقاته لنا . وحركة الرأس إلى اليمين والشمال تمثل حركة الكواكب السيارة الدائرة حول محورها خشوعًا لعظمة العظيم الأكبر جل جلاله وهو الشكر الذي يطيقه العبد المؤمن، فتارك الصلاة في مترلة أهل الجحود لأنه ترك الشكر لله على ما لا يحصى من النعم .

ومن إقامة الصلاة رعاية أن المصلي واقف بين يدي الله يراه الله عاملا بمحابه ومراضيه وهو قد تبلغ به الجذبة التي يتمثل بها أنه يرى ربه كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ :

(الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، وهذه هي الإقامة وفيها مشهد أعلى من هذا وهو أن يشهد المصلي أنه عبد أقامه القيوم الموفق في مقام مواجهته على بساط الأنس، يتملق أمام ربه متذللا خاشعًا آنسًا بما يجلى له من سطوع أنوار معاني ما يتلوه وظهور أسرار حكمة ما يعمل . فيكون في موقفه عبدًا بين يدي الله يعمل عملا يحبه الله وهو المراد بقوله ﴿ﷺ وآله﴾: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ) أما ما يتعلق بالصلاة من وسائلها وأركانها وآدابها، فقد فصلته في (كتاب أصول الوصول) فليراجعه من أراد القيام بتحصيل الواجب عليه .

قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزق هو كل ما يباح للإنسان أن يتصرف فيه للانتفاع به شرعًا، ومالا يباح له أن يتصرف فيه شرعًا من المغصوب أو المسروق أو ما يؤخذ من الناس بالخديعة ليس رزقًا شرعيًا يقبل الله قربة من تقرب به في وجوه البر، وإن كان في الحقيقة رزقًا للعبد المتصرف وعلى هذا نجمع بين قول المعتزلة وغيرهم في أن الحرام ليس رزقًا يعني ليس بالرزق الذي يؤجر عليه منفقه في وجوه البر، وإن كان رزقًا للعبد يأثم على نسبته إلى نفسه وتصريفه فيه .

والحقيقة أنه لا خلاف بين العلماء لأن الخلاف لفظي فالمعتزلة صدقوا و الأشعرية صدقوا . وهذا حجة على قولنا أن الرزق شرعًا هو ما كان من حلال طيب لأن الله تعالى لا يمدح منفقًا من حرام . وذكر الرزق هنا لا لأنه لا رزق إلا ما كان حلالا طيبًا ولكنه ذكر أشرف الرزق وأعلاه في مقام التقرب إلى الله تعالى لإنفاقه، وأما ما يتصرف فيه الإنسان من غير الحلال الطيب فهو رزق إلا أنه حرام لا يقبله الله تعالى، والإنفاق هو خروج الشيء من اليد لانتفاع الغير به كما يقال – نفقت السوق أي باع التجار ما بأيديهم من السلع وأنفق فلان أي أخرج ما في يديه لغيره والإنفاق عام لا يراد به الخاص، فالنفقة قد تكون فرضًا كالزكاة والقيام بواجب الزوجة والأولاد والوالدين وفروعهما مما تقضي الشريعة على المنفق بذل ما في الوسع لهم،

وقد تكون ندبًا كإكرام الضيف والجار والسائل ومن في مترلتهم، وقد تكون فضلا كالمواساة ومساعدة المنكوبين والمداراة عن العرض، وقد تكون النفقة حرامًا كالتقرب بالمال وعمل الولائم والهدايا للظلمة أو لوسائلهم ليستعين هم على نيل جاه أو منصب أو مال من الغير أو للانتقام من عدو أو للظهور بين الناس بالباطل كما قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ وهذه الآية الشريفة جمعت أنواع القربات فأولها الإيمان بالغيب . وهو عمل القلوب خاصة . وثانيها إقامة الصلاة وهو عمل الجوارح الناتج عن تعظيم الله تعالى بالقلب، وحب القيام بين يديه بما يحبه ويرضاه شكرًا له على عميم النعم التي لا تحصى .

والإنفاق هو العمل المالي الذي تقوم به الحجة على أن المؤمن آثر ما عند الله تعالى على ما عند نفسه مما به تطيب حياته في الدنيا، وهو الحجة على كمال إيمانه بالغيب، لأن يوم القيامة من الغيب . وبذل المال لنيل السعادة فيه كمال التصديق بها،وعندى أن قوله تعالى ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون**﴾ يدل بصراحة على أن المؤمن واجب عليه أن ينفق من كل نوع من الأنواع التي تفضل الله تعالى بها عليه من العافية والعلم والجاه والمنصب والحكمة والصناعات والفنون، فإن كل ذلك رزق من رزق الله تعالى للعبد، ومن حصرها في المال لاحظ أن كل ما ينفق خرج من ملك المنفق . والعلم ينمو بالنفقة فتسمية ماعدا المال بالنفقة تسامح . وردا على هذا نقول إن الله وعد المنفق من الحلال الطيب في الوجوه الشرعية بعشر أمثال ما ينفق و بسبعمائة وبأضعاف ذلك والله ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ٤

وهذه الآية الشريفة من ذكر الخاص بعد العام . فإن قوله تعالى﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ عام يدخل فيه كل مؤمن . وقوله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنــزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ خاص وفيه النص على من لم يؤمن بما أنزل على محمــد ﴿ﷺ **وآله**﴾ من أهل الكتابين أنه ليس على هدى ولا هو من المفلحين فكل مــن لم يصدق بما أنزل على رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ليس بمؤمن . لا فرق في ذلك بين أهــل الكتابين وغيرهم، والإنزال هو وصول الشيء من الأعلى، والكتاب العزيز أنزلــه الله تعالى على رسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾ من حضرة العزة والذي نزل به جبريل، ولا مانع مــن أن يكون الله تعالى خلق ما أنزله كتابة في اللوح المحفوظ أو خلق عبارات الكتاب بقوة الإلهام في جبريل، وأن السفرة استنسخوه من اللوح المحفوظ وأنزله الله تعالى إلى سمــاء الدنيا في ليلة القدر. كل ذلك جائز . وجائزغير ذلك .

واليقين هو محو الشك والريب بما ينتج الإيقان بالآخرة والإقرار بأن القيامة لا محالة كائنة، هي النشأة الآخرة، وأن الخلق كلهم يبعثون ويحشرون ويحاسبون بما عملوا من خير ومعروف ويجازون بما عملوا من شر ومنكر أو يغفر الله لهم وهــو الغفــور الرحيم .

ذكر هنا الإيقان بالآخرة لأنه الحجة التي تقوم على أن العبد الموفق سبقت لــه الحسنى من الله تعالى وكيف لا والإيقان بالآخرة يمثلها للعبد بما فيها من نعيم مقــيم للروح وللعقل والجسم والحس، ومن عذاب أليم حتى كأنه يراها فينجذب بكليته إلى نعيمها ويفر من عذابها . وإنما ينال نعيمها بالتمسك بالكتاب والسنة ويقع العبــد في عذابها بترك العمل بشرائع الإسلام . ولا تكاد ترى ناسيًا للآخرة إلا وهو يعمل مــا يغضب الله ورسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ويغضب الخلق . قال تعالى ﴿ **الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَــا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ وقال سبحانه ﴿ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ وما آمن مــن

صدق بيوم الحساب ووقع في معاصي الله فإن التصديق الكامل يجعل المصدق لا ينسى يوم القيامة .

ولما أن بين الله لنا صفات أهل التقوى الذين ذكرهم في قوله تعالى ﴿ **هُـدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ بين سبحانه ما تفضل به عليهم بقوله: **أُوْلَئِكَ عَلَى هُـدًى مِّـن رَّبِّهِـمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥﴾** وتأويل ذلك أن الله سبحانه وتعالى منحهم من العناية والتوفيق ما جعلهم يستعلون على الهدى ويتمكنون منه تمكين اليقين الحق . وفى قوله تعالى﴿ **مِن رَّبِّهِمْ** ﴾ إشارة إلى أن الله أشهدهم من مقامات التوحيد العلية ما جعلهم يرون توحيد الفاعل المختار وتفريده سبحانه بالإيجاد والإمداد، وللروح أن تحتسى من تلك الآية شراب تلقيها من ربها بالإلهام تستبين به لها وجوه الحق والصواب في كل أمر كما قال سبحانه وتعالى ﴿**إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**﴾ وقوله تعالى﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾ وفى الآية من الأسرار العلية ما لا يمكن أن يباح بـه إلا لأهل الخصوصية ممن جملهم الله تعالى بصفات أهل المعية المحمدية بصريح قوله **تعـالى** ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ الآية.

قوله تعالى : ﴿ **وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ هذه الآية تدل علـى اختصاصـهم بالإفلاح دون غيرهم، فإنه سبحانه لو قال أولئك المفلحون لما دلت على اختصاصهم فإن لفظة هم عينت الاختصاص، والمفلح هو الفائز بكل قصوده فكل من وفقـه الله تعالى فجمله بما ذكره سبحانه من الصفات في تلك الآيات فهو مفلـح . أي فـائز بقصده . والمقاصد تتفاوت فمن طلب الله فاز بقصده، ومن طلب الرضوان الأكبر أو مقعد صدق أو الفردوس الأعلى أو غيرها نال مقصده .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴿٧﴾

افتتح الآية بحرف التوكيد راحة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مما كان فيه من الحزن الشديد على حرمان قادة قريش وأحبار اليهود من الإسلام مع شدهم عليه ﴿ﷺ وآله﴾، فلما أكد الله تعالى خبره عنهم بأنه استوى عندهم الإنذار وغيره علم ﴿ﷺ وآله﴾ أن إسلامهم مستحيل . ولما كانت حقيقة الكفر لم تظهر لكثير من الناس أردنا أن نبينها لأنا نراهم يحكم بعضهم على بعض بالكفر فيما ليس بكفر، ويلعن بعضهم بعضًا، وقد يكون الحاكم على غيره بالكفر مرتكبًا ما به يكفر عند الله باتخاذه أعداء الله أولياء من دون المؤمنين والله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾والكفر في اللغة : هو الجحود والستر، وشرعًا هو عدم تصديق الرسول في شيء مما علم بالضرورة مجيئه به . وما جاءنا به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إما أن يكون قد علم من الدين بالضرورة أو بالدليل أو بخبر الواحد فإنكار ما علم من الدين بالضرورة كفر صريح كما قررنا وأمثلة الجحود إنكار توحيد الله تعالى أو البقاء له سبحانه أو إنكار وجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج والبعث وحرمة الربا والخمر وكفر منكرها، لأنه ترك تصديق الرسول فيما علم من الدين بالضرورة – وأما غير هذا فلا يحصل به كفر كالاختلاف فيما ثبت بالدليل أنه من الإسلام وذلك كالخلاف في إثبات رؤية الله وعدم رؤيته يوم القيامة، أو الخلاف في أنه عالم بذاته أو بعلم زائد أو أنه خالق أعمال العباد أم لا . كل ذلك لا يوجب الكفر، وكذلك أقوال أهل الخشية من الله تعالى في تأويل ما لم يعلم من الدين بالضرورة ليس بكفر كتأويل الخلف من علماء الأمة (اليد بالقدرة) والقول في إثبات الرؤية أو عدمها وفى خلق أفعال العباد مما لم يثبت بالدليل لأن علم تلك الحقائق ليس من الإيمان إنما هو فوق الإيمان وفوق

الإيمان علم فذوق وكشف . والإيمان إنما هو التصديق بالغيب فقط، فإذا كمل الإيمان وجب على المؤمن أن يحصل العلم الذي به تنكشف له تلك الحقائق كما قال تعالى ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ وقال تعالى ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ – أما ما لا سبيل إلى تحصيله إلا بطريق الآحاد فإن لم يصح لديه خبر الواحد فليس بكافر شرعًا . إذن فكل من يرمى المسلم بالكفر من غير أن يكون جحد ما علم من الدين بالضرورة فقد استظهر على الله تعالى لأنه حكم على المؤمن عند الله تعالى بأنه كافر، والله تعالى يقول : ﴿ **أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ – وقد حكم الله بالإيمان لمن ضرب بعضهم رءوس بعض . قال تعالى ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ الآية : فليتق الله أهل الجهالة بحقيقة الإسلام وليتأدبوا بآداب الله تعالى لنا في قوله سبحانه ﴿ **لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾ .

قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**﴾ .

الآية خبر من الله تعالى عن قوم مخصوصين دعاهم رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ إلى الإسلام فعاندوا وحاربوا، والظاهر أنهم قادة قريش وأحبار اليهود . أما قادة قريش فلأنهم قتل منهم في بدر . وأما أحبار اليهود فلأن الآية السابقة كانت خبرًا من الله تعالى عمن آمن منهم وهو قوله تعالى : (**والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**) فناسب أن تكون الآية من عاند وجحد منهم لأن كثيرًا من الكفار أسلموا وحسن إسلامهم فلا يجوز أن تكون تلك الآية عامة لكل كافر لما بينا – و (أنذرهم) خوفتهم وحذرتهم – والإنذار التبليغ مع التخويف و(لا يؤمنون) لا يصدقون .

أما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ** ﴾ .

فبيان ذلك أن القلوب والأسماع أوعية وظروف لحقائق الغيب توضع فيها كالأوعية والظروف التي يستعملها الناس لحفظ ذخائرهم فإذا ختموا عليها استحال دخول شيء فيها أونيل شيء منها إلا بفك الختم فكذلك إذا ختم الله على القلوب والأسماع استحال أن تقبل نور الإسلام والإيمان ما دام هذا الختم . والختم والطابع سواء، والختم على القلوب والأسماع أي قفلها عن أن يصل إليها نور الإيمان والتسليم.

ولما كان ما في القلوب غيبًا مستورًا عن الأبصار والعقول كان الإعراض عن الإيمان وجحود ما علم من الدين بالضرورة دليلا قاطعًا على أن الجاحد ختم الله على سمعه وقلبه، وأعراض مرض الكفر هي الكفر والإعراض عن الحق واحتقار أهله والمسارعة في أعداء الحق وتقليدهم وسوء الأدب مع الحق سبحانه حفظنا الله من السلب بعد العطاء، وما يقوله بعضهم من أن الكفر والإنكار والجحود هو الختم ففيه تجوز وتسامح . فإن الختم سبب لعمل كل منكر والخلاف بين المفسرين لفظي، والحقيقة أن الله تعالى ختم على قلوب وأسماع من سبق في علمه أنهم أشقياء . ولا خلاف بين قوله تعالى (**كَفَرُواْ**) في أول الآية، وقوله سبحانه ﴿ **خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾لأن الكفر شر صفات الإنسان والمتصف به يسمى كافرًا ويحكم عليه بأنه كفر، والله جل جلاله حكم علينا بما يليق بنا كما حكم لنا بما نحن أهل له وأخبر عن نفسه بما يناسب جلاله وعظمته فقال ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ لأنهم جحدوا الحق وستروه عن الخلق في هذه الآية وهم أحبار اليهود الذين أخذ الله تعالى عليهم العهد أنهم يؤمنون برسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾ إذا بعثه الله للناس كافة – وقد بشر به الأنبياء عليهم السلام أممهم فجحدوا الحق الذي يعلمونه وستروه عن الخلق، فالجحود وقع منهم بعد العلم فنسب إليهم . والختم نسب إلى الله تعالى لأنه هو الفاعل المختار كما نسب الإمناء لنا والخلق له سبحانه . ونسب لنا الشرب وله عز وجل إنزال الماء فقال تعالى ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾ .

والأقدار إنما تبرزها القدرة على يد مظهر لها، فتنسب إلى المظهر مـــن حيـــث احتياجه وانتفاعه، وينسب إلى الله تعالى ما يليق به من حيث إيجاده والتفضل به . وفي هذه الآية شميم من عبير التوحيد في قوله تعالى ﴿ **خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ** ﴾ . فإن خبر الله تعالى بأنه ختم يحير عقول المتكلمين حيرة تجعلهم يقعون في الاخــتلاف وتأييــد أنفسهم بالأدلة . وتلك الأدلة التي يقيمون الحجة بها لم توضع للغيب الذي هو فـــوق المادة ، بل وفوق العقول والأرواح، لأن تلك الموازين إنما وضعت لاستنتاج نتيجة من مقدماته بحسب تصورها أو تصديقها أنها تؤدي إلى حقيقة معينة كقولك : الإنســـان متغير وكل متغير حادث ينتج أن الإنسان لا بد له من محدث، لأنا رأينا تغير الإنســـان المتغير لم يكن وجوده بنفسه بل بغيره فتنتج النتيجة ولكن العقـــول مهمـــا صـــفت جواهرها بل والأرواح ولو من أعلى عليين لا تعلم ما غاب عنها من كمال وبهاء ونور وجمال وجلال الله تعالى إلا بخبره سبحانه عن نفسه . ولا سبيل إلى نيل السعادة يـــوم القيامة إلا بالتسليم بما جاءنا به رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ مما ليس بمستحيل عند العقل .

وخير الأمة سلفها . ومذهبهم التسليم بعد أن قامت الحجة فأسجدت العقـــل للمعجزة الباهرة التي أجلها وأعظمها القرآن المجيد وهي ، بمترلة قوله : محمد عبـــدي ورسولي إليكم أقمته مقامي في تبليغكم ما يجب عليكم لي وما أحبه منكم من العقيدة الحقة التي أنزلتها في كتابي والعبادة المتعينة عليكم شكرًا لي والمعاملة الحسنة التي بهـــا تسعدون في الدنيا بالرحمة والتعاون والتعاضد والأخلاق الجميلة التي تكونون بها أشبه بعالم الطهر والصفاء عالم عالين، فبين ﴿ﷺ **وآله**﴾ بقوله وعمله وحاله وإقراراتـــه في الشئون التي رآها أو علم بها محاب الله ومراضيه، ولم يبق من حاجـــة إلى الاشـــتغال بالأقيسة التي وضعها اليونان لكشف الحقائق التي لا بد منها للذين يريدون علم خواص المادة التي تحيط بهم . وهذا العلم لا تنكشف به آيات الله في مكوناته فكيف تنكشف به كمالاته تتره تعالى . فالمشغولون بالأدلة المنطقية ليزنوا بها الغيب المصـــون وضـــعوا الشيء في غير محله لأن الأقيسة المنطقية وضعت لحفظ الذهن من الخطأ في الحكـــم في

تدبير الفرد والمجتمعات لا لينفذ بها من أقطار السموات والأرض ليصل إلى الغيب كما يصل راكب القطار إلى مقصده كما وضعت الهندسة للمساحات والحكم بها على ما يلزم الزراعة والتجارة والمدن والرى من آلات وأدوات وأمكنة . وكما وضع الحساب لضبط الأموال والأعيان والمحاصيل وكذلك علم الجبر واللوغاريتم وعلم الهيئة وغيرها فإن كل علم منها وضع للانتفاع به في شأن خاص .

قوله تعالى : ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ . بعد أن بين سبحانه أنه خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ حكم بأن أبصارهم غشاها من الظلمة ما حجبها عن رؤية آياته الدالة على كمال قدرته، وعما أظهره سبحانه من المعجزات على يد حبيبه محمد ﴿ﷺ وآله﴾، مما جذب قلوب من سبقت لهم منه الحسنى . والغشاوة معلومة لغة وهي ، ما يغشى الأبصار فيخفى عنها الحقائق . وهذه جملة خاصة لم تتعلق بقوله (خَتَمَ) وهنا إشارة إلى أن الله تعالى قدر للسعادة العظمى قابلا في العبد وفيضًا مقدسًا منه، فمن لم يتفضل الله عليه بالقابل حرم السعادة ولو كان من قرابة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ومن منح القابل و لم يتيسر له الفيض المقدس على يد مرشد دال حرم السعادة أيضًا، لأنه سبحانه بعث حبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ فانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام – قسم سبقت لهم الحسنى وهم الذين انتفعوا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقد أثنى الله عليهم بقوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقسم حرم الانتفاع وسجل عليه القضاء بالكفر وهم المذكورون وفى هذه الآية ممن قدر عليهم أن يؤذوا الرسل عليهم السلام وهم قوم مخصوصون، لأن من أثنى الله عليهم كانوا كفارًا قبل بعثة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأسلموا وحسن إسلامهم – وقسم ثالث . منحوا الفيض وحرموا القابل فمالت بهم الأهواء وهم المنافقون الذين لم تصف جواهر نفوسهم فتتصور رسوم المعلوم تصورًا يقوى به اليقين، لأن الإيمان لون واحد والكفر لون واحد والنفاق ألوان متعددة، وقد أفرد الله السمع وجمع البصر لأن المراد هنا السمع الذي يسمع به عن الحق سماع قبول – لا الأسماع التي تسمع داعي الشهوة والحظ والعلو في

الأرض والهوى، وجمع الأبصار لأنها لا تشهد ما يدل على الحق صريحا كالسمع فـإن السمع يصغى إلى كلام الله تعالى الدال على كماله وجماله وجلاله وبهائه وضيائه ونوره بل ويصغى إلى الإشارات بخلاف الأبصار فإنها إنما ترى المظاهر فتوصل صـورها إلى الخيال والخيال يمثلها للعقل والعقل يوصلها إلى جوهر النفس فتحكم بحسب صفائها أو شوبها فقد يرى البصر الحقيقة فتصل صورتها إلى النفس فتحكم بشهوة، وقـد تصـل صورة تلك الحقيقة إلى نفس أخرى فتحكم بعطف ورحمة . وتصل إلى نفس أخـرى ببدائع إبداع صنع الله تعالى وعجائب قدرته، ولهذا جمع الأبصار، وأفرد السمع .

قوله تعالى :﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾

العذاب العظيم هو النكال الشديد وهذا خبر من الله تعالى توعد به أهل الكفر وهو أرحم الراحمين فقد يرحم ويغفر، ومن الجهل الاختلاف في تلك المواضيع بعد أن وردت صريحة في القرآن فإن الله تعالى لا يبلغ العقل أسرار أقداره ولا حكمة تقديره . وما اختلف إلا من قاسوا الغائب بالشاهد، وهذا القياس إنما يحسن في قياس الغائـب على الشاهد إذا كان من جنسه أو نوعه، ولكن من الحمق أن نقيس غائبًا بمشـهود، والغائب لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وليس كمثله شيء في كـل شـيء والواجب على أهل العقول أن يقفوا موقف الأدب. فإن سوء الأدب يوقع في الغضب، وكيف يحكم العقل المخلوق المقهور على الرب القاهر الخلاق وهو سبحانه خلق الخلق وقدر آجالهم وأعمالهم وأخبر عنهم بما شاء أن يخبر . فمن دلائل السـعادة وسـابقة الحسنى التسليم لله فما أخبر، وطاعته فيما أمر والمسارعة إليه بما يجب من غير شـك ولا ريب، ولا تحكيم للعقل، فهو يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء لحكمة تخفى عـن الأرواح فضلا عن العقول، ومن وقف به حظه من الشك والريـب فليتـب إلى الله وليعمل بقوله : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ ويترك عقله يسبح في غرائب الحكمة وعجائب القدرة وبدائع الصنعة، حفظنا الله تعالى مما يغضب الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾

ومنحنا التسليم – قال سبحانه : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾ ومما يجب أن نحكِّم الله ورسوله فيه ما شجر بين عقولنا وأنفسنا، وبين الخيال والوهم والحس والجسم، بل وبين كل تلك الحقائق وبين ما جاءنا به رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ .

قوله تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴿٨﴾

بين الله تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة ثم أردفها بمن حكم عليهم بالكفر فظهر من كلامه أن الإيمان لون واحد متى أشرق نوره على القلب تمكن فيه فسارع العبد إلى محاب الله ومراضيه – ومن تحصيل العلم المسارعة إلى القيام بما أمر الله تعالى والتباعد عما نهى عنه . وقد ظهر أن الكفر أعاذنا الله منه لون واحد متى اظلمّ به القلب صار الإنسان شيطانا ماردا معاديا للحق وأهله، جاحدا كل ما يليق بالله تعالى من جمال وجلال وبهاء وضياء ونور وكمال . وقد حكم الله تعالى على أهل الكفر بالله في الآية السابقة بأنهم لا يؤمنون . وبين لنا سبحانه أن من أهل الكفر بالله فئة هم كفار في الحقيقة إلا أنهم أخفوا كفرهم بأنواع من الكيد والخديعة فإذا أمنوا أظهروا الكفر والعناد، وإذا خافوا أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان . وهم شر من الكفار لأنهم حفظنا الله من شرورهم يكيدون للمؤمنين . وإذا علموا منا ما به تمكين الكفار سارعوا فيهم وأعانوهم . فكل ما أصاب المسلمين من استعباد الأعداء لهم واستبدادهم فيهم هو من هؤلاء المنافقين قاتلهم الله، ولا تزال تلك الكوارث تصيب أهل الإسلام بسبب هؤلاء المنافقين حتى زماننا هذا ، فإن دول الاستعمار لم تتمكن من الشرق إلا بمساعيهم، و لم تظهر فتنة في دين ولا في عِرض ولا في خُلُقٍ إلا وهم فاتحوا أبوابها . فإن أجلى الله المستعبدين تظاهروا بالولاية الكبرى .

والمنافقون الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ الآية إنما قالوا ما قالوا عند قوة المسلمين بدليل قولهم في الآية بعدها ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أخبروا أهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر كذبًا على المؤمنين، لأن المؤمن بالله واليوم الآخر كملت روحه بالإيمان بـــالله وكمل جسمه وحسه بالإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان بالله لا يناله العبـــد إلا بعـــد صفاء جوهر نفسه من عمى الحظ، وظلمة الهوى . فدعوى الإيمان باللسان من غير أن ينعقد القلب على حقيقة الإيمان كفر في الحقيقة ونفس الأمر عند الله تعـــالى، ولكنـــه خديعة يدفع ها المنافقون عن أنفسهم إباحة الدم والمال فيحفظون هذا الكذب أنفسهم وأموالهم وهذا هو النفاق، وهو لأن يضمر الإنسان الشر في نفسه ويظهر ما يدفع بـــه الشر عن نفسه، والنفاق مأخوذ من النفق وهو ما يعمله النـــاس في بيـــوقم لإخفـــاء النفائس . وما يصنعه اليربوع في جحره، وهو نفق له بابان إذا جاءه الصياد من بـــاب خرج من الآخر . ومن هذا سمي عمل أهل الكفر المتظاهرين بالإيمان نفاقًا .

والإيمان باليوم الآخر يجعل المؤمن يستحضر هجة النفس ونعيم الجسم وشـــقاء الروح وعذاب الجسم يوم القيامة فيسارع إلى ما ينال به هذا النعيم المقيم ويدفع به عن نفسه العذاب الأليم : ومن أنكر يوم القيامة وقع في هاوية الإباحة والرضـــا بالحيـــاة الدنيا. فقولهم ﴿ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ من إتقان الكيد والخديعة .

وقد كذهم القرآن المجيد بقوله ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فنفى عنهم الإيمان . فإن الآية اسمية تفيد تأكيد الخبر عنهم بخلاف ما لو قال سبحانه : ما آمنوا . وكأن سائلا سأل عن حقيقة قولهم :﴿ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وعن سر نفي الإيمـــان عنـــهم فأجاب سبحانه بقوله ﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والخداع أن يظهر الإنسان غير ما يبطن كيدًا وسوء قصد، وهذا لا يتحقق منهم في جانب الله تعالى، لأنه سبحانه علام الغيوب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فكيـــف يخـــادعون الله إذا

كانوا يهودا يعلمون صفاته في التوراة – أما إن كانوا من أهل الجاهلية كعبد الله بـــن أبي بن سلول ونظرائه ممن يجهلون الألوهية لأنهم لم يؤمنوا بقلوبهم وإن أظهروا الإيمان نفاقًا . فجائز أن يكون الإيمان اعتقادًا منهم أنهم يخادعون من أنزل القرآن على رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ولكن اليهود كانوا يعاندون حسدًا منهم وبغضًا أن تنتقل النبـــوة إلى العرب أبناء إسماعيل . نعوذ بالله من العناد في الحق، وكم من حسود يكره نعمـــة الله على عباده ويتمنى أن يدخل النار ولا يرى لعدو له نعمة علم أو هداية . أو ولاية . أو شهرة أو وظيفة .. وكم أحرق الحسد قلوب من يعلمون الحق فـــدعاهم الحســـد إلى إنكار الحق ونصرة الباطل حسدًا ..

وأصول الكبائر ثلاثة : وهي ، الحسد : وهو شرها لأنه خطيئة إبليس، والطمع : وهو معصية آدم . والحرص : وهو سيئة قابيل . ومن تلك الكبائر تفرعـــت كـــل المعاصي .. حسد إبليس آدم وخالف أمر الله فلعن وطرد. وطمع آدم في البقاء في الجنة فعصى ربه وأكل من الشجرة فأخرجه وزوجته من الجنة . وحرص قابيل على أختـــه التي هي حق هابيل فقتل أخاه وكان ما كان . والحسد غريزة من غرائـــز الـــنفس لا تفارقها، وقد أباحت الشريعة للمسلم الحسد في اثنين وهما حسد العالم الذي يعمـــل بعلمه ويعلمه الناس، فالذى يحسده بمعنى أنه يتمنى أن يكون عالمًا مثله يثاب مـــن الله على حسده . وحسد الغني الذي ينفق ماله في طاعة الله يحسده بمعنى أن يكون غنيًـــا مثله ويعمل عمله يكتب له حسده في حسناته، وهذا هو حسد أهل الإيمان ويســـمى الغبطة، وقد أباحته الشريعة لأنه من فطر النفوس – أما الحسد الإبليسي وهو تمني زوال نعمة الغير فهو شر الذنوب .

وفى النبوات السابقة : سئل إبليس عن تجارته فقال : الحسد وأبيعه للعلمـــاء . والظلم . وأبيعه للقضاة . والكيد : وأبيعه للنساء . والخيانة : وأبيعها للتجار . وبئست التجارة أعاذنا الله منها . وجائز أن يخادع المنافقون رسول الله المؤمنين فنسب ذلـــك

منهم إليه سبحانه بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴾وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ فنسب المخادعة منهم له تعالى ليكون عذابهم عظيما بقدر من يخادعونه بحسب اعتقادهم، والحقيقة أهم لم يخادعوا لأن المخادع ينفع نفسه بخداعه ويضر غيره ،والمنافقون إنما أضروا أنفسهم ونفعوا غيرهم من المؤمنين . وإن كانوا انتفعوا بحفظ دمائهم وأموالهم ولكن الله كشف الستر عنهم وأظهرهم لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولأصحابه، فأحاط بهم الخزي والمهانة وماتوا بغيظهم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم﴾ وفى قوله : ﴿ يُخَادِعُونَ﴾إشارة إلى المفاعلة التي لا يتحقق وقوع الخديعة فيها إلا بدليل كما تقول : سابق الرجل الولد . فإذا قلت فسبقه تحقق السبق للرجل، وإن لم تقل لم يتحقق ولكن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم ﴾ تحقق وقوع الخديعة بهم، وما ترك من الشر شيئا من أوقعه الحسد في الخديعة فكفر بالله، وكانت مخادعته سبب خلوده في نار جهنم .

قوله تعالى : وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

الشعور إدراك الأشياء بالمشاعر وهي ، الجوارح – نفى الله عنهم علم ما يصيبهم من العذاب بسبب مخادعتهم، لأهم جهلوا أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فأظهروا الإيمان بألسنتهم فرحين بما نالوه من مساعدة المؤمنين ومن حفظ دمائهم وأموالهم ونيل قسط من الغنائم، وجهلوا أن الله تعالى حكم لهم بمساواقم بالمؤمنين في كل شيء، وأخفى علينا ما تكنه قلوبهم من الكفر والعناد لحكم كثيرة : منها سعة رحمة الله تعالى بالصبر عليهم وستر أحوالهم رعاية لمصلحة العباد . وقد خلق الله منهم رجالا أخلصوا لله العمل ورجع منهم كثيرا للحق بعد أن تبين لهم ضلال زعمائهم الذين هم شياطين الإنس مثل عبد الله بن أبي بن سلول وأبيرق وغيرهما .

وهذا الفهم مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ يعني لو تميز المؤمنون من الكفار في مكة لعجل الله بفتح مكة وعذب أهلها، ولكنه رحم ضـعفاء المؤمنين في مكة لأنهم لم يتميزوا من المشركين في غزوة الحديبية، فكـذلك صـبرُ الله عليهم وسِعةُ رحمته لمصلحة يعلمها الله جل جلاله تظهر لنا بعد تنفيذ قدره، وقد أسلم من اليهود رجال كعبد الله بن سلام وغيره، وكم من رجال كمل إيمانهم من المنافقين . والله سبحانه له في كل حدث من الأحداث حكمة .

قوله تعالى: **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضًا وَلَهُم عَذَابٌ أَلِـيمٌ بِمَـا كَـانُوا يَكْذِبُونَ﴿١٠﴾**

المرض هو الآفة التي تحل بالعضو لضعفه أو لفساد مزاج من الأمزجة . والطبيب النطاسي هو من يعالج الأمزجة لا من يعالج مركز المرض . وتلك المعالجة هي ما كان عليها أطباء المسلمين .. وقد رجع إليها الطب الحديث – وإن أطبـاء هـذا العصـر يجهلون كثيرا من وظائف الأعضاء . وما علموا منها إلا ما دوّنه أطباء المسـلمين في كتبهم .. وأما ما كان يعلمه كبار الأطباء من المسلمين بطول التجـارب وبتزكيـة النفس بالتقوى وبما أودعه الله في قلوبهم من الرحمة بالخلق فذلك لا يدركـه أطبـاء عصرنا هذا لفقدهم أسباب الوصول إليه، قال سبحانه : ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّـهَ وَيُعَلِّمُكُـمُ اللّهُ**﴾ والمرض لا يرى، ولكن تُرى أعراضه من ألم العضو وصفرة اللون وذبول الجسم أو بواسطة (كشف الأشعة) . وكم من مريض لا يحس بألم ولا بذبول جسم فـلا يشعر بمرضه كالمرضى بالديدان في أمعائهم أو بالحصى في المثانة أو الكليتين أو بالزائدة المعوية (القولنج) بأن تلك الأمراض توجد في الجسم زمنًا طويلا من غير أن يحس بها المريض، فإذا حصل مرض آخر أهاج تلك الأمراض كلها . وقد تقدم أن الألم يسمى مرضًا . وهؤلاء المنافقون في قلوبهم شك وريب جعلهم في أشد الآلام حسدًا وغيظًا . و لم يقل سبحانه وقلوبهم مريضة لأن القلوب المريضة لا يؤاخذ صاحبها كالممرورين .

وكم أفسدوا قواهم العقلية بتناول المسكرات والمخدرات. وهؤلاء يُعَجِّــلُ الله لهــم العذاب في الدنيا لأنهم خالفوا الشريعة وأضروا أنفسهم فيعيشــون في الــدنيا في ذل ومهانة من الجوع والعرى والألم، لأنهم لم يرحموا أنفسهم ويعذبون يوم القيامة علــى ارتكابهم ما أضاعوا به جوهرة العقل الذي يعيشون به في هناءة وعلم وعبادة .

وفى هذه الآية إشارة لطيفة وهي ، أن الصحة الروحانية لا تتحقــق إلا بعلــم التوحيد والعمل بها أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وبذلك يكون كل مخالف للشريعة مريضا بما في قلبه من الريب والشك، أو من العقائد الباطلة والآراء المضلة والمــذاهب الفاسدة، ولو أنه كان متمتعًا بالصحة الروحانية لظهرت أعراضها عليه من الاستقامة والهداية والمسارعة إلى محاب الله ومراضيه سبحانه، وما ظن عقل من يعتقــد عقيــدة باطلة بإنكار أخبار القرآن أو بإهانة أحكام الله تعالى إلا كذبته الحقائق . وكيــف لا والنفوس خمسة أنواع : نباتية ، وحيوانية، وإبليسية، وملكوتية، وقدسية . فكل نفس تسلطت على الإنسان قهرته على القيام بما تقتضيه، فكم من شيطان في صورة إنسان بل ومن سبع كاسر وثعلب ختال . وخنزير نجس . وثعبان لادغ في صورة إنسان . قال تعالى : ﴿**شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾ وقال جل جلاله ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾. وإنما تتميز تلك النفوس بآثارها في الإنسان . قوله تعالى : ﴿ **فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضًا** ﴾ .

أي فزادهم الله بما يظهر من نصرة نبيه ﴿ﷺ **وآله**﴾ وتأييده ورفع شأن أصحابه . ومن التمكين في الأرض بإذلال أعدائنا، ﴿ **مَرَضًا** ﴾ يعني ألمًــا في القلوب فانتقلوا من شك وريب إلى جحود وعناد . ولولا سيف الإسلام المسلول على رءوسهم لكانوا شرا من الكفار المجاهرين .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ .

يعني أن الله سبحانه وتعالى يضاعف لهم العذاب يوم القيامة، وكيف لا وهـــم آلات الكفار التي يستعينون بها على مناوأة المسلمين وعيونهم وآذانهم عند المســـلمين : والسبب الظاهر في تشديد العقوبة عليهم هو أنهم كانوا يكذبون على المؤمنين فيمـــا أقروا به أمامهم ويكذّبون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فيما جاءهم به، وقـــد انطـــوى في باطن قوله تعالى : ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾كل ما كانوا عليه من الكفر بـــالله باطنـــاً ومـــن الاعتراف بالإيمان ظاهرًا للخديعة ومن تربص الدوائر بالمؤمنين . وإن تلك النفوس لا تزال ولن تزال حتى تقوم الساعة . ففي كل عصر مؤمنون كاملو الإيمـــان . وكفـــار مجاهرون ومنافقون، ولكن أهل النفاق شر من الكفار ،لأنهم إذا تمكن العـــدو مـــن المسلمين سبقوه إلى الإنكار على الأحكام الشرعية، وذم العادات الإسلامية الفاضـــلة، وتكذيب أخبار القرآن تأييدًا لما وضعه أعداء الإسلام في كتبهم من الأكاذيـــب الـــتي يراد بها وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين وغيرهم . ولكن مُنزل القرآن الذي قال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يمهلهم لحكمة ومصلحة، ثم ينتقم منهم انتقامًا عاجلا يتمنى المنافق منهم أن يكون ترابًا، حفظنا الله من النفاق ومن نصرة أهل الباطل على الحق ومن المسارعة في أعداء الله وأعدائنا طمعًا في نيل عاجل يفـــنى وشهوة توبق في نار جهنم .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

أخبرنا الله تعالى أن الصحابة الذين علموا ما يقوم به المنافقون من الإفســـاد في الأرض باتحادهم بأهل الكفر بالله من مشركي مكة وغيرهم من اليهـــود في خيـــبر و قريظة و قينقاع قالوا لهم لا تفسدوا في الأرض . والفساد لغة : هو تغير الشيء تغـــيرًا يجعله لا ينتفع به فيصير ضارا . ومعنى الفساد في هذه الآية هو الكفر بالله أو العمـــل بمعاصيه سبحانه وتعالى من مخالفة السنة وعمل البدعة، ومن ظهور الزنا والربا وشرب

الخمر وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام على طلب الدنيا وإفشاء الحسـد في العلمـاء والظلم في الحكام والخيانة في التجار والكيد في النساء، وظهور تلك المعاصي يغضـب الله تعالى فيسلط على من تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قومًـا أولي بـأس شديد فيستعبدوهم بإذلال الأعزاء وإعزاز المنافقين كما قال تعالى ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا۝ فَإِذَا جَـاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِـلاَلَ الـدِّيَارِ** ﴾ أفسدوا فسلط عليهم بختنصر فدمر المدن وأباد أكثر بني إسرائيل، ثم رحمهم الله وأعاد لهم الملك فأفسدوا الثانية فبعث الله عليهم جبابرة الروم وهم ظلمة إيطاليا فمزقهم الله كل ممزق — أعاذنا الله من الإفساد في الأرض .

وقد ظلم المسلمون في عصر العباسيين فسلط الله عليهم هولاكو خان بجـيش التتار فمحا دولة العباسيين وهاهم أفسدوا الآن بترك العلماء الأمر بالمعروف والنـهي عن المنكر، وترك الحكام تنفيذ الأحكام الشرعية وإهمال الأمة ما يجب عليهـا مـن الضرب على أيدي المجاهرين بالمعاصي فسلط الله على الشرق أذل خلقه من سـكان جزر شمال أوربا وجنوبها وجزر المحيط الهادى شرق آسيا، وما كان لأمثال هـؤلاء أن يظهروا على المسلمين الذين كانوا أصحاب الحول والطول والسلطة علـى القـارات والبحار، وإذا ظهر السبب بطل العجب . وسبب ما نحن فيه من الذل لمن كانوا أتباعًا لنا وخدمًا هو العمل بمعاصي الله تعالى جهرًا من غير أن يمنع المجـاهر، والواجـب أن نسارع إلى التوبة وإلى العمل بمحاب الله ومراضيه ليعيد لنا الدولة على أعدائنا، ويمكن لنا ديننا الذي ارتضى لنا .

يقول الصحابة رضوان الله عنهم للمنافقين : لا تفسدوا في الأرض بإظهـاركم الإيمان لنا فنثق بكم ثقتنا بإخواننا الصادقين أنصار الله تعالى وإذا بهم شر من الأعـداء لأن المنافقين بإظهارهم الإيمان يأمن المؤمنون جانبهم ويقيموهم مقام أنفسهم في نصرة

الحق والعمل لإعلائه وهم في الحقيقة أنصار للأعداء يعينونهم علـى الباطـل . وقـد كشفت تلك الآية ما انطوت عليه صدور الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلـوبهم من الكيد لأهل الإيمان والنصرة لأهل الكفر .

وهذه الآية الشريفة من معجزات القرآن الكريم – قال سلمان الفارسي رضي الله عنه في تأويل هذه الآية : لم يجيء هؤلاء بعدُ، وكأنه يريد أنها ليسـت خاصـة بالمنافقين في زمان الصحابة فقط لأن خصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكـم، وهؤلاء الأشرار من المنافقين لم يخل منهم زمان . وهم الآن شر على المسـلمين مـن الكفار لأن السلطة لأعداء الدين وهم أنصارهم، وقد كشف الله الستر عنهم وأظهرهم للمسلمين بما جاهروا به من محاربة الله ورسوله بأنواع من الاعتداء، تارة على القرآن المجيد بتكذيب أخباره . ومرة بالاعتراض على أحكـام الـدين الحنيـف في تعـدد الزوجات، أو أنهم باستهانة ما وعد الله به . أو بالمسـارعة إلى أعـداء الـدين مـن المستعبدين بالنار والحديد وبالدعاة إلى النصرانية فينصرون أهل القوة بأموالهم وآرائهم طمعًا في نيل الجاه والعز بهم أو خوفاً من أن تصيبهم دائرة : أما الذين ينصرون دعاة النصرانية فهم شر من هؤلاء . وذلك لأنهم يدعون العلم بين أهـل الجهالـة بـروح الإسلام، ثم يحرفون الكلم عن مواضعه بحجة أنهم يتكلمون بلسان العلم. والعلم بريء منهم .. قال تعالى :﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِـلِّينَ عَضُدًا) وكم أفسد أهل الضلالة الذين يدعون العلم كذبا قلوبا لم تعقـل عـن الله حكما.

وما هو العلم الذي يدعونه؟ أهو علم تحليل وتركب المعادن أم فن بناء الآلات البخارية والكهربائية؟ أم هو معرفة الظواهر الجوية من تصريف الرياح وتسخير السحاب وإنزال الماء وجري الأنهار. واختلاف الليل والنهار؟ وكل ذلك آيات دالة على أنها فضل الله

الذي أكرم به عباده، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُــدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {٨} ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَــوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ). وقال سبحانه: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَــن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٤٠}فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ قال تعالى: (صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾، وقال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَــى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّــهِ أَفَلَــا تَذَكَّرُونَ).

بينت لنا هذه الآية الشريفة ما عليه المفسدون في الأرض وهم أهل النفاق الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، فإذا ظهر أهل الحق استتروا بالخديعة والكيد، وإذا ظهر أهل الكفر جاهروا بالاعتداء على الدين، وأعانهم على باطلهم من لاخلاق لهم ممــن سجل عليهم الشقاء في الدنيا والعذاب يوم القيامة . وماذا تقول في مــن أعمــى الله بصره وبصيرته فنقل كلام أهل الكفر المحاربين لله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ونسبه لنفسه ليفرق كلمة المسلمين ويرد عن الإسلام أهل الجهالة بالدين فينكر وجود الخليل وبناءه الكعبة تكذيبًا للكتب السماوية جميعها ولكافة الرسل من إبراهيم ومن بعده علــيهم السلام . لم ينشروا تلك الأباطيل إلا مسارعة في الأعداء الغاصبين وإلحادًا وكفرًا بالله ورسوله ونصرة لمن حارب الإسلام طمعًا في نيل حظ يزول – ومنهم من يسارع إلى من بيده السلطة من أعداء الدين فيعزه ويكرمه ويبذل له ما في وسعه مــن المــال في الاحتفال به ليمكن له في أرض المسلمين ومنهم من يشكو إلى المتسلط لينتصــر بــه ويظهر للعالم أجمع أنه هو الحاكم العادل .

وقد حكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ على من يشكو لغير المؤمنين بمفارقة الــدين بسند الإمام البخاري في كتاب الأدب المفرد له قال عليه الصلاة والسلام : (مَنْ شَكَا لِمُؤْمِنٍ فَقَدْ شَكَا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ شَكَا لِكَافِرٍ فَقَــدْ شَــكَا ٱللهَ وَرَسُــولَهُ) وقــد

يستدرجهم الله فيجري لهم الخير الفانى على يد المتسلط فيكونــون ســببًا في إفســاد القلوب والأخلاق وفى تفرقة الأمة وإذلالها . ومنهم من يجاهر بعمل المعاصي فيجلس في الحانات لاحتساء الخمر ويعين على العهارة ومنهم من ينكر إكرام الله لأوليائه فيذم العلماء العاملين بالكتاب والسنة، ومنهم المتنطعون الغلاة في الدين، وكل النــافقين لا يخفون على أهل الإيمان بالله، وكفاهم خزيًا حكم الله عليهم بقوله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾

قال العربي :

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيامِ مِحْنَتِهِ　　　　حَتَى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِٱلْحَسَنِ

أنكروا إفسادهم في الأرض وحصروا الإصلاح في أنفسهم، والحقيقــة أهــم يعلمون حق العلم نواياهم ومقاصدهم، التي هي محاربة الدين وأهله، ونصرة الباطــل وأهله – ولكن الهوى أخو العمى – غلبت الشقوة فرأوا الكفر بالله واستعباد عبــاده للأعداء بدعوى أهم رجال الإصلاح والحضارة والمدنية وتحرير الأمم خيرًا من الحكم بالكتاب لثقله على النفوس الخبيثة التي أصيبت بفقد الحياة الإيمانية والحرمان من العقل الذي يعقل عن الله تعالى، فجاهروا بما يمكن أن يجاهر به أعداء الإسلام في بلد إسلامية – فتحوا أبواب الفتن على المسلمين ففرقوا كلمة الأمة، ناصروا الأعداء الظالمين أعاذني الله وإخوتي المؤمنين من الفتن العمياء الصماء المضلة، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُــمُ اتَّخَــذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُون أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ والشياطين الذين أتخذهم هؤلاء المنافقون هم طليعة الجيوش الصليبية (البعثات) التي تنشر ما لا يرضــى مــن القول في جانب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والكتاب العزيز والدين الحنيف، وقد ثبــت ذلك لذى عينين، ووجود أمثال هؤلاء لحكمة اقتضاها تفريد الله تعالى بإيجاد كل شيء

حتى يكمل توحيد أهل الإيمان، فلا يغتر عالم بعلمه وتقواه فيظن أنه بحوله وقوته عَلِمَ واتقى.

والواجب على كل مسلم قهر أهل النفاق بما يبيحه له الـدين إذا لم تقهـره الحكومة الإسلامية، فإن كل مسلم واجب عليه أن ينهى عن المنكر بيده أو بلسانه أو بقلبه ، اللهم إلا المنكر الذي لا تتحمله النفوس الإسلامية مثل تكذيب القرآن أو إهانة سيدنا ومولانا محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فإن الله تعالى قال :﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ والحكم الشرعي في من ارتد عن الإسلام بإنكار ما علم من الدين بالضرورة أن يقتله الإمام المنفذ للشريعة بعد أن يمتنع عن التوبة، فإن لم ينفذ الحاكم هذا الحكم طالبته الأمة بتنفيذه أو عرّضت نفسها لما لا قبل لها به من النقم . قال سبحانه : ﴿ **وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ .

كذبهم الله في دعواهم الإصلاح بقولهم : ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾، وأتى بالحكم مؤكدا بإن وباسمية الجملة تقوية للخبر، وأثبت لهم الإفساد، ونفى عنهم الشعور بإفسادهم لغرورهم بأهل السلطة واعتمادهم عليهم في نيل الخير ودفع الضر ولو كانوا يشعرون أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا من لم يرد الله أن ينفعه لما نفعوه، أو يضره لما ضروه، بل لو علموا أن القوي اليوم يضعف غدًا، وأن الضعيف يقوى وأن الملك لا بقاء له لسارعوا إلى نصرة الحق وتأييده، وقهر الباطل وإذلاله ولكن القضاء سبق والقدر حكم ولا راد لقضاء الله . هذه الآية أخافت قلوب الصديقين وجعلتهم يحافظون على الكتاب والسنة مهما منحوا من الشهود أو المعرفة خوفًا من الوقوع في وعيد هذه الآية، فإن الله سبحانه لم يقيد الخبر بفئة مخصوصة، وقد يسارع بعض أهل التقوى والصلاح في عمل فينتج الإفساد في الأرض، وأقل الفساد

في الأرض الوقوع في الجدل والمعارضة، فعلى من تفضل الله عليهم بشيء من المعرفة أو الأحوال أو المشاهد الملكوتية أن يحذروا الوقوع فيما يفرق المسلمين بإظهار مالا تقوى على قبوله العقول أو بعمل مالا تسعه السنة التي يعلمها العلماء بأحكام الله الجهـــلاء بالله وبأيامه وبحكمة أحكامه، وقد علمنا الله الأدب إذا قهرتنا سواطع أنوار الحكمـــة، وصالت على العقول أسرار الآيات المنبلجة في الكائنات، فقال ســبحانه : ﴿ **وَمَـــنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْـــلِمِينَ** ﴾ . تشـــير تلك الآية الشريفة إلى أن أهل مقام حق اليقين يجب عليهم في الدعوة أن يترلـــوا إلى مقام الإسلام فقط، رحمة بالمسلمين، وقد نفى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أبا ذر الغفاري إلى الربذة، لأنه رضي الله عنه كان ينكر ما يراه أمير المؤمنين من تأليف الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

هذا الخبر من الله سبحانه وتعالى بيان لصفة ثانية من صفات المنـــافقين الـــذين كانوا يظهرون الإيمان مع المؤمنين كما بينته الآية التالية لتلك الآية وكانوا بعد إيمـــاهم أمام المؤمنين يغشون الأعداء في أنديتهم وبيوتهم ولاية لهم ونصرة، وإيماهم هذا يفارق إيمان أهل الإخلاص والاستقامة الذين كانوا يحبون في الله ويبغضون في الله، ويرون غير المؤمنين أعداء لهم إذا كانوا يعتدون على الدين والوطن . وكل من سارع في الظلمـــة من غير المسلمين كان منهم والقائل ﴿ **آمِنُواْ** ﴾ هم الصحابة الذين كان يعلمـــون منهم النفاق بموالاة الأعداء، فكانوا إذا خلوا بغير المؤمنين ﴿ **قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَـــنَ السُّفَهَاء** ﴾ . والمراد بالسفهاء عندهم أكثر المسلمين لأهم كانوا من الموالي الفقراء أو كل مسلم لأن الله تعالى سلب منهم العقل الذي يميز بين الحـــق والباطـــل والســـفه والطيش، وكل من أعمى الله بصيرته وحجبت عنه أنوار الإسلام نظر بعـــين نفســـه

وبعين عقله المكتسب فلم يفقه آيات القرآن ولا أسرار السنة، بل يرى بعين نفسه الشهوانية ونفسه الإبليسية فيميل إلى أن يكون بهيمًا مطلقًا لا يتقيد بأحكام الشريعة المطهرة التي تقهره على فعل المكارم والتباعد عن الرذائل، ويرى هذا الضلال خيرًا وحقا وإصلاحًا، ويرى مجاهدة النفس لنيلها كمالها النفساني الذي يكون به منعمًا مع أهل الكمال في فردوس الله الأعلى يوم القيامة، ومعظمًا محترمًا رفيع القدر والمنزلة في الدنيا، بما تجمل به من جمال الأخلاق وكمال العبادات وحسن المعاملات . يرى ذلك كله شرا وسفهًا لفقده قوة النفس الملكوتية التي إذا تسلطت على الجوارح ألاحت لها سبل الخير وسلكت بها الصراط المستقيم . وكم من مسارع إلى أقبح الخصال وشر الأعمال مما تدعو إليه الغرائز السبعية والبهيمية، وهو مغتبط بحظه مبتهج بما هو فيه من العمى والضلال، لا فرق في ذلك بين من حصلوا العلم وبين من لم يحصلوه لأن العلم إذا لم تتصوره النفس الملكوتية كان كالمال إذا ملكه من لاخلاق له، أو كالعافية إذا منحت لأهل الفساد، أو كمنصب الحكم إذا ناله الظالم الطاغي الذي لم يرتسم العلم على جوهر نفسه . والكمال إنما هو بالنفوس لا بالدروس، فإذا تفضل الله على العبد بنفس ملكوتية طاهرة زكية، ومنحه تحصيل العلوم النافعة بلغ من الكمال مبلغًا يصير به فوق الملائكة قربًا من الله تعالى . وإذا لم يتفضل الله على الإنسان بأنوار تلك النفس وحصل العلم كان شرًا على المجتمع الإنساني من الشيطان وأضر من الوحش المفترس وانحط إلى أسفل سافلين البعد عن الله تعالى و لذلك فإن الله سبحانه شنع عليهم وأنزلهم إلى الحضيض الأسفل بقوله سبحانه : ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وهنا إشارة في قوله ﴿ **لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ إلى أن الإيمان وإن كان في الحقيقة تصديق رسول الله ﷺ **وآله** فيما جاءنا به، إلا أن هذا التصديق لا يكون إلا من ذي نفس قابلة للخير الحقيقي مؤهلة للمزيد من فضل الله تعالى . ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لأن تلاوة الآيات لا تزيد الإيمان إلا عند من يعقلها . والعلم هو كمال نفساني يرد على النفس بالقوة العاقلة، فنفى الله تبارك وتعالى عنهم العلم، ونفي العلم يقتضي فقد النفس القابلة له التي هي محل صورة رسم المعلوم عليها. فإن حقيقة العلم أن تتصور النفس رسوم المعلوم ،كما نفى الله الشعور عن الذين يفسدون في الأرض ويدعون أهم مصلحون، لأن الإفساد في الأرض يقضي بفقد العاطفة وسلب الرحمة . وإنسان سلبت منه القوة التي بها يعطف على المحتاجين للعطف أقام الحجة على نفسه أنه من شياطين الإنس، أما من جملهم الله تعالى بالرحمة فهم الذين أمدهم الله بروح منه وأقامهم أبدالًا لرسله عليهم الصلاة والسلام، وهم غيثه الهاطل على قلوب نظرائهم المؤهلين لنيل السعادة .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴿١٤﴾ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

بينت أن الله تعالى خلق الإنسان وجمله بمعاني صفاته ،ليرى في نفسه وفى الآفاق من بدائع إبداع صنع الله تعالى، وعجائب قدرته وغرائب حكمته، ما به يفقه أن الله تعالى إنما خلقه ليظهر سبحانه له لا ليظهر الإنسان لنفسه نافعًا ضارًا مريدًا منازعًا لربه، فيكون من الغافلين إذا لم يراع أسرار التوحيد، أو من الهالكين إن نسى مبدأه ومعاده، أو نسى يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ لتلك الحكمة خلق الله أرواح من سبقت لهم منه الحسنى من نور جماله، وخلق نفوس المنافقين من سافلين وخلق نفوس الكافرين من أسفل سافلين . فمن سبقت لهم الحسنى منحهم الله تعالى القابل الذي يقبل الفيض المقدس، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾،

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾، وقال سبحانه في الحكم على الكافرين ولفقد القابل : (خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ) الآية، وقال في المنافقين لضعف القابل : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا ﴾ الآية لأن الحس تسلط على قواهم فنسوا يوم الحساب . وهؤلاء إذا ظهر أهل الباطل تظاهروا بالكفر، وإذا ظهر أهل الحق تظاهروا بالإيمان . ولا يخلو منهم زمـــان ولا مكان وهم شر من الكفار على المسلمين .

ولذلك ترى في زماننا هذا كثيرًا منهم لتسلط الأعداء على المسلمين . ولا تزال تلك الصفة المذمومة لاصقة بهم، فهم الآن ينكر بعضهم صريح القرآن وينســـب إلى نفسه كلام أعدى أعداء الإسلام غير هيَّاب ولا وجل، فلا يبالي أن يواجـــه المـــؤمنين بصريح الكفر لاعتقاده قوة الأعداء، ولا يهمه الجهر بتكذيب القرآن وترك العبـــادات الإسلامية، ويبث الروح الخبيثة في نفوس من يألفونه، ممن أصم الله آذانهـــم وأعمـــى أبصارهم وبصائرهم، وكأنه أعاذنا الله تعالى داعية للكفر بين المسلمين، ومع هذا فالله تعالى يستدرجه وأمثاله من حيث لا يعلمون، فيمدهم بمساعدة بعض رجال الحكومـــة أو بنصرة نظائرهم بنظرائهم لهم، والحق لا يعدم نصيرًا .

وهذه الآية الشريفة بينت النوع الرابع من المنافقين الذين بلغ بهـــم النفـــاق أن يخفوا الكفر في قلوبهم ويظهروا الإيمان لمن يخافونهم من المؤمنين، واللقاء هو الاستقبال. وقولهم (آمَنَّا) مرادهم به التصديق بالقلب لأن إيمانهم باللسان متحقق عند الصحابة لجهرهم به، وفائدة الخبر الإخلاص في الإيمان وكذبوا لأنهم إذا خلوا إلى مردتهم مـــن كبار المنافقين أي انفردوا بهم قالوا إنا معكم، فإذا أنكروا عليهم إظهـــارهم الإيمـــان ووجودهم مع الصحابة منعوا عنهم تلك الشبهة بقولهم ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْـــتَهْزِؤُون ﴾ والاستهزاء هو الاستخفاف، فهم يستخفون بالمؤمنين جهلا منهم أن الله تعالى يعلـــم خائنة الأعين وما تخفي الصدور اعتقادًا بأنه متى سلموا من عقوبة المؤمنين لا يصيبهم

شيء بعد ذلك، لأن نور الإيمان لم يباشر قلوبهم ومعنى الاستخفاف هنا إظهار الموافقة مع إخفاء الشر والسوء في القلوب، فشنع الله تعالى عليهم بقوله وهو القوي القهار : ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾نسب الله تعـالى إلى نفسه الاستهزاء بالمنافقين . والواجب علينا أن نتأدب لكلام الله تعالى، ونعتقد أنه سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو كما وصف نفسه بالمعنى الذي يليق به جل جلاله وبصفاته – قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ والعارفون بالله سلموا له في كلامه تسليما كما سلموا لـه سبحانه في أحكامه، واستهزاء الله تعالى بهم المعنى الذي يليق به بقدر ما نفهم استخفافه سبحانه بهم في الدنيا وإملاءه من حيث لا يعلمون . وفى الآخرة بما يوقعهم سبحانه فيه بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ الآية .

وقد فعل ذلك بالكفار بقوله ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ومن هذا البيان نتأول ما ورد في القرآن منسوبًا إلى الله تعالى من الاستهزاء والمكر والخديعة والسخرية بالمنافقين وأهل الشرك، وإن تأول بعض الأئمة قوله تعالى : ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ بمعنى توبيخه إياهم ولومه لهم على مسارعتهم إلى معصية الله والكفر به، فتأولوا استهزاء الله تعالى : إما بهلاك المنافقين والكفار وتدميرهم، وإما بإملائه لهم واستدراجه إياهم، ليزدادوا نفاقًا وكفرًا، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وكل ما ورد في القرآن من الاستهزاء والمكر والخديعة مؤول عندهم بهذا المعنى، وهذا مذهب سلفنا الصالح أهل التسليم، جملنا الله تعالى بما جملهم بـه مـن الفقه والتسليم، والله تنزه وتعالى عن الهزء والمكر والخديعة بمعناها المعروف عندنا، ولكنه

سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه ما شاء من الصفات، التي يجب أن نسلمها من غـــير تأويل . قال الله تعالى مخبرًا عن العارفين به : ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾وهنا يجب عليَّ أن أبين ساطعة أنوار التوحيد لتخشع القلوب بما يلوح لها بالعلم من أسرار علام الغيوب فنلزمها الخشية والأدب مع كلام الله تعالى، فلا تتأوله بقدر العقول والأهواء، ولا تقيس الغيب المصون بالمحسوس المشهود، ولا تزن كلام الخلاق العظـيم القهـار المعبود بكلام المخلوق العابد .

قال الإمام أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب : قال الله تعـالى لرسـوله ﴿ﷺ وآله﴾ ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ** ﴾ وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك : ﴿**فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ فالله هو كمـا وصـف نفسه لنا بقدر ما أهلنا له وفوق ما وصفه خلقه : والواجب علينا أن نصفه بما ثبتت به الرواية وصحت عن رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، وبأنه ليس كمثله شيء في كل شـيء بإثبات الأسماء والصفات ونفي التمثيل والأدوات، وأنه سبحانه وتعالى لم يزل موجودًا بصفاته كلها، وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك ولا يزال بلا نهايـة ولا غايـة ولا تكييف ولا تشبيه ولا تثنية، بل بتوحيد هو متوحد به وتفريد هو منفرد به . لا يجري عليه القياس، ولا يمثل بالناس، ولا ينعت بجنس، ولا يلمس بحس، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون عن ذلك علوًا كبيرًا . انتهى .

ولمزيد طمأنينة قلوب المؤمنين التي تكشف لهم الستار عن حقيقة تلك الآيـة : وإن منافقي هذا الزمان تلقوا دروسهم من الطب والبيطرة وتخطـيط الأرض وعلـوم الكيميا والطبيعة وعلم النبات والمعدن والحيوان في أوربا التي تركت الدين فارتقت في الحضارة والتمكين في الأرض بالحديد والنار، وأبادت العباد ودمرت الـبلاد . فظـن هؤلاء الجهلاء أن الدين الإسلامي كالدين النصراني، يأمر بالرهبانية ويحرم الطيبـات، ويحرم تحصيل العلوم النافعة ويكره العمل للدنيا، بصريح كلام المسـيح في الإنجيـل .

وحكموا على دين الإسلام بما حكموا به على غيره من الأديان، ولو أنهم حصلوا بعض مباديء الإسلام، أو وصلوا إلى فهم روحه الحقيقية، لأيقنوا أن الإسلام دين العلم، دين البحث عما أودعه سبحانه في مكوناته من بدائع إبداع صنعه . دين النظر إلى ما حولنا من أفلاك دائرات وثابتات، وسحب مسخرات ورياح مصرفات، ونباتات وحيوانات، وأنهار جاريات، ومعادن متفاوتات . دين العمل لكشف أسرار المادة التي سخرها الله لنا . قال تعالى : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾، دين العقل الذي يعقل عن الله آياته حتى يبلغ من الكمال مبلغًا لا يرى فوقه إلا ربه سبحانه . يقولون العلم شيء والدين شيء آخر، وكذبوا . فإن الله تعالى شنع على الجاهلين، وأنزلهم مترلة الشياطين في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ .

وقد ورد في القرآن في الحث على تحصيل العلم بكل الحقائق الكونية آيات لا تحصى قال سبحانه : ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾، وقال سبحانه ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ . فالله سبحانه وتعالى كلفنا في القرآن أن نبحث حتى نعلم كيفية إيجاد تلك الحقائق وسر إيجادها . وإن كان بعض المسلمين يجهل تلك الحقائق، فالدين بريء ممن أهمل تحصيل العلم بها، وهنا يجب علينا أن نعتقد كمال العقيدة أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وأن هؤلاء القوم لم يعلم الله فيهم خيرًا كما قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾مبالغة في أن القدر

سجل عليهم السوءى، ونحن نشكر الله على ما تفضل به علينا من الإيمان والتسليم لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ونسأله أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يمنحنا التوفيق والعناية وأن يتفضل بالهداية ليرجعوا إلى الحق .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

مدٌ في اللغة : زيادة الشيء من نوعه، فيقال مد النهر : إذا زاد ماؤه، وأمد في اللغة : زيادة الشيء من غير نوعه، كما قال تعالى ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ الآية – ومعنى يمدهم يزيدهم ذلك طغيانًا وضلالا، باستدراجهم بوفرة الأموال وكثرة العيال ونفوذ الكلمة، وكثرة من يعينهم على كفرهم ، فيزدادون كفرًا كما هي الحال في منافقى هذا الزمان، فإنهم كلما جاهروا بما يغضب الله ورسوله رفع أعداء الإسلام شأنهم وأيدوهم في مراكزهم فازدادوا طغيانا . والطغيان : التعدي على الغير ظلما . والعمه: أخو العمى، إلا أن الأخير يكون في البصر والبصيرة، والعمه يكون في البصيرة وهو عمى القلب . والمعنى أنهم في ريب وتردد كما وصفهم الله تعالى في الآيات السابقة . والمنافق في المجتمع كالقرحة في الجسم، إذا لم تستأصل بالسلاح ويكوى محلها بالنار أو بالعقاقير الحريفة السامة جعلت الجسم كله قرحة، حفظنا الله. ومنافق واحد في مدينة شر من السيل الجارف، لأن الإنسان إن قتله السيل مات شهيدًا وإن نجا منه كتب مجاهدا، وهذا المنافق إن اتصل بمسلم أفسد عليه دينه ودنياه و آخرته ومن الضرر البليغ مناظرة أهل النفاق في أيام قوة دولة السلطة الغشومة فإنهم كما قال تعالى:﴿وإذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

والواجب على إخواننا حفظنا الله وإياهم بما حفظ به أوليـاءه، الاستخفاف والازدراء بهم واحتقارهم حتى يبوءوا بالخزي والصغار والذلة بين الأمة . أو يقام عليهم الحد الشرعي بالقتل بعد الاستتابة وعدم قبول التوبة وكم من زنديق قتل كفرًا

بعد أن أمر بالتوبة من نفاقه فأبى : ذلك هو دواء هذا المرض الــوبيء . أســأل الله أن يسرع بالقوم الذين يحبهم ويحبونه فيطهرون الأرض من المفسدين فيها .

قوله تعالى : أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

الشراء : هو اعتياض شيء ببذل شيء آخر . والمنافقون بعد أن جاءهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بالهدى وقامت الحجة بالمعجزة وبالحكمة أبوا أن يقبلــوا الهــدى وأنكروه، وبذلوه ثمنا للضلالة التي كانوا عليها ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ التي هـــي بذل الهدى لتمسك بالكفر . ولما كان الشراء هو أخذ شيء ببذل غيره كان عملــهم هذا شراء للباطل وبذلًا للحق، وهو التجارة . وعدم الربح هو خسران ما يترتب على اشتراء الضلالة بالهدى من الخير في الدنيا والسعادة في الآخرة، و نفي ربح التجارة يدل على فقد رأس المال المتحقق في رأس هذا الموضوع، وقد تأول بعض المفسرين قولــه : ﴿ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى ﴾أي اختاروا واستحبوا أخذاً من قوله : ﴿ وَأَمَّــا ثَمُــودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ وهذا تأويل يوجب علينا أن نجعل البــاء في قوله بالهدى بمعنى على والباء قد تأتي بمعنى على كما في قوله تعالى : (وَمِــنْ أَهْــلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ) أي على قنطار . وتأويل الآية بأنهم اختاروا الضلالة أو استحبوها على الهدى لا يلزم منه أن يكون سبق لهم إيمان ثم ارتدوا عن الإيمان، بــل يلزم منه وجود الضلالة والهدى، فباعوا الهدى واشتروا الضلالة، وبيعهم الهدى عــدم قبولهم إياه . وأما قول من قال إنهم كانُوا مؤمنين ثم كفروا فمراده الإيمان باللســان، واعتبر ذلك إيمانا عند الناس فقط لا عند الله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ . والإيمان هــو تصديق بالقلب بما جاء به النبي ﴿ﷺ وآله﴾ من عند الله تعــالى – ﴿ وَمَــا كَــانُواْ

مُهْتَدِينَ﴾ نفى الله عنهم الرشد والصواب، لأنهم اختاروا الضلالة على الهدى، كأنـه يقول سبحانه وتعالى ما كانوا في اختيارهم الضلالة على الهدى رشداء .

قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضائت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون)

بعد أن بين الله لنا بعض ما عليه أهل النفاق من الخديعة والسخرية والاقتـدار على إخفاء الكفر في قلوبهم وإظهار الإيمان لتسلم أنفسهم وأموالهم ويعيشوا متمـتعين بين المؤمنين بما لهم من الحقوق . ضرب سبحانه لحالهم العجيبة مثلا، والأمثال تكشف الحقائق للعلماء الربانيين قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾، فغير العلماء لا يعقلون عن الله سبحانه وتعالى . مثل حالهم العجيبة الـتي يحتار منها اللبيب بالنسبة لوضوح الحق لهم بما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ مـن الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وما بينه عليه الصلاة والسلام من أنواع العبادات والمعاملات والأخلاق التي بها نيل السعادة، وبما كانوا علية من الكفر بالله تعالى، ومن العقوق والقطيعة وعبادة الأحجار والصور والبهائم ومع هذا فإنهم أظهـروا الإيمـان وأخفوا الكفر فجمعوا بين الخبيثين : ظلمة الكفر، وخبث النفاق . فكانوا بـذلك في الدرك الأسفل من النار لأن الكافر المجاهر بالكفر علمه المؤمنون فحصنوا أنفسهم من كيده وسلموا لأهل النفاق وعاملوهم معاملة أنفسهم فكانوا شرًا علينا من أهل الكفر بالله . ولذلك فقد ضرب الله لهم هذا المثل فشبههم في حالهم هذه بحال رجل استوقد نارًا فأضاءت أفقه، واستبان بضوئها كل شيء حوله ووضحت له السبل، ثم طفئـت النار، فعمته الظلمة وارتفع عنه كل شيء. وحذف الله من المثل جملا كثيرة تضـمنها كلامه سبحانه السابق، فكأنه يقول سبحانه مثل حال المنافقين الذين أظهروا الإيمـان بألسنتهم وعملوا بأبدانهم عمل المسلمين أمام المؤمنين، فأنزلهم المؤمنون منزلة أنفسـهم فناكحوهم ووارثوهم، وعاملوهم معاملة أخوة المؤمنين، فسعدوا في الدنيا بما أظهروه

من الإيمان، فلما ماتوا وجدوا أنفسهم من أهل العذاب والخزي بما أضمروه في قلوبهم من الكفر، فشبه حالهم هذه بحال رجل أوقد نارًا، والنار التي أوقدها في المشبه به، هي الإقرار باللسان والعمل بالجوارح، وإضاءة النار التي كشفت له ما حوله، هي حسن معاملة المؤمنين له . ولما كانت المعاني مفهومة من سياق الكلام أتى سبحانه بالآية موجزة من كمال البلاغة . فانظر إلى فخامة قوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فأفرد المشبه به، ثم جمع ليدل على إيجاز الكلام . وذهاب الله بنورهم إماتتهم وكانوا يعتقدون أنهم نجوا نجاة لا عقوبه بعدها، على ما أضمروا من الكفر، فأخبرنا الله عنهم أنهم يوم القيامة يعاملون الله تعالى معاملتهم للمؤمنين، ويظنون نجاتهم بتلك المعاملة لجهلهم بالله تعالى، قال تعالى مشنعًا عليهم : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ — وتركهم في الظلمات يوم القيامة، يعني تركهم في النار لا يبصرون غيرها . ومعنى المثل : أن المنافقين لما رأوا قوة المؤمنين خافوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فأظهروا الإيمان فحفظوا به لأنفسهم كل شيء وأخفوا الكفر في قلوبهم، وعاشوا مستضيئين بنور ما أظهروه من الإيمان، حتى إذا ماتوا انكشفت الحقائق، فأرادوا أن يتخلصوا من عذاب النار بما تخلصوا به من عذاب الدنيا من الأَيمان الكاذبة، فكشف الله لهم عن حقيقة ما في قلوبهم، وأمر بهم إلى النار بعد أن أقسموا له سبحانه على صدقهم فلم ينفعهم ذلك، إذ كانوا في الدنيا منافقين . وإن تأويل بعض المفسرين هذه الآية بأنهم كانوا مؤمنين ،ثم كفروا . وقال بعضهم كانوا مؤمنين ثم نافقوا، ولا حجة في الآية تقوم على ذلك، والحقيقة أنهم لم يسبق لهم إيمان أبدًا . وأن تلك النار التي أضاءت ما حول الموقد إنما هي إقرارهم باللسان الذي نفعهم الله به في الدنيا، وإن كان الله تعالى كشف الستر عن بعضهم في الدنيا كعبد الله بن أُبي بن سلول وكطعمة بن أبيرق الذي ثبتت عليه السرقة وهو من كبار المنافقين فقام بعض أقاربه يجادل عنه فنهاه الله عن ذلك بقوله : ﴿ وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ – إلا أن المؤمنين كانوا يحبون الستر

والمداراة، وهذا المثل بين حقيقة ما عليه كثير من منافقي أهل هــذا الزمــان، الــذين يسارعون في أعداء الله طمعًا فيما يفنى وخشية من أن تصيبهم دائرة، من عــزل مــن وظيفة أو نفي أو سجن . وكذلك المنافقون الذين أوقدوا نار التستر بالعلم بظاهرالحياة الدنيا، ثم تضيء لهم تلك النار، فيحسبون أهم على خير وهم الضالون، إذ ليس العلم بظاهر الحياة الدنيا هو العلم النافع عند الله وعند رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وعند العلمــاء الربانيين، لأنه صنعة لراحة الأبدان لا تكتسب منه الأرواح ذرة من الخير، وربما كــان سببًا في الكفر أو النفاق أو الجدل أو منازعة الأحكام الشرعية أعاذنــا الله وإخواننــا المؤمنين .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ ﴿١٨﴾

بينت لك فيما سبق تمثيل الله حالة المنافقين بحسب ما اكتســبوا في قولــه تعــالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

وكان هذا البيان يكاد يكون إجماليًا، فاشتاقت نفوس المؤمنين إلى تفصيل هذا الإجمال بما يشم منه رائحة التوحيد، فأشار سبحانه إلى شيء من عبيره لأهل النفــوس الطاهرة بقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ فليس المراد صم الآذان، بل فقد القابل . ولا بكم الألسنة، بل حرمان التوفيق للنطق الصحيح بالإخلاص . ولا عمــى الأعين، بل محو القوي التي تبصر آيات الله في مكوناته، فهم صم لا يعــون الآيــات الجليلة الواضحة، ولا يسمعون تسبيح الكائنات البينة، ولــو بالتســليم للقــرآن . و ﴿ بُكْمٌ ﴾ فلا ينطقون بالحقائق التي تشير إليها الآيات من إبداع السموات والأرض .

و (عُمْيٌ) .فلا يبصرون تلك الآيات إلا مادة فاعلة مختارة : قال تعالى : (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وهذه الآية مؤخرة عن تقديم لأن موضعها (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ) - (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ) إلى الهداية أبدا، وإن كان الكلام في الآخرة فلا يرجعون إلى الدنيا .

ثم أتى سبحانه وتعالى بأو التفصيلية التي ليست للإباحة ولا للشك لتفيد تفصيل هذا المجمل فقال سبحانه : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ والصيب : هو المطر الغزير . وليس هـذا بعمل كسبهم ولكنه زاوجَهُ ما يقتضي الفزع منه . والمراد بالصيب هنا الإيمان، ولكنه شبهه بسحابة سوداء ذات مطر غزير في ليلة ظلماء مصحوبة بظلمات ورعد وبـرق، والرعد والبرق التكاليف الشرعية التي كلف بها العبد رغم أنفه، من صـلاة وصـيام وزكاة وحج وجهاد، والصواعق هي الجهاد . فكان كلما أمروا بالجهـاد أو الزكـاة كرهوا سماع هذا الأمر، فجعل مثلهم في ذلك مثل الفزع من الصواعق القتَّالة ولخوفه يضع أطراف أصابعه في أذنيه، ومثال حالهم هذا مفصل لما انتابهم من سابقة السـوءى أعاذنا الله تعالى .

ولا تعجب ياأخي فإنك ترى في زمنك هذا أناسًا تعلموا العلم الديني، وهم في أثناء تعليمه في معهده ترى نفوسهم تنزع إلى الإنكار والسخرية . وسبب ذلك سابقة القدر . قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَة بَعْضٍ﴾ وهم هؤلاء .. لا فـرق بـين اليهـودي والنصراني والمسلم، وكم من يهودي لان قلبه لبعض الآيات !! وكم من نصراني خلع ثوب النصرانية بمجرد فهم حكمة واحدة من حكم القرآن !!

كثير من الناس يقولون فلان عالم وفلان بن فلان حصل أمثال الجبال علمًا وأنا منفردًا أقول: إنما هي النفوس لا الدروس . والنفس الزكية الطـاهرة يكفيهـا قليـل الحكمة، والنفس الخبيثة اللقسة كالقرحة لا يصدر منها إلا الصديد . فاحذر أخي أن

تجالس أو تجانس أصحاب النفوس التي تنكر كرامات الأولياء، فضلا عن إنكار القرآن وإنكار الأحكام ﴿ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ ﴾ .

يجب على من وفقه الله لشرف خدمة تأويل القرآن أن يكون عالــمًا بمراتــب العبودية ومقادير خطاها، وبساطعة من عظمة الذات وكبريائها، وكمالهــا وجمالهــا، وبهائها وضيائها ونورها، لأن استغراق كل ذلك علمًا مستحيل – ومن جهل نفســه فجهل ربه، وحصل أمثال الجبال من العلم الإنساني وكتب على القرآن أخطــأ ولــو حكم له ألف عالم بأنه أصاب – قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ۝ عَلَّمَ الْقُــرْآنَ۝ خَلَــقَ الْإِنسَانَ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾.

﴿ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ ﴾ بالنسبة لهذا الميزان، أي أن الله تعالى هو القهــار شديد البطش الذي إذا أخذ عبدًا لم يفلته .

وليست الآية تدل على أن هناك محيطًا ظرفًا ومُحاطًا به مظروفًــا، تــنزه الله وتعالى علوًا كبيرًا، ولو تتبعنا آيات القرآن المجيد في مثل تلك المعاني لوجدنا اسم القهار أو المنتقم أو شديد البطش يوضع موضع محيط . وكأن المعنى والله أعلم : والله محــيط بكل وُجَهِهِم، أي آخذ عليهم كل مسالكهم فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليــه . ولذلك فالعارفون بالله بعد معرفتهم لأنفسهم فقدوا في أعينهم كل شيء إلا دالًا على الله تعالى بما فيه من بدائع إبداع الحكمة، أو خاصية وضعها الله في الكائنات، أو آيــة تغذو أرواح المحبوبين بما فيها من غرائب القدرة وعجائب الحكمة، أو كتابًــا صــامتًا وهو القرآن المجيد والسنة، أو إنسانًا بلغ وراثة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ناطقًا بما آتــاه الله من فضله، فهذا الذي أثبت عند العارفين وجودها لمعانيها . وأما ما عدا ذلك من مادة يعبدها أهل الغرة بالله، أو جاه يتفانى فيه أهل الدنيا، أو رياسة بها تنفيذ كلمــة الظلمة أو ذخائر إذا فارق صاحبها الحياة كانت سببًا في الحرب بين ورثته، وسببًا لِكَبِّه

في نار جهنم فلا تنفعه في الدنيا لأنه كترها، ولا في الآخرة لأنه من الفقير المحتاج إليها منعها .

أما أهل المعرفة فإنهم جعلوا الدنيا المعبودة لأهلها، كما قال رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ وَعَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ وَعَبْدُ ٱلْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ، تَعِسَ وَٱنْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا ٱنْتَقَشَ) فإنهم أمدنا الله بروحانيتهم عاشوا غرباء، وإن أقبلت عليهم الدنيا قدموها لتكون لهم ذخيرة عند الله، ووضعوا أمـــوالهم وأولادهم وعقارهم في موازينهم يوم القيامة، من غير عاطفة تفسد عليهم حالهم، فإنهم عرفوا أن الدنيا غرارة ضرارة مرارة وهي ، دار الخاسرين . ومن تذكر ما حصل لخيرة الرسل فيها رضي منها بالقليل، وعمل فيها عمل المسافر العجل، والغريب الـــذي لا أهل له . وفقنا الله لما يحبه ويرضاه . وكما أن الله محيط بقهره وانتقامه وشدة بطشـــه وتفريده في إيجاد كل شيء بالكافرين فهو كذلك محيط برحمتـــه وحنانـــه، وفضـــله وإحسانه بالمؤمنين .

قوله تعالى : يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

يقرب البرق لشدة لمعانه أن يخطف أنوار عيونهم، والبرق هنا هو حجج الإسلام البينة التي لا يقوى طالب الحق على إدحاضها، ولكن صاحب الهوى وعميّ البصـــيرة محكوم عليه بالقطيعة مهما كانت حالته، وكلنا نعلم أن الله خلق نارًا وخلق جنة، وأن أهل النار عبيد الله، وأهل الجنة أيضًا عبيد ه كأهل النار لأن الله تعالى خلق النار وخلق لها أهلا، وخلق الجنة وخلق لها أهلا ،و لم يقو أحد على أن يغير ما قدره الله عليه أزلا، وغاية ما في الأمر أن الله أخفى عن العا لم جميعًا سر القدر، ثم إنه سبحانه وتعالى أمر أبا بكر بالإيمان وكتب له في الأزل الإيمان، وأمر أبا لهب بالإيمان، وكتب لـــه في الأزل الكفر والمعاداة، وكلتا الدارين من نار أو جنة يؤولان إلى مراد الله، فما في النار مـــراد

الله كما أن ما في الجنة مراده، إلا أن الله أخلص الجمال والإحسان لأهل الجنة يـوم القيامة، وجعل الجلال والعذاب لأهل النار في هذا اليوم ولا مرد لقضاء الله، ومن ظن أنه يدرك الغيب المصون بعقله المعقول فقد جهل نفسه، وإلا فما هو الإنسان وإن علا ؟ أليس هو بولة بالها أبوه من ذكره وبالته أمه من فرجها ؟ وما مقدار رجل هو مـن بولتين ؟ فليتأدب لله ولرسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾، ولا يكون سببًا لنفسه في لقاء عذاب لا قبل له به، ولا يكون كضلاَّل أوربا المغرورين بعلومها التي تلقوها عن أساتذتهم، الذين كانوا في القرون الوسطى شرًا من مجاهيل أفريقيا، ولولا الأنـدلس وسـلب كتبـها وترجمتها ونابليون وسرقته كتب الأزهر ووحوش الصليبية الأولى الذين كانوا أقل ظلمًا من صليبية هذا الزمان فإنهم سرقوا الكتب من كل معاهد أفريقيا والشام ثم ترجمها لهم بعض من لا خلاق لهم من المسلمين الذين تلقوها عن أساتذتها لكانوا كالبهائم السائمة في بلادنا، ولعلك لا تنسى أن ابن رشد الأندلسي لما فر من الأندلس إلى فرنسا طلب منه كبارها أن يكون أستاذًا لهم، فقبل وفتح أول مدرسة في فرنسا وترجم لها علـوم المادة وعلوم الفلك والطب والهندسة وغيرها، فرحم الله الشرق ورحم آثـار رجالـه السالفين، وأعاد لنا ما سلبته أيدي الأعداء منا .

قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ كأن سائلا سأل – مَثِّل لنا حال هؤلاء القوم لنعلم ما كان عليه حال المنافقين؟ فقال سبحانه ﴿ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم ﴾ نورًا إقرارهم باللسان وحضورهم الصلوات مع الصحابة ﴿ مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾، أي انتفعوا به، ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ ﴾ بذكر بعض السرايا التي كان يرسلها رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أو طلب زكاة المال المفروضة أو التقرب إلى الله بما يصلح للجهاد ﴿ قَامُواْ ﴾ أي احتاروا : و لم يقمهم الله في هذا المقام إلا ليزدادوا تعذيبًا أو ليكشف عنهم ستره عندما يريد الانتقام منهم، فتكون فضيحتهم شنيعة .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

أي ولو أن الله سبحانه عجل لهم العقوبة لمحا سمعهم وأبصارهم وكشف عنهم الستر للمؤمنين ليعلموا حق اليقين ما هم عليه بالنسبة للإيمان ﴿ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أن يباغتهم بالعقوبة أو يمهلهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم : أعاذنا الله مـــن النفاق العلمي والعملي .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

لو أوقرنا بضع جمالٍ كتبًا في تفسير تلك الآية لكان قليلا لأنها أول آية بحسب ترتيب المصحف شرف الله فيها الإنسان وأنزله منه مترلة القريب، وفرض فيها علـــى الإنسان كل فرائضه من المعرفة والعبادة لأنه ناداه بقوله (يا) التي ينادى بها القريـــب (أَيُّهَا النَّاسُ) يريد كل إنسان يسمع من الرسول ﴿ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ العبادة هي القيـــام بإخلاص لتأدية أوامر الله ونواهيه التي أعظمها وأجلها تحصيل المعرفة به ولكن لما قال سبحانه ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الخ – أشارت تلك الآية بصريح لفظهـــا إلى أن أعظم أصول الدين هي معرفة الله بالطريق الشرعى الذي نهجه الله لعبـــاده في القرآن المجيد ولما كان الخلاف بين المسلمين في هذا الأصل العظيم أوقع كثيرًا من الناس في فتن مضلة.وأعمال باطلة وأحوال مخزية . بل وجعل من أبعدهم الله تعالى من زنادقة زماننا هذا يرمون الدين بما يرونه في المتمسكين بقشور منه لا حقيقة لها.لذلك أردت

أن أبين مناهج بعض الطوائف(١)المختلفة المشهورة وهــي ، الأشــعرية والحشــوية والباطنية الذين هم أدعياء المتصوفة، والصوفية والعلماء العاملون الذين تلقــوا تلــك العقائد عن القرآن المجيد .

ولما كانت الطائفتان الأخيرتان أهم هذه الطوائف وأولاها بالذكر، بل هم أهل الله الصالحون الذين تحروا الرشد في سلوكهم طريق الله تعالى، فلــم تشــتبه علــيهم المسالك، ولم تشطح بهم الأهواء، كان لابد لنا أن نبدأ بذكرهما، وإيراد شــيء عــن معتقدات هؤلاء القوم وحقيقة حالهم ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الذي أوجدكم من العدم، لأن الإنسان لم يوجد على وجه الأرض إلا بعد أن خلقت السموات والأرض والحيوانات والنباتات والأنهار والبحار والمعادن وسائر الموجودات فالله خلقه من العدم ولا شك فهو حادث بالبرهان الذي لا يشو به ريب، ولا يقتضي مقدمات ولا قضايا يوجد لها نقيض، ولكن قتل الإنسان ما أكفره .. ظنوا قبحهم الله أنهم خلقوا من آبــائهم، وأن آباءهم خلقوا من آبائهم، وأن المادة خلقت الكل فكذبهم الله تكذيبًا حقيقيًا يصــدقه أهل التسليم بكتاب الله والتصديق برسول الله . ممن وهب لهم العقل الذي يعقل عــن الله بقوله ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهذا دليل الإيجاد الذي اختص الله به، ووجبت له من أحله العبادة دون غيره . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . لعل : من حروف الترجي والإشــفاق، ولا يكون إلا من الجاهل بالعاقبة . والله تتره وتعالى عن أن يجهل عاقبة الأمور كلــها، فإما أن يكون الكلام منسوبًا إلى المخاطبين، يعني أنهم إذا عبدوا الله حق عبادته لتلــك الحكمة التي ذكرها تحصل لهم التقوى وهي ، التحفظ من الوقوع في غضب الله يــوم القيامة، والتباعد عن المعاصي التي توجب مقته في الدنيا، وجائز أن تكون من كــلام الله، ويكون معناها أطاعهم في نيل التقوى التي بها الاحتراز من العــذاب، أو يكــون

(١) راجع كتاب عقيدة النجاة للإمام أبي العزائم ص ١٦

مراده سبحانه تحقق التقوى لهم . وكل ما جاء في القرآن من حروف الترجي أو أفعال الترجي مثل عسى يجب أن يؤوَّل بهذا المعنى .

قوله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) ﴿٢٢﴾

تقدم في تفسير أول الآية أن الله سبحانه وتعالى وضح دلائل التوحيد مبينــة في الكتاب العزيز بيانًا صريحًا لا يقبل الله من موحد غيره، وتلك الآيات كما قدمنا هــي الدالة على دليل الإيجاد ودليل الإمداد، وقد جمع الله تعالى في هذه الآية الدليلين معًا . فأخبر سبحانه وتعالى أنه هو الذي خلقنا وخلق الذين من قبلنا من آبائنا وأســلافنا، وهذا هو الدليل الذي قامت عليه الحجة العقلية على أننا وجدنا بعــد أن لم نكــن . وكيف لا ؟ والنوع الحيواني و بالأخص نوع الإنسان لا يمكن أن يوجد إلا على أرض تقله وسماء تظله وتيسير ضروريات لابد له منها .. والعقل الســليم يحــتم علــى أن الكائنات كلها وجدت قبل الإنسان بل قبل الحيوان والنبات، وإذا جعل الله في قلــب العبد نورًا وكاشفه بآياته في مكوناته ثبت أن الكون ومــا فيــه خلقــه الله ليعمــره بالإنسان، فخلق الأرض له فرشًا والسماء سقفًا، وخلق الجنة إحسانا ً منه لمن وفقــه للعمل بطاعته، وخلق النار عقوبة منه لمن أقامه مقام المغضوب عليهم . خلق كل مــا في الكون من جماد ونبات وحيوان وأنهار وبحار وهواء وأفلاك للإنسان . وكما أنــه سبحانه وتعالى خلقنا على غير مثال سبق وأوجدنا بعد أن لم نكن، فقد قامت الحجة العقلية على أنه سبحانه وتعالى جعل الإنسان أول مراد لحضرته ،وقدر أن يخلقه محتاجًا إلى أشياء كثيرة مضطرًا إلى ما به قوامه وحياته . فخلق ما خلق سبحانه لضــروريات الإنسان وكمالياته . وكل ما في الوجود من جميع الأنواع من عمار البحار والقفــار، بل وما في الأجواء والأرجاء وما في السموات مخلوق بعد أن لم يكن، مبــدع بعــد العدم، لمنافع الإنسان . فالإنسان جوهرة العقد وما فيه وهو مخلوق باليدين، ومؤهــل

للحياة في النشأتين . فسبحان من خلق الكون بحكمته وقدرته . سبحان من كان و لم يكن قبله شيء فهو قبل كل شيء وهو سبحانه و لم يكن شيء وهو هو والأشياء بـــه قائمة. هو في السماء إله كما هو في الأرض إله، وهو مع كل شيء. كما لم يكن قبله شيء، سبحانه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار : أبعد من أبعده بقدرته فجحد وضل ونسى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وقرب من شاء بحكمته وواسع رحمته، فاهتدى وأقبل على الله، وسمع وأطاع وسلم . والله سبحانه هو الغني ونحن الفقراء .

يقول سبحانه : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ المراد بقوله (الَّذِي) لفــت نظر من سبقت لهم الحسنى إلى صلة الموصول ليشهدوا بدائع صنعته . فالآية للمدح – يعني هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ الآية ليسجد العقل للبديع الخلاق العظيم، صاغرًا، ليسارع من شهد تلك المشاهد إلى الله شاكرًا . ومعنى ﴿ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ يعني أنها مبسوطة في نظر الناظر ليتمكن من المنفعة بسطحها وهذه الآيــة لا تقتضــي أن الأرض منبسطة، فقد تكون على شكل الكرة، أو على شكل آخر كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾فالأرض لعظــم حجمهــا صــارت كالمبسوطة في نظر العين . وكون الأرض على شكل كرة أو أشبه بــالكرة أو بــأي شكل من الأشكال يجعلنا نعظم البديع القادر الذي خلق هذا الجسم الهائل على شكل من الأشكال، و لم يجعله معتمدًا على شيء، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ اللّهُ الَّــذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

فانظر أيها العاقل بعين الفكرة، وأفرد ربك بالألوهة دون غيره، واعلم أن هذا الرب الكبير المتعال لا يعجزه شيء .. و لم لا يجوز أن يكون جعلها على شكل مــن الأشكال ليعجز العقل عن درك الحكمة التي جعلها من أجله كذلك، ولو أن العقــل يسلم أنها على شكل غير البسط بما أجراه سبحانه على وجهها من الأنهار والبحــار، وما رفعه على سطحها من الأوتاد الهائلة والجبال الشامخات – ومع ذلك فالإنســان

يعتقد أنها ساكنة وهي ، متحركة، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ فحكمة حيرت العقول، وقدرة أسجدتها، وإنما هو النور الذي جعله الله في قلوب المؤمنين تنكشف به آيات الله تعالى فتطمئن القلوب بذكره .

ومن أراد أن يفقه تلك الأسرار بعقله رد خاسئًا وحسيرًا .. وقد كفر الإنسان وجحد ربه وعبد النار من أيام قابيل في حياة أبيه آدم . وكم كتب جاحد لاَحِدٌ كتبًا أثبت فيها الشرك وعبادة الأصنام والملوك، وكتب آخر فأنكر عبادة الأصنام والملوك وجحد عبادة الله وكل ذلك في الشرق لتوالي الأنبياء فيه . وكم تحيرت عقول في هذا الجانب من زمان الفراعنة ومن قبلهم من الآشوريين والبابليين والكنعانيين والهند من الباحثين في غرائب إبداع صنع الله تعالى .

وقد نشر الله نوره برسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وانتشرت كتب الجاحدين والباحثين من أهل الظلمة والضلال في أوربا، فقبلت أوربا الضلال والظلمة ولم تقبل من النور شيئًا، وذلك لأن الله سبق في إرادته تعالى أن يضلهم، قال سبحانه : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ فأهل أوربا ومن تلقي عنهم هذا الضلال المبين، أخذوا هذه الكتب وترجموها ونسبوها لأنفسهم، ظانين أنه ليس في الشرق من يعلم بِمِلَلِ وَنِحَلِ القرون السابقة والحقيقة أنهم لا يعلمون من ذلك شيئًا، وإنما هم يمثلون صورة الببغاء التي ترجع صوت المتكلم – وإلا فتلك العلوم وتلك الفنون التي يدعون أنهم تعلموها وقلدهم فيها زنادقة زماننا وكذبوا . فوالله ما أجرى الله على يدهم من الفنون والصناعات هو ما أجراه على أيدي الأمم الغابرة ولكن الإنسان آخذ في الرقى فإن كانوا برعوا في علم البخار والكهرباء بتيسير طريق المواصلات فتلك فنون وليست علوما، ولا ينبغي أن يعظم الإنسان العاقل من كد نفسه حتى اخترع طيارة أو غواصة أو باخرة أو قطارًا يمشي على الأرض لينتفع بما يناله من اختراعه من مال أو شرف أو

علو في الأرض، لأنه أخذ أجرته، والمادة التي اخترع بمعرفة تحليلها وتركيبــها تلــك الآلات مخلوقة لله تعالى، واليد التي حركتها في الصنع والعقل الذي بحث فيهــا حــتى اختراعها مخلوقان لله تعالى،فما لهذا المخترع من فضل إنما الفضل لمن أوجــد المــادة وأنشأها صالحة لانتفاع الإنسان، وأحوج الإنسان إلى ضروريات وكماليات لا بقاء له بغيرها فهو يعمل ويجتهد ليحصل ما به سد ضرورياته وكمالياته ولا فخر له في ذلك .

ومن عظم المادة فجعلته جاحدًا بالله، أو عظم خادمًا ارتاض بالعلوم النظريــة، حتى نوع المادة فجعلها نافعة فقد جهل المبدع العظيم الذي خلق الإنسان وخلق لــه عقلا ومادة ينوعها كيف يشاء . فالمادة وخواصها، والعقل وصاحبه، صنع الله الــذي أتقن كل شيء . ولولا الله تعالى لم تكن مادة ولا إنسان ولا غيرهما، فســبحان مــن خلق الإنسان وسخر له كل شيء في السماء والأرض . ﴿وَالسَّمَاء بِنَاء﴾ أي جعــل السماء بناء . والبناء ما أحاط بك كالقبة المضروبة وكالسقف . يقال بنى الرجل على امرأته : أي بنى لها قبة . والمعنى أنه تعالى صير السماء مرفوعة فوقنا. والســماء مــن السمو وأصلها سماو، قلبت الواو همزة لمناسبة حرف اللين قبلها . وقد ورد أن السماء جسم محيط بالأرض ذو لَون أزرق، وبعض أهل النظر من الباحثين بعقولهم وحواسهم يقولون إن هذا اللون الأزرق هو لون البحار، والسماء هي الأفلاك الثابتة والــدائرة . ولكنا نؤمن بما ورد إذا صح سنده ونكذب من لم يصل إلى السماء فيخبرنا عنــها إلا بقدر ما يحكم به عليها ببصره أو بالآلة – والله تعالى يقول وهو أصدق القــائلين : ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِــذَ الْمُضِــلِّينَ عَضُدًا﴾، ويقول سبحانه : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وصدق الله وكذب الإنسان الذي أنعم الله عليه بالحس، الحاكم على المادة فقط، ولكن لا اطلاع له على ما أظهره لأهل الإيمان من الآيات الدالة على قدرة القادر جل جلاله، وحكمة الحكيم سبحانه .

وقد ذكر الله السماء مكررة في الكتاب العزيز في عدة آيات والحس كم كذب على صاحبه، فترى العين تبصر الجبل الذي بينك وبينه سفر أيام قريبًا جـدًا، وتـرى الشمس قدر رغيف وهي ، أكبر من الأرض ألف ألف مرة تقريبًا . واللسان يـذيقك السكر مرًا عند انحراف الصحة . والأذن قد تسمعك الكلمة قبيحة، واليد قد تفقـد الشيء وتبحث عنه وهو فيها . فالحس إذا كان يكذب على الإنسـان في الأشـياء المعروفة له فكيف نصدقه فيما وراء ذلك — اللهم إنا آمنا بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، وكفرنا بكل طاغوت يحرف الكلم عن مواضعه، بحسب ما يوحيه إليه شيطان الهوى الرجيم، أو عقله الكليل أو حسه السقيم، قوله تعالى ﴿ وَأَنـزَلَ مِـنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الجملة معطوفة على قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُـمُ الأَرْضَ فِرَاشًـا ﴾ نسـب سبحانه الإنزال لحضرته العالية، ولما كانت نعمه المفاضة من سماء إحسانه لنفع جميـع خلقه مرتبطة بأسباب وضعها جل جلاله ليرى العباد من غرائب حكمته وعجائـب قدرته، ما به تطمئن قلوبهم بحقيقة اليقين أنه سبحانه وتعالى هـو المنفـرد بالإيجـاد والإمداد، قدر سبحانه أن يجعل نعمه مرتبة على أسباب أودعها سبحانه وتعالى فيمـا خلقه من البحار العظيمة وحرارة الشمس والهواء وبرد الجو في العلو . وهو القادر أن يترل الماء من نفس السماء من غير تلك الأسباب التي وضعها سبحانه . ولكنه أراد أن يشهد أهل العقل أنه وضع تلك الأسباب لترتقي عقولهم إلى معرفة من وضع الأسباب جل جلاله . وقوله : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ إذا كان الماء متقاطرًا بتلك الأسباب المذكورة يكون المراد بالسماء العلو فإن الشمس تبسط الحرارة على نصف الأرض في نصـف اليوم، وعلى النصف الثاني في نصف اليوم الباقي، وغير أهل الإيمان يظنون أن الحرارة ضائعة في تلك الأجواء، وتتره الله تعالى عن أن يخلق شيئًا عبثًا، فإن حرارة الشـمس المنتشرة على وجه الأرض لها منافع لا يحصي القلم عدها .

فمن تلك المنافع أنها تخزن في ألياف الأشجار فتكون منها النار الـتي نوقـدها لمصالحنا، وبعض تلك الحرارة يبخر جزءًا آخر من البحار تبخيرًا متقنًا ،فيرتفـع هـذا

البخار فوق أكتاف الهواء حتى يصل إلى مرتفع تكون فيه الحـــرارة منخفضـــة جـــدًا فيتجمد ويكون سحبًا عظيمة ، فيحملها الهواء ويذهب بها حيث يشاء الله تعالى لمنافع العباد . ولذلك فإنك ترى كثيرًا من المناطق التي لا عمران فيهالا يترل فيها المطر وإنما يترل في الأمكنة العامرة لتكون رزقًا للخلق . وأنزله سبحانه قطرات صغيرة لأنه لـــو نزل كأفواه القرب، لهدم البيوت وخدد الأرض وأهلك النبات والحيوانات والأناسي . فسبحان من قدر إنزاله قطرات رحمة بالناس . وكيف لا وفى بعـــض الســـنين تـــترل السيول من قمم الجبال فتهلك كل ما مرت به – ولكن الله جل جلاله جعل في قلوب أهل محبته نورًا تنكشف به لهم أسرار تلك الحكم العالية والآيات العجيبة، التي تجعـــل العقول ساجدة إجلالًا وإعظامًا لهذا الرب الرءوف الرحيم، المـــنعم بجلائـــل الـــنعم ودقائقها – ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ يريد الله سبحانه أن يبين لعباده ما من به عليهم مما به قوام حياتهم ومزيد إكرامهم فيقول : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَـــرَاتِ ﴾وإلا فالمطر أخرج النبات أولا، وهو سبحانه إنما يمن على عباده بما به تحقـــق النفـــع وداوم المسرة ونيل القصد . فالمخرج هو الله تعالى، ولو شاء الله أن تمطر السماء ثمـــرًا وثيابًا وخبزًا لفعل، ولكنه جعل الإنسان خليفة عنه سبحانه، فأقامه في الأرض ليعمـــل بإذن الله ما به نيل الخير وشهوده نعمة الله عليه، الذي جعل له جوارح مجترحة تعينـــه على الانتفاع باستخراج ما كتره الله لنا في الأرض، بسبب ما أودعه في تلك الحقـــائق التي خلقها وسخرها لنا من شمس وهواء وبحار عظيمة، وأرض جعلها فراشًـــا لنـــا، ومنحه ما هو فوق ذلك وهو العقل المكتسب بالرياضة والتجارب : ﴿ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ كأنه سبحانه يبين لنا أن نؤمن بالأسباب التي وضعها جل وعلا ليحدث ما يشاء أن يحدثه من الشئون .

وقد خلط الأشعرية في هذا المقام، فأشاروا في كلامهم إشـــارة تـــومي إلى أن الأسباب ليست مؤثرة بنفسها، وإنما تؤثر بإذن الله تعالى – وسأورد لـــك مـــا قالـــه

الأشعرية، وأشرح لك العقيدة التي عليها أئمة الهدى في هذا الموضوع، والعقائد مبينة بالتفصيل في رسالتنا المسماة (عقيدة النجاة) .

ذكر الإمام شهاب الدين أبو الفضل الألوسي في تفسيره المسمى (روح المعاني) في شرح عقيدة الأشعرية والتعليق عليها ما نصه : الباء في قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ للسببية، والمشهور عند الأشاعرة: أنها سببية عاديه في أمثال هذا الموضوع فلا تأثير للماء عندهم أصلا في الإخراج بل ولا في غيره، وإنما المؤثر هو الله عند الأسباب لا بها لحديث الاستكمال بالغيب .

قالوا : ومن اعتقد أن الله تعالى أودع قوة الري في الماء مثلا فهـــو فاســـق وفي كفره قولان، وأجمعوا على كفر من قال أنه مؤثر بنفسه . فيجب عندهم أن يعتقـــد المكلف أن الري جاء من جهة المبدأ الفياض بلا واسطة، وصادف مجيئه لشرب الماء من غير أن يكون للماء دخل في ذلك بوجه من الوجوه سوى الموافقة الصـــورية . وإني لا أقول بذلك، ولكني أقول إن الله سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري، ومحـــل ملكـــه وتصرفه، فإنكار الأسباب والقوى حفظ للضروريات وقـــدح في العقـــول والفطـــرة ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل الله تعالى مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب، والحدود والكفارات، والأوامر والنواهي، والحل والحرمة . كل ذلك مرتبط بالأسباب فأتم بها بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصـــدر عنه والقرآن مملوء من إثبات الأسباب، ولو تتبعنا ما يفيد ذلك من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع حقيقة لا مبالغة . إذا كان الله تعالى خالق السبب والمسبب، وهو الذي جعل هذا سببًا لهذا، والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته منقـــادة، فأي قدح يوجب ذلك في التوحيد ؟ وأي شرك يترتب عليه ؟ نستغفر الله تعالى ممـــا يقولون .

فالله عز وجل يفعل بالأسباب التي اقتضتها الحكمة مع غناه عنها كما يفعل عندها لا بها . وحديث الاستكمال يرده أن الاستكمال إنما يلزم لو توقف الفعل على ذلك السبب حقيقة، واللازم باطل لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فالأسباب مؤثرة بقوى أودعها الله تعالى فيها، ولكن بإذنه، وإذا لم يأذن وحال بينها وبين التأثير لم تؤثر كما يرشدك إلى ذلك بقوله : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ ولو لم يكن من الأسباب قوى أودعها العزيز الحكيم، لما قال سبحانه ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ إذ ما الفائدة في القول وهي ، ليس فيها قوة الإحراق، وإنما الإحراق منه تعالى بلا واسطة . ولو كان الأمر كما ذكروا لكان للنار أن تقول : إلهي ما أودعتني شيئًا، ولا منحتني قوة، وما أنا إلا كيدٍ شلاء، صحبتها يد صحيحة، تعمل الأعمال، وتصول وتجول في ميدان الأفعال . أفيقال لليد الشلاء لا تفعلي، وفى ذلك الميدان لا تنزلي ! ولا يقال ذلك إلا لليد الفعالة وهي ، اَلْحرِيّة بتلك المقالة ؟ وما أظن الأشاعرة يستطيعون لذلك جوابًا . وهذا الذي ذكرناه، هو ما ذهب إليه السلف الصالح، وتلقاه أهل الله تعالى بالقبول .

إشارات الآية الشريفة :

أظهر الله سبحانه وتعالى للحس فأراه إنزال الأمطار من السماء على الأرض، ثم قدر سبحانه أن ازدواج ماء المطر بالأرض يجعلها تحيا بعد موتها وتحمل وتلد الحدائق والثمار، وكل ما به قوت الحيوانات والأناسى لنعلم حق اليقين أن لإيجادنا مبدأ كالنبات فإنه سبحانه خلقنا من التراب والماء والنار والهواء . وهي ، أركان الوجود لنتحقق أن البعث والإحياء والنشور للقيامة سهل جدًا على القادر الذي أرانا كيف يحيي الأرض بعد موتها – فالسماء في النشأة الأُولى كالزوج والأَرض كالزوجة والمطر النازل من السماء كالمني الذي ينزله الرجل في فرج المرأة، والمرأة تلد رجالا وإناثًا، والأَرض تلد لنا من الحبوب والثمار . والصموغ والأَعشاب ما يقيتنا ويقيت حيواناتنا، فسبحان من خلقنا مضطرين لنعمته، وأسبغها علينا من السماء والأَرض،

وأمرنا سبحانه بالعبادة وضمن لنا ما لابد لنا منه وأكمل، وإنما منّ سبحانه علينا بما أخبرنا به في الآية من خلقنا وخلق الذين من قبلنا، وجعل الأَرض لنا فراشًا والسماء بناء، وأنزل المطر من السماء، وأخرج الثمرات لنا من الأرض، ليشير إلى أنه فرغ قلوبنا وأراح أبداننا، لنستغرق كل أوقاتنا في عبادته : وليست تلك النعم علة في العبادة، فإن من عبد الله لجنة أو لنيل الخير منه جهل نفسه وجهل ربه .. والله تعالى يجب أن يفرده كل إنسان بالعبادة دون غيره لذاته جل جلاله، لأنه هو المستحق للعبادة سبحانه، كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وكما قال : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ وقال ﴿ ﷺ وآله﴾في الحديث القدسي: (مَنْ شَغَلَهُ ذِكرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ) فالذي أرانا إحياء الأرض بعد موتها، هو الذي ينشئنا النشأة الثانية، وهي ، أيسر وأهون عليه أما النشأة الآخرة فهي كما ورد في الآثار أن السماء تمطر أربعين سنة منيا كمني الرجال، فتذيب الأرض، ويرسل الله أربعة رياح تعتقم الأرض من جهاتها الأربع، فتدكها دكة واحده، ولديها تجتمع متفرقات الأجسام، ويعيد الله لكل إنسان نفسه كما بينا في كتاب " النشأة الثانية " — وويل لمن نسى يوم القيامة واتبع هواه وحظه، ومؤمن ينسى يوم القيامة مستحيل . اللهم إلا إذا سلب منه الإيمان لأنه أمن جانب الله تعالى، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

ظهر لنا أن الأرض أمُّنا الأصلية بل هي أفضل من أُمِّنا فإن أُمَّنا تلدنا وترضعنا لبنها فقط، أما أُمُّنا الأصلية وهي ، الأرض، فهي تغذينا بجميع الثمار وتسقينا، وهي ، الأُم الشفيقة التي لا تغضب منا أبدًا فإذا تحققنا هذا فكيف نخاف منها إذا كنا في بطنها بعد الموت، بل يجب أن نتحقق أنها إذا ولدتنا الولادة الثانية للقيامة نرى إن شاء الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، مما لا يحصى من خيرات ربنا الذي أكرمنا بأمنا (الأرض) ولكن ذلك ينال إن شاء الله لمن أناب إلى الله وأسلم له سبحانه، وحافظ على اتباع خاتم الأنبياء متابعة يكون فيها أشبه الناس به، فإن اجتهد أن يتشبه به ﴿ ﷺ **وآله**﴾فيحفظ سمعه وبصره ولسانه وبطنه وفرجه ويديه ورجليه، جاء يوم القيامة

فتتلقاه ملائكة الإحسان بما أعده الله له من الخير العظيم، بل يكون مع رســول الله ﴿ﷺ وآله﴾في دار الكرامة كما قال تعالى : ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ والمخالف لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾المتشبه بإبليس أو بالوحوش الكاسرة أو بالأفاعي المضرة، فهذا أعاذنا الله منه يقول يوم القيامة: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ .

وباب التوبة والحمد لله مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربهـا، فليســارع إخواننا وفقنا الله وإياهم إلى التوبة والإنابة قبل الفوات، ولا يجلسوا بعد الذكرى مـع أهل الظلمة والجحود، والله ولينا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال تعالى : ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

الآية الشريفة مرتبة على ما تقدم في صدرها . كأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ – ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا ﴾ والند في اللغة : المِثْل بكسر الميم وسكون الثاء . والند أيضًا هو المنافر، مأخوذ من ند البعير إذا نفر من صــاحبه . والند الذي يجعله الكافر من الأصنام أو الكواكب أو الأناسى إلهًا يعتقد فيه أنه ينفعــه ويضره . وكل مسلم يعتقد أن إنسانًا أو مالا أو أطيانًا أو عقارًا أو واليًا أو ذا ســلطة أو وظيفة أو ولدًا أو والدًا ينفعه أو يضره بذاته من غير أن يلحظ في ذلــك مسـبب الأسباب جل جلاله، فهو مشرك، اتخذ من دون الله ندًا، والنافع والضار في الحقيقة هو الله وحده . وما عداه فأسباب وضعها سبحانه كما بينت ذلك في أول الآية . ومــن حجبه السبب عمن وضعه سبحانه، وأقامه لينفع به من يشاء ويضر من يشــاء فقــد أشرك قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ حفظنــا الله مــن الشرك الظاهر والخفى والأخفى – وكأن الله تعالى يخاطب كل إنسان منحــه عقــلا يدبر به شئونه في الدنيا، فإن أقل عقل ينظر في الأرض المنبسطة وما تخرجه لنــا، وفى الأمطار وما تحدثه لنا بفضل الله، وفيما أحاط بنا من أجواء وأرجاء وكواكب منتثرات

،وبحار محيطات، وهواء وأمطار، أنزلها سبحانه وتعالى يعتقد حقًا أن لها مبدعًا حكيما قادرًا، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أيها المخاطبون إن ما تفضلت به عليكم مما لم يكن لكم فيه كسب ولا عمل، وما أحسنت به إليكم فكثرته في الأرض وفى الهواء، ويسرت لكم مفاتيح تلك الكنوز : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا ﴾ واعبدوه مخلصين العبادة له سبحانه وتعالى، فلا تشـــوبوا إيمانكم بشرك الله تعالى، ويقول سبحانه :﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِـــرُ مَـــا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ .

قوله تعالى : وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

أقام القرآن المجيد الحجة البيضاء على كمال توحيده سبحانه وتعالى، فوضحت الدلائل التي لا يقبل الله تعالى من عبد صرفًا ولا عدلا، إذا لم يفقه ما أتى به القرآن في توضيح حجج التوحيد . فلما أتم سبحانه وتعالى تلك الحجج التي أسجدت العقـــول التي تعقل عن الله تعالى، وقهرت النفوس الجامحة إلى الحظ والهوى، لم يبق عذر لإنسان لم يكن شيئًا مذكورًا فخلقه الله تعالى من العدم، وكيف لا وقد ولدته أمه ، فوجد بعد أن لم يكن، ولا أبعد بالإنسان في أمرين رشده لا يحتاج إلى نظـــر لأنـــه محســـوس ملموس، فكم من إنسان لم يرزق ولدًا وعنده أربع نسوه ! وكم من فقير ليست معه إلا امرأة ومعه تسعة أولاد ! فمن الذي قدر هذا ؟ ونرى الأشياء صغيرها و كبيرهـــا تحدث بعد أن لم تكن . ومن الذي جعل كل ما في الكائنات نافعًا للإنســـان ؟ فلـــو فقدت حقيقة من حقائق الكون كالهواء والمطر والشمس والنبات بل وعنصر التـــراب لحى الإنسان . سبحانه خلقنا وسخر لنا كل شيء في السموات والأرض جميعًا منه .

تلك الحجج التي بينها الله تعالى في هذه الآية لا يجهلها إنسان سلم من الأمراض العقلية والنفسية، وكمل في نوعه حتى صح تكليفه .

أما أهل الأمراض النفسية أو العقلية فليسوا مكلفين بأحكام الشريعة ولا بالنظر في دلائل التوحيد وهم الكفار . تلك الحجج التي تجعل الجاحد والمتخــذ أنــدادًا لله يستقبل عذاب جهنم على نفسه ويسأل الرجعة إلى الدنيا، لأن عذاب الضمير أشد من عذاب الأجسام، وإن إنسانًا يرى هذا البيان وتلك الدلائل ويلفت وجهه عنــها لهــو أضل من الحيوان في الدنيا، وأشد الناس عذابًا يوم القيامة، لأن الله يجمع عليه عــذاب الضمير كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَــى الْأَفْئِــدَةِ﴾ وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ وهذا يبلغ به الحزن مبلغًا يجعله يتمنى أن يكون ترابًا، ويزداد عذابًا فوق هذين العــذابين : وهو عذاب رؤية من كان يؤذيهم ويحتقرهم مــن النبــيين والصــديقين والشــهداء والصالحين، منعمين بما وعدهم الله به أعاذنا الله تعالى وإخوتنا المؤمنين من الكفر بنعمة الله . ومن إنكار حجج الله وبيناته بعد أن أقام الله تعالى تلك الحجج الناصعة على أنه تفرد بالألوهة، وهو القادر الذي أبدع بقدرته بدائع صنعه الحكيم، تتره عن أن يوجد شيئًا عبثًا، أو يحدث حدثًا لعبًا . ولما كانت الحجج على وحدانية تليها في الرتبة دلائل النبوة بين حجج النبوة بما ملأ القلوب السليمة من الحظ إيمانًا وتسليما . قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ فابتدأ الله تعالى إقامة الحجج على إثبات نبوة ســيدنا محمد﴿ ﷺ **وآله**﴾بقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَــى عَبْــدِنَا فَــأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . ثبتت رسالة خاتم الأنبياء بالمعجزات التي لا تحصى عدًا، وقد التجأ بأقل منها فرعون إلى الإيمان، وهي ، معجزة سيدنا موسى عليه الصلاة السلام، التي فلق بها البحر المبتدىء من المحيط الهندي إلى السويس وأعني بتلك المعجزة، شق القمر التي هي في قوة قول الله تعالى : صَــدَقَ

عَبْدِي فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي لأَنِّي شَـقَقْتُ ٱلْقَمَـرَ بِطَلَبِـهِ . وأعـداؤه ﴿ ﷺ وآله﴾شهود لم ينكر أعدى عدوه تلك الحادثة، وهم من تعلمهم عـداوة لـه ﴿ ﷺ وآله﴾وتربصًا لزلة يزلها، ولكن الله أنزلها في القرآن في زمان إجماع العرب على معاداته ﴿ ﷺ وآله﴾، فآمن من عقلوا هذه الآية، وازداد بها أهل الضلال عنادًا وكفرًا، وقالوا شَيَّبْتَنَا بسحرك يامحمد . ومعجزة أخرى وردت بالتواتر وهي ، جرى الماء مـن بـين أصابعه ﴿ ﷺ وآله﴾، صح ذلك بالتواتر في سفره ﴿ ﷺ وآله﴾للجهاد . ورده عين قتادة بعد أن فقئت في غزوة أحد، فصارت خيرا من الثانية .

وقد أجرى الله على يده ﴿ ﷺ وآله﴾من المعجزات المحسوسة للحـس مـا لا يحصى، بحيث لو جمعت معجزات الرسل لما كانت شيئًا بالنسبة لما أجراه الله على يده ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكن الله سبحانه وتعالى لما قدر أن يكون هو خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم لم يتحد بشيء من تلك المعجزات الباهرة المحسوسة، لأن قدرها في تنويع الأفكار لا يؤثر بالمعنى المطلوب إلا على من شهدها، وكم أضلت معجزات الرسل أممًا . فإن عيسى عليه السلام لما أن أحيا يعاذر بن مريم المجدلية عند ما طلبـت منه أمه عليه السلام ذلك فأحياه بإذن الله تعالى . قال له بطرس :- أحد حوارييـه - أنت الله . فاشتد غضب المسيح عليه السلام، وذلك لأن المعجزة أثرت على بطـرس تأثيرًا أخرجه عن الاعتدال . وكثير من اليهود يدعون أن العزير هو ابن الله لما أماته الله مائة عام وأحياه . وقد أضل موسى السامري بني إسرائيل بالعجل الذي صـنعه مـن الذهب المسروق من آل فرعون : وأمثال هذا كثير . فلم يتحدَّ الله قريشًا بمعجـزات محسوسة لأنها كما ذكرنا إما أن تضل أو تنسى . فكم من معجزة تذكر ولا تؤثر على السامع التأثير المراد بها لأنه لم يشهدها، وتحداهم بالقرآن المجيد الذي هـو معجزتـه الحقيقية ﴿ ﷺ وآله﴾. وهو المعجزة التي لا تزال بهجتها تزداد، ونورها يسطع . يعجز الله به كل جبار عنيد، وتخشع له القلوب إذا تلي، ويسجد له العقل إذا قريء، وتأنس به الأرواح إذا رتل .

بين الله لنا فيه ما لابد من معرفته . وأشهدنا فيه جميل أوصافه ونور أسمائـــه، وجمع لنا فيه العبادات والآداب والمعاملات والأخلاق المحبوبة لحضرته . فهو الشـــمس المشرقة على فلك العلا لا تغرب، وهو المعجزة القائمة لإخراج العالم من ظلمة الشرك والجحود إلى نور التوحيد والإيمان . لذلك تحداهم الله بكتابه العزيز الـــذي لا يأتيــه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولم يذكر المعجزات التي تفوق كل معجزات الرسل قبله من الأحداث التي أدهشت من شهدها وانتشرت بين العالم أجمع، وتنقلها الـــرواة بالتواتر إلى اليوم . بل ذكر القرآن المجيد عند النبوة، لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾خاتم الأنبياء ورحمة الله بالعباد، جعل كتابه المترل عليه معجزته التي يقيمها حجة على كـــل منكر مرتاب . فالقرآن الكريم دعوى وحجة، ولم يسبق لرسول من الرســـل الكـــرام عليهم الصلاة والسلام أن الله تعالى يترل عليه كتابًا هو دعوى وحجة في آن واحد . ففي القرآن الكريم المقصود من علم التوحيد وعلم المواعظ وعلم العبادات، والقرآن فيه ما يبشر وما ينذر به، وفيه تفصيل العبادات الروحانية و الجسمانية، والأخلاق والتاريخ والعبر، وفيه تدبير الإنسان منفردًا، وتدبير العائلة، وتدبير المجتمعات القروية والمدنيـــة والمجتمع العام، فهو معجزة وكتاب .

أخاطب العقل الذي يعقل عن الله أما العقول التي حبستها المـــادة ولوازمهـــا، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، والذين غرهم ما اخترعوه من المادة التي هي مخلوقة مسخرة بإذن الله تعالى لنا، وإن العقول التي اخترعت والأيدي التي صنعت مخلوقة لله، وأمثال هؤلاء المبعودين عن فقه آيات الله لا نقيم لهم وزنًا فإنهم إنما ضـــروا أنفســـهم ونظراءهم ممن هم على صورة الإنسان، وهم أضل من القردة والخنـــازير لأن بيـــان القرآن في دلائل التوحيد ودلائل النبوة كالشمس في رابعة النهار لا يشهدها الخفافيش . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ بيننا الريب في قوله ﴿ فِي رَيْبٍ ﴾ وهو الشك مع العناد . ولما كان الريب في رسالة خاتم الأنبياء بعد إقامة تلك الحجج القوية من الأمور المستقبحة عقلا التي يجب أن لا تكون .

أتى الله بحرف (إن) التي للتشكيك في معناها، ولم يقل " إذا " بَدَلَها ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ من هنا للبيان، لأنها بينت حقيقة المشكوك فيه عند الممرورين، وما يراد بها القرآن الكريم . وإن قال بعض العلماء إنها للابتداء أو للتبعيض فجائز . لأن الشك في بعض الحقيقة شك في الحقيقة . قوله تعالى : (نزلنا) معناها أن القرآن نزل نجومًا، آيات، بحسب الأحداث لأنه لم يقل سبحانه أنزلنا لأن الإنزال نزول الشيء دفعة واحدة . وأما التتريل فترول الشيء مرة بعد أخرى . وقوله : (عَلَى عَبْدِنَا) أتى بكلمة (على) بدل اللام إشارة إلى الاستعلاء بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً ﴾ فكأنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾متعين عليه الدعوة، ولفظ عبدنا أشرف وصف يصف به الله خير أحبابه، وهي ، الكلمة التي حفظت بها قلوب المسلمين من أن يتجاوز حد الأدب مع الله تعالى في رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فإننا والحمد لله حفظنا الله بكتابه العزيز من أن نتجاوز بحبيبنا ﴿ ﷺ **وآله**﴾مقام العبودية الأمر الذي به نجاتنا . وكم زلت أقدام الأمم السابقة فجعلوا الأنبياء أو ورثة الأنبياء في مقام الألوهية أو الربوبية . أعاذنا الله وإخواننا المسلمين جميعًا .

يقول الله تعالى : ﴿ نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ بنا التي للتعظيم، إشارة إلى تفريد خاتم المرسلين بمقام الإعظام والإجلال، وإذا كان المتبوع في أرقى مقامات القرب والحب من الله تعالى، فأتباعه يفوزون بقسط وافر من تلك العناية، ولذلك فقد ثبت بتواتر أهل الإيمان أنه شفيع العالم يوم القيامة، وإن أنكر الشفاعة العظمى من حرم مزيد الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾. وقال تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ فيكاشفهم بأسرار مقامات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، مكاشفة يقوى بها الإيمان. ثم إن الله سبحانه وتعالى خاطب أهل البعد خطابًا مفحمًا، وأمرهم أمرًا معجزًا، وصرح في كتابه العزيز فأباحه ﴿ ﷺ **وآله**﴾متمكنًا في تصديق الخبر، متحققًا أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بسورة من مثله لعجزوا . يقول الفخر الرازى إن المراد من السورة التي يأتون بها هي سورة من طوال السور، ولكني

أقول إن مراد الله مطلق لا مقيد ومراده سبحانه وتعالى أن يطالبهم ولو بسورة الكوثر أو الإخلاص، لأن المراد ليس بتحقيق الألفاظ وتنسيق الكلم ولكن المراد كشف تلك الحقائق التي مع عجزهم عن نظمه اللفظي، فإنهم عاجزون عن تلك الحقائق التي كشفها القرآن، وليس المراد حسن لفظ الكلام فحسب، فإن القرآن المجيد معجز من كل جهة، وإنا نرى فحول الفصاحة والبلاغة الذين تفوقوا على نظرائهم كان تفوقهم بما أدمجوه في كلامهم من الأمور الخيالية التي لا تطابق الحقيقة، ولو أن أفصح كاتب أو شاعر أراد أن يكشف الحقيقة على ما هي عليه بألفاظ مجردة عن هذا الحشو لانحطت عبارته رغم أنفه، مع أن القرآن المجيد يكشف الحقائق على ما هي عليه، ومع ذلك فقد بلغ من حق الانتساق وحلاوة العبارة وطلاوة القول، ما سجد له العقل معترفًا أنه ليس بكلام البشر، ولا قدرة لمخلوق أن يأتي بأقصر سورة منه ولا الملائكة .

أخاطب أهل العقول السليمة، أما الذين ليست لهم عقول أو لهم عقول مكسوفة بالحظ والهوى، فهؤلاء لا تنفعهم الحكمة ولا تؤثر عليهم الحقائق : عجز والله لسان البلاغة وفحول الفصاحة، ممن كان كبار الفصحاء يسجدون لكلامهم المعلق على الكعبة، عن أن يأتوا بأقصر سورة منه . وكيف لا ؟ وهذه الآية تنادي بأفصح بيان : يا من تعاندون رسولي وتكذبونه وتحاربونه، اجتمعوا وأجمعوا أمركم وأتوا بسورة من مثله .ولعل ممرورًا ممن غرته فنون أوربا التي لم تخرج عن تنويع المادة إلى طيارات وغواصات، يظن أن هذه المخترعات ليست من الأعمال التي كان يفكر فيها الإنسان منذ نشأته الأولى، بعد أن اكتشف الحديد والنار، وأخذ الإنسان يترقى في الصناعات، فقد صنع الجوهري صاحب الصحاح في اللغة طيارة وطار بها قبل إحداث البخار والكهرباء، وانتفع كثير من الصناع في بابل وآشور باستخدام البخار في أمور للنفع الخاص، وأخذ الإنسان يترقى حتى انتفع بالبخار هذه المنفعة . وليس لصناع أوربا فضل إذ الفضل كله للشرق، ولكنه وصل إلى أوربا بعد أن أهمل المسلمون أمر دينهم وتنافسوا الدنيا، وشغل بعضهم ببعض عن العمل لخيري الدنيا

والآخرة . فيقول هذا الممرور إن العرب لم يجتمعوا ليأتوا بسورة من مثله على فـرض هذا، والمفروض غير الواقع أنهم لم يجتمعوا . فعدم اجتماعهم برهان العجز عن إتيـان مثله، ولعل هذا الممرور يلاحظ إيمان فرعون عندما أدركه الغرق، ولو أن عنده قـوة تنجيه من البحر ما قال آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل، فكذلك العرب تحققوا بالعجز و لم يجتمعوا أو اجتمعوا، كل ذلك لا يعنينا . وإذا كانت دول أوربا تشـهد لألمانيـا بالتفنن في اختراع الصناعات ، وقام بعض زنوج أواسط إفريقيا يدعون أنهم أتقـن في الصناعات من ألمانيا لكذبوهم .

فالقرآن أعجز من جميع العالم مَنِ اللغُة لُغَتهُم، والبيان بيانهم، فكيـف يـدعي رجل ربما كان من أبوين أعجمين أن العرب كان يمكنهم أن يأتوا بسورة مـن مثلـه ولكنهم لم يجتمعوا لذلك . إذا كان من يقول هذا مسلوب العقل فكيف بمن يقوم في هذا الزمن من أهل القطيعة والبعد يكذب خبرًا من أخبار القرآن وهو بناء الكعبة . ألا قبح الله من عادى قومه ودينه ثم نصر الأعداء .. لم يكتف الله تعالى بـدعوة العـرب أجمعين أن يأتوا بسورة من القرآن بل دعاهم إلى ما هو أكبر من هذا فقال تعالى : ﴿ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم ﴾يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها والملوك الذين يقدسوهم، هـذه الآيه تدل على أن الله أقام الحجة على عجز العرب أجمعين، وعجز الـذين اتخـذوهم أندادًا من دون الله، وعجز من اعتقدوا فيهم النفع والضر مـن الكهنـة والفلاسـفة والسدنة، ثم ختم الآية بآية هي أشد من لهيب النار وقعًا على القلوب، وهي ، قولـه تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما ترمون به خاتم الأنبياء .

انظر أيها القاريء إلى تترل ربك بكمال رحمته وحنانه بعباده الذين يريد أن لا تكون لهم حجة يوم القيامة، وأن تكون له الحجة البالغة بقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أتى سبحانه بـإن

الشرطية التي هي للتشكيك لسابق علمه أنهم يعجزون عن الإتيان، ثم أتى "بلم" الــتي تفيد نفى قدرتهم على الإتيان بمثل سورة .

ثم بين سبحانه وتعالى أنهم لا قدرة لهم على ذلك لتكون أحرى في إغــرائهم على العمل إن قدروا، وفى قوله : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ الخبر عن الغيب الذي وقع بعــد وهو من معجزات القرآن، لأن الله تعالى أخبرنا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثل ســورة من القرآن، فكان كما أخبرنا سبحانه وتعالى ﴿ وَلَن ﴾ لنفي المستقبل تفيد تأبيد النفي . وصدق الله العظيم . وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الذي بيده ملكوت كل شيء أنزله على خاتم أنبيائه الذي أتى به ليمنح أهل اتباعه كمال اليقين، وما منحــه العالم الإسلامى بالنسبة لكمال يقين رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾كذرة صغيرة – يقــول تعالى : ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾معلوم أن النار مــا يشــعل في الحقائق القابلة للتفريق، فالنار شيء وما يوقد فيها شيء آخر، لأن نار الآخــرة هــي حقيقة المكان وليست كنار الدنيا التي يلزم أن تتقد في القابل، ويوضع فيها مــا يــراد الانتفاع بالنار فيه في الحقيقة الموجودة بها، كوضع الحديد ليلين والخبز لينضج، ولكن نار الآخرة وقودها الناس والحجارة كأنها مسعرة بغير الحقائق التي تزيد عليها، وكــأن الناس المعهودين هم الكفار كما قال : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وأتى هنا بذكر الحجارة ليفيد أن الحجارة تلتهب من شدة سعير النار، فإذا كانت الحجارة تلتهب فكيف بجسم الإنسان .

وليس المراد بأنه لا يدخلها إلا من كفر بالله فقط بل أهل الكبــائر الــذين لم تخرجهم الكبائر إلى الكفر بالله يدخلونها للتحميص زمنًا لأنهــم كفــروا بغــير الله، فمرتكب الزنا وشرب الخمر والقتل والسرقة وآكل مال اليتيم وآكل الربا يدخل النار إذا لم يتب، لأنه كفر، يعني سترت عنه حقائق أتى بها القرآن . منها قوله تعــالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ والمسلم الذي لا يراقب المعية مراقبة علم أو شهود كأنه كفر

بتلك الحقيقة، لأنها سترت عنه، والكفر في اللغة : هو الستر، فجاحد ربه أو المتخذ نظائر لله أو المعتقد الألوهة في غير الله هذا كافر بالله . وأما المسلم الذي لا يراعي آيات القرآن في عبادته وعمله وفى المنهي عنه فهو كافر لغة مستحق للتطهير في النار لتنكشف له تلك الحقائق جلية، فلا يدخل النار مؤمن كامل ولا يدخل الجنة قليل الإيمان إلا بالتوبة منه في الدنيا أو بعفو وشفاعة يوم القيامة . وليس لنا أن نحكم على الله تعالى، ولكن الواجب علينا أن نراعي آداب الشريعة وآداب الشريعة تقتضي أن يكون المؤمن بين الرجاء والخوف فلا ييأس من روح الله ولا يأمن جانب الله، وهذا أكمل حال المؤمن فينطبع على المحافظة على اتباع الشريعة ويخاف من مخالفتها، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ ﴾ أي تباعدوا عما يوقع فيها من مخالفة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾.

ولما أن أقام الحجج على النبوة أردف ذلك بإنذار أهل العناد بتخويفهم من النار إذا خالفوا و لم يقم هنا دليلا على وجود النار، لأن تقرير دلائل التوحيد وإقامة الحجة على وجود رب تتره وتعالى، خلق الخلق بقدرة ، وحكمة عجيبة، تبرهن تلك الحجج أن ذلك الرب سبحانه وتعالى من كمال عدله يجازي المطيع بالثواب والمخالف بالعذاب .

والحكمة تقتضي أن يكون الثواب في دار النعيم والعقاب في دار الجحيم، أعاذنا الله منها . وتقتضي أن تكون فيه قيامة بعد الموت، وهو الحشر والنشر والحساب، كما أقمنا الدليل على ذلك في كتاب " النشأة الثانية " وقد بين القرآن المجيد دلائل إثبات الدار الآخرة مما ملأ قلوب المؤمنين تسليمًا وتصديقًا قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وآيات الدلائل على قيام الساعة في القرآن لا تحصى . وبعد أن قرر الله سبحانه وتعالى الحجج على صدق

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾بشر من أطاعه وأتبعه بنعيم مقيم ومسرة دائمة لا تنتهي أبـد الآبدين، كيف لا، وقدر ذرة في الجنة خير من الدنيا وما فيها، لأنها دار البقاء في بهجة وفرح وأنس، والدنيا وما فيها لو لم يكن فيها إلا الموت لكفاهـا تعسـة إذا خـالف الإنسان فيها أمر ربه ووصايا نبيه .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

بين الله تعالى في صدر هذه الآية دلائل التوحيد حتى صارت محسوسـة جليـة لكل ذي عقل يعقل عن الله تعالى – فلم يبق على من بلغته دعوة الإسـلام وبلغتـه الدلائل التي أقامها سبحانه على تفريده بالألوهية إلا التسليم المطلق لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ولدينه . أما من لم يرزقوا العقل الذي يعقل عن الله تعالى ، بل وقفوا عند الحس الذي لا تنكشف له إلا المادة ولوازمها، فلم تنفذ نفوسهم الظلمانية من أقطار سمـاء المادة وأرضها، فتسيح في ملكوت الله الأعلى، مشاهدة صفاء الآيات الدالـة علـى عجائب القدرة وغرائب الحكمة، بل وإبداع الحكيم الخلاق العظيم فيما أبدعه سبحانه وتعالى في هذا الفضاء . لا أقول فضاء من الآيات الكونية، ولكني أقول عن الفضـاء بمعنى الوسعة، لأنه ما من ذرة من ذرا ت الوجـود سـواء أكانـت في الأرض أو في الأرجاء والأجواء أو في الأملاك والأفلاك، أو فيما أبدعه القدير القـادر الصـانع في العرش وما حوى، إلا وهي ، تنطوي على آيات لو كوشف بها إنسان بمعناه لفـر إلى الله لما يشهده من العجائب المودعة في كل الأنواع من جماد ونبات وحيوان وأناسى .

وحسبك أيها المشاهد دلائل التوحيد أن تنظر بعين مجردة من الحظ والهوى، إلى أنواع الجمادات وما فيها من الأنواع المتفاوته، لونًا وخصوصية ومزية . وقـد تـرى بعض المعادن يفوق غيره منفعة . فإذا اهتدى بك الفكر إلى المملكة النباتية، ورأيت ما

يظهر لك من ألوان تتفاوت تفاوتًا عجيبًا، وأشكال الطعوم، والــروائح، لعلمــت أن مودع تلك الحقائق هو الذي يقول للشيء كن فيكون .ثم إذا ارتقيــت إلى المملكــة الحيوانية لرأيت ما أبدعه الحكيم الصانع في أفرادها من سكان البحار والقرى والقفار والمدن، ولرأيت كل قدر أنملة منطويا على عجائب الخواص، ولو نظرت إلى ما فيه من أنواع المخلوقات الحية التي لا يمكن أن يعقلها العقل إلا بعد أن يراها بالمجهر، فلا تكاد ترى القطرة من الماء إلا وفيها جيوش من الحيوانات على أشكال شتى وصفات شتى . وقد رأيت بعيني رأسي في قطرة من الماء حيوانات كثيرة، كما رأيت جيوشًــا مــن الحيوانات البرية والبحرية يطارد بعضها بعضًا كالجيوش المنظمة . ولو أنك نظرت إلى الصحارى القاحلة وما فيها من الوحوش الكاسرة والحيوانات، بل ولو نظرت إلى النار وما فيها من حيوان يقال له السمندل، وأنه يعيش في النار و يأكل فيها، ومن خواصه أنه إذا دهن به جسم الإنسان ودخل النار لا تؤثر فيه، ولو رأيت حيوانًا في جــوف قطعة حجر لها مادة نشوية ورطوبة يتغذى بها لتأكدت أن الذي أبدعها هــو القــادر الحكيم المنفرد بالعظمة والكبرياء .

هذا ما يمكن أم أورده عليك مما هو على سطح الأرض من البحار والهواء، ولو علمت يأخي أن في هذا الجو من الحيوانات الصغيرة ما لا تكاد ترى بعينك المجــردة، وأن أصغر حيوان منها منحه الله خواص يمكنه بها أن يقتل الجمل بوخز سنه وقد يقتل الإنسان بوخزه، لا تعجب فقد قال رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾: " الطَّــاعُونُ وَخْــزُ إِخْوَانِكُمُ ٱلْجِنّ " ومعنى الجن : المتستر الذي لا يرى بالعين المجردة . ولو ارتقيت معي أخي إلى الأفلاك وإلى عمار السموات الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلــون مــا يؤمرون لحصل لعقلك روعة ربما أثرت عليه فسلبته، كما يظهر له من العجائــب في انتساقها ودورانها وفوائدها الجمة . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ لجبريل : " هَلْ وَجَبَتِ ٱلْعَصْــرُ فَقَالَ : لا — نَعَمْ . فَسَأَلَهُ ﴿ ﷺ وآله﴾عَن قَوْله : لاَ — وَنَعَمْ، فَقَالَ يارَسُولَ الله : إِنَّ الشَّمْسَ دَارَتْ كَذَا وَكَذَا أَلْفَ مَرَّةٍ بَيْنَ لاَ — وَنَعَمْ " . فاعجب يأخي معي من هذه

العجائب التي أقامها الله تعالى مع أن كثيرًا من الناس ينكر ويجحـد ويكـذب ربـه ويفتري على التاريخ المتواتر كما يفعل الضُّلال الذين تلقوا ما لـيس بعلـم بأوربـا، وزعموا لجهلهم بالعلم أنه علم . وليتهم ستروا جهلهم، ولكنهم يقولون نتكلم بلسان العلم وكذبوا، فإن العلم تصور النفوس رسوم المعلوم الذي لا يصل إليه الحس، أما ما يصل إليه الحس من تلك المادة وما ينوعه العقل منها، فيجعله آلة للصناعة فهذا لـيس بعلم .

وقد برع في هذا المصريون القدماء، فقد اخترعوا للمـادة أشـكالا وصـورًا ورسومًا عجيبة، فرفعوا الأثقال إلى قدر لا يمكن لأهل هذا العصر أن يرفعـوه إليـه كالأهرام . وأتقنوا علوم الطب وحفظ الأجسام من البلى إلى أكثر من خمسـة آلاف سنة، كأجسام الفراعنة القدماء، وبرعوا في فنون الزراعـة . كـذلك الآشـوريون والبابليون والفينيقيون برعوا في علم الأفلاك والنبات والتجارات، ومع بلوغهم الدرجة القصوى في أيامهم كانوا يخشعون بقلوبهم أمام الدينيين منهم ولا يفخرون بما يفـنى . فإن الجمال الذي أودعه الله في الأنواع كلها من الأشكال والألوان والروائح والفوائد والنفع يعجز أكبر كاتب أن يصف حقيقتها . انظر أيها العاقل إلى الألوان في الزهـور وأشكالها، وألوان الطيور وما أبدعه البديع لها من جمال الشكل واللون والمنظـر، ممـا تعجز عنه العقول الضئيلة في المادة، ترى أن العجز عن إدراك هذه الأشياء يدل علـى عمى بصائرهم عن الإيمان، لأنهم ينظرون إلى الصناعات المحدثة ويعجبون بها . ولست أعجب من شيء إلا ما اعترى الأمم الشرقية من الجهل البالغ نهايته، لأنهم يصـدقون الإفرنج في دعواهم الاختراع والحقيقة أن هذه الفنون اتخذها الإفرنج عـن الشـرقيين الإسلاميين وغيرهم، وأتقنوا عملها أو زادوا عليها فنونًا، وليس هذا العلم علمًا إلا عند من يجهل نفسه . وأهل العلم عندهم من اخترعوا غواصات ودبابـات وطيـارات لا ينتفع بها الإنسان إلا فيما يضر ولا ينفع . العلم هو ما هذب نفسك وجملك بحسـن الخلق، وبالتواضع لبني الإنسان وبالرحمة بالخلق . فهل ما اخترعته أوربا أوصـلهم إلى

شيء من هذا الجمال ؟ لا . بل أخرجهم من الإنسانية إلى الوحشية، فجعلهم ينظرون إلى نظرائهم من الأمم كأنهم أحط من الحيوانات، بل كأنهم وحوش كاسرة . وهذا ما تدعو إليه الحاجة عند شرح الآية الدالة على وحدانية الله تعالى .

وبعد أن بين الله تعالى دلائل التوحيد بين دلائل النبوة بالحجج التي تقطع نياط المنكرين، ولا يبقى لمنكر يوم القيامة إلا أنه يرى الخلود في النار أقل ما يستحقه، لأنه رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وظن لجهله أن المعبود هو المادة والجاه والمترلة والمال . قال تعالى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . ثم بين سبحانه : وهي ، سنته العلية في كتبه التي أنزلها، أن يذكر بعد إقامة الحجة على التوحيد، وعيد المنكرين وجزاء المحبين . فذكر ما أعده للكافرين الذين ستر عنهم حقائق الغيب المصون، فلم يصدقوا بها، ولم يسلموا لمن جاءهم من عند الله، ليبين لهم ما يجب أن يصدقوا به ويعملوا به . ثم أورد ذلك سبحانه وتعالى بذكر من أسلموا وصدقوا بوضوح تلك الحقيقة بما أعده لهم يوم القيامة ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ﴾ أما البشرى : فهي الخير بما يسر السامع بخبر لم يكن سمعه من قبل . والذي يبشر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وورثته من بعده والذين آمنوا يعني صدقوا الله ورسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾.

﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ يشير إلى المؤمنين لأن شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة، كل واحدة منها عمل صالح . وهذه الآية دلت دلالة صريحة على أن الإيمان الذي هو التصديق بالقلب لا يكفي للنجاة، بل لا بد من العمل الصالح . وإن كثيرًا من المحدثين يقولون الإيمان تصديق وعمل، والإسلام تصديق وعمل، فالإيمان والإسلام سواء . وكثير من علماء القلوب يقولون : إن العقيدة تكفي في نجاة الإنسان يوم القيامة، ولكن جهل بعض أدعياء العلم فرموهم بما هم برآء منه . ومعنى قولهم رضي الله عنهم أن العقيدة التي بلغت رتبة العين تؤثر على المعتقد تأثيرًا قويًا حتى لا يخالف

الشريعة في نفس ولا أكثر، لأن المعتقد حقًا مترل عقيدته من اليقين مترلة من يعلم أن في هذه الغابة سبعًا كاسرًا، أو أن في هذا المكان كترًا . فالأول لا يتجاوز مكان الثانى، والثاني يحرص على نيل ما في هذا الكتر. كذلك أهل القلوب بلغ بهم اليقين الحق مبلغًا كأهم يرون الله تعالى . وأقل مراتب اليقين أن يرى الإنسان النار والجنة، وما يقـــرب إليهما وما يبعد عنهما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ .

وهنا ننبه فكرك أيها السامع إلى أن الله تعالى يقول : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُـــواْ﴾ وهو رب العالمين، ولكن نرى كثيرًا ممن جهلوا الأدب مع الله تعالى ثم مـــع خلقـــه، يقولون إن فلانًا كافر، لأنه ترك كذا وكذا من السنة أو ترك كذا مـــن الرغائـــب، فينفرون الخلق ويفتحون باب الفتن على مصراعيه، ويحكمون على الله الـــذي يقـــول ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ ﴾، كأهم يقيمون الحجة على أنفسهم أهم علموا الغيب المصون، واطلعوا على القدَر المكنون، ويقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَـــلُ بِعَمَلِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ حَتَّى لا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابُ فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ ٱلنَّارِ فَيَدْخُلَهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ ٱلنَّارِ حَتَّى لا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَـــهُ إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابُ فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ فَيَدْخُلَهَا)، أو يقولون أننا لا نتشبه بسلفنا الصالح . إذا كان الله تعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات بالجنـــات . فكيف يكون حال من شاب إيماهم شوب أباطيل الإفرنج ودعاهم الذين كذبوا على الشرق فمنهم من قال إنه اكتشف كوكبًا يكتسح الأرض في كذا . ومنهم من قال إنه اكتشف آلة يمكنه أن يتكلم بها مع سكان المريخ. ومنهم من يقول إنه اكتشـــف مـــا يطول به العمر . ومنهم من يقول إنه يجعل في الجو سحبًا تمطر مطرًا غزيرًا . وكل هذا يقوله الضالون .

ومن الغريب أن أكثر الذين تربوا في بلادهم من الشرقيين يصدقوهم، ولـــو أن شرقيًا اكتشف حقيقة من الحقائق التي لا مراء فيها لاستهانوا به ! وماذا تقول في قوم

لا يطلبون الحقائق وليسوا من أهلها، وإنما يتبعون من غير تعقل كل قوي قهر غيره واحتل أرضه، وهذا نهاية الكمال عندهم .. ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ . لما كانت البشرى من الله تعالى تقتضي أن المبشر به مناسب للمعطى الوهاب سبحانه، والله يعلم أن القلوب تحب الطمأنينة بهذه البشرى افتتح الكلام بقوله : (أَنَّ) التي تؤكد الخبر وتجعله يقينًا كما قال الخليل عليه السلام : ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بعد أن بشره الله تعالى بأنه خليله . فتصديق البشرى شيء وطمأنينة القلب شيء آخر فأتى الله بأن التوكيدية ليقوى اليقين في القلوب بهذه البشرى، ويكون السامع واثقًا تمام الثقة بأن الله تعالى أعدله ما بشر به وهو سبحانه الصادق في وعده العليم بما يسر عباده . و (جَنَّاتٍ) جمع جنة، إشارة إلى أن لكل مؤمن جنة خاصة ربما كانت أوسع من الأرض جميعًا، كما قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . وتلك الجنة آهلة بما بينه سبحانه في القرآن المجيد : بمقصورات وخيام، وأنهار من ماء ولبن وخمر وعسل، ومن حور وولدان، وزوجات مطهرات، ونعيم مقيم . والجنة هي بستان التفت أشجارها حتى سترت من بداخلها عن خارجها، وكملت كمالا ابتهج به الرائي وتمتع به المحتاج . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي من تحت أشجارها ونباتها - ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ .

يعني كلما تفضل الله عليهم من تلك الجنة برزق وهذا الرزق من ثمارها، تذكروا ما كان يتفضل الله به من الثمار، فحصل لهم الأنس والبهجة برؤية ما كانوا يعهدونه في الدنيا، فلما ذاقوه وشموه ولمسوه ظهر لهم ما أعده الله فيه من الرائحة الطيبة والطعم الشهي، فتحققوا أنه غير ما كان في الدنيا، فازدادوا مسرة وحبورًا وشكرًا لله . وليس المراد أن الثمار هي التي قدمت لهم في الدنيا، ولكن الكلام على حذف مضاف، يعني هذا النوع الذي رزقنا به من قبل أو شبهه أو على حذف حرف الجر، أي هذا من الذي رزقنا به من قبل . ولنا أن نؤول هذه الآية : بمعنى أن الذي يقدم

لأهل الجنة من الثمار يقدم لهم مرة ثانية فيظنونه من نوع واحد، وإذا بـه يختلـف في الطعم والشم واللمس، فيعجبون، لأن الشكل واللون لا يختلفان عما قدم لهـم أولا، ويأخذ العجب منهم كل مأخذ .فتتجلى لهم عجائب قدرة الله وأسرار تصـريفها في الحقائق، ويقول لهم الملك : إن الشكل واللون واحد ولكنهما يتفاوتـان في الطعـم والريح من لذة وطيب، ويكون هذا مزيد شهود لهم في معاني قدرة الله وحكمتـه . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ فما من شيء في الجنة إلا وهو يـتغير مـن حسن إلى أحسن، ومن جمال إلى أجمل، وسبحان من أكرم أحبابه، بما لا عـين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولك أن تقول .

﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي بشرنا به، بمعنى وعدنا بالبناء للمجهـول . أي أن الله تعالى وعدنا بهذا رزقًا لنا، فنحن رزقناه في الدنيا بخير رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وهذا أقرب إلى الفهم وإن لم يقل به أحد من السابقين كما يقول أهل الجنة : ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ . خلـق الله الإنسـان مفطورًا على الأنس، وخصوصًا مما لا بد له منه . ولما كان أشهر ما يأنس به الإنسان وينال به بهجته ومسرته الزوجة الصالحة الجميلة، بشرنا الله تعالى بأن لنا أزواجًـا في الجنة . وهنا يلحظ القاريء أن أزواج الجنة مطهرة مما يعتري أزواج الدنيا من الحيض والمرض والبول والغائط، مما ينغص الحياة ولا ينال الطهر في تلك الدار الدنيا، لأنها دار البلاء وشر البلاء في هذه الدار الدنيا سببه النساء لفقد الأخلاق الجميلة منـهن قبـل دخولهن الجنة التي بها يكمل جمال الزوج . قال رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : (ٱلنِّسَـاءُ عُوَجٌ لا يَعْدِلُهُنَّ إلا ٱلطَّلاقُ) . قوله تعالى : ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كمال البشرى أن هذه الكلمة تطمئن بها قلوب أهل الجنة . وأي إنسان في أكمل النعـيم وأتم الصـفاء يخطر على قلبه الموت ويأنس ولو كان ملكا نافذ الكلمة مطلق التصرف، فإن ذكـر

الموت ينغص كل نعيم، وكفى بالدنيا تعسة أن في آخرها الموت . هنـا يناسـب أن نتمثل ما في هذه الآية . فلما سمع المؤمنون قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُـواْ الصَّالِحَاتِ﴾ تشوقوا إلى تلك البشرى من الله تعالى وتحققوا أنها كمال النعمة، فقـال سبحانه : ﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين، وهم في تلك الدار الدنيا في عناء من تحمل الشدائد في سقى البساتين وخصوصًا في زمن تحكم فيه من لا رحمة في قلوبهم،فـأزال الله من قلوبنا ما خطر بها بقوله:﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ولكن تذكرنا أن تلك الأشجار تثمر ثمرًا من محفوظ النوع والطعم والربح، وذلك يجعل مستعمله ربما يمـل منه، فأغاثنا الله وأزال ما خطر بقلوبنا فقال تعالى : ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾وإذا به كالذي رزقوا من قبل لونًـا وشكلا لا رائحة وطعمًا، فتمت المسرة والابتهاج، وتمت محبتهم في المتفضل علـيهم لمزيد إحسانه، فتتجدد لهم المسرة والحبور في كل نفس بما لم يكن يخطر على بالهم، ولا سبق لهم أنهم تمتعوا به من قبل – قال تعالى : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ اطمأنت قلوب القوم بما أوتوه من هذا النعيم بوعد الله الصادق في الدنيا، ولكن رغبوا أن يكون لهم في الجنـة أنيس يشاكلهم مما كانوا يأنسون به في الدنيا، فعلم الله ما في نفوسهم فقال : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ ولفظ مطهرة يشمل الكمال الذي لا يعتوره نقص من حـيض ونفاس وبول وغائط ونوم وملل وفتور ومرض ينغص الحياة . فلما أن بشرنا الله بهـذا الذي هو كمال أنسنا تبادر إلى الفكر مصيبة الموت فيها، فأزال الله عنا كـرب هـذا الخاطر، فقال سبحانه : ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

وهو معنى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (تَمَامُ ٱلنِّعْمَةِ لْجَنَّةُ)، فكانت الحياة في الجنـة حياة الأنس لا تشوبها وحشة، وفرحًا لا يشوبه حزن، ولذة لا يشوبها ألم، وخـيرًا لا يشوبه شر، وبقاء لا يشوبه موت ولا فناء، كما قال تعالى : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُـرُرٍ مُّتَقَـابِلِينَ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

أيها المؤمن : إن الله الذي صورك في رحم أمك وأخرجك طفلا، فوجدت مالا بد لك منه وأكمل من والدة تحنو عليك، وغذاء يناسب طفوليتك، وألقى عليك محبة منه، فأدخل بوجودك السرور على والديك وإخوتك فلا ينظر إليك أحد إلا وعطف عليك وقبلك وضمك إلى صدره، ووجدت أرضًا تقلك، وسماء تظلك، وكواكب تضيء لك، وأنهارًا تجري حولك، ونباتات متنوعة لقوتك ولباسك، ووجدت نسيمًا عليلا لمسرتك، فتتنفس فيه لحياتك، ووجدت من الخيرات التي لا تحصى ولا تعد، وكل ذلك هو غني عنك وأنت الفقير إليه سبحانه، فهل بلغ من جهلك بربك أن تنسى ما أنعم به عليك مما لو كلفت بأقل القليل منه لعجزت أنت والناس جميعًا وهذا فعل القوي الغني الكبير المتعال . فهل تذكرت أيها المؤمن فذكرت . أو استحضرت فحضرت، أم نسيت نعماه، فلم ينسك، وخالفت أمره فلم يسرع بالعقوبة، وبارزته بالمعصية فغفر لك وعفا عنك، وهذا شأن الرب الكبير المتعال، فهلا فكرت في الحال والمآل، فخجلت من إحسانه إليك وإساءتك إلى نفسك، فإنه سبحانه ما أغدقه عليك من النعم، بعد أن أوجدك من العدم وأعد لك سبحانه ملكا كبيرًا ونعيما مقيما، وبشرك إلا لتشكره وتذكره فلا تنساه سبحانه ولا تعصيه، وأن تعبده وتوحده فلا تخالفه ولا تجحده .

أيها المؤمن : إن ربك يحبك ويحب لك دار الكرامة، فسارع إلى العمل بأوامره وترك نواهيه، فإنك ضعيف لا تقوى على عقوبته، واسأله أن يقيمك حيث يحب ويرضى، ولا تسارع إلى ما يكرهه فتعصيه للطمع في الدنيا أو للخوف من العبيد أمثالك، فإن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوك بما لم يقدره الله لك ما فعلوا، لأنه هو الضار النافع، ولكنه وضع الأشياء لتدرك العقول بها العلم بالله الذي وضعها . أعاذنا الله وإياك ياأخي من أن تحجبنا الأسباب عنه سبحانه، أو أن يدعونا الحظ والهوى أن نطمع فيما يفنى ونترك ما يبقى .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴿٢٦﴾

قبل أن نشرح هذه الآية الكريمة نقدم مقدمة تبين سر نزولها . ذكر الله القرآن المجيد في الآية السابقة وتحدى به فحول البلاغة فعجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة منه، فثبت أن القرآن دعوى وحجة . فرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يقول للعالم أجمع هذا كلام الله ومع كونه كلام الله فهو معجزتي التي تقيم الحجة على صدقي و لم يأت رسول من أولي العزم إلا ومعجزته غير دعواه، ولذلك فكل رسول منهم تناست معجزته بموته إلا خاتم الرسل فمعجزته العلية باقية ما بقى العالم، ذلك لأن المعجزة التي تحدى الله بها العالم أجمع هي القرآن، والقرآن المجيد غض طري تنكشف أسراره الخفية كلما تعاقب الليل والنهار، فإنه ما من عصر يتجدد معه أسرار كونية، أو صناعية أو أحداث إلا وفى القرآن تنبؤ بها و لذلك فإنك ترى كل الرسل السابقين قد بدّل أممهم وضلوا عن مناهج رسلهم حتى جاء هذا العصر بما جعل كل أمة من أمم أهل الكتاب يتبرأون من دينهم السماوي، إلا أمة القرآن، فإنهم كلما كرت الدهور ومرت العصور، يجدون في القرآن كنوزًا يفتحها لهم ما يتجدد من المخترعات، وما ينكشف من أسرار الكون، وما يقع فيه بعض المسلمين مما يراه الجمهور استهانة بالدين، كتغيير الأزياء ورد الأوضاع التي وضعها أهل الجهالة للملوك، ومن الرجوع إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إنما هو من وسعة القرآن ومما فيه من التيسير، لأن القرآن نعمة الله ورحمته للعالم ولإباحة ما لابد منه للمصالح العامة .

وجوهر الإسلام : العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، وللمسلمين الوسعة فيما يتعلق بمصالحهم الخاصة والعامة ما اتقوا الله تعالى في أركان الإسلام،التي هي العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة . ولما أن ذكر الله القرآن مبينًا ماله من الفخامة والمكانة التي لا يدانيه فيها كتاب سماوي، أنكر اليهود والمنافقون وكفار قريش ما هو

من كمال الكتاب، فكان إنكارهم حجة قاصمة لظهورهم، على أنهم أضل من الأنعام : أنكروا ضرب الله الأمثال بالصيب وبإيقاد النار . أنكروا ذكر الله العنكبوت والذبابة والنحل، وظنوا لعداوتهم أنهم نالوا من القرآن نيلا فأذلهم الله وأخزاهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾.

افتتح سبحانه الآية بقوله : ﴿ إِنَّ ﴾ التي تفيد التوكيد، تنبيهًا للعقول أن الآيات التي تأتي بعد أن تتضمن أسرارًا عالية، وتكشف الحجاب عن غيوب تقصم ظهور الألداء، وتطمئن قلوب الأولياء، والاستحياء : هو انفعال نفساني يحصل به اضطراب القلب من وقوع ما لا يرضاه من نفسه، أو من طلب إحداث ما يكره أن يراه الناس عليه، هذه بداية الاستحياء . أما نهايته : فهي ترك وقوع هذا العمل . والمعنى الأول لا يليق بجلال الله تعالى وعظمته، فإنه تعالى تنزه عن أن يتأثر بعمل أو يمنعه الحياء عن عمل، فإن الحياء عبارة عن ضعف قوة الحي عند تأثره . والواجب علينا أن نسلم لله فيما يقول .ونترهه عما لا يليق بجلاله، فكأنه سبحانه يقول : إن كمالي الذاتي من شأنه أني لا أفعل إلا ما هو كمال أو جمال أو جلال . وللعقل هنا جولة . ونهاية حكم العقل أن المراد بالحياء هنا غايته ونهايته لا بدايته ونهاية الحياء أن الله تعالى لا يقول ولا يعمل إلا ما هو كمال لا يستحي منه . والواجب علينا في كل ما يشابه هذه الآية أن نرده إلى حكم هذا العقل الكامل إذا لم تنكشف لنا الحقائق النورانية التي يلهم الله بها عباده الصالحين لطمأنينة قلوبهم ﴿ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ وضرب المثل اعتماده وصوغه، فيضرب لصوغه ويقيمه حجة . و﴿ مَثَلًا ﴾ومعلوم و﴿ مَّا ﴾نكرة مبهمة جعلت لفظ ﴿ مَثَلًا﴾ متوغلة في الإبهام . والمعنى : لا يستحى أن يضرب أي مثل بأي حقيقة كانت ﴿ بَعُوضَةً ﴾ أصغر الحيوانات حكمًا وأقواها تأثيرًا، أو في ذكرها إشارة إلى أن بعض البعوض لا يرى إلا بالمجهر لصغر جسمها، ومع ذلك فإن لها عينين وأذنين وأرجلا وأيديًا وأعضاء باطنه، كالمعدة والأمعاء والكليتين والقلب والطحال والكبد والمرارة والعظام والشرايين وغير ذلك، مما هو لأكبر حيوان .

فسبحان من لا يعلم قدره غيره.وهناك سر أغمض من هذا : هو أن تلـــك البعوضـــة الحقيرة لها خرطوم كخرطوم الفيل ينفذ في جلد الفيلة والكركدن التي تمنع الحديد أن ينفذ فيها إذا طعنت به وبعض البعوض يقتل الفيلة بخرطومه الذي لا يراه الإنســـان إلا بالمجهر . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ٱلطَّاعُونُ وَخزُ إِخوَانِكُمُ ٱلْجِنِّ) فسمى هذا البعـــوض الجن، لأن العين المجردة لا تراه . والجن : هو ما اختفى عن النظر . وهناك سر آخـــر وهو أن كل البعوض يمتص دم الحيوانات أو يترل على القاذورات والعفونات، فيمتص حتى يمتليء، وينقلب ميتًا، كأهل الطمع في الدنيا . وفوق ذلك سر وهو أن البعـــوض يترل على العذرة فيحملها، ويترل على وجوه المتكبرين ليريهم كـــذبهم وحقـــارتهم، وكأن الله تعالى يقول إن البعوض مع خسته وحقارته يعلو وجـــوه أهـــل الكـــبر ولا يعتبرون . والبعوضة مأخوذة من البعض وهو الشيء الصغير ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه اكتفاء بذكر ما فوقها عن ذكر ما دونها وهو ملحوظ في المعنى ولك أن تقول ﴿ فمَا فَوْقَهَا ﴾ من القلة أو من الضخامة، ثم بين الله تعالى حال أهـــل تصـــديق الله ورســـوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وضلال أهل العناد والكفر فقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُـــونَ أَنَّـــهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ومعنى ﴿أَمَّا ﴾ الشرط والتفصيل . والمعنى مهما يكن مـــن أمثـــال يضربها الله تعالى لشيء حقير أو عظيم، فإن المؤمنين لما أطلعهم الله عليه مـــن أســـرار القرآن وبما كاشفهم به من بدائع إبداع صنعه في الكائنات، فهم يعلمون علم يقين أن تلك الحقائق المذكورة في القرآن وأن الأمثلة المضروبة فيه هي الحق الثابت في عينه ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾أي كذبوا الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّـــهُ بِهَذَا مَثلا ﴾ . يعني أنهم يعجبون في أنفسهم الخبيئة التي لا تعقل عن الله الأمثال المبينة للحقائق، التي عجز العقل عن إدراك غوامض أسرارها، ولا يمكن أن تشـــرق أنـــواره العقلية إلا لنفوس صيغت من أصفى الجواهر الروحانية، لأن الأسرار التي هـــي فـــوق العقول لا يمكن أن يتذوق حلاوتها إلا من اصطفاهم الله وصبغهم الله بصبغة القبـــول، ولونهم بلون عالم الأرواح العالية . قال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِـــنَ اللّـــهِ

صِبْغَةً﴾ فهم يتعجبون كيف أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يدعى أن هذا القرآن كـــلام الله تعالى، وكلام الله تعالى : لا يكون فيه ذكر العنكبوت والنحل والنمل والـــذباب والصيب والبرق والرعد جهلًا منهم ناشئًا عن حرمانهم من القوة التي تقبـــل الفـــيض المقدس الذي جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . يقولون قبحهم الله تعالى : ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ يعني أي الحكمة يريد الله من ضرب هذا المثل فـــرد الله مشنعًا عليهم وقصم ظهورهم بالحق، مبينًا حقيقة التوحيد بقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِـــهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وهنا تأول بعض من لم تنكشف لهم مشاهد التوحيد العلية أن قوله : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) من مقول الكفار خوفًا من نسبة الإضلال إلى الله تعالى . وهنا يلزم أن أضع نبراسًا تنكشف به كل الحقائق التي وردت في القرآن وتترعج منه العقول الكليلة .

اعلم أن العلماء قسمان : قسم وقع به العلم على عين اليقين، حتى باشر الحـــق سويداء قلوبهم، وهم الذين عملوا بما علموا فعلمهم الله ما لم يكونوا يعلمون، بل هم الذين وهب لهم العقل الذي يعقل عن الله سر العلم المقدس على لسان العارف الرباني فسمعوا، فاقشعرت جلودهم بما سمعوا مما أنزل الله تعالى ثم لانت جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَـــعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

ما هؤلاء العلماء الذين يتأولون كلام الله تعالى تأويلا يناسب عقولهم، فوضعوا أنفسهم موضع الخائف على الله تعالى من أن يلحقه نقص إذا سلموا له كلامه تسليما ؟ أما أهل المعرفة الذين كاشفهم الله تعالى بباطن القرآن فهم ورثة الصحابة والتابعين، وهم الذين منحهم الله الخشية منه بما علمهم . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـــهَ مِـــنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ وهؤلاء هم الذين يسلمون بظاهر القرآن ويسلمون لله تعالى في كلامه

تسليما لا يشوبه انزعاج من أي عبارة كانت . قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ إنه سبحانه وتعالى له يد لا كالأيدي . فتزه أيها الطالب للعلم، وهو مذهب السلف الصالح . وعلى ذلك فالواجب علينا أن نعلم حق العلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بعلم وتدبير .وقدرة وحكمة، وكتب لكل مخلوق من أي نوع من الأنواع كل الشئون التي تعتوره . قال تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

خلق الله نفوسًا من أسفل سافلين وغيرها من سافلين، وخلق نفوسًا من عالين وعليين وأعلى عليين، فترى النفوس السافلة قبل بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم تسارع إلى إهراق الدماء وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وتميل إلى التفرقة والعناد والشقاق، ولكن لا تنسب إلى هداية ولا إلى إضلال، حتى إذا بعث الله رسله نزعت بهم نفوسهم إلى معاندة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهم شر في الحقيقة ونفس الأمر . فمعنى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ أن القرآن الكريم كالبرزخ الذي ميز الله به بين مراتب النفوس، فمن قبله وثابر على العمل به دل على أن نفسه ملكوتية تقبل عن الله تعالى ما نزله على نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾، أما من أبي أن يقبل وأعرض عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعاند وحارب، فقد أقام الحجة على نفسه أنها نفس إبليسية من سجين البعد والقطيعة . فيضل به كثيرًا على قول العلماء يرد به عن الجنة أو عن الدين أو عن الإيمان كثيرًا، لأنهم لم يقبلوا من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما جاءنا به من عند الله تعالى . وإن كان الإضلال نسب عمله إلى أنواع كثيرة : فنسب إلى إبليس، ونسب إلى بعض الأناسى، ونسب إلى فرعون، وإلى موسى السامري . وقد وردت الآيات في القرآن لكل تلك النسب نترك ذكرها هنا للعلم بها . والإضلال في تلك الأخبار يراد به الحجب عن قبول الهدى من النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ والواجب على من أسلم وجهه لله وأناب إليه سبحانه أن يؤمن بكل ما جاء به القرآن، ويعمل بما فهمه، ويكل مالم يفهم إلى الله تعالى، متوجهًا بقلبه وقالبه إليه سبحانه، قال الله تعالى آمرًا

سيدنا ومولانا محمدًا ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾وهذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فكيف بغيره . وإنا نسأل الله تعالى السلامة من الفتن . فإن كثيرًا ممن يدعون العلم تبلغ بهم الجهالة أن يحكموا على كلام الله تعالى بما لا يليق أن يحكم به المسلم وهذا من سوء الأدب مع الله تعالى، لأنه هو الحكم جل جلاله، وله الحكم تنزه وتعالى قال سبحانه : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ ﴾ وقد شنع الله على من لا يحكمون بما أنزل الله بقوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾و ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ نعوذ بالله ممن خالف حكم الله تعالى وليتهم إذا خالفوا حكم الله تابوا ورجعوا إليه وأنابوا . لا ولكنهم تحققوا أنهم حكموا وأصابوا وتقربوا إلى الله تعالى بما لم يتقرب به أحد . وليتهم فقهوا خطيئتهم الكبرى، وعلموا أن الله سبحانه وتعالى يحكم حكما حقًا . بقوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ والفاسق هو الخارج من الهدى إلا الضلال . وفى اللغة : فقست الدجاجة بيضها، أي أخرجت فراخها، وفقست الحية : خرجت من ثوبها، فالخروج من الهدى فسق . وكأنه يقول سبحانه:﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ ﴾يعني بالقرآن ﴿ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ الذين دعاهم الله تعالى إلى السعادتين : سعادتي الدنيا والآخرة على لسان محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فأبوا أن يصدقوه وليتهم تركوه وشأنه ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكنهم صدوا عن سبيل الله واضطهدوا كل مسلم، وأخرجوه من بلد أبيه وأمه مهاجرًا إلى دار الغربة، ولكن الله تعالى آواه وأيده ونصره، وخذلهم وأضل أعمالهم . وشدد سبحانه في التشنيع عليهم وتقبيح أعمالهم وآرائهم

فقال تعالى : الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿٢٧﴾

معلوم أن النقض لا يكون إلا في الأشياء المحسوسة المادية، فيقال نقض البناء والغزل، ولكنه استعمل في العهد على طريقة التجوز، ومعنى نقض العهد مخالفة ما

أخذوه على أنفسهم أن يقوموا به، وعاهده أي عاقده على أن يؤدي كذا أو يقوم له بعمل كذا، وهنا تحلوا الإشارة فخذ بها إن شئت.

ما هو العهد المنسوب إلى الله تعالى ؟ وهل هو عهد على حقيقته ومعناه ! أم لا ؟ أي أنه عهد بما أجلاه الله لنا من دلائل القدرة وعجائب الحكمة وساطع البرهـــان، وما آتانا به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾مما تضمنه القرآن المجيد وبينه لنا ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾، فإن كان المراد بالعهد الحجة الواضحة للعقول الدالة على تفريده بالألوهية وتحقيقنـــا بالعبودية . كان عهدًا للعقول السليمة من دنس الحظ ونجاسة الهوى . وكفى به عهدًا لأهل البصائر فخذ بالإشارة لتعقل عن الله ما أشهده أولياءه الصادقين .

إن الله تعالى قبل أن يخلق الأفلاك أراد وكان أول إرادته أن يجعل خليفة لـــه في الأرض التي هي محل التكليف والتعريف وإظهار عجائب قدرته وغرائب حكمته بـــل محل الطاعة والمعصية بل محل الرسل والأولياء والشياطين المردة والكفرة والعصاة، بـــل مهبط وحيه ومحل تنزلاته بجماله وجلاله وبهائه وضيائه ونوره . وعلمه جـــل جلالـــه محيط بالحقائق قبل إيجادها لأنه يعلم بعلم أزلي قديم أنه قائم بذاته . والحقائق كلها في حضرة هذا العلم العلي سواء قبل إيجادها وبعد إيجادها وبعد فنائها أو انتقالها إلى الدار الآخرة، لا تختلف في علمه العلي حقيقة ما من أقل ذرة من ذرات الجمادات لأكـــبر جرم من أجرام الأفلاك السائرات والثابتات . وقد نفذت حضرة القدرة ما ســـبق في الإرادة مما أحاط به علمه أن يوجد الذرية الآدمية ثم يتجلى جل جلاله من غير حجاب ولا سبب كوني بل بنور وجهه العلى، فيشهد كل تلك الذرية هذه الأنوار، فيخاطبهم مخاطبة من يأخذ لنفسه العهد علينا فيقول سبحانه ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ .والمشهد جلـــي والقول بين والحقائق خاشعة فاقتضت تلك الحقائق كلها أن تقول (بلى) أي أنت ربنا ونحن عبيدك .

ولما سبق في حضرة العلم الإلهي من أن الإنسان يكون مكونًا من حقيقة جسمانية هي الهيكل الإنساني، ومن لطيفة روحانية هي الروح وكلاهما متضادان، فالهيكل من السفل وينحط إليه خلقًا وعادة وميولا، والروح من العلو وتصعد إليه .

ولما كان الإنسان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم يميل بكليته إلى ما يلائم الجسم، قدر سبحانه وتعالى أن يقيم الحجة لنفسه علينا فقال الله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

وتلك الآية الشريفة تقيم الحجة على أن كل إنسان موهوب له قوة عقلية يمكنه أن يصل بها إلى الحق، فإذا أهمل تلك القوة وقلد والديه أو أخذانه لم تكن له حجة على الله تعالى، لأن الله عاهده معاهدة معاملة بينه وبين عبيده، وأشهدهم جماله وأسمعهم نص عهده بكلامه المقدس الذي منحهم قوة منه يعقلون بها كلامه .

هذا عهد الله جل جلاله، وهناك عهد آخر هو لله أيضًا بنص قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهو عهد رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لسلفنا الصالح الذين بقبولهم له وجب علينا أن نقبله بصفتنا مسلمين .

وهناك عهد ثالث هو أيضًا لله سبحانه وتعالى وهو ما أجلاه للعقول الكاملة من بدائع إيداع صنعه ومن لطائف لطفه، فإن أدنى عقل لو تمثل ما سخره الله له في السموات والأرض من أنواع النباتات ومن نسيم عليل يمر عليه ليحييه . ومن ماء نمير تفيض به سحب سخرها ربك جل جلاله، ومن أنهار عذبة كأنها الروح لجسم الأرض ما مرت على أرض ميتة إلا أحيتها، ولا قفرة إلا عمرتها . ثم ما فوق ذلك من أجواء وأرجاء وأفلاك، كل ذلك خلقه ربك للإنسان . وما خفى علينا مما لا يدركه الحس ولا العقل إلا بالرياضة الشرعية من أسرار الحكمة في الإيجاد والإمداد، ومن آثار

القدرة ومن الآيات العلية الجلية للعارفين الخفية عن الغافلين، بل ومن تجليات أسمائـــه وشروق شموس صفاته . كل ذلك عهد عند أهل العقل الذي يعقل عــن الله تعــالى، ناطق بلسان حال، وإن لم ينطق بلسان قال – قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴾ .

هذه العهود التي ذكرناها هي التي يذكرنا بها ربنا جل جلاله، ولكــن قتــل الإنسان ما أكفره .

ينقض عهد الله من بعد ميثاقه ولولا أننا نحب الاختصار لكشفنا أسرار هــذا العهد ولكنا نكل الأمر إلى قوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : (من عمل بما عمل ورثة الله علم ما لم يعلم) . وما أحلى علم يلهمه الله أولياءه وبكاشفهم به من غير تعلـيم فيمـــنحهم المشاهد القدسية والمواجهات الربانية والسياحات الروحانية التي تنفــذ مــن أقطــار السماوات والأرض باليقين الحق (وبعيشك أيها القاريء هل من ســاح في الطــين والمباني كمن ساحت روحه الربانية في الملكوت فشاهدت المعاني ؟ لا يستويان .

قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ يعني من بعد توكيده وإقرارهم بالقبول والعزم على أن لا ينسوا هذا العهد ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ صاغ الله نفــوس من سبقت لهم منه الحسنى من نور جماله فسارعت بتوفيقه وعنايته سبحانه إلى محابــه ومراضيه، بعد أن بين لنا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ما يحبه جل جلاله ويرضــاه مــن القول والعمل والحال ومن تصريف النوايا . وخلق نفوس من سبقت لهم السوءى من ظلمة البعد وأرسل لهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فبينوا لهم مناهج الاســتقامة وسبل القرب من الله تعالى فسارع أهل النفوس النورانية إلى قبول ما جاءت به الرسل وارتد عن القبول أهل البعد والقطيعة وهم الذين أخبر الله عنهم مشنعًا عليهم ومقبحًا أعمالهم بقوله : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ والله تعالى أمر ببر الوالــدين وصلة الرحم وبإكرام الضيف والجار وبنصرة المظلوم . أمر بالتعاون على البر والتقوى

أمر بصلة الأتقياء والعلماء العاملين . بل أمر بكل خير وهى عن كل شر ولكنهم يستبدلون الخير بالشر وينأون عن الخير إلى الشر في حكم القطع كالذى يقطع حبلا أو يقطع ما يقطع مما هو مادة . والقطع في الحقيقة قطع الشيء عما هو متصل به وبعده عنه وكذلك فعل المنكرات وترك عمل المأمورات كأنه قطيعة، لأنه فصل العامل عن نيل رضوان الله وأبعده في الحقيقة عن القرب من الله تعالى . وكل ما أمر به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فهو من أمر الله قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوي ﴾ .

ومعلوم أن المخالفة دليل على الاستهانة بالآمر وكفى المخالف شرًا أنه استهان بربه، وسيأتى عليه يوم يرى أن عذاب جهنم أقل في نظره مما يناله من الهم والحزن بسبب مخالفته ومن ندمه على ما فرط في جنب الله . وكيف يرى المسلم أنه يرضى حظه وشهوته، ويغضب ربه سبحانه وتعالى، وهو يعتقد أن ما يناله من حظه وشهوته يوبقه في عذاب الله تعالى .

قوله : ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ الإفساد في الأرض خاص بالمعاملات والأخلاق . وعجيب أن الإنسان يمن عليه ربه بالمال والعافية أو بنفوذ الكلمة ويأخذ نعمة الله تعالى فيظلم بها عباده ويؤذى بها خلقه، ويجهل هذا المغرور أن الذي وهب العافية والمال ونفوذ الكلمة رءوف رحيم غيور لخلقه فينسى أمر الله بل وينسى الدار الآخرة ويعتقد الخلود في الأرض ولديها يستدرجه الله تعالى . نعود بالله من استدراجه سبحانه . ويظن هذا المفتون أن القوة والملك والسلطة تدوم فلا يلبث إلا وقد رحم الله عباده فيغيثهم بإحسانه وعطفه وينتقم من الظالمين بما يسلط عليهم سبحانه من خسف أو غرق أو بركان ينفجر أو يسلط قومًا من الظلمة الطغاة كما سلط سبحانه على قيصر الروس وجنوده وعلى اليونان وسيسلط قريبًا على المفسدين في الأرض من دول الإفرنج ما يسلب منهم الملك ويزيل منهم القوة فيصبحون أذل خلقه فإنه سبحانه

يقول : ﴿حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَــآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ .

وشر العقوبة ما ينتقم الله به ممن يفسدون في الأرض بعد إصلاحها . وقد أفسد المستعمرون في الأرض مغتربين بما لديهم من كثرة الجنود وقوة الآلات الجهنمية الـــتي ملكوا بها البر والبحر والجو على الأمم الآمنة في أوطانهم . فأفسدوا في الأرض بتدمير المدن العامرة . وإبادة الأنفس الآمنة . بالخديعة التي عجز عنها إبليس فتراهم يزعمون أنهم مصلحون وأنهم يحررونَ الرقيق ويرفقون بالحيوانات ويمحون الظلم ويرقون الأمم بالعدالة والحرية والمساواة فإذا اتحدت أمة بهم وقبلت منهم سلبوا منها مرافـــق الحيـــاة وأذلوا عظماءها ورفعوا أدنياءها وحاربوا دينها واستعانوا ببعضها عليها كمـــا فعـــل المستعمرون في بلاد الشرق ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .

فإنه سبحانه وتعالى يقول بعد هذا التشنيع ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾يعنى أنـــه سبحانه وتعالى يخبرنا أن من نقضوا عهد الله من بعـــد ميثاقـــه وأفســـدوا في الأرض سيعودون بالخسران في الدنيا بسلب الملك منهم وإرجاعهم إلى ما كانوا فيه من الذلة والقلة وتمكين الأمم المستعبدة منهم . وفى يوم القيامة يدخلهم جهـــنم فيخلـــدون في العذاب لا يموتون فيه ولا يحبون . ونفس واحد في جهنم أعاذنا الله منهم كزمن طويل في نار الدنيا لما جمعته من شديد العذاب وهل بعد قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ عذر للذين يشـــنعون علـــى أمـــراء المســـلمين وينضمون إلى أحضان أعداء الله .

ما عذر من يشنع على الترك ويسكت عن استبداد المتسلطين بل عن قنـــاطير الدماء التي تهرق من الأمم الإسلامية الضعيفة بأيدى المستعمرين الظلمة إذا هم أمنـــوا جانب الله وجانب إخوتهم المؤمنين وخافوا جانب الأعداء في مصر وفلسطين وسوريا والريف والهند وجاوى وغيرها .

هؤلاء يصلون من أمر الله بقطعهم ويقطعون من أمر الله بصلتهم . وليت هؤلاء ممن تربوا في أوربا .فأنكروا الحق وأثبتوا الباطل ولكنهم ممن أخذ الله علـيهم الميثـاق بقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَــهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الآية . والله تعالى يقول لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وهذا موسى كليم الله وفرعون المدعى أنه إله من دون الله فما بال رجل من الأمة ليس نبيًا ولا وليًا ولكنه يدعى أنه عالم فيعلن ويسب ويؤذى مسلمًا نصره الله على أعدائه وجـدد بـه شرائع دينه وهو بين شر أعداء الله . ويرى بعينه ويسمع بأذنه ما يوجب سـخط الله ومقته ومع ذلك يمر كأن في أذنيه وقرًا . وفى كل يوم يشنع على من أمرنـا الله بـأن نصلهم ويسكت أو يوالى من أمرنا الله بقطيعتهم أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين من الفتن المضلة ما ظهر منها وما بطن .

وإنا وإن كنا نرى لبعض أمراء الأمم الإسلامية وملوكها وهيئة حكومتها العذر فيما يقومون به من الهوادة في معاملة المتسلطين بالنسبة لضعف القوة التي يدفعون بهـا ظلمهم وجورهم فإنا لا نزال نطمع أن يكون عملهم هذا تقية من شرورهم ودفعـاً لكيدهم ومحافظة على الأمم من ظلمهم، لأنهم اعتقدوا قوتهم وبقاء سلطتهم . نسـأل الله تعالى أن يكرم الأمة الإسلامية برجال يحبهم ويحبونه من الذين أثنى عليهم بقوله ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِم ﴾ والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَـا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ولا حجة لعامل بعد قوله ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ اللهم أعنا على إعداد العدة ومكن لنـا في الأرض

بالحق ومكن لنا ديننا الذي ارتضيت لنا كما وعدتنا وأغثنا من تسليط من سلبت من قلوبهم الرأفة والرحمة وخوف يوم الحساب .

وتلك الآية الشريفة بشرى لنا جماعة المسلمين تجعل قلوبنا تطمئن بنيل الخير من الله عاجلا وآجلا، وتوقظ القلوب الغافلة عن يوم القيامة فتجعل العاق لوالديه يبرهما ويتوب إلى الله وتجعل القاطع لرحمه يتدارك الأمر فيصل رحمه . وتجعل الظالم أو الغاش أو الكاذب أو المعتدى على غيره يرجع إلى ما يحبه الله ويرضاه ويتوب إليه سبحانه(١).

ملحوظة : قد شرحت هذه الآية التي سبق الكلام عليها بمجلة المدينة المنورة سنة ١٣٤٦ هجرية لمقتضى الحال .

قوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

بين سبحانه وتعالى في الآية السابقة دلائل التوحيد لكل إنسان مهما كان عقله، بالبراهين المحسوسة التي يطمئن بها الضمير المجرد من الهوى المتبع والشح المطاع والإعجاب بالرأى بما أقامه سبحانه من الحجج الدامغة التي حصرها في برهان الإيجاد والإمداد كما قدمنا، ثم بين دلائل النبوة ناصعة جلية لكل نفس سليمة من مرض العناد وظلمة الكفر ثم أردفها بذكر الميعاد وما يفوز به المصدق من النجاة من هول يوم القيامة ونيل النعيم المقيم في دار الرضوان . وبعد أن قامت الحجة واتضحت المحجة أنكر سبحانه على أهل النفوس الخبيثة عدم التصديق وأنكر مسارعتهم إلى الكفر والقطيعة عن الله تعالى، فقال جل شأنه : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ .

---

(١)

ينكر سبحانه وقوع الكفر الحاصل منهم بعد كل تلك الدلائل التي لو اتضحت للبهائم السائمة وكان فيها قوة الفهم والتفاهم والنطق لما وسعها إلا الإيمان بالله ورسوله والرهبة مما حذر منه والرغبة فيما رغب فيه.وكيف لا والبهائم السائمة تنفر كل النفور مما تعلم أنه يضرها، وتسرع إلى ما تعلم أنه ينفعها بقدر رتبتها في الحياة، وتميل بعاطفة إلى من يقدم لها ما ينفعها وتنفر ممن يضرها، فمثل الكلب والشاة وغيرهما من الحيوانات الداجنة تألف المحسن إليها .

وهذا الإنسان الظلوم الجهول يرى بعينيه ويلمس بيده ويذوق بلسانه ويشم بأنفه ويسمع بأذنه، نعمًا تفاض عليه من الله تعالى من غير واسطة ولا سبب قائم، كالأرض المدحوة والنسيم العليل البليل الذي يصرفه الله في كل نفس لحياته والأمطار الهاطلة لخيره والأنهار الجارية والكواكب المشرقة ليلا ونهارًا والجبال الراسية والأيدى العاملة، وما لا يحصيه العادون ولا يحصره الحاسبون من النعم . وهذا الإنسان ينسى ربه وينكر فضله ويعبد غيره فالله تعالى ينكر الأمر الواقع من أهل البعد ثم يتلطف سبحانه فيذكر الإنسان بما يدك الجبال الشامخات من قوة الحجة سبحانه ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ بمعنى مواتًا، فإن كل حقيقة لا تحلها الحياة يقال لها لغة موات كما يقال أرض موات . ومعنى ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ أي كنتم نطفًا في ظهور آبائكم وكنتم ترابًا قبل خلقكم بالنسبة لخلق آدم عليه السلام ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أي جعلكم أحياء متمتعين بالسمع والبصر والذوق واللمس والحركة والقوة والإرادة وأردف هذه الآية بأخرى ترجف لها القلوب وتقشعر منها الجلود وهي ، قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ والأمانة الثانية هي موتة عزرائيل عليه السلام، والإحياء الثانى في القبر للسؤال والحياة يوم القيامة، ولك أن تقول ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾فى القبور للسؤال .

أما حياة يوم القيامة فمعلومة من قوله ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي إلى يوم القيامة يوم الثواب والعقاب . فالقرآن المجيد خاطب العقول بالحجة الدامغة وهذا الاستفهام

ليس استفهاما على بابه وإنما هو إنكار لوقوع الكفر من قوم غمرهم الله بنعمة وآلائه وثبت لديهم يقيناً حقًا سبحانه هو الذي منح تلك المواهب من غير علة ولا سبب ظاهر، ومقتضى تلك الحقائق الإيمان به والمسارعة إلى إطاعة أمره وقد يأتى الاستفهام لإنكار الوقوع كما في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ أي كيف يمكن أن يكون لهم عهد عند الله، ولكن هذه الآية تفيد إنكار وقوع الكفر منهم، وشتان بين إنكار وقوع عهد من الله للمشركين وإنكار الكفر الذي وقع منهم .

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ يذكرهم سبحانه بمننه عليهم لتنجذب قلوبهم إلى الله معتقدة أنه هو المنعم المتفضل ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾تخوف لمن عقلوا عن الله حججه ودلائله فهذه الآية جمع الله فيها ما لو لم يكن في القرآن إلا هي لكانت كافية لكل ذي عقل يعقل عن الله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

الرجوع هو العودة إلى ما صدر منه الراجع، ولما كان الراجع إلى ما كان فيه أولا من الأمكنة لابد أن يفارق كل الآثار التي أبعدته عن مكانه الأول ومشهده الأول حتى يتحقق الرجوع إلى ما كان عليه، ولما كان الإنسان في بدئه روحًا مجرده من ملابسة الأجسام في مقام التجريد متحققًا بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فلا يبلغ هذا المقام إلا أحد اثنين : من مات وفارق الحياة الدنيا فانجلت له الحقائق على ما هي عليه في نفس الأمر من أن الله تعالى هو النافع الضار المعطى المانع القابض الباسط حتى يتحقق بأن لله تسعة وتسعين اسمًا ليس له فيها شريك ولا مثيل . ورجل آخر جاهد نفسه في ذات الله حتى كمل يقينًا كمالا أشهده الله به باطن التوحيد ففقه أسرار مقامات التوحيد الاثنى عشر، وهذا الذي بين الله مقامه في القرآن المجيد . قال سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ وهو

الذي رجع إلى الله في حياته الدنيا لما وفقه الله له من الجهاد قال تعـــالى : ﴿ وَالَّـــذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

ونهاية الجهاد الأكبر جهاد النفس في ذات الله، وفى هذا المقام يفر إلى الله بـــالله تعالى قال جل جلاله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ فمعنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ الذي فهم منه المجسمة أن له سبحانه مقامًا معلومًا تتره وتعالى عمـــا يقولـــون عُلُـــوًّا كبيرًا،وما فهموه دل على أنهم يقيسون بالمشهود الغيب المصون، المعـــنى أنـــه تعـــالى يقول﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من وقوفكم عند الأسباب ومن نزوع نفوسكم إلى شهواتها وحظوظها وأطماعها ومن ظلمة الأوهام ومفاسد الخيال ومن ضـــلال الآراء إلى مـــا كنتم عليه في حال التجريد من ملابسة الحضيض الأسفل لانكشاف الحقائق على مـــا هي عليه في نفس الأمر فيتحقق كل إنسان بحقيقته التي هي العدم قبل أن يوجـــده الله تعالى وبالضعف قبل أن يمده الله تعالى بالقوة والاضطرار إلى الله الذي أقام الأســـباب وأمد العالم بواسع الإحسان، وليس المراد الرجوع إلى مكان أو إلى الله الذي هـــو في جهة دون جهة لأنه سبحانه وتعالى ليس له مكان يقصد فيه بل هو قبل المكان وقبـــل الزمان كما قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ (كان الله ولا شيء قبله) وقال الله تعـــالى : ﴿اللَّـــهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ .

وبداية الإنسان من الضعف وهو في الحقيقة في ضعف واضطرار إن نظر بعـــين البصيرة وما يراه من القوة والغنى ومن العلو في الأرض بالباطل، فهو غرور كما قـــال على كرم الله وجهه : الدنيا غرارة ضرارة مرارة .

وهنا يجب أن نبين لإخواننا المسلمين أن ما عليه دول الاستعباد وأمم الاستبداد بل ما عليه مقلدوهم الذين يدعون الإسلام بالباطل ممن يعتمدون على أقوال المغرورين من صناع أوربا وأمريكا الذين تلقوا فنونهم وعلومهم في مدارسهم بأوربا دال علـــى أنهم أدنى من البهائم السائمة لأنهم يسمعون كلام الله تعالى وكلام رسله عليهم السلام

وكلام أئمة الهدى فينأون بجانبهم عنه، وإذا سمعوا كلام رجل من المتسلطين بقوة الحديد والنار والكيد والخديعة طاروا به وحبذوه ودعوا إليه العالم زعمًا منهم أنه الحق وأنه فوق كل كلام مقدس، ولا ترى مسلمًا آمن قلبه يصدق كلام دعاة النصرانية الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يسمعون ولايعقلون في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وحرمهم الله تعالى من الإصغاء إلى كلام الحق . ومن أن يبصروا آيات الله في مكوناته بقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ إلا من أهل الإفك والزور والأباطيل ولهم قلوب لا يفقهون بها إلا الطمع والغش والغرور فإذا قامت القيامة رجعوا إلى ما حكم الله به عليهم فانكشفت الحقائق التي بها كذبوا وعنها نأوا ولها حاربوا وعاندوا . وبها جحدوا وكفروا . فيقولون : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ وهنالك يوم الحسرة والندامة يوم يعض الظالم على يديه . الظالم الذي ظلم نفسه فأبعدها وأضرها نسأل الله السلامة .

فكأن الرجوع إليه سبحانه هو رجوع إلى ما كان عليه الإنسان قبل أن يخلق الأشباح إذ الأرواح كانت موجودة سابحة في ملكوت الله ولكن الأجسام حجبتها عن شهود ما كانت متمتعة به في حال تجريدها عن الأجسام وملابستها .

وهنا اسمع بأذن قلبك الخطاب جسما وروحًا، ولما كان الإنسان قبل الجسم روحًا لا يدعى ولا يحتاج إلى دليل ولا ينذره الله . وكل تلك الأحكام والمخاوف والتشنيع والتهديد والبشائر إنما هي خاصة للإنسان الذي هو روح وجسم فكأنه يقول سبحانه ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ قبل أن تنفخ فيكم الروح فأحياكم بنفخة الروح فيكم وتلك الحياة صادقة أن تكون حياة البشرية مؤيدة بالحياة الروحانية إذا كان الإنسان من أهل الإيمان الكامل فتكون الحياة تصحح اتصافه بالسمع والبصر والكلام وبالحركة والإرادة وإذا حرم الإنسان التوفيق والهداية فتكون الحياة تصحح له الحس والحركة

والإرادة ولكنه يحرم سماع تسبيح الكائنات ونظر آيات الله فيها ويحرم التوفيق لاتبـــاع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . وإذا فقد الإنسان الحس والحركة والإرادة يقال له مـــات كما يقال لمن فقد السمع والبصر والحس والحركة والإرادة الإيمانية ميت كمـــا قـــال تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء ﴾ فحكم على أهل البعد عن الله بالموت وبالصمم . والحياة الروحانية الخاصة هي التي كانت الأرواح فيها في صورة ذرية آدم عليه السلام متمتعة بها في عهد يوم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾ فلما أن أحيانـــا الله الحياة الإنسانية حجبت الروح عن مطالعة هذا الغيب المصون بكثافة الجسم .

فمن جاهد نفسه ألاح الله له هذا النور وأحياه الحياة الروحانية التي يمشى بها في الناس كما قال سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِـــي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ .

وقبل أن نبين تفصيل الحياة الثانية نبين لك بعض إشارات القرآن المجيـــد : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ بعد تلك الحجج والدلائل الواضحة ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ قبل أن تشهدوا جمال ربكم ظاهرًا جليًا يوم قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِـــن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى ﴾. وفى هذا اليـــوم أسمعنا خطابه المقدس بعد أن أشهدنا جماله العلي فقال سبحانه : ﴿ أَن تَقُولُـــواْ يَـــوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّـــةً مِّـــن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ فهذا اليوم يوم الحياة التي يمـــن الله بهـــا علينـــا ويذكرنا بها . قال سبحانه : .

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. فمن سبقت لهم الحسنى ذكّرهم فذكروا فحضروا فأقبلوا عليه فقبلهم وبوجهه الجميل واجههم ومنه سمعوا الخطاب المقدس بآذان أرواحهم، وهذه هي الحياة الأولى .

أما حياة الكون إذا لم يتفضل الله على الإنسان بعيون الإيمان وآذان الإيمان، حتى يتحقق بهذا المشهد العلي فليست حياته حياة روحانية . وإنما هي حياة بهائم أو شياطين، وليست هي الحياة التي يمن الله بها على الإنسان ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ بحرمانكم من القابل لهذا الفيض المقدس، وهذه الموته هي التي شنع الله بها على من قال فيهم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ : ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي يحى من سبقت لهم الحسنى في هذا الكون، فيتنعمون بما يشتاق إليه أهل الجنة في الجنة، أو يتمتعون بشهود وجه الله تعالى قال سبحانه : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ ﴾ وبالأنس بالتلقى من حضرة الإلهام وبما يناله المؤمن الكامل من البهجة بمعية الله في الدنيا بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ .

وأما أهل الكفر بالله والمنافقون وعصاة الأمة فيحييهم يوم القيامة لتنكشف لهم الحقائق التي كذبوا بها أو نسوها . وعندها يقول كل واحد ممن كذب ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ .

وفوق هذا إشارة أخرى في ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي حياة الأنس به على بساط منادمته سبحانه، إذا منّ عليهم بالحياة الروحانية في حظيرة القرب بدليل قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

معلوم أن الله تعالى قادر غني حكيم، فهو غني عن كل شيء بذاته العلية، وغني أيضًا بذاته عن أسمائه وصفاته.وأسماؤه العلية ليست مخلوقة ولا محدثة بل لم يزل قائمًـــا موجودًا بها جميعا، فإيجاد ما أوجد من عالم الملك و الملكوت، وهو الغني عنه دال على أن إيجاده لحكمة اقتضت أن تبرز القدرة تلك الأنواع المتباينة والأجنـــاس المتضـــادة والأشكال المختلفة لنفع الإنسان في دينه ودنياه .

ثم فصل الله فيما أباحه منها تفصيلا شافيًا في القرآن المجيد، فبين لنا سبحانه ما أحله لنا من الأرض مما فيها والوجوه التي نناله بها، وأطلق لنا الحكم في استعمال كـــل شيء خلقه لنا مما أثبتته التجارب، فانتفاعنا بما فىالأرض في دنيانا هوالانتفاع بنباتاتها وحيواناتها ومائها وهوائها ومعادنها، في طعامنا ولباسنا وفراشنا ومساكننا، وفى إعداد العدة كما أمرنا جل جلاله في قوله : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾.

وإن في قوله ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ سرًا عجيبًا، جعل سلفنا الصالح يكتشف بالعلوم الصناعية والرياضية والطبيعية ما به نفع الأبدان ودفع الأعداء وراحة المجتمع فســـلفنا الصالح هم الذين اخترعوا المسكتة (البندقية) والبارود والأساطيل الحربية التي حاربوا بها أوربا شرقًا وغربًا وجنوبًا وفتحوا بها أكثر جزائر الأوقيانوسية، وأول أسطول حربي أسسه السلف هو الأسطول الذي غزا القسطنطينية في خلافة معاوية ابن أبي سفيان، ثم الأسطول الذي فتح الأندلس وصقلية ،وكان المسلمون إذ ذاك لا يتقيدون بأمر الخليفة في استعداداتهم، بل كان كل مسلم يرى نفسه أنه كالخليفة لقيامه بالعمل بالقرآن، فقد فتح روما بعض أبناء المسلمين الذين كانوا في صقلية، وكان الخلفاء في هـــذا الزمـــان صناعًا بارعين، وكان منهم القائد العظيم والسياسي الخـــبير والاجتمـــاعي الحكـــيم يسهرون الليل هم وولاتهم في رعاية راحة الأمة، ويقومون النهار في تنفيذ حـــدود الله تعالى، والضرب على أيدي الزنادقة والفسقة والظلمة، وبذلك أخضعنا التيجان وقهرنا الظلمة الطغاة—هذا ما به جعل سبحانه وتعالى ما في الأرض لنا للنفع في الـــدنيا.أمـــا

جعلها للنفع في الدين فيما أمر به سبحانه من النظر للإعتبار ومن الفكر في بدائع إبداع صنع الصانع البديع وللسياحة في الأرض للتبصرة والنظر والاستدلال بعجائب قـــدرة الحكيم على كماله الذاتي وجمال وجلال وبهاء وضياء ونور حضرته العلية .

والآية الشريفة ذكرها الله تعالى في سياق المنة على الإنسان ليقوى يقينه ويدوم شكره لله، ويفرده سبحانه وتعالى بالمحبة الخالصة . ولكن أهل النفوس الخبيثة أبي عليهم كفر نفوسهم إلا أن يسمعوا كلام الله تعالى بآذان الشهوة والحظ والـــرأي الباطـــل المضل، ففهموا أن الله أباح لهم ما في الأرض جميعًا، وهم الإباحيون قبحهم الله . وقد دعا هؤلاء الإباحيين إلى ما ارتكبوه خبث جواهر نفوسهم لأنها من جـــنس نفـــوس الشياطين وأنواعهم في الأناسى كثيرة جدًا : فمنهم الملاحدة وأهل الجحود، ومنـــهم القائلون بأن أصل الإنسان قرد أو نسناس، ومنهم الدهرية الذين شنع الله عليهم بقوله : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ . وكل من قلد أبويه في الإسلام من غير بصيرة ولا علم بالدين الإسلامي، وحصل بعض الفنـــون أو الصناعات، أو طالع كتب الزنادقة، مالت نفسه إلى ما يلائمها من الكفر والجحـــود، والهداية من الله تعالى حفظنا الله من الفتن .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِـــيمٌ﴾ .
معلوم أن السماء جهة العلو، والأرض جهة السفل فذكر ثم في الآية لم يكن للتعقيب والتراخي بمعنى التأخير في الزمان، ولكن ثم هنا تفيد رفعة السماء عن الأرض في معان مخصوصة : منها أن الأرض كل شيء فيها ناقص فيحتاج إلى نمو وكمال، والســـماء سواها الله كاملة تامة منتظمة منتسقة ليس فيها من فطور ولا تفاوت ولا احتياج إلى شيء آخر بعد تسويتها، بخلاف الأرض التي جعلها الله مظهرًا لشئونه في كل نفـــس ومحلا للتغيير والتبديل والمحو والإثبات . ورفعة السماء على الأرض لا تمنـــع مـــن أن يوجد على سطح الأرض من هو أفضل من عمار ملكوت الله، كرسل الله صلوات الله

وسلامه عليهم وأنبيائه، وكالصديقين والشهداء، وكورثة الرسل وأبدال الصديقين، فإنهم أفضل من ملائكة السموات السبع .. أما حجة من جعل الملائكة أفضل من الرسل محتجًا بقوله تعالى : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . فإن البيان فيها هو أن المسيح الذي ولد من أم بقدرة الله تعالى الذي خلق آدم عليه السلام من غير أم ولا أب ، لا يستنكف أن يكون عبدًا لله، بل ولا الملائكة المقربون الذين خلقهم الله بقدرته، من غير أم ولا أب يستنكفون أن يكونوا عبيدًا لله . وتلك المزية لا تقتضي الأفضلية وكيف لا والمؤمنون في الجنة تخدمهم الملائكة، فالمحتج بتلك الآية لم يفهم سياقها . ﴿ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ﴾ الاستواء لغة الاستقامة والاعتدال واستوى إلى كذا، أي أقبل عليه بعزيمة وإرادة ونية لإبراز ما قدر — واستوى إلى السماء أي أراد جل جلاله أن تبرز قدرته ما قدره سبحانه بمشيئته من إيجاد سبع سموات . فقوله : ﴿ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ﴾ أي قصد بإرادته وقدرته أن يوجد في العلو سبع سموات، لأنه لم يكن ثم سماء مخلوقة مميزة يقصدها .

وعلى هذا فالضمير في (فسواهن) مبهم ليس له مرجع . وفسره قوله تعالى ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾، وقد فسر بعض العلماء ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ﴾ بأن السماء كانت موجودة، ولكن الله قصد باستوائه إلى تسويتها سبع سموات ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ — إن الله سبحانه أخفى في تلك الآيات التي يفصل بها بين جمل الكتاب أسرارًا علية، يصطنع بها لنفسه أفراد الصديقين وأبدال الرسل . ولكل آية من هذه الآيات نور يهدي الله به من يشاء ممن سبقت لهم الحسنى، وحجة دامغة يقصم بها ظهور أهل البعد. وإليك شميمًا من هذا العبير .

بعد أن ذكر الله تعالى ما تفضل به على الإنسان من لطائف المنن وجلائل النعم في الأرض وفى السماء، وما أبدعته القدرة الإلهية من بدائع الصنعة، ودقائق الانتساق وغريب الانتظام، حتى عجزت العقول عن درك سر الروابط، التي جعلت تلك الأفلاك

العظام منتشرة في هذا الجو الفسيح، وجعلت الأرض مرتكزة على الماء والمــاء فــوق الهواء، وجعل مالا يحصى عددًا من أنواع مختلفة لنفع الإنسان . وهو سبحانه بكل شيء من تلك الأشياء جميعها عليم بِجُزْئِيِّ الأشياء وكليتها، بل بأجزاء كل كائن وكله بعلم قديم أزلي سابق لإيجاد تلك الأشياء . وإنما أوجدت الأشياء جميعها طبقًا للعلــم، والله جل جلاله لا يوجد شيئًا إلا إذا سبق في علمه . فما لا يعلمه الله لا وجود له كما قال سبحانه : ﴿ أَتُنَبِّؤُونَ اللّهَ بِماَ لاَ يَعْلَمُ في السَّموَاتِ وَلاَ فَيِ الأَرْضِ﴾وهو عز وجل يعلم الأشياء دقيقها و عظيمها،وهو الذي خلقها بعد علمه بها فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُــلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قصم ظهور الفلاسفة القائلين بأن الله لا يعلم جزئيات الأشياء، فإن تلك الجزئيات لا تعلم إلا بعد إحداثها وهذا هو الجهل المركــب، لأن الــذي لا يعلــم الجزئيات إلا بعد إيجادها هو المخلوق المقهور.إذهولايعلم أعمال نفسه الخصوصية قبل وقوعها لجهله بمقدارها كمًّا وكيفًا وتفصيلا وإصلاحًا وفسادًا،ولكن القوي الخــلاق القاهر العليم يعلم الأشياء بعلمه القديم الأزلي القائم بذاته الذي أحاط بكل شيء قبل إيجاده وأحاط بجزئياته وكلياته وزمانه ومكانه . والمقتضيات المحيطة به وأبرزه سبحانه وتعالى . ومن حكم على الله العلي الكبير بما يحكم به على العبد المقهور الذليل جهــل وجهل أنه جاهل .

ومثل هؤلاء من أضلهم الإفرنج بزخارفهم وأهلكهم المبشــرون بســخائفهم، فتراهم يسلمون بالباطل وينكرون الحق . قال الله تعالى ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ والآية الشريفة حجة على المعتزلة الذين يقولون : إن العبد يخلق أفعاله . والعبد يجهــل ما يكون له غدًا أو عليه، يدبر أمرًا يعلمه ويعزم على عمله،فيكون مالا يعلــم رغــم أنفه،والأعمال التىيحدثها العالم بذاته لابد أن يكون عالمًا بها قبل إيجادها ولابــد أن يكون متصفًا بقدرة علية تبرز الحقائق التي تعلق علمه بها أو تمحو مــا تعلــق علمــه بمحوها، أما ما يجريه الله تعالى من الممكنات على جوارح العبد فقد تأتى قهــرًا عنــه وطورًا برضاه، فهذا ليس مما سبق علم العبد به حتى يحكم العقل أنه خالق لأعمالــه .

وما نراه بأعيننا أو ندركه بحسنا من وقوع تلك الأعمال على يدنا فهذا ممـــا يســـمى سببًا .والله تعالى جعل السبب ليتعرف به إلى عبيده ويتعرف به عبيده إليه وهذه الآية الشريفة ميزان مراقبة أهل البدايات . فإن أهل الوصول ارتفعـــوا عـــن المراقبـــة إلى المشاهدة، لأن السالك إذا تحقق أن الله بكل شيء عليم كره أن يعلمه الله على حالة لا ترضيه سبحانه كما قال﴿ ﷺ وآله﴾:(ٱلإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ومن نسب نفسه إلى طريق الله وحرم المراقبة فاضرب به وجه الحائط، فإن السالك إذا جهل أو نسى أن الله بكل شيء عليم، هلك بأكمل أعماله الصالحة .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

أيها القاريء للقرآن المجيد . . اصغ بأذن الإيمان والتسليم، إلى ما بينه الله تعالى لنا في كتابه العزيز، من المنن العظمى التي تفضل الله بها علينا مباشرة، أو على أصـــولنا من آدم عليه السلام، وتذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

يقول سبحانه مخاطبًا حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ الذي أقامه خاتمًا للرســـل وفاتحًا لابتداء رسالتهم، وواثق له الرسل بدءًا بقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُـــرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَـــاْ مَعَكُـــم مِّـــنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ۰بل وقد بين الله فضله على جميع الرسل الكرام، صلوات الله وســـلامه عليه وعليهم في هذه الآية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بكاف الخطاب الذي فيه نهاية الإعظـــام لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . والمعنى : آذكُر يامحمد أنت وأمتك ما رفع الله به الإنسان الأول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ .

قد بين من خدموا القرآن المجيد قبل ما يتعلق بتلك الآية الشريفة، من جهة اللغة والقواعد النحوية، بيانًا لا نحتاج بعده إلى ضياع الوقت في إعادته هنا، ولكنا نخاطب أهل العقول التي تعقل عن الله تعالى فنقول :

المراد من الخليفة هنا، والله أعلم، هو الإنسان الذي جمله الله تعالى بالعلم والحكمة، والعدالة والرحمة، فقد صاغ الله نفسه من أصفى الجواهر النورانية، وجعله وسطًا، وأيده بروح وقوة منه سبحانه ليدفع ظلم الظالمين، وكيد الكائدين، ويكبح جماح النفس الشهوانية والغضبية، ويحفظ الثغور من شرور الأعداء ويقيم الحدود لتعيش الأمة في هناءة وصفاء، ويقطع شأفة ما يضر بالقوى النفسانية إذا أبيح في المجتمع كالخمور والمخدرات والمنومات وما يضر بالأجسام ويفني الأموال كلعب الميسر، وفتح أبواب المناظرات والجدل والتفاخر، ويمحو الاختلافات الناتجة في الأمة بسبب الزنادقة والغلاة في الدين، وأهل الآراء الباطلة والمذاهب المضلة ،ليكون المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد،إذا اشتكى منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى.

وهذا الخليفة يجب أن يكون مجملا بالخصال التي توجب على الأمة انتخابه، فإن فقد الرجل المجمل بكل تلك الخصال التي سأوردها عليك، يجب أن ترجع الأمة إلى الشورى، فيقوم خير رجالها بتشكيل مجتمع من الأفراد كل واحد منهم جمله الله بخصلة، فيكون مجموع الخصال التي تجمل بها أهل الحل والعقد هي الصفات التي إذا جمعت في شخص كان هو الخليفة .

وقد خالف الصديق رضي الله عنه إجماع الصحابة في أمور كثيرة، كما خالف علي عليه السلام حكم أمير المؤمنين عمر، فنفذ عمر حكم علي . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى مجلس الشورى الذي يسمونه غلطًا واقتداء بالأجانب (البرلمان) .

ونرجو الله تعالى أن يظهر رجلا بالصفات الآتية ليكون خليفة لنا، يلم شعث أربعمائة مليون من المسلمين، وما ذلك على الله بعزيز :

وهذه هي الخصال التي يجب أن يتجمل بها من تنتخبه الأمة الإسلامية خليفة، قد اختصرناها من مجموعة الخصال التي ذكرها علماء السلف في وصف خليفة الأمة : وهي ، ست خصال أولها أن يكون حكيمًا . والثانية أن يكون عالمًا حافظًا للشرائع والسنن والسير التي دبرها السلف للمجتمع الإسلامى، محتذيًا في أفعاله كلها حذو السلف الصالح . والثالثة أن يكون له جولة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف شريعة فيه، ويكون فيما يستنبط ناهجًا منهج الأئمة السالفين . والرابعة أن يكون له جودة روية وقوة استنباط للحكم الوجودي في الأحداث الزمنية التي لم تقع في عصر السلف،وأن يتحرى في ذلك ما فيه صلاح الأمة . والخامسة أن يكون له مقدرة على الإرشاد بالقول المؤثر الجلي على منهج السلف، وأن ما استنبط بعدهم على منهجهم . والسادسة أن يكون له جلد وثبات بدني، ليباشر بنفسه أعمال الحرب، وذلك بأن يكون ملمًا بالفنون الحربية بكامل أنواعها .

والملائكة أنواع كثيرة : وأعلى هذه الأنواع أجسام نورانية، والملك لغة : بمعنى رسالة، ومادته اللغوية : إما ألك أو لأك، أي أرسل رسالة، يقال لأك الولد لوالده مألكة : يلتمس فيها دعاءه، يعني أرسل له رسالة . والله جل جلاله جعل الإنسان جوهرة عقد المخلوقات، لأنه جلت ذاته خلقه بيديه في أحسن تقويم مبناه ومعناه . أما مبناه فمن كل معادن الأرض ثم خلطه بالنار والهواء، فرسم الإنسان الذي هو الهيكل خلقة الله تعالى من أركان الوجود، وهي ، : التراب والماء والنار والهواء، فسبحان

القادر الحكيم . وقد بينت في كتاب (الطهور المدار) بيانًا لأهل البصيرة كشفت بـــه بعض الأسرار التي أودعها الله في آدم عليه السلام، وفى مسمى ملـــك : جمـــع الله في الإنسان كل حقائق الوجود مما خلقه في الأرض والسماء وما فيهما . فالإنسان شيطان وأضل ووحش وأضر وملك وأفضل فسبحان من أظهر عجائـــب قدرتـــه وغرائـــب حكمته في مبدَع بدأ خلقه من سلالة من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين .

قلت إنه شيطان وأضل : لأنه حارب ربه، كما فعل فرعون ونمروذ وأتباعهما إلى يوم القيامة . وقلت وحش وأضر : لأنه عق والده ووالدته، وهما اللذان أشـــهداه بعيني رأسه كمال إحسانهما إليه . وقلت ملك وأفضل : لأن الله تعالى أحبه وقربـــه، وأسمعه كلامه وأشهده عليّ جماله . وقد عجز الشيطان مع أنه عنصر الشر والعناد عن أن يفعل ما يفعله الإنسان بشبيهه، وكيف لا وهو يجاهر بما يخنس الشيطان عندما يقوم بأقل منه، فيجلس على كرسي كرامة المسلمين ويرفع صوته المنكر بما دونـــه تـــذوب قلوب الأتقياء خشية من الله تعالى . ولم ذلك ؟ وكيف ذلك ؟ لأن الأمة المصرية محتلة بجيوش الاستعباد، مقهورة ببطش أهل الاستبداد من ساسة الإنجليز الذين أفســـدوا في الأرض بما أوتوه كما قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام : ﴿رَبَّنَا إِنَّـــكَ آتَيْـــتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَـــى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ . ونحن الآن أصبحنا وبين ظهرانينا فرعون من غيرنـــا وهم الإنجليز الذين هم شر من فرعون موسى، لأنه كان يحارب الغرباء في مصـــر – على رأيه الفاسد – إصلاحًا للبلاد وراحة للعباد . أما الإنجليز فإنهم لا يرضيهم إلا أن تكون مصر العزيزة استراليا ثانية، فهم يحاربوننا في ديننا بالمبشرين المفسدين وبضائعهم الذين لولا الاحتلال لمزقتهم الأيدي، والله وعدنا قهر الظلمة ونصرتنا، فالإنسان الذي هو جوهرة عقد الكائنات وعجيبة العجائب . قال العربي :

وَٱلَّذِي حَارَتِ ٱلْبَرِيَّةُ فِيهِ * حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادٍ

وللعقول أن تحتار في الإنسان ! فبينا تراه وروحه الطاهرة سائحة في ملكــوت الله الأعلى، مشرفة على قدس العزة والجبروت، وإذا بك تراه في أسفل سافلين، أضل من الأنعام وشرًا من الشياطين، وفوق الأرواح العالية، بل فوق عالين قــال تعــالى : ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ هذا هو الإنسان الذي خلقه الله ليعمــر بــه ملكــه وملكوته، وجعل له ملك الأرض مقرًا للإقامة ومستقرًا له بعد موته ثم ينشئه النشــأة الثانية، فيمنحه الملك الكبير، لذلك ابتلاه الله تعالى بأن سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، وصرفه تصريف الربوبية في الملك . فكل ما في الملــك والملكــوت مسخر له بإذنه تعالى . فإن ذكر الله وأطاعه من غير أن يعصيه وشكره فلــم يكفــره ووحده فلم يجحده تفضل عليه بالملك الكبير قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ وهذا الملك الكبير هو للإنسان الذي اتبع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ حق الاتباع .

لتلك المعاني المتقدمة احتاجت الأرض لأن يكون فيها خليفة، لأن السماء وما فيها لا تحتاج إلى خليفة، والخليفة في الأرض هو سيد من في الأرض ومن في السماء . لأن ملائكة السماء أجسام نورانية لا تقع منهم الخطايا، فهم لا يحتاجون إلى خليفــة، ولما كان خليفة ربنا في الأرض سيد العالمين، وكان الملائكة قبل ذلك حاربوا الجــن الذين كانوا عمار الأرض لإفسادهم فيها . وقد علموا من لفظة خليفة أنه لابــد أن يكون وازعًا بين هذا النوع المختلف المتباين الكـثير الخطايــا والمعاصــي، أرادوا أن تنكشف لهم الحكمة في جعل الخليفة في الأرض بين بني جنسه من أبنائه، فسألوا ربهم جل جلاله مستفهمين استفهام من يريد كشف الحقيقة ومزيد العلم فقالوا : ﴿ قَــالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسد الجن الذين حاربناهم وسفكوا الدماء البريئــة كما نراه، وقد حصل بين هابيل وقابيل وبين الجبابرة الطغاة من الملوك الظلمة، وكما حصل الآن من دول الاستعباد شر جبابرة الخلق الذين آتاهم الله معرفــة في اختــراع الآلات الجهنمية، كدول أوربا وأمريكا، أراح الله منهم البلاد والعباد، وما قال الملائكة

ما قالوا له إلا لكشف الحكمة وعلم مراد الله تعالى من هذا، فأجابهم سبحانه إجابة من علم نواياهم واطلع على خفاياهم أنهم يسألون ربهم بقدر ما علموا، وهو سبحانه أعلم بهم، فقال جلت قدرته : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وكان هذا الجواب بعْد قوْلِهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ والتسبيح والتقديس هو صـلاة الملائكـة، ونسبح بحمدك نبعدك عن النقائص، فإن معنى سبح بعد، يقال سبح في الماء أو في الهواء : بعد . وقولهم : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أي نسبحك حال كوننا متلبسين بحمدك، فهم يقولون نحن نترهك عن النقائص، ونعتقد أنك المتصف بالصفات الموجبة للحمد فنسبحك حامدين لك على ما أوليت من وافر آلائك وعميم نعمائك، فأنت المحمود لا سواك . وقد أوجب الله تعالى على عباده حمده، فعجز الخلق أجمعون عن أن يحمدوه حمدًا يليق به، فحمد نفسه بصيغة رضيها من خلقه، فقال : الحمد لله رب العالمين، فقام كل عبد من عبيد الله بما أوجبه عليه سبحانه من حمده بمجرد قوله : ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ثم أعلم سبحانه وتعالى الملائكة بإشارة خفية ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾من كمال ذاتى وجمال وجلال أسمائى وصفاتى ،وما تعلق به علمى من مقتضيات تلك الحضرات العلية من الأزل ما خصصته إرادتى من حضرة علمى فأبرزته قدرتى . أقول هذا لأن الله أخبرنا عن الملائكة بقوله : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾. وفى غضون تلك الآية الشريفة أسرار عالية نومي إليها بعد تتميم تفسيرها، وإشارات سامية : منها تعليم المسلمين الشورى، لأن رب العزة يشاور الملائكة في جعل الخليفة وهو الغني سبحانه عن كل شيء، ويعلمنا الآداب أيضًا مع طلبة العلم إذا استفهموا بطريق التعليم لا الجدل فتتلطف بهم ونجيبهم بالحقائق، فإن العلي العظيم أجاب عبيده الملائكة بألطف إجابة، ثم تفضل جل جلاله فكشف للملائكة عن غيب علمه مزيداً لعلمهم فقال سبحانه : وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾

العلم في الحقيقة هو تصور النفس رسوم المعلوم، وهذا التصـــور قـــد يكـــون بسماع من المعلم أو بمعاينة الحقائق التي لم يكن يعلمها من قبل أو بالإلهـــام مـــن الله تعالى، وهنا افهم بالذوق .

خلق الله آدم عليه السلام وأبناءه من حقائق مختلفة لكل حقيقة منـــها مـــادة تغذوها، ولوازم تنتفع بها في ضرورياتها، وتتنعم بها في كمالياتها . وخلق لبني آدم كل ما لا بد لهم منه في حالتي الضروري والكمالي . فلا مانع من أن الله تعالى وضـــع في كل حقيقة كون الإنسان منها علمًا ضروريًا بكل الأشياء اللازمة لتلك الحقيقة، فمـــا من كائن في الوجود إلا والإنسان محتاج إليه، لا فرق بين الجمادات والمعادن والنباتات والحيوانات، وما في الأجواء من الهواء، وما في الأرجاء من المكونات، بـــل ومـــا في السموات من أفلاك وأملاك، بل وما فوق ذلك من جمال الملكوت، وما في الجنان من النعيم المقيم والملك الكبير . كل تلك الحقائق مبدعة للإنسان يتمتع بها في الدنيا، فإذا حصلها من الوجوه الشرعية وشكر عليها يتنعم بما هو خير منها يوم القيامة . فقولـــه تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ من هذا الطريق لأن الملائكـــة فطـــرهم علـــى التسبيح والتقديس والعبادة وهي ، مادة غذائهم وحقيقة أعمالهم أغناهم الله عن المادة ولوازمها، فلم يكن من مقوماتهم ما يحتاج إلى علم ما أبدعه الله في الكـــون، لأنهـــم علموا بطريق الإلهام بقدر الحقائق التي خلقهم الله منها، ولكنهم في حاجة إلى مزيـــد العلم لتنكشف لهم حكمة الحكيم وغرائب قدرته وعجائب صنعته، لأن العلم شـــيء غير العمل به . فكم من عالم بعلم لا يحتاج إلى العمل به طول حياته، كعلم الفلـــك وعلم تخطيط الأرض وعلم وظائف الأعضاء وأكثر أنواع علوم الرياضة : وأتى بلفظ (كُلَّهَا) بيانًا لشمول الأسماء التي تعلمها آدم عليه السلام من ربه لكل ما لا غنى لآدم

عنه في ضرورياته وكمالياته، وأراد الله سبحانه بتلك الحادثة تفصيل ما أجمله قوله سبحانه : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ومن هنا نعلم حق العلم أن العلم بالتعلم، وأنه لا يحصل العلم إلا بالتعليم بدليل قوله تعالى : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ولذلك خلق الله الملائكة لا تعلم شيئًا، والله سبحانه هو الذي يعلم بذاته الأشياء قبل وجودها . لأن علم الله تعالى سبب في وجود الأشياء، فما من شيء يعلمه الله إلا أحدثه وأوجده، وعلم الحوادث لا يحصل إلا بوجود الأشياء، لأن وجود الأشياء سبب لوجود العلم بها . فالخلق لا يعلمون شيئًا إلا إذا تعلموه أو شهدوه موجودًا، وشتان بين علم الخلاق العليم، وعلم العبد المقهور الذليل . فالله سبحانه يعلم الأشياء كليها وجزئيها قبل وجودها على ما تكون عليه في إيجادها وبقائها وفنائها، وما تؤول إليه بعد فنائها . كل ذلك يعلمه الله بعلم هو صفته الذاتية له، لا ينفك عنه سبحانه . فآدم عليه السلام لم يكن يعلم شيئًا، ولكن الله تعالى شاء أن يقهر الملائكة بإظهار عجزهم عن علم ما علمه سبحانه لآدم، لتنبلج لهم حكمة الله في إيجاد آدم، وليعلموا حق العلم أن وجود آدم خير للعالم أجمع من الملائكة والجن والحيوانات والجمادات، فبآدم شهد الملائكة من جمال الله وجلاله وكماله وبهائه وضيائه ونوره ما لم يكونوا يعلمونه فضلا عن أن يشهدوه . فسبحان من كشف كنوز الغيب المصون بما أظهره في طينة من معاني صفاته العلية، وأسرار أسمائه جلت ذاته، يلوح لك هذا السر في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

ففي قوله : ﴿عَرَضَهُمْ﴾ إشارة عالية حيث أتى بالهاء والميم المنبئة بأن المعروض من العقلاء وفى قوله : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء ﴾ بالإشارة إليها دليل على أن المعروض على الملائكة أسماء ظهرت معانيها جلية في آدم وهي ، معاني الصفات التي لم يتجمل بها نوع من المخلوقات إلا آدم . ولك أن تقول : إنها الحقائق التي بينها

هيكل آدم، بما فيه من المقتضيات التي يقتضي وجودها، وقد فسر العلماء هذه الأسماء بأنها أسماء كل ما خلقه الله لآدم من كل الأنواع، واختلف العلماء في اللغة هل هـي توقيفية أم لا ؟ ولكل فريق منهم أدلة ونصوص مبسوطة في كل كتب أصول الفقه، لا حاجة إلى ذكرها هنا .

اسجد أيها العقل غير باحث فإن الذي خلق الأرجاء والأجواء وسمك السـماء وبسط الأرض، هو الذي علم آدم بقدرته ما لم يكن يعلم لتقوم الحجة على الملائكة أنهم يجهلون حكمة الله تعالى في إيجاد آدم وسر التفضل عليه بأنه خليفة عنه سبحانه في أرضه، فكان سؤال الملائكة لحكمة كشف تلك الأسرار التي يزداد بها المـؤمن إيمانًـا ويزداد المنافق بها بعدًا عن الله تعالى، لأنه يزن الغيب المصون بالمشهود الملموس تحـت جوارحه : والمسلم ما بلغ درجة الإسلام إلا بعد أن سلم لله واستسلم، وهـذا معـنى مسلم، لأن مسلمًا بمعنى مسلّم بتشديد اللام، وفى بعض القراءات ورد لفـظ مسـلم بتخفيف اللام وبتشديدها، قال الله تعالى مخبرًا عن إبراهيم عليه السـلام : ﴿ رَبَّنَـا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ بتشديد اللام في الكلمتين ومـن ادعى الإيمان من غير أن يسلم لله تسليمًا ينبيء عن علمه بكمالِ قـدرة الله تعـالى، وبعجائب تصريفها في الكائنات كذب في دعواه، لأن الإيمان تسليم القلب والإسلام تسليم الجوارح المجترحة، وذلك لا يخالف قول أهل الحديث الذين يقولون : الإيمـان والإسلام واحد، لأن حكمهم هذا إنما هو على المؤمن الكامـل الـذي لم تشـب عقيدته شائبة شرك، أما أهل النفاق أو الشك فإيمانهم ناقص ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء ﴾ .

أظهر الله الحقائق التي أشرنا إليها قبلا حتى رآها الملائكة، فقال بعد أن تحققـوا منها ﴿ أَنبِئُونِي ﴾ أي أخبروني ﴿ بِأَسْمَاء هَؤُلاء ﴾ الحقائق المعروضة عليكم لتقيموا الحجة لكم على أنكم أولي بالخلافة من آدم وبنيه، لأن بني آدم يفسدون في الأرض

ويسفكون الدماء، ووجه أولويتكم بالخلافة عنهم أنكم تسبحون بحمدى وتقدسون لى ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم، وإذا كنتم تجهلون ما هو تحت نظـــركم ولا تعلمون حتى ولا بأسمائهم كيف تحكمون على ما غاب عنكم من أســـرار حكمـــتي وغيب تقديري فلم يسع الملائكة بعد إقامة الحجة عليهم إلا الإنابـــة إلى الله بالتوبـــة، وسرعة الإنابة بعد الخطيئة هي العناية الكبرى التي يوفق الله لها من سبقت لهم الحسنى كما فعل آدم عليه السلام عند ما أسرع إلى الإنابة فقال فيما أخبر الله تعـــالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وكما أســـرع نوح عليه السلام إلى الإنابة بقوله : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْـــمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وكما قال يونس بن متى عليه السلام : ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فجميع أهل الإيمان الكامل إذا قارفوا ذنبًا من الذنوب أسرعوا إلى التوبة والإنابة بتوفيق الله تعالى فيقبل الله توبتهم، لأنه سبحانه غافر الذنب وقابل التوب، ولأهم أشهدهم سبحانه من سواطع العزة ولوامع العظمة وشدة العقاب ما أخشع قلـــوبهم وأخنـــع أبدانهم وأخضع لسلطان الشريعة قلوبهم المطهرة، من ظلمة الشرك وشـــوب الشـــك والريب، وهم مع ما جملهم الله به من طاعة أمره واجتناب نهيه يقولـــون : ﴿ رَبَّنَـــا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَـــذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ الآية والواو في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ ليست واو العطف وإنما هي واو المدح كما تقول : عمر بن الخطاب هو الذي فتح الفتوحات والذي أقام الحدود . ودليل إنابة الملائكة قوله تعالى : قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِـــيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

تبرأوا من نسبة العلم لأنفسهم وأثبتوه لهم بتعليم الله إياهم، إذ علم الله علـم ذاتى أزلى، فهو سبحانه يعلم بذاته لا بتعليم من سواه وما سواه لا يعلمون إلا مـا علمهم الله تعالى أو يعلمهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾أى أنت العليم بذاتك المعلم لغيرك ما شئت أن تحيطه به علمًا . الحكيم الذي تقدر الأقدار بحكمتك . فأنت متره في أقدارك وأحكامك وأعمالك كلها عن كل نقص . والحكمة هي وضع الشيء في محله .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ لتقيم الحجة عليهم في دعـواهم التي ظنوا فيها أنى لم أخلق خلقًا أعلم منهم . ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْـمَآئِهِمْ ﴾ قامـت الحجة، ووجب أن يتأدبوا بما يبينه الله سبحانه لهم بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ هنا يجـب أن يتأدب أهل العقول السخيفة أدبًا يليق بمرتبتهم المادية، فإن بعض من حرمـوا عيـون الإيمان يزعمون أنهم يعلمون شيئًا فيقول الواحد منهم أتكلم بلسان العلم، ثم يبدى من السخافات ما يحكم على نفسه أنه من الأنعام، ولكن صـدق الله العظـيم إذ يقـول سبحانه : ﴿ وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدَ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَـا * وَقَد خَاب مَن دسَّاهَا ﴾ .

على نفس فليبك زنديق خبثت نفسه ففجرت فجورًا يحارب ربه، وينصر أهل الباطل من المبشرين الذين لم يتفضل الله عليهم بالقابل لهذا النور والهدى، وليته إذ ضل أخفت صوته حتى لا يفتضح في الدنيا ويعذب في الآخرة، ولكنه خيل له أنـه بـين الخفافيش أمثاله، وظن أن الشمس ليست موجودة والشمس طالعة مشـرقة، ولكـن النفوس الخبيثة ليست قابلة لرؤية الأشعة، وقد كثر أمثال هؤلاء ﴿وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وانتظار الفرج عبادة والحق لا يعدم نصيرًا . وإذا كانت الأرواح النورانيـة المجردة عن المادة ولوازمها ثبت جهلهم بعلم أسماء ما يرونه، واعترفوا بالجهالة فكيـف

لا يعترف بها زنديق محجوب عن معرفة نفسه، يسوقه هواه وحظه إلى نيـل الشـهرة والمال من أيدى المتسلطين على الشرق وأهله، ألا قبح الله الطمع في غير مطمع فإنه هاوية الهلاك .

قوله تعالى : قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴿٣٣﴾

حجة قائمة على أن علمه أحاط بالكليات والجزئيات رغم أنف الفلاسفة، لأن العلم الإلهي سبب لإيجاد الكائنات، فالأشياء توجد، وسبب إيجادها علم الله بها، فما علم سبحانه بشيء إلا أوجده، ولكن علم الحوادث لا يحصل إلا بعد وجودها، فنحن لا نعلم بالأشياء إلا بعد وجودها، لأن علمنا حادث وعلم الله قبل الأشـياء، وبـه وجدت الأشياء . فإرادة الله تخصص ما علم الله إيجاده وقدرة الله تبرز مـا خصصـته الإرادة من حضرة العلم، ومن قاس العلم الحادث بالعلم القديم نحكم عليـه بالجهـل المركب ومثل هذا لا نعتني به مهما أبدى من السخافات . يكشف الله لنا في تلـك الآيات ما تفضل به علينا من النعم التي توجب علينا الشكر والحمد والإخـلاص في عبادته سبحانه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴿٣٤﴾

سبحانك اللهم وبحمدك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسـك . عجزت العقول الكاملة على أن تحصي عطاياك، أو تقدر نعمة من النعم التي تفضلت بها علينا، لأن إحسانك على أبينا آدم هو إحسان علينا جميعًا . تـذكرنا سـبحانك جلائل النعم التي خصصت بها أبانا آدم دون غيره من الأنواع العالية، فذكرتنا بأنـك رفعت قدره بإقامته خليفة عنك، ثم تفضلت بالمزيد فعلمته مالا تعلمه ملائكتـك، ثم

ميزته بأن جعلته يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أوليت مـــالا عـــين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما ذكرت سبحانك في الآية وهي ، قولـــك : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ ﴾ الخ، فافتتحت الآية بقولك ﴿ قُلْنَا﴾ الدالـــة على التعظيم للمسجود له، ثم أمرت سبحانك بأمر صريح فجعلـــت الســـجود لآدم إكراما له ورفعة لقدره بين الملائكة، ثم أكرمت من أطاع الأمر، وأهنت من خـــالف الأمر . فكان إكرامه فوق كل الإكرام حيث لأجله ترفع ولأجله تخفض . وفى قولك سبحانك . ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ﴾من الرفعة لقدره ما دل على أنك جملته بجمال محبوب لحضرتك،وأهلته للقيام بمحابك سبحانك ومراضيك، ولم تقل اسجدوا إلى آدم كما أمرتنا أن نسجد إلى الكعبة والسجود لحضرتك العلية، فنعلم أنه كعبة لنا بل قلت : ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ . أي قدموا له تحية التعظيم والتجلة وقوموا أمامه قيام الإكـــرام والاحترام، إذ سجود العبودية خاص بذاتك، وأنت ســـبحانك تعظـــم مـــن تشـــاء وتعظيمك هو التعظيم حقًا، وأنت القاهر فوق عبادك بل وأنت المبلي تبتلي من تشاء بما تشاء، لتقيم الحجة لمن أطاعك وتقيمها على من عصاك . نسألك ياربنا الحفـــظ والوقاية من فتن الابتلاء وبلايا الفتن، صرحت بالأمر في السجود تصريحًا لا يحتمـــل التأويل، وجعلت التأويل في مقام التصريح لعنة منك وسخطًا على من أول . أعـــذنا بوجهك من التأويل في مقام التصريح، وأعنا على الطاعة لأمرك وبغض ما تنهانا عنـــه ﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .. السجود لغة معلـــوم ولا يكون إلا لله تقدست ذاته وتعالت أسماؤه في مقام العبـــادة، ولكنـــه لآدم تعظيمـــا واحترامًا، وأمر الله الملائكة بالسجود من البلاء العظيم، لأن الملائكة كما نعلم جميعًـــا هم أجسام نورانية خلقهم الله من نور سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، الذي خلقه الله من نور العزة، وآدم وذريته جمع الله فيهم كل الحقائق، فأرواحهم من نور ســـيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ الذي خلقه الله من الرحمة، وعقولهم من نـــور الحكمـــة

المقتبس من مشكاة أنواره ﴿ﷺ وآله﴾، ونفوسهم من نار القوة والجلال، وأشباحهم من أنواع جواهر الأرض التي لاكها سبحانه بالماء وجففها بالهواء .

فالإنسان جامع لكل الحقائق العلوية والسفلية وفى نظر العقل تفضل الأجسامُ النورانية الأجسام المزدوجة المكونة من جواهر وعناصر عالية وسافلة، فقهرُ الملائكـــة والجن على السجود لآدم بلاء حسن من الله تعالى، لينفذ صورة الإرادة ويظهر حقيقة القبضتين، ولتشرق أنوار القدرة وأسرار الحكمة في بدائع إبداع صنعه ولطائف حكمه وغيب حكمته، يذوق هذا الراح الطهور من فقه الخطاب من الله تعالى وألقى السمع وهو شهيد .

سجد الملائكة لتتجلى حقيقة الإرادة، وأبى إبليس ليشهد أهل الكشف حقيقة العدل فيما أراد وأبدع وإلا فمن إبليس ؟ ومن آدم ؟ ومن الملائكة ؟ سبحان من حير العقول فيما أبرز من الحكم وأسكر الأرواح بما ألاح من الغيب المكنون، وبما أدار من الرحيق المختوم. وهنا نلمع إلى ساطعة من أنوار الغيب المصون .

نزعت نفوس الملائكة إلى المعارضة فيما هو دون السجود،فخاطبوا ربهـــم بمـــا وجدوه في أنفسهم خطاب عبد لرب أدبًا وتعظيمًا فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فأقام الحجة علـــيهم قـــولا وابتلاهم أعظم البلاء فعلا، كأن الحقائق تقول : هذا الذي راجعتم ربكـــم بشـــأنه، وأبيتم أن يكون خليفة في الأرض، قد أمركم بصريح العبارة بالسجود له، والســـجود فوق التفضل عليه بالخلافة،فما وسعهم إلا السمع والطاعة.لأن الخبر لا يمنع من عرض ما يجدونه في أنفسهم، ولكن الأمر من القوي القادر رب العزة والعظمة، هـــو الحـــد الفاصل بين الرضا والمقت، والقبول والرد . فمن خالف الأمر ناسيًا أو جاهلا، فعليه أن يتوب مسارعًا، ومن خالفه متأولا أو لأن نفسه عنادية، فقد بين القرآن الحكم فيه . ولا فرق في الأمر بين أن يكون بالحضور والمواجهة بلسان العلي الأعلى، أو في الغيبة

والبعد بلسان الرسول المبعوث من قبل الله تعالى، فإن النفوس التي خلقت من سجين لو خاطبها الرب جل جلاله كفاحًا لأبت القبول.فمخالفة الرسول مخالفة للحق سبحانه، حجة ذلك إبليس أعاذنا الله منه . فليحذر المغرور بعافيته أو بما تلقاه من أباطيل الأعداء الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. قد هلك في هذا الموضع فئتان من الذين تأولوا : وهم ضلّال المتصوفة الشاطحون الساقطون في وادى التيه، الذين محوا الشرائع والأحكام والسنن والآداب، وظنوا أنهم يحسنون صنعًا، فإن الصوفية رضي الله عنهم سمعوا القرآن بآذان أرواحهم، ففقهوا سر الخطاب وعملوا بالإخلاص، ونأوا عما نهاهم عنه، فعلمهم ما لم يكونوا يعملون . قال سبحانه : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ وقال تعالى : ﴿ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ ورمى هؤلاء المتصوفة بقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ والفئة الثانية : هم أهل النفوس الخبيثة العنادية، الذين يتعلمون العلم لغير الله تعالى، بل يتعلمون العلم للجمع والادخار، ولرفعة الجاه في الدنيا والتقرب من الملوك والأمراء، وتأييد أباطيل الأعداء، وإخفاء علماء السلف الذين نور الله بهم الأمة، وإظهار علماء الأعداء . فتراهم ينشرون ذكر أعداء الله في كتاباتهم وهم شر من إبليس على الأمة . والواجب علينا جماعة المسلمين أن نحذرهم هم ومن أعانهم من أهل النفوس الإبليسية يقول الله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ .

قد عرفنا الملائكة فيما سبق لنا من التفسير، أما إبليس فمأخوذ من أبلس : أي اخلد إلى العناد والمخالفة وكفر النعمة، كما أن الشيطان مأخوذ من : شطن أو شاط . وشطن بمعنى بعد، وشاط بمعنى الاحتراق . وأهل التحقيق يجعلون الاستثناء متصلا بمعنى أن إبليس من قبيلة الجن المخلوقة من النار وهم نوع من الملائكة وكان اسمه قبل الأبلسة والشيطنة (عزازيل) وبهذا عاقبه الله تعالى بالطرد واللعن والحرمان . على مخالفته الأمر الموجه للملائكة ولو كان الاستثناء منفصلا بمعنى أنه ليس من الملائكة

لخرج من التكليف والمطالبة بأمر السجود، لأن الله تعالى يقول :﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَــةِ اسْجُدُواْ ﴾ ولو كان من غير الملائكة لما حكم الله عليــه بحكــم المخــالف . ﴿ أبي وَاسْتَكْبَرَ ﴾ معنى أبي : امتنع، ومعنى استكبر : أعتمد على القياس الباطل الذي اغتــر به، وهو أنه من نار وأن آدم من طين، وما كان لعدو الله أن يخالف أمر ربنــا جــل جلاله لولا ما قدره الله عليه أزلا من سابقة السوءى . نسأل الله تعالى سابقة الحســنى وخاتمتها .

﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الكافر في اللغة : هو الذي يستر الحقائق أو تستر عنه، لحرمانه من النور الذي يهبه الله تعالى لمن اجتباهم مــن عبــاده، فقولــه : ﴿ مِــنَ الْكَافِرِينَ﴾أى من الذين كفروا نعمة الله وغمطوا الخلق . ولسائل أن يسأل من هــم الكافرون الذين بلغوا من الكفر مبلغًا صار إبليس منهم ؟ وهو الكافر الذي أضــل أكثر الخلق .

والجواب والله أعلم : أن الأرض كانت عامرة بأنواع كــثيرة، مثــل أنــواع الإنسان وغيره، وهي ، التي قال فيها الملائكة :﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ . لأنهم علموا أن الأرض كان فيها أمم تفعل ما أخبروا به وأكثر . هناك من لا يقل كفرهم وعنادهم عن إبليس مثل من أكره الناس على اتخاذه إلهًا من دون الله كفرعون وغيره، فإنهم أفسدوا في الأرض، وأضلوا الخلق وآذوا الرسل . كذلك فإن المنافقين شر من إبليس، لأن إبليس له لون واحد والمنافق له ألوان كثيرة، والله تعــالى يقول : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أعاذنا الله وإخواننا مــن الفــتن المضلة .

قوله تعالى : وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴿٣٥﴾

يقول جلت قدرته : : إني أنعمت على أبيكم نعمًا روحانية بلغ بها مجدًا وشرفًا وسعادة في الدارين، فصلتها لكم في الآية السالفة . وفى هذه الآية يعلمنـــا ســـبحانه وتعالى أنه أنعم على أبينا آدم نعمة جسمانية، بما حباه به من تمتع حسه بجمال الجنـــة، وبالتفضل على جسمه بشهى طعام الجنة، وبالإحسان إلى عقله بتعقل آيات الجنـــة، وبالمنة على روحه بتلقي الحكمة منه سبحانه وتعالى في الجنة وهذا والله أعلـــم معـــنى قوله تعالى: ﴿آسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾. يقول جل اسمه ﴿آسْكُنْ﴾ و لم يقل استقر في الجنة ولا مَلَّكْتُكَهَا، بل قال اسكن من السكون، وهو اللبث والاستقرار فيها زمنًـــا معينًا. فإن في كل لفظ من ألفاظ القرآن إشارات عجيبة يفهمها أهل الذوق تدل على مراد الله تعالى أزلا . و(الجنة) كل مكان تجمل بالأشجار اليانعة حتى ستر الخارج منه عن الداخل فيه وستر الداخل عن الخارج، وهذا معنى الجنة لغة . فالجنة : بفتح الجـــيم البستان، والجنة بضم الجيم : الوقاية، أو ما يستر الإنسان به نفسه من غيره . والجنـــة بكسر الجيم : هو كل ما يَرى ولا يُرى، كما قال جل وعلا : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ وكلها بمعنى الستر والاختفاء . قوله : ﴿ آسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ يعين أن حواء خلقت قبل إدخال آدم الجنة . خلقها سبحانه من ضلع من أضلاعه، فكانت فرعًا منه، وكان أصلها . هذا هو السر الذي لأجله خلقت من ضلعه ليحصل منه السكون إليها والحب منها له، فإن كل فرع يحب أصله وكل أصل يحب فرعـــه، كما يحب الولد والده والوالد ولده في أصل الفطرة، إلا من خبثت نفوسهم، فكانت نفوسًا إبليسية فعقوا آباءهم .

من هذا نعلم أن الذين صاغ الله نفوسهم من أصفى الجواهر يحبـــون الله حبًـــا جمًا، لأنه سبحانه هو الذي خلقهم وأوجدهم وأمدهم بكل ما لابد لهم منه وأكمل . وهنا يجب أن نشير إلى شيء من حقيقة نفس الإنسان، ومنه يذوق أهل الصفا طهورًا من حكمة إيجاده وكيف ينال السعادة

خلق الله آدم من طين العزة المخلوق من نور محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وأعلمــه أن نفسه الأمارة بالسوء أعدى عدو له، وأنه خلقه لحكمة علية كاشف بها الراسخين في العلم . ومن سر تلك الحكمة أن فضله الله على ملائكته إذا هو فقه سر خلق تلــك النفس بعد أن أسجدهم له . وحكمة خلق النفس الأمارة بالسوء أن يكون الإنسان في لهيب نار المجاهدة، لهذا العدو اللدود، ليفوز بمحــاب الله ومراضــيه، وأن الله تعــالى خلقها مفطورة على خواطر وهمم تضاد ما فطرت عليه النفس الملكية الفاضلة، ولتلك النفس الأمارة بالسوء جنود وأعوان، ومن أعظم جنودها الحــس فالجســم وغيرهــا وللنفس الفاضلة الملكية عناية بسابقة الحسنى. أمر الله العبد بقهر تلك النفس الأمارة قهرًا يجعله يستخدمها فيما به نيل القرب من الله تعالى فينميها ولا يهملها ليغضب بها لله على أعدائه، وينتقم بها لله من أعدائه ويدفع بها الأشرار، كمــا يقهــر الوحــوش الكاسرة فيسخرها الإنسان لأغراضه . قال الإمام التستري : إن الله تعالى أمر الــنفس الأمارة بالسوء أن تلتجيء إليه وتفتقر، بمعنى أنه إن أبدى عليها طاعة قالت أعني، وإن حركت إلى معصية قالت اعصمني، وإن حركت إلى نعمة قالت أوزعني، وإن قال لها اصبري على البلاء قالت صبّرني . وطلب من العبد أنه لا يساكن قبله أدنى وسوسة لها دون الرجوع عنها إلى ربه وجعل طبعها في الأمر ساكنًا وفى النهي متحركًا وأمره بأن يسكن عن المتحرك ويتحرك عن الساكن بلا حول ولا قوة إلا بالله أي لا حول له عن معصيته ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته، ثم أمر بدخول الجنة والأكل منها رغــدا حيث شاء ونص عليه النهى عن الأكل من الشجرة، فلما دخل الجنة ورأى مــا رأى قالت له النفس الأمارة : لو خلدنا، وإنما لنا أجل مضروب إلى غاية معلومــة، فأتــاه إبليس من قبل مساكنه قلبه بوسوسة نفسه في ذلك، فقال هل أدلك على شجرة الخلد التي تتمناها في هذه الدار وهي ، سبب البقاء والخلود وقال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ فكانت دلالته هذه غرورًا

وألحق الله به عز وجل وسوسة العدو لسابق علمه فيه، وبلوغ تقديره وحكمه العادل عليه – انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ .

أباح له سبحانه بقوله : ﴿ آسْكُنْ ﴾ التمتع في الجنة بالجلوس والقيام والتنقل فيها، وأباح له سبحانه ما فيها من الأغذية والأشربة والفاكهة . وقوله ﴿ وَكُـلاَ ﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد منه الإباحة بدليل قوله ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ والرغد : هو العيش الواسع الهنيء ولكنه سبحانه حظر عليهما شجرة عينها لهما تعيينًا لا يحتاج للشك .

(إشارة) : ما الحكمة في إسكانهما الجنة ؟ وفى معصيتهما وإهباطهما إلى الأرض؟ وما السّر في إزلال الشيطان إياهما عن الجنة ؟

أسكنهما الله الجنة وهو يعلم أنها ليست دار بقاء لهما الآن، ليشهدهما سبحانه وتعالى ما فيها من النعيم والبهجة والهناءة ودوام العافية والصفاء، فإذا أهبطهما إلى الأرض تذكراها، فحنا إليها وشوقا ذريتهما إليها . وقدر سبحانه المعصية عليهما ليعلما أنهما اهبطا من دار النعيم والمسرة والبهجة بمعصية واحدة، فيخافون أن يحرموا من الرجوع إليها إذا هم وقعوا في معاص أخرى في الدنيا . وكيف يطمع رجل أن يدخل الجنة التي أخرج الله منها آدم بمعصية واحدة بعد أن عصى الله تعالى في الأرض ؟ وحكمة وسوسة إبليس لآدم أن إبليس ما وسوس لآدم إلا بعد أن تحركت النفس الأمارة بالسوء في وقت كان يجب عليها أن تسكن . أمرها الله تعالى بالسكون إليه عند إسباغه سبحانه النعم المتوالية في الجنة فتحركت. حفظنا الله من شرورها متمنية في الجنة فاتصل بها مجانسها إبليس وقوى عندها هذا الأمل، فاشتد طلبها له، فأقسم لآدم وزوجته إن أكلا من هذه الشجرة ينالا البقاء، فكانت الحكمة أن يظهر آدم

وزوجته عداوة تلك النفس التي يتصل بها إبليس فيزلهما عما هما فيه، سواء أكان في الجنة أو في غيرها، والعصمة بالله والعناية منه ونيل الخير في الدنيا والآخرة به سبحانه .

قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ .

علمنا أن الله تعالى تفضل فأباح لآدم سكنى الجنة ليتنعم فيها، بجمال مناظرها ولذيذ نعيمها وطيب نسيمها، ويتروح فيها براح المؤانسة بعلي الملكوت، وريحان البهجة بشهود معاني صفات الظاهر جل جلاله، من حيث لا سبب يحجب المشاهد ولا خوف من فقد مطلوبه، ولا حزن على فوات محبوبه ولكن الله جل جلاله أمن آدم بُسكنى الجنة متمتعًا بكل ما ابتدعته يد القدرة فيها، لحكمة خفيت عن العقول السليمة، بل وعن أرواح الملائكة . وسنشرح طرفًا من تلك الحكمة بعد . ولما كان الأمر بالسكنى لا يقتضي البقاء الأبدي فيها، بل يفيد أن إسكانه فيها تكرمة له ليحيط علمًا بجمالها وما فيها من النعيم المقيم لأهلها، فيشتاق إليها إذا فارقها . قدر الله في أزله أن يكون الأمر والنهي سببين للسعادة والشقاء، وحجتين على سابقة الحسنى أو سابقة السوءى، فإن الله يشرح صدر من سبقت له الحسنى لاجتناب المنهيات والمسارعة إلى المأمورات، ويجعل من سبقت له الحسنى عاجزًا عن إتيان ما نهى الله عنه لفقد الداعي ولفقد من يعينه أو ما يعينه على المعصية . أما من سبقت له السوءى، فإن الله تعالى يستدرجه وييسر له ما به يقع فيما نهى عنه، ويترك ما أمر الله به .

وكذلك كان الأمر في آدم، فإن الله تعالى قدر عليه المعصية ويسر له ما يعينه عليها من النفس الأمارة بالسوء التي تحركت في طلب الخلود ومن إبليس الذي وسوس إليه بالوقوع في المعصية وجعل لتلك المعصية حكمة علية، أعظمها عاقبة أن الله تعالى أعلم عبادهُ أنه غفور رحيم، يقبل التوبة ممن خالف أمره ونهيه وتاب إليه سبحانه – قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾وليس المراد بالقرب هنا القرب المكاني، بدليل قوله تعالى : ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بل المراد النهي عن

الانتفاع بها بحسب ما تقتضيه مادتها . والنهي شامل أنهما لا يقرباها معًا ولا يقربها كل واحد منهما منفردًا، لأن الله تعالى عين الشجرة بالإشارة إليها، خلافًا لما ظنه بعض المفسرين بأن المراد نوع الشجرة لا الشجرة بعينها دفعًا لنسبة المعصية إلى آدم، وهذا التأويل لا ينبغي بعد قوله تعالى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وإنما يؤول غير الصريح من الأخبار التي تتحمل معاني كثيرة وليس أكثر صراحة من قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ومن تأويل الصريح الذي ليس فيه تلبيس تشبه بإبليس لتأويله حين امتنع عن السجود، أعوذ بوجه الله الكريم من مخالفة أمره ونهيه، ومن تأويل صريح القرآن ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ﴾ الظلم لغة : هو وضع الشيء في غير موضعه المناسب له . أما شرعًا : فأكبر الظلم الشرك، ثم اتباع أهل البدع المخالفين للسنة، ثم فثم إلى أن يكون أخف الظلم ترك ما هو أولي من النوافل .

قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾[٣٦]

أسند الله تعالى الفعل إلى الشيطان فقال سبحانه : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ مجاراة للعقول التي تشهد الأسباب قائمة بقيوم، ولكنها لا تشهد الأسباب فاعلة مختارة وإلا كان شركا . وما خاطب الله العقول في آيات كثيرة يسند فيها الفعل إلى سببه إلا لحكمة غريبة على أهل الحجاب، منها : أن الأدب مع الله تعالى يقتضي أن لا ينسب إليه مباشرة ما يراه الإنسان قبيحًا في نظره كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ بعد قوله : ﴿ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ وكما قال الخضر عليه السلام : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مع قوله بعد ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ – هذه الحكمة يراعيها أهل الأدب الكامل مع الله تعالى . ومنها أن يجاهد المسلم نفسه الأمارة بالسوء من أن تتحرك في وقت أمره الله تعالى أن تسكن فيه، فيدخل عليها العدو في حركتها كما دخل على آدم عندما تمنى الخلود في الجنة بحركة نفسه الأمارة بالسوء، فإسناد الإزلال إلى الشيطان باعث على دوام يقظة المسلم من نوم الغفلة عن هذا العدو .

ومنها قهر أهل الأهواء الذين كثيرًا ما يسيئون الأدب فينسبون سيء أعمـــالهم إلى الله تعالى ويتركون التوبة والندم، وكثير منهم من يحتج بالقدر، وهم مجوس هذه الأمة، ولا ينكر القدر إلا كافر، ولا يحتج به بعد الأمر والنهى إلا ضال مضل .

نعم إن الله سبحانه قدر ولكنه أخفى عنك القدر، وإنما فعل العبد ما نهـــى الله عنه مخالفًا لأوامر الله تعالى، جاهلا أنه قدر أو يقدر . وقد يكون للعبد العذر إذا أطلعه الله على مراده المكون، فسارع إليه منفذًا مراد الله تعالى الذي أعلمه به علمًا يقينيًا على لسان رسول من أولي العزم، أو نبى موحى إليه، لا بمجرد ظن أو تأويل بدعوى إلهام أو برؤيا منامية أو وجدان عن حال عليه، فإن كل ذلك لا يبيح مخالفة أمر الله تعـــالى ولا إتيان نواهيه سبحانه ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أي أوقعهما في الزلـــة بســـبب وسوسته إليهما، فكان سببًا في إزلالهما عن الجنة، أي تحولهما عنها وإخراجهما منها . يقال زل عن كذا : أي تحول . والمراد والله أعلم أن الشيطان وسوس لهما فتسبب في إيقاعهما في الأكل من الشجرة الذي نهاهما ربهما عنه، فكان عمله أعاذنـــا الله منـــه سببًا في إخراجهما من الجنة بالزلة التي أزلهما بها .

(إشارة) : سبق لنا أن النفس الأمارة بالسوء من النار فهي مجانسة لإبلـــيس، وهي ، محل نظر إبليس وسمعه، وأن الروح التي هي اللطيفة الربانية الجوهرة النورانيـــة تجانس ملكوت الله الأعلى وهي ، محل نظر الله تعالى، وهي ، المأمورة بالحركة — أما النفس الأمارة بالسوء فإنها مأمورة بالسكون، فإذا تحركت أقل حركة بلمة أو بهمة أو بخاطر اتصل بها الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فأوقعها في مخالفـــة ربها فإن لم يعصمها سبحانه وتعالى أو يتوب عليها هلكت.وأما الـــروح فحركتـــها المسارعة إلى مغفرة من ربها والاعتصام بحبل الله، والتعاون على البر والتقوى، والتفكر في آلاء الله وآياته الجلية والتشبه بالملائكة المقربين، وشتان بين حركة الروح وحركـــة الحس وحركة النفس الأمارة بالسوء . والتوبة يجب أن تكون عملا بالعقل والجســـم

والحس بمساعدة الروح الملكية بعناية الله وبتوفيقه – أما عمل الحس في التوبة فالتباعد عما يسبب حركة النفس الأمارة بالسوء من المناظر والملموسات والمـذوقات. وأمـا عمل الجسم في التوبة فإذا بة ما نبت من شحم ولحم بسبب الوقوع فيما حـرم الله تعالى، بطول الجوع والعطش والسهر، وأما عمل العقل فتصـوير عقوبـة الله تعـالى والحرمان من النعيم المقيم، بسبب ما ارتكبه من المعصية تصويرًا يوجب الحسرة والندم والخوف الشديد، فيما إذا كانت المعصية لا حد لها في القرآن – أما إذا كان لها حـد فالواجب على العاصي أن يسارع إلى أن يقيم الحد على نفسه على يد المنفذ لأحكام الشريعة – أما إذا تساهل الولاة في إقامة الحدود ،فعلى التائب أن ينتظر مـن يقـيم الحدود لتطهيره من نجاسة المعاصي بإقامة الحد عليه – وهذا إن مات مات تائبًا حقًا، لأن الله تعالى يأمرنا بقوله : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد بشرنا الله تعالى في القرآن أن يقبل التوبة عمن تاب فيما يمكن لا فيما لا يمكن – قال تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات﴾ كما بينت... ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين﴾ . قدر الله سبحانه وتعالى أن يعمر الأرض بآدم وذريته، وقدر سبحانه أيضًا أن يجعل إبليس سببًا لخير بني آدم ولشرهم، وبين سبحانه تلك الحقائق بيانًا لا يحتـاج إلى دليل لوضوحه جليًا، وقد أعلمنا جل جلاله أن الشيطان لنا عدو، وأن في هيكلنـا الإنساني محل وسوسته من حيث لا نعلم وحذرنا من الوقـوع في المسـارعة لتنفيـذ وسوسته، وأمرنا بالمجاهدة الفادحة في دفع وسوسته وما يرد علينا من لمه ودسائسه، ووعدنا سبحانه وتعالى برفعة الدرجات عنده ونيل النعيم المقـيم في دار الخلـد مـع الأبرار، أو نيل الحب والقرب منه مع الأخيار ، أو نيل مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشـهداء والصالحين. كل ذلك وعدنا الله به سبحانه بسبب مجاهدتنا هذا العدو تعظيمًا لأمر الله تعالى وإجلالًا لنهيه وهو الفاعل المختار الهادي المضل – قال سبحانه : ﴿يُضِلُّ مَـن

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾.ولكنه ستر القدر عنا وأخفى غيبه المصون عــن العقــول والعيون . فسبحان من لا يعلم قدره غيره ولا يبلغ الواصفون صفته، كما لا يعلم قدَرَه إلا من شاء أن يحيطه بشيء منه .

أظهر الله تعالى ما قدره أزلا في الصور التي أراد أن تكون بالأسباب التي أقامها الحى القيوم، فأهبط آدم وحواء متلبسين بالمعصية ليدخلا حضرة القبول مــن الله بمــا يجب أن يدخل به على تلك الحضرة كل عبد مسلم وهو الــذل بســبب المعصــية وانكسار القلب لخوف العقوبة،وبالتبتل والتضرع والتملق بين يدى الغفور التواب. وتلك هي الجواذب التي تجذب العبد بعناية الله تعالى إلى حضــرة قبولــه وغفرانــه وإحسانه، وكل عبد طلب الدخول على الله بعمله الصالح أو بعلمه الواسع أو بنســبه الشريف أو باستحقاقه لما آتاه الله من نعمة وعافية وجاه . أو بآبائه وأجداده أو بحوله وقوته كذبته الحقائق وردته خاسئًا وحسيرًا ونادته تلك الحضرة العليــة . لا يــدخل عليها إلا منكسر القلب خائف وَجِل متبرِّيء من حوله وقوته ذليل الجانب يئس مــن نفسه، ومن كل نظير له لا يعتمد إلا على الله، ولا يتوكل إلا عليه سبحانه ولا يعبــد أحدًا سواه، ومن ظن أن نسبه حجة على الله تعالى طرد وهلك ولو كان ابن نوح عليه السلام، أو اعتقد أنه بلغ الولاية الكبرى فأمن مكر الله تعالى ونأى بجانبه إلى جانب ما اعتمد عليه قهره الله حتى تنكشف له الحقائق التي هي حقيقة نفسه فيندم ولات حين مندم. والسالكون الذين سبقت لهم الحسنى هم كما قال تعالى : ﴿وَالَّــذِينَ يَبِيتُــونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ فأخبر الله عنهم أنهم يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، وبعد ذلــك يقولون : ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ .

أما من اعتمد على علمه وعمله فهذا إبليس لسنا في معرض الكلام عنه في هذا الموضوع، لأنه عبد الله سبعين ألف سنة كما ورد . ومنح الولاية الكــبرى والقــرب والمشاهدة كما أخبر الله عنه وكان طاووس الملائكة وخازن السماء الأولى، فلعنه الله

بسبب اعتماده على جوهر نفسه الذي هو من النار وعلى عمله الكثير . منحنـــا الله مشاهد التوحيد العلية، ورزقنا الأدب معه سبحانه بقدرنا . والأدب الكامـــل معـــه سبحانه حسن اتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ﴾ : هنا أكشف لك الستار عن حقيقة تزن بها كثيرًا من الآيات الشريفة المقدسة .

إن الله سبحانه يخاطبنا في آدم وحواء ويأمرنا فيها كما يخاطب أمـــم الأنبيـــاء السابقين فينا – فقوله تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ﴾ يريد سبحانه أمرنا في أبينا آدم وأمنا حواء، فكأنه يقول : اهبطا أنتما وذريتكما كما يقول سبحانه وتعـــالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لمن كانوا في زمن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أهل خيبر وقينقاع ولمن بعدهم إلى يوم القيامة، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ ويقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وكان ذلـــك في زمـــان سيدنا موسى عليه السلام . ولما كانت نجاة الآباء بها وجود الأبناء في تلك الدار الدنيا، كانت نجاة لهم أيضًا . وهذا ما يدل على سياق القرآن . فقوله : ﴿ اهْبِطُواْ ﴾ علـــى هذا النمط يدل على أن المراد آدم وذريته، ولا مانع من أن يكون الأمر أيضًا لإبلـــيس والحية التي أدخلته في الجنة كما ورد في بعض الأخبار . وإن كان الله تعالى لم يشأ أن يعين الحالة التي دخل بها أبليس الجنة والكيفية التي وسوس بها لآدم وزوجته فيها حـــتى أزلهما عن الجنة وهذا علم لا ينفع، والعلم بالكيفية والحال والشأن لا ينفع والجهل بها لا يضر .

كما أن ما ورد من الأخبار في تعيين الشجرة التي أكل منها آدم بعد أن أبهـــم الله الأمر علينا و لم يبين لنا فيها بيانًا، بل و لم يرد في صحيح الأخبار عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما يعينها حقيقة، فيكون البحث عنها لتعيينها بطريق العقل والنقل ممـــا لا ينفع علمه ولا يضر جهله . لأن الله تعالى لو قدر أن في العلم بها رضًا له عن خلقـــه لبينها وعينها . والواجب على طالب كشف الحقائق أن يتلقاها عن محدّث أو منه، أو

يسلك طريق الرياضة الفادحة لتزكو نفسه، فإذا زكت نفسه جانست العالم الأعلى، فكاشفها بتلك الحقائق مكاشفة يطمئن بها القلب بعد الإيمان الكامل . وهذا هو طريق السلوك إلى الله تعالى : ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوّ﴾ . العداوة متحققة فيما إذا كان الأمر لآدم وحواء وإبليس والحية ولا تحتاج إلى بيان، فإن عداوتنا لإبليس والحية بديهية، وأما على التأويل الثاني وهو أن الله تعالى يخاطب الذرية في آدم عليه السلام فإن الأمر محتاج إلى فكر ثم يظهر جليًا، فإنا نرى بني الإنسان في هرج ومرج وطمع وحرص، حتى لقد نرى الرجل وزوجته في خصومات ومشاحنات والرجل وأبناؤه كذلك إلا من منحهم الله جمال الأخلاق ووفقهم لمحابه ومراضيه سبحانه،فإذا اتسع نظرك رأيت المجتمعات العامة والخاصة مفعمة بالحروب والخصومات والمنازعات للأسباب التي ذكرتها وهي ، الطمع والحرص والحسد، إذا لو سألت أي مجتمع . لم تقاتل الآخر ؟ أعليه دين لك أو سلب منك حقًا ؟ أو قتل لك عزيزًا ؟ وأقمت عليه الحجة أن القتل ظلم عظيم وبلاء كبير لندم وبكى حسرة على سوء عمله . ولكن قدر الله أن يكون بعضنا عدوًا لبعض إلا من عصم الله تعالى من أهل التقوى والصلاح، الذين يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويصلون من قطعهم، ويؤثرون الغير على أنفسهم، ويحبون في الله ويبغضون في الله وهم أولياء الله الذين آمنوا بالله ورسوله وباليوم الآخر .. ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين ﴾ المستقر محل الإقرار وهو مدة الحياة الكونية والمدة المحدودة للبرزخ، فإنه المستقر الأخير . وفى قوله : ﴿مَتَاعٌ إِلَى حِين﴾ دليل على أن الرجل إذا مات ودفن متع بما تركه وراءه من علم ينتفع به أو كتب علمية ألَّفها أو أولاد صالحين يدعون له بخير أو صدقة جارية، فإن كل ذلك يكتب في صحيفته ويعجل الله له في قبره من خيراتها وهو المتعة التي أخبرنا الله بها في قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين ﴾ومتاع البيت ما ينتفع به ثم يبلى، وأما الجنة فنعيم لا يبلى .

قوله تعالى : **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَات فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿٣٧﴾**

إن الله تعالى إذا أراد لعبد خيرًا شرح صدره وأهّله لنيل هذا الخير . وعلى هذا فيكون ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ ﴾ أي شرح الله صدره ومنحه الاستعداد لتلقي كلمات الله بفرح وهمة علية، فلما ألقى الله الكلمات على آدم تلقاها بقبول وأنس، وعلى رواية إسناد التلقي إلى الكلمات يكون تلقت الكلمات آدم، فجائز أن يكون آدم تلقي الكلمات من ربه، وجائز أن يكون آدم تلقته الكلمات من ربه، وعلى كلا المعنيين فالتوبة لابد وأن تكون من الله على العبد أولا حتى يشرح الله صدر العبد فيتوب إلى الله . والتوبة في اللغة : الرجوع . فتوبة الله على العبد رجوعه عليه سبحانه بعواطفه وإحسانه وغفرانه، وتوبة العبد إلى الله تعالى رجوعه إلى ربه سبحانه بالندم عل ما فرط في جانبه والعزم على أن لا يعود إلى معاصيه ،ورد المظالم إلى أهلها وعلامة قبول التوبة أن يحرم العبد وجود اللذة بالمعصية والفرح بعملها، وأن يمنح وجود حلاوة الطاعة والفرح بها . والتوبة النصوح : ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح، أي ترك المعاصي وإضمار أن لا يعود إليها .

وأوجب فريضة على المسلم بعد تحصيل العلم النافع هو تحصيل علوم التوبة، لأن التوبة واجبة على الكل لا يكبر عليها رسول من أولي العزم فضلا عن عامة المسلمين . ومن أهمل التوبة ارتكب شر الكبائر . وكما أن التوبة فريضة على كل مسلم فإن الولاية جائزة لكل مسلم ولو كان من العصاة لأن الولاية فرع من الإيمان، فإذا وهب الله الأصل لعبده بفضله وهو الإيمان ففرعه الولاية يتفضل الله به على كل مسلم إذا شاء سبحانه . ومن ارتكب بجوارحه معاصي الله تعالى وظن أن الله تعالى لا يغفر له كان ظنه أكبر من كبائره عند الله، فإن الله تعالى خص بمحبته التوابين والمتطهرين، ولم يخبرنا جل جلاله أنه خصها بالطاهرين والعباد والزهاد، وهذا دليل على أن الله تعالى يحب العبد العاصي إذا أقبل على الله منكسر القلب خائفًا وجلا، لأنه عرف قدر نفسه أمام ربه، وتحقق أن الله على عظيم متره يقبل على من أقبل عليه طامعًا في غفرانه ورحمته بل ويقبل عليه سبحانه بالحب والإحسان والكرم . ولا ييأس

من روح الله إلا القوم الكافرون، بل لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الخاسرون، وهذه بشرى من الله تعالى لأهل الغفلة والمعاصي مثلي . والواجب علينا مرتكبي معاصي الله أن نسارع إلى التوبة بحقيقتها ونفرح بفضل الله وبرحمته علينا .. ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ دليل على أن كل مسلم قد ينجذب إلى التوبة والاستقامة بكلمات يتلقاها بقلبه من ربه من طريق الإلهام أو يسمعها من مرشد كامل نطق بها لسانه من قلبه أو يسمعها من متكلم لا يقصده . فإنا نرى أكثر المقبلين على الله التوابين إليه سبحانه تلقوا كلمات بإلهام أو برؤيا صالحة أو من رجل تقي عالم أو قراءة آيات من القرآن كما قال تعالى : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فجعل السمع والبصر والفؤاد وسائل لتحصيل العلم، والله تعالى يتفضل علينا حتى نتلقى منه سبحانه كلمات التوبة كما تلقي آدم من ربه، فإن في هذه الآية إشارة إلى أن التوبة من الله للعبد أولا، ومن العبد بفضل الله وإحسانه ثانيًا : يقول الله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

اسمع بأذن قلبك إلى تلك الآية، واسبح بروحك في رياض القرآن اليانعة، لتقتبس بها أنوار التوحيد - فتلقى آدم من ربه كلمات، تلك الكلمات هي كلمات التوبة عليه من الله تلقاها آدم بحول الله وقوته من ربه، فالذي ألقى الكلمات ليتلقاها آدم هو الله تعالى والذي وفق آدم لتلقيها هو الله سبحانه والذي تاب عليه بعد تلقيها هو الله تعالى ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ الذي يتوب على العبد ويقبل من العبد التوبة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾الواسع الرحمة الذي لولا رحمته لما تاب على أحد، فكأنه تاب على العاصي، لأنه تواب لا بد وأن يخلق المعصية وفاعلها ليتجلى باسمه التواب كما أنه هو الرزاق سبحانه يخلق الرزق والمرزوق ليظهر باسمه الرزاق، وكل هذا الإحسان والفضل برحمته لا لعلة ولا بإكراه جل ربنا وتعالى . ألا بهذا فليفرح

المسلمون فنعم الرب ربنا لنا ،وبئس العبد أنا لنفسي . أسأله سبحانه أن يعيننا علـــى شكر ما لا يحصى من النعم إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ . توكيد للجملة التي قبلـــها . وإن قال بعض المفسرين الجملة الأولى أمر بالهبوط إلى سماء الدنيا . والجملة الثانية أمـــر بالهبوط من سماء الدنيا إلى الأرض ويرد هذا التفسير قوله في الآية الأولى : ﴿ وَلَكُـــمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين ﴾فإن هذه الآية تدل بصريح البيان أن الهبوط إلى الأرض ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ هنا يسجد العقل لكشف أسرار التوحيد العالية — يقول تعالى ﴿ فَإِمَّا ﴾أتى بإن الشرطية المدغمة في ما ليقيم الحجة علينا أنه لا يجـــب عليه سبحانه شيء، لأنا جميعًا بالنسبة إليه عبيد مربوبون وعباد مقهورون، فهو سبحانه الهادي الذي يتجلى باسمه الهادي فيؤتي من سبقت له الحسنى قسطه من الهدى، ثم بعد أن كشف الستار عن حقيقة التوحيد في الهدى أثبت لنا عملا لإثبات الأسباب الـــتي أقامها سبحانه بينه وبين خلقه، لا شك في أن من اتبع هدى الله الذي آتاه يعتقد حق اليقين

أن اتباعه للهدى هو بتوفيق الله تعالى في عنايته وسابق إرادته الحسنى له، إذ لا حول للعبد عن معصية الله ولا قوة له على طاعة الله إلا بالله،ومن آتـــاه الله الهـــدى، كيف يعتقد أنه بحوله وقوته اتبع هدى الله تعالى هذا ما لا يتصوره إلا مـــن لم يتبـــع هدى الله تعالى ممن لم يحتس جرعة من صافي شراب التوحيد بصحبة العلماء الربانيين . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَيَجْرِي فِي ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَى ٱلدَّمِ) ومن علـــم أن الشرك ظاهر وأخفى سارع إلى تحصيل العلم بالله خوفا من الوقوع في الشرك الخفى أو الأخفى وقد كثر الدعاة إلى الأعمال وقبلهم الجـــاهلون فتـــراهم يصـــلون كـــثيرًا ويذكرون كثيرًا من غير أن يتعلموا شيئًا من علوم التوحيد العالية التي لا تتلقى إلا ممن أثنى الله عليهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ أما دعاة الجهالة

وعلماء الدنيا خدمة الملوك والأمراء الذين مقصدهم الوظائف والرياسات فليسوا من هداة الأمة ولا ممن يزيلون عن القلوب الغمة . والهدى الذي يؤتيه الله تعالى هو بعثة الرسل وإنزال الكتب والنور الذي يجعله في قلوب أهل الإيمان والبيان الذي بينه ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام والعقل القابل للفقه عن الله تعالى . ومن الهدى صحبة الأخيار وإلهام الله العبد في صحوه ومنامه . وهو أنواع كثيرة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قوله تعالى : فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

معلوم أن الله تعالى إذا منح العبد هدًى أعانه على اتباعه فقوله ﴿ مِنْ ﴾ اسم شرط وقوله ﴿ اتبعَ ﴾ فعل الشرط ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جملة جواب الشرط والجملة من فعل الشرط وجوابه جواب لإن المدمغة في ما . وقد نفى الله الخوف والحزن عمن اتبع هداه والخوف هو الهم على فقد مطلوب والحزن هو الهم على محبوب كما قدمنا ومعنى ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن الله تعالى منحهم الفرح والأنس بجميع معانيهما، وكل مطلوباقم ميسرة لديهم ومحبوهم مؤانسهم بحسب مراتبهم في الجنان .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

هذه الآية الشريفة مقابل ﴿ فَمَن تَبعَ هُدَايَ ﴾ فإن الأمر باطل أو حق، وكأن المعنى والله أعلم : ومن كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار – وفى قوله : ﴿أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ يعني الذين تصحبهم النار أبد الآبدين، أو أهم أصحابها لا يفارقوها، وفى ذلك من شديد التخويف ما فيه . وهنا ألمع لأهل الصفا – نعمة الله عليك أيها السالك بإقامتك في طاعته ومسارعتك إلى تحصيل العلم النافع، ومحافظتك

على الأدب مع الشريعة المطهرة هي أعظم النعم من الله عليك توجـــب عليـــك دوام الشكر والذكر لحضرته العلية . فاحذر أيها السالك أن تشهد أنك عابد وأن غـــيرك عاص، أو أنك خير من مرتكبي الكبائر بعملك فيدخل عليك الشرك مـــن حيـــث لا تعلم، وتكون قد مننت على الله بعملك، فإن نعمة الهداية والتوفيق خير مـــن العافيـــة والمال والأولاد – أسأل الله لي ولك ياأخي أن يؤدبنا بأدب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وخير المحبوبين لله تعالى من جاهد نفسه في ذات الله واعتقد أنه مسيء وظالم لنفســـه فأدام التوبة والاستغفار عقب كل عمل صالح وهي ، سنة رسول الله ﴿ﷺ وآلـــه﴾، فإنه كان إذا سلم من الصلاة استغفر الله تعالى وهي ، إشارة إلى أهل القلوب الـــذين تذوقوا حلاوة الإيمان .

قال تعالى : **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴿٤٠﴾**

بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى دلائل التوحيد بيانًا أسجد العقل والحس بـــيَّن دلائل النبوة، ثم شرح ما أعده من الخير لمن صدق الأنبياء في الدنيا والآخرة، وما توعد به من كذبهم صلوات الله وسلامه عليهم من العقوبات، التي منها الحرمان من نيـــل الخير الذي هو التصديق بالأنبياء وحسن اتباعهم ورفعة درجات المـــؤمنين في الـــدنيا بالمعرفة والعلم واليقين والشهود، والمسارعة إلى القيام بما عليهم مـــن الحقـــوق لمـــن أوجدهم وأمدهم وهداهم واجتباهم، ولما لهم في الآخرة من المغفرة والرضوان الأكبر ومواجهة الوجه العلي العظيم، وهم على منابر من نور قدام عرش الرحمن أخذ يـــبين سبحانه وتعالى نشأة الإنسان الأولى، وما أكرمه الله به من خلقه بيديه، ومن النفخـــة فيه من روحه . ومن إكرامه بإسجاد الملائكة له وسكنى الجنة، وشرح لنا حادثة إبليس أعاذنا الله منه وحسده لآدم عليه السلام .

ثم كشف لنا عن حقيقة من آياته العظمى وهو أن الله تعالى فتن آدم بـــإبليس فوقع في معصية ربه، ثم أظهر لنا واسع مغفرته وعمـــيم رحمتـــه بعـــد أن أدب آدم بإهباطه إلى الأرض فغفر له واجتباه، ليبين لنا حقيقتين الحقيقة الأولى : أنه ســـبحانه وتعالى يكرم العبد إكرامًا يفوق إكرام الله لملائكته، ثم إذا أخطأ خطيئة واحدة أدبـــه بسلب الإكرام كله، ثم إذا استغفر وتاب غفر له واجتباه وهذه الحقيقة هـــي حصـــن الأمن الذي يجعل المؤمن بين خوف لا يقنطه من رحمة الله، وبين رجاء لا يجعله يـــأمن مكر الله – قال سبحانه ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ . وقـــال تعـــالى : ﴿وَكَـــذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وقال جل جلاله : ﴿ لاَ يَيْأَسُ مِـــن رَّوْحِ اللّـــهِ إِلاَّ الْقَـــوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال عز وجل : ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هنا فليفـــرح العصاة وليخف التقاة : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَـــيْكُمْ﴾ هنـــا يطيب العقل بريحان البيان وروح التبيان – نادى الله بني إسرائيل والنداء بالياء يقتضي قربًا ما بخلاف النداء بأيا وهيا . وأما ما يقتضي القرب المطلق فالمناجاة – و ﴿إِسْرا﴾ عبد . ﴿وإيلَ﴾ الله وكذلك كل اسم ركب تركيبا مزجيًا فهو بمعنى عبد أو خادم أو حبيب أو مراد، كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . والمراد بإسرائيل هنا هـــو يعقوب عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي﴾ بمعنى يافروع أويا من تنسبون إلى يعقوب عليه السلام بالبنوة والمنادى هنا هم معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ولم يكونوا في عصر موسى عليه السلام، ولا شهدوا تلك النعم بأعينهم . ولكن الله سبحانه أخبرنا أنه أنعم عليهم لأن النعمة على أسلافهم بها نالوا هذا المجد بعد أن اشتركوا في النعمة ولم يشتركوا في البلية التي كانت من فرعون . فهم في الحقيقة المنعم عليهم . لأن الذي ورث الغني نال الخير بلا جهد ولا كد ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ يـــذكرهم ســـبحانه بالنعمة التي خصهم بها زمان موسى عليه السلام لأن نعمة الله على الآباء نعمة على الأبناء، لأن المراد النعمة التي كانت قبل هذا الوقت وهي ، التي يصح أن يتـــذكروها

لأنهم لا علم لهم بالغيب بالنسبة لما يأتى بعد . وتلك الكلمة فيها إشارة إلى أنهم ممن قدر عليهم الحرمان من اتباع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . لأن الله سبحانه وتعالى يتفضل فيهب النعم الروحانية من الحب واليقين الحق والأخلاق والصدق والتوبة والإنابة ثم يتفضل فينسبها إلى من جمله بها من العبيد ويشكره عليها، ويثني عليه ويبشره بالملك الكبير . وإذا قدر الغضب على أحد تفضل عليه بالنعم الكونية وببعثة الرسل، وبإقامة ورثتهم، ثم ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة وذكره بتلك النعم العظمى كما قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وإني أعتقد أن أكثر الناس يجهلون أربع حقائق : الخير . واللذة . والسعادة . والنعمة .ولو أنهم علموا تلك الحقائق لظفروا بها، ولكان الإنسان في هذه الحياة الدنيا كأنه في الجنة العالية .

والنعمة التي يذكرها الله تعالى بني إسرائيل هي بعينها التي يقول الله تعالى عنها : (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا)، والنعمة هي ما يعمله المنعم بها ليكون نفعًا لغيره إحسانًا منه .وهنا أشرح لك حقيقة يسعد بها من فقهها، وهي ، أن الفاعل المختار المنفرد بالإيجاد والإمداد هو الله تعالى، لأن كل منفعة سبقت وجودك يتوقف عليها وجودك في تلك الحياة الدنيا، كالأرض والهواء والماء والنباتات والحيوانات والمعادن، وكالسموات وما فيهن من الأفلاك السائرات والثابتات ومن عمارها من الملائكة وأرواح عاليات .كلها نعم سبقت وجودك فضلا من الله تعالى عليك، ولولاها لما وجدت، وهي ، النعم التي أوجدها الله تعالى وأهلها لإيجادك فيها، ولا فضل لأحد عليك فيها إلا الله تعالى .

أما النعم التي وجدت مقارنة لوجودك أو تمتعت بها مدى حياتك الكونية من الضروريات والكماليات : كالوالدين اللذين لا تجهل ما قاما به لك في طفوليتك وبعدها، وكالصناع الذين أعدوا لك ما يلزمك من الملابس والفرش والمباني، وكالتجار

الذين جلبوا لك مالا بد لك منه وكالزراع .كل تلك النعم التي أحاطك الله بها حيث كنت لا حول لك ولا قوة تحقيقًا، وإن وصلت إليك على أيد عاملة هي الأسباب فإن الذي وضع الرحمة في قلب والدتك والحنو في قلب والدك وأعانهما على رعايتك هو الله تعالى والذي أعطى القوة للصناع والتجار والزراع حتى نال والدك ما به حفظ الله وجودك هو الله تعالى – إذن فكل نعمة كانت قبل وجودك أو قارنت وجودك أو بقيت لك مدة حياتك هي من الله تعالى مباشرة أو بالأواسط والأسباب التي وضعها الله تعالى . وتمتاز تلك الآية الشريفة التي هي ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بخير للأرواح والأشباح، لأن الله تعالى يذكرهم ببعثة موسى عليه السلام وبما أنزله من الآيات وبما أكرمهم به من المعجزات، كنجاهم من فرعون وإهلاكه بالغرق، وكتظليلهم بالغمام وكرزقهم بالمن والسلوى، وكنبع الماء من الحجر إكرامًا لهم .. كل تلك النعم التي تدعو من تذكرها أن يسارع إلى الإسلام والإيمان بما جاء به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ فهي منة أخرى، لأن الله سبحانه يبين أن تلك النعمة الخاصة بهم دون من سواهم من معاصريهم في زمن كليم الله عليه السلام . وهنا إشارة : وهي ، أن الله تعالى حكم بهذه الآية أن ما جاءنا به رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ هو الكمال الذي لم يأت به أحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنه يدعو بني إسرائيل إلى اتباع القرآن والعمل به . وكأنه يقول : لو أن موسى عليه السلام أدرك رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ لاتبعه لأنا نعتقد أن النصارى واليهود اللذين كانوا على ما كان عليه عيسى وموسى عليهما السلام إذا لم يتبعوا رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ حكم عليهم بالكفر لأنهم بمخالفتهم له عليه الصلاة والسلام لم يقبلوا من الله تعالى ما أنزله من الهدى، ولأن الله تعالى بشر به في دعوة إبراهيم عليه السلام، وفى توراة موسى وفى إنجيل عيسى عليهما السلام حتى تمنى الكليم عليه السلام أن يكون من أمة محمد ﴿ﷺ **وآله**﴾ وتمنى المسيح عليه السلام أن يحمل حذاءه في (إنجيل برنابا)

وبذلك تكون آية ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ صريحة في البشائر به ﴿ﷺ وآله﴾ من النعم التي توجب عليهم مسارعتهم إلى الإسلام .

وإنا جماعة المسلمين والحمد لله أسعدنا الله تعالى بما كان يتمناه أو لو العزم من الرسل . قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ والإكمال والإتمام من الله تعالى حجة لنا، وأن الرسل السابقين عليهم السلام جاءوا للناس بقدر ما تقبل عقولهم، ولذلك فمعجزاقم كانت خوارق للعادات الكونية . ومعجزتة ﴿ﷺ وآله﴾ القرآن . وكل رسول من الرسل السابقين ادعى دعوى وجاء بحجة عليها خارجة عن الدعوى.فموسى عليه السلام : جاء يدعو إلى التوحيد، وتخليص بني إسرائيل من استعباد فرعون لهم، وحجته العصا واليد، وجاء عيسى عليه السلام يدعو إلى تلك الحقيقة، وحجته إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وكشف ما في الضمائر . وجاء رسول ﴿ﷺ وآله﴾: ودعواه أنه رسول الله يدعو إلى التوحيد، وحجته كما قال تعالى : ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ فجمع الله تعالى لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ الدعوى والحجة في شيء واحد وهو القرآن المجيد : فالقرآن دعوى وحجة. وكفى بذلك شرفًا أن كل معجزات الرسل كانت غير الدعوى، فبقيت الدعوى وزالت المعجزة . ولذلك ضعف أو انمحى إيمان أممهم عليهم الصلاة والسلام إلا ما جاءنا به سيدنا محمد ﴿ﷺ وآله﴾، فإن حجته لا تزال غضة طرية، تحلو كلما كررت ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ العهد في اللغة معلوم وقد بيناه . وهنا المراد من العهد ما بينه الله تعالى للأرواح في يوم ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾ حيث أشهدنا جماله العلي الذي قدر أن يتجلى به لإيجاد الكون في إمداده ثم عاهدنا بقوله : ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ثم وصيته إيانا وأمره لنا بما يحبه سبحانه مما هو خير لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا وعنده سبحانه ثم نهيه إيانا عما يكرهه لنا ومنا مما هو كفر به سبحانه وبأنبيائه، وما هو مخالفة له في ديننا ودنيانا وآخرتنا

وعنده جل جلاله . وتختص تلك الآية بأمور تقتضيها الحالـة فيهـا .. وتأويلـها : ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾الذى عاهدتكم عليه إذا أنتم صدقتم هذا الرسـول الأمى ،بأن أضع عنكم ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعنـاقكم بسبب مخالفتكم لرسلى، وأخذكم بالرأي والهوى، فإذا وفيتم بعهدي الذي هو الإيمان بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ أخفف عنكم ما كلفتم به بسبب عصيانكم، وأتفضل علـيكم بالجنة كما وعدتكم .﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي خصوني بالرهبة منى دون غـيري، لأني أنا النافع الضار لا شريك لي . والرهبة لغة (الخشية والتقوى) والمعنى ارهبوا بطشـى بكم إذا أنتم تعديتم حدودي وكذبتم رسولي، الذي عاهدتكم به على الإيمان إذا ظهر وبشر به رسلي في كتبهم السابقة، وقد ورد في الفصل التاسع في السـفر الأول مـن التوراة عن هاجر أم إسماعيل حين لقيها الملك فكلمها . ومن كلامه : أن الله سـيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه إسماعيل، من أجل أن الله سمع تبتلـك وخشوعك، ويكون عين الناس ويده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخشوع، وهو يشكر على رغم جميع إخوته .

وهذه البشرى هي في الحقيقة عهد من الله تعالى ولم تتحقق تلك البشرى إلا في رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأنه عين الناس ويده فوق الجميع، وذلـك لأن الله بعثـه للناس كافة بشيرًا ونذيرًا وجعله خاتم الرسل فلا نبى بعده – والرهبة عمل من أعمال القلوب، لأن القلب إذا أشرق فيه نور اليقين الحق نظر بعين اليقين، فشـهد الغيـب المصون الذي هو حقائق ما آمن به من الآيات والتجليات وسر الإيجاد والإمداد، وما فوق ذلك من سر القدر، وما فوق ذلك من مشاهد التوحيد التي لا تبينها العبارة ولا يومى إليها بإشارة، حيث حضرات الأسماء تخطف الأبصار والبصائر، وحيث جمـال وجلال وعليّ المسمى جل جلاله بحضرة العماء ومقام صعق الأرواح في حضرة ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ هنا كمال الرهبة وحقيقةالرغبـة وكمالهـافى أرواح أولي العزم من الرسل قال تعالى:﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

والرهبة قد تكون من وقوع ما توعد به أومن حرمان ما وعد به، أو من الحياء منـــه سبحانه وتعالى - وهو مقام كمل الرسل ولورثتهم شميم منه، وفوق ذلك مقام التفريد والاصطفاء وهو خاص برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

هذه الآية وإن كان سياقها خاصًا ببني إسرائيل، إلا أن أهل العلم بالله الـــذين أثنى الله عليهم بقوله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾، تتجلى لهم الحقـــائق صادقة في هذا المقام، فيسمعون مثل هذه الآيات سماع شهود حتى يكونـــوا كـــأهم يخاطبون بها، فتذيب الخشية كل حقيقة تقتضي الهوى، أو تحرك النفس الأمارة إلى مـــا يحجب الإنسان عن المتكلم جل جلاله . وذلك فضل الله يؤتيه من يشـــاء، لا ينـــال بِتَمَنٍّ وَلا بِتَعَنٍّ .

قوله تعالى: وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَـــافِرٍ بِـــهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾

الآية معطوفة على قوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِـــي أَنْعَمْـــتُ عَلَيْكُمْ ﴾، ﴿ وَآمِنُواْ﴾ الواو في قوله ﴿وَآمِنُواْ﴾ كناية عن بني إسرائيل، والذي أنزلـــه سبحانه وتعالى هو القرآن المجيد بدليل قوله سبحانه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أي مصدقًا للتوراة والإنجيل، ومتى آمنوا بما أنزله عليهم آمنوا برسوله وحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، إذ مقتضى الإيمان بما أنزله الله عليه ليبلغهم، إذ لا يتحقق الإيمان إلا بالرســـول ﴿ ﷺ وآله﴾ وبالكتاب فقد صدق القرآن المجيد ما جاء في الكتب السماوية من الحقائق التي هي توحيد الله وأمره ونهيه وآداب الرسل المقررة في سيرهم وسيرتهم، فـــإن أســـفار التوراة مفعمة بتراجم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأحوال الملوك معهم، وما أصابهم من البلايا في سبيل الدعوة إلى الحق، وما أصاب أعداءهم من النقم . كل ذلك صدقه القرآن إلا ما غيره أهل الضلال والأهواء من الكهنة والأحبار والرهبان. ﴿وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ معلوم أنه لا يحكم بالكفر على أحد إلا في حالين – الحالة الأولى : أن

يدعى إلى الإيمان بالحجة البالغة فينكر ولا يقبل، وفى هذه الحالة يكون المنكر كافرًا لا محالة ويحكم عليه بالخلود في النار أبدًا . أما حاله قبل الدعوة ولو كـــان مجوســيًا أو جاحدًا أو لاحدًا، فلا يحكم عليه بالعذاب يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ — الحالة الثانية : أن يكون مؤمنًا برسول سابق وأرسل الله بعده رسولا ليبين للناس شرائعه فتمسك بالشريعة التي كان عليها و لم يقبل من الرسول فإنه يحكم عليه بالكفر خصوصًا إذا كان الرسول الجديد مبينًا اسمه في كتـــاب الرســـول السابق، فإن المنكر يكون كذب رسوله السابق وكتاب الله المترل عليه — وهذا هـــو موضوع الآية، لأن اليهود يزعمون أهم مؤمنون بموسى عليه السلام، والتوراة مذكور فيها اسم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ونسبه ومحل مولده ودار هجرته وأنه خاتم الرسل، وأن موسى وعيسى لو أدركاه عليها السلام لما وسعهما إلا اتباعه، ولأن معاصـــريه من اليهود كانوا يستفتحون على كفار قريش به ﴿ ﷺ وآله﴾ فيقولون قَرُبَ زمـــان ظهور البني الأمى وسنقاتلكم معه، فلما ظهر رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ قطـــع قلـــوهم الحسد والطمع والحرص، أعاذنا الله من أخلاق إبليس ..

والمعنى والله أعلم : ولا تكونوا يابني إسرائيل أول فريق كافر بالقرآن، فـــإنكم بسبب كفركم يكفر من بعدكم من بني إسرائيل فتحملون إثمكم وإثم مـــن بعـــدكم بسبب أولويتكم في الكفر . ولا يمنع من هذه الأولوية أولوية كفر من كفر بمكة مـــن العرب . إذ كفر بني إسرائيل أشد من كفر العرب بمكة الذين لم تترل عليهم كتب، ولم تبلغهم دعوة من زمان إسماعيل عليه السلام .. ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ : معلوم أن الحق أخفى عن العيون والعقول أسراره العلية ليظهر سر قدره علينـــا مـــن إكرامه بسابقة الحسنى، وإهانة من قدر إهانته، فكان ما ستره من الغيب المصون عـــن العقول والعيون بلاء من الله تعالى ابتلى به خلقه، ليصدق الرسل بمجرد الخـــبر عـــن الغيب من صاغ الله روحه من نور جماله، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وليكذب الرسل من خلقت نفسه من سجين، كمن حاربوا رســـول الله ﴿ ﷺ

وآله﴾ من كفار قريش، حتى لو أن أهل النفوس الأمارة بالســوء صــدقوا الرسـل بألسنتهم لقهرهم خبث نفوسهم على النفاق أو على الصد عن سبيل الله، كما فعـل اليهود مع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خصوصًا كهنتهم، مثل كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب وأمثالهما، الذين كانوا يأخذون الرشاء من أغنياء اليهود ثمنًـا للإضــلال بإنكار ما ورد في التوراة من ذكر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وكانوا يعطون الأحبـار أموالا يستعينون بها على إضلالهم، والمشتري أعطى ماله واشترى به ســلعة، والبــائع أعطى سلعة واشترى بها مالا فالمشتري هو البائع . والبائع هو المشتري بحسب اللغة . وكل ما ناله المضل وإن كثر فهو قليل جدًا في جانب ما أضاعه من رضوان الله تعالى ومن الفوز بالنعيم المقيم في الآخرة . ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ : معلوم أن الرهبة هي الخوف من ملابسة ما يوجب العذاب . وأما التقوى فطلب النجاة بعد الوقوع فيما يوجـب الانتقام فكأنه هنا ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾، أي تداركوا أنفسكم فقد وقعتم في هوة الانتقام وحضيض اللعنة والخزى بإضلالكم خَلْقِي، فارجعوا إلى تصديق رســولي واعترفـوا بتكذيب أنفسكم قبل أن يحل العذاب . هذا وإن كانت الآية هنا خاصة في اللفظ إلا أنها عامة في المعنى، فإن كل عالم من العلماء يبيع الآخرة بالدنيا بمعـنى أنــه يرضـي الأغنياء.وأصحاب السلطة بما يغضب الله تعالى، فإنه داخل في هذه الآية مع اليهـود وربما كان الانتقام منه أشد وأنكى فليعتبر أهل الأطماع قبل نزول النقمة، فإنه تعالى يقول : ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أما المدارة لنجاة النفس مـن فادح الخطب أو لنجاة بعض المسلمين فإنها سنة .

قوله تعالى : وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

إن الناس بحسب التقسيم العقلى أربعة أنواع : مؤمن بقلبه ولسانه، وهو الولي الكامل، ومؤمن بقلبه كافر بلسانه، وهو المسلم البصير المداري في وقت الفزع الأكبر . قال تعالى : ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ وكافر بقلبه مؤمن بلسانه وهو

المنافق أعاذنا الله منه . قال تعالى :﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. وكافر بقلبه ولسانه، وهو العدو المجاهر، وإن كان ضرره على المسلمين أقــل مــن ضــرر المنافق،لأن العدو المجاهر يحتاط المسلمون منه . فقوله : ﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مخاطبة للكافر بقلبه ولسانه . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِــلِ ﴾ الآية . مخاطبة لأهل النفاق، والناس في مقام الدعوة قسمان : قسم قابل للبرهان علــى علم بشيء من الدعوة، فالمنافق يخلط له الحق بالباطل حتى يشوش عليه ويموه الحجة، والبرهان ويجعله مترددًا في الأمر . والقسم الثاني : يجهل حجج الــدعوة وبراهينــها ويقبلها إذا بينت له . والمنافقون يكتمون عنه تلك الحجج والبراهين، ويظهرون لــه الباطل بحجج باطلة عنادًا للحق وطمعًا في نيل ما يفنى من متاع الدنيا، من ســيادة أو رياسة أو شهرة أو مال، واللبس هو الخلط والمزج، وهو هنــا الإغــواء والإضــلال بأساليب تقتضيها دعوتهم إلى الباطل، حسب اقتداء كل فريق ممن يدعوهم إلى الكفر بالله ورسوله . وهؤلاء المضلون من الكهنة والأحبار يعلمون ما أنزله تعالى في التــوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السلام من أمر سيدنا محمــد ﴿ ﷺ **وآلــه**﴾، ولكنهم سبق عليهم القدر، فشوشوا تلك الآيات وحرفوها وأولوهــا إلى مــا تهــواه نفوسهم الإبليسية، كما أول إبليس عند السجود لآدم بقوله : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّار وَخَلَقْتَهُ مِن طِين ﴾ فكان إبليس إمامهم في هذا .

وكيف لا وهم يعلمون الحق ويدعون الناس إلى الباطل . وكل من علم الحــق وأغواه إبليس أو الطمع في غير مطمع فأوله إلى نيل مشتهياته، كان مع هؤلاء فيمــا توعدهم الله به، فليتق الله من حصلوا علم الأحكام، ونصبوا أنفسهم للحكم والقضاء وتعليم المسلمين أمور دينهم، فباعوا الدين بقليل من المال يفنى، وأعانوا أهل الأهــواء ولم يضحوا بما يزول في سبيل نصح العظماء والأغنياء وأهل السلطة .

تقرر معنى قوله تعالى : ﴿ ولاَ تَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كما بينا قبل من أن كتمان الحق يكون على الجاهلين بالآيات التي أنزلها الله في التوراة، منبئة برســـول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وبأنه خاتم الرسل . ومن كتم حقًا معلومًا ليصد عباد الله عنه كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة . وإذا نظرت بعين الفكرة إلى رجال وقفوا في وجوه أهل الباطل غير هيًا بين ولا وَجِلِين لما يتهددونهم به، لعلمت حق العلم مقدار الإيمـــان في قلوبهم، كما فعل سحرة فرعون، وكما فعل كثير من المسلمين في كل قرن . وهذا سر ستر الغيب المصون عن العيون لينال المسلم أجرًا عظيمًا بقوة إيمانه بالغيب، وبصـــبره على الشدائد الفادحة في سبيل إعلاء الحق ومحو الباطل وهؤلاء هم أبـــدال الرســـل صلوات الله وسلامه عليهم الذين جملهم الله بجمال الصديقين من خيرة خلقه .

قوله تعالى : وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

بين الله تعالى لبني إسرائيل ما يجب عليهم من الإيمان وما يحرم من لبس الحـــق بالباطل وما يوقعهم في مقت الله وغضبه عليهم من كتمان الحق بأساليب الخديعـــة ثم أمرهم سبحانه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع جماعة المسلمين .وهذا الأمـــر خاص ببنى إسرائيل . وهذه الآية الشريفة إجمال سبقه التفصيل بقول رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وعمل أصحابه الكرام رضوان الله عليهم . وقد سبق بيان إقام الصلاة وإيتـــاء الزكاة في تفسير أول سورة البقرة . وهنا يظهر أن صلاة الجماعة قد تبلغ العبد مقـــام الفردية لمن لا يمنعه عنها مانع شرعي لقوله سبحانه ﴿ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

قوله تعالى أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنـــتُمْ تَتْلُـــونَ الْكِتَـــابَ أَفَـــلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

شنع الله على بني إسرائيل في هذه الآية الشريفة، لأن الهمزة هنا للتقرير والآيـــة للتقريع والتشنيع وأمرهم كله عجب. فإن يهود تهامة وجنوب الحجاز كانوا كلما رأوا

شدة من العرب قالوا لهم سيبعث رسول منكم يأتيكم بالحق وننصره عليكم،وكانوا إذا جاءهم العرب يسألونهم عن أمره صلى الله عليه وسلم قالوا لهم إنــه رســول آخــر الزمان، وسينصره الله على الدين كله كما هو مبين بالتوراة . فلما انتشر أمر رســول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حسدوه. وخافوا على ما كان يجبى إلــيهم مــن هــدايا اليهــود وصدقاتهم، فلم يسارعوا إلى الإيمان فشنع الله عليهم بقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ باتباع رسولي . ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾التي هي أولى بأن تأمروها بالإيمان بي وبرسولي الذي بينت صفاته في كتبى السابقة لديكم، والنسيان قد يكون عن سهو وعمل بغير حــق وقد يكون بطريق المجاز عن عناد وحسد يؤديان إلى غمط الحق والكفر به ســبحانه . وهذا شأن من ختم الله على قلوبهم من اليهود وممن سبق لهم العلم مما بينه الله تعالى في كتبه المقدسة . ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الآية للتعجب من اليهود الذين عصوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأن أعمالهم تجعل أهل العقل ينكرون عليهم ويحكمون بحرمــانهم مــن العقول، وذلك لأن الإنسان العاقل يحرص على الخير لنفسه أولا وبالذات، فــإذا زاد عنها منح الأقرب فالأقرب، فإذا أعطى ما لديه من الخير لغيره وحرم نفسه حكم عليه بالسفه ومنع من التصرف، ولا خير أفضل أو أكمل من الأمر بالمعروف والنهى عــن المنكر . ومن أمر غيره ونهاه و لم يأمر نفسه أقام الحجة على أنه انحط عن الرتبة الحيوانية إلى أسفل منها ولهذا يقول سبحانه : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

والظاهر أن أهل الجاهلية الذين تقصر بهم هممهم عن نيل الخــيرات الكونيــة بطرقها الشرعية المعقولة، يجلبونها إليهم بالخديعة والختل، ويسلبون عقول البسطاء من كل فريق، طمعًا في نيل حطام الدنيا، ويظاهرون بأنهم يعلمون الغيــب والشــهادة، فيجذبون القلوب إليهم بما يلائم كل قوم، لأنهم فرحوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، و لم يبلغ بهم صفاء جواهر نفوسهم إلى علم اليقين، ولا هممهم إلى جلب ما يلائمهم مــن وجوهه المشروعة، وهم كثير في كل زمان . وكان منهم في عصر رســول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أكثر أحبار اليهود . وهذه الآية أذابت قلوب أهل التقــوى حــتى جعلتــهم

يحتاطون في تصريف نواياهم عند الدعوة أو الإرشاد . وكل قائم هذا المقام يجب عليه أن يتحفظ من نسيان يوم الحساب، وأن يتجرد من الحظ والهوى ومن كل ما يلائم نفسه الأمارة بالسوء، من حب الشهوة واللذة البدنية، وتنفيذ الكلمة والتسيطر على العامة لنيل مشتهياته . وتلك الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل إلا أنها تعلمنا أن التشبه بهؤلاء يوجب الحكم على المتشبه بهم : والعجب يكون أشد إذا كان هذا الأمر يحصل من أهل العلم بالكتاب، لأنه يكون عنادًا وكفرًا بالله . قال تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ الصبر : منع النفس محابها وكفها عن هواها، ويجمل عند أهل الشهود من العارفين وعند أهل العلم لكرامة أنفسهم وتطهرها من العيوب والنقائص، ولذلك فإن الله تعالى مع الصابرين، لأنه جملهم بمعنى اسم من أسمائه . والصلاة معلومة شرعًا ولغة، وتقدم الكلام عليها والأمر لبني إسرائيل . وإن ظن بعض العلماء أن المخاطب بهذه الآية هم أهل الإيمان برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لأنه لا يكلف بالاستعانة بالصبر والصلاة إلا أهل الإيمان، ولكن الله تعالى كأنه يقول لبني إسرائيل بعد أن ذكرهم بالنعم التي أنعمها عليهم، وطالبهم بالإيمان والقيام بفروعه – لا يحزنكم ما يضيع منكم من سيادة وأموال تجبى إليكم وشهرة، إذا أنتم آمنتم بما تجدونه في كتبكم، واستعينوا على أنفسكم الأمارة بالسوء النازعة إلى الطمع في الحياة الدنيا وزينتها بالصوم والصلاة، اللذين تطمئن بهما القلوب، فتشرف على الغيب المصون . وكون الآية خاصة ببنى إسرائيل لا يمنع من أنها تكون ترويحًا لروح المؤمن إذا نازعته نفسه الأمارة بالسوء، ومالت إلى مخالفة الشريعة والشهوة أو الطمع — والاستعانة معلومة .

وهنا يظهر أن المعين في الحقيقة هو الله تعالى، والوسيلة العظمى في نيل مرضاته هو الصوم والصلاة، وذلك لا ينافي التوحيد . لأن الله وضع الأسباب وجعلها أواسط

بين خلقه ليشهدهم عجائب قدرته وبدائع حكمته . وكل عبد مؤمن يعتقد أن الأواسط أقامها الله أسبابًا عاملة مختارة . وإذا فلا يكون مخالفًا للشريعة من يقول : أستعين بالعالم، أو بالحاكم، أو بالمال، أو بالعمل الصالح، والأدعية الصالحة، إذا كان معتقدًا أن الأسباب أقامها الله، وأن الفاعل المختار هو سبحانه، لأن الله تعالى جمع الخلق والرزق والإحياء والإماتة في عقد واحد وهو الخلاق الرزاق المحيي المميت. فلو قال العالم بالتوحيد خلقتني أمي بمعنى ولدتني أو رزقني أبي بمعنى أطعمني وكساني . أو أحياني فلان بمعنى أجرى الله الخير على يده . أو أمات فلان فلانا بمعنى أنه ضربه بالسيف . كل ذلك لا يخالف التوحيد في شيء، لأن نسبة الأعمال إلى الأسباب والأواسط القائمة مع اعتقاد أن الفاعل هو الله واسع في الشريعة .

قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٤٥]

تقدم شرح قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ ولكنا هنا نروح الأرواح بشميم سر هذه الآية الشريفة بعد بيان الآية ﴿ بِالصَّبْرِ﴾، الصبر هنا هو الجهاد الأكبر في ذات الله كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (رَجَعْنَا مِنَ ٱلْجِهَادِ ٱلأَصْغَرِ إِلَى ٱلْجِهَادِ ٱلأَكْبَرِ جِهَادِ ٱلنَّفْسِ) فالصبر يجمل والصلاة توصل . وما ألذ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾الصلاة : هي الصلة بين العبد وربه، وهي ، من المعرفة التي هي نور النفس المشرق في تجويف القلب الذي يجعل العبد مسارعًا إلى محاب الله ومراضيه، كما أن ترك الصلاة ناتج من الجهل، لأن نار النفس الأمارة بالسوء تملأ تجويف القلب ظلمة ودخانًا فتجعل العبد مسارعًا إلى مساخط الله تعالى وما يوجب مقته سبحانه . ولا ترى مصليًا خاشعًا في صلاته إلا بعد أن تقوى رابطة الصلة بينه وبين ربه تقوية تجعله إذا قال (الله أكبر) انمحى ما بين السماء والأرض حتى لا تقع عين روحه على شيء إلا ويرى وجه الله تعالى كما قال سبحانه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ ﴾. (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) معناها والله أعلم بمراده . وإنها لشاقة ثقيلة على غير

الخاشع و لم يقل إلا على المؤمنين لأن كثيرًا من المؤمنين يصلون صلاة لا ترفـع، لأن لهم قلوبًا لم تخشع، والخشوع مقام من مقامات أهل اليقين فوق الإيمان . وخشــوع الرمل هبوطه وتماسكه، وكذلك خشوع القلب هبوطه وانكساره أمام عظمة وكبرياء الحق جل جلاله .

وفى هذه الآية الشريفة غوامض أسرار لا يتذوقها إلا أهل المعرفة بالله، لأن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ تبين أن غير الخاشع يجاهد في الصلوات جهادًا يرفع الدرجات كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ وكما ورد في الأثر : (الأجر على قدر المشقة)ولكن من فهم ذلك فهم خطأ، فـإن المشقة قد تكون على الأبدان أو على الأرواح، فالمشقة على الأبدان شـأن المنـافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، والثقل على الأرواح يكون بمجاهدة الـروح في أن تتقي الله حق تقاته، وذلك متعسر فيحصل لها من الخشية والرهبة والخشوع مـا لا تقوى الأرواح والأشباح على حمله، وليس هذا مرادًا هنا. والمراد هنا ثقل المسارعة إلى تأدية الصلاة بشروطها وسننها ومراقبتها في أوقاتها . ولا يكون كـذلك إلا مـن مسلم جاهل بنفسه وبربه ومن منافق مراء ثم بين سبحانه وتعالى صفات الخاشـعين بقوله:

قال تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

والظن هنا بمعنى العلم، لأنه ذكر في مقام المدح والثناء، فناسب أن يكون بمعنى يعلمون علمًا مؤيدًا باليقين أنهم ملاقو ربهم، أي أنهم مواجهونه بحسـب مقامـاتهم : فمنهم من يرى جماله العلي في فردوسه الأعلى . ومنهم من يرى نوره الجلي البهي في مقعد صدق . ومنهم من يرى ضياءه الأكبر في جوار النبيين والصديقين . ومنهم من ينظر إلى ربه في حظائر قدسه . أما المختلفون في تأويل هذه الآية فقد نظـروا إليهـا بعيون الخائف على الله تعالى من الجسمية والجهة . وكان الأولى بهم أن يخافوا من الله

تعالى بعد كمال تنزيهه عما لا يليق بكماله العلي،ثم يسلمون تسليما بما أنزله سبحانه مفوضين الأمر إليه في حقيقة كلامه تعالى . وما على المسلم إلا أن يعتقد أن الله جعل له عينًا في رأسه تبصر المحسوسات، وعينًا في عقله تبصر خواص المادة،وعينًا في روحه تبصر ما فوق المادة، وأن يعتقد أنه قادر يتفضل علينا يوم القيامة فيهب لنا نورًا نبصر به جمال وجهه تقدست ذاته وتنزهت صفاته، فنرى ولا ندرك الكنه، والرؤية شـــيء والإدراك شيء آخر، لأنا نرى أشياء كثيرة يستحيل علينا إدراكها من كل أنحائها، بل ونعتقد في وجود حقائق كثيرة يتعسر علينا إدراكها أو رؤيتها : كالشـــيطان والجـــن والكهرباء والنفس وأشباهها . ولو فقهوا قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْـــهِ رَاجِعُـــونَ ﴾ لفهموا أن لقاء الله غير الرجوع إليه سبحانه، وإن الرجوع كمال التحقيق بتفريـــده بالألوهية سبحانه، بعد أن كانوا في الدنيا يعتمدون على أنفسهم وأموالهم وأولادهـــم وأملاكهم، ويتوكلون على أهل الجاه والسلطة والقوة من العبيد جهلا منهم بأنفسهم وبربهم .

قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٤٧]

يذكر أهل عصر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ما تفضل به على أسلافهم من النعم التي ذكرها في الآيات السابقة، ومن أنه سبحانه فضلهم على أهل عصرهم في زمـــان رسلهم عليهم الصلاة والسلام، وفيما بينه في كتبهم السابقة من ذكر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وبيان مولده وهجرته، وما يلاقيه من العرب في زمانـــه ليتـــذكروا ويعتنقـــوا الإسلام، ويكونوا أول أنصار رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لسابق علمهم بالخبر الصادق .

قوله تعالى : وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَـــفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٤٨]

التقوى محصورة في أربعة أنواع : وهي ، تقوى اليوم . قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ وتقوى الرب . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ . وتقوى النار لقوله سبحانه : ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾وتقوى الله . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ولكل نوع منها مقام من مقامات اليقين قد فصلناه في كتاب (أصول الوصول) عند شرح مقامات اليقين – والتقوى هي الخوف الشديد الذي يجعل الإنسان يتحفظ من الوقوع في المهالك المستقبلة المتحققة . واليوم لا يتقى وإنما يتقى ما يكون فيه من الشئون الهائلة التي لا قبل للإنسان بها .

وقد ذكر بعض تلك الشئون التي تقشعر منها جلود أهل الإيمان فقال سبحانه : ﴿ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾أي لا يقبل الله تعالى من العبد بدلا، بل ولا ترى إنسانًا يرحم ولدًا ولا والدًا والدةً لشدة هول ذلك اليوم . وإنا لنرى الأم والأب عند الفزع يفران تاركين أولادهما في الغرق أو الحرق فكيف يكون الحال عند فزع هذا اليوم . لا شك أن الإنسان تنقطع عنه جميع العلائق لشدة فزعه . ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفيع معلوم لغة، وعدم قبول الشفاعة في هذه الآية مراد به بني إسرائيل الذين كفروا بما جاء به رسول الله، وإن كان عدم القبول خاصًا ببني إسرائيل، إلا أنه عام في كل من مات على غير الإيمان – قال تعالى : ﴿ فَمَا تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي الكفار .

أما شفاعة سيدنا محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ في أمته فالإيمان بها واجب . كيف لا وقد قال تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ والإيمان بقبول الشفاعة للمذنبين من المسلمين لا يختلف فيه إلا ضعفاء الإيمان، ممن يحكمون بحظهم وهواهم على الغيب المصون، ويتصورون أن فضل الله تعالى كفضل خلقه، وأن العصاة أضروا ربهم تنزه وتعالى عن أن تضره المعاصي وإن كثرت، أو تنفعه الطاعات وإن جلت .

وهو سبحانه الضار النافع . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ودليلنا على أن الآية خاصة ببني إسرائيل قوله تعالى :﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . وقد وردت السنة المطهرة بإثبات الشفاعة حتى من الإخوان . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (أَكْثِرُوا مِنْ ٱلإِخْوَانِ فَإِنَّ لِكُلِّ أَخٌ شَفَاعَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ) . ومن فقه معنى قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾آمن بالشفاعة، لأن المقام المحمود ليس مرادًا به مكان يقيم به ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما هو شأن من الشئون الإلهية، يصيره الله تعالى كمالا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويشهده الخلائق منه، فتلهج ألسنتهم بحمده ﴿ ﷺ وآله﴾ لما يتفضل به على الخلائق من الرحمة والمغفرة بشفاعته صلوات الله وسلامه عليه : (وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) أي لا يقبل منها فدية ولو بملء الأرض ذهبًا وهذه نهاية التوبيخ للكفار والمنافقين، لأن العقل لا يتصور أن إنسانًا يوم الحساب يملك شيئًا، لأن العالم كله يكونون حفاة عراة عزلا، بل ويكون الرسل في هذا اليوم في نهاية الفزع الأكبر، لأنهم يسألون يوم القيامة أمام الله تعالى عن سيرتهم في الدعوة إلى الله تعالى، ويكونون شهداء على الأمم وهم أعلم الناس بالله تعالى وبعظمته وكبريائه، قال سبحانه وتعالى : ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ وإذا كانوا لا يملكون شيئًا فسياق الآية تهديد وإنذار لهم لتقوم عليهم الحجة البالغة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ومن سبقت لهم الحسنى سارعوا إلى التوبة طامعين في قبول الله إياهم والله يقبل التوبة عن عباده . قوله ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ النصر هو جلب الخيرات ودفع المضرات . والمعنى أن من مات لا يؤمن بالله ولا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يجد له يوم القيامة من يجلب له خير الثواب ويدفع عنه شر العقاب إن لم يوفقه الله تعالى في الدنيا للإيمان وللتوبة والإقبال على الله بإخلاص .

قوله تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿ ٤٩﴾

ذكر الله بني إسرائيل بسوابغ نعماه وعميم عطاياه للأرواح والأشباح بعبارة أجمل فيها سوابغ النعم، ثم فصل جل جلاله بعض عظائم هذا الإحسان الشامل وعطف هذا التفصيل على ما قبله كأنه تعالى يقول : واذكروا ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴾ من عدوكم وهنا تحسن الإشارة .

اعلم أن الله تعالى يمنح الفضل بالمزيد ثم يتفضل بعد هذا الفضل بما هو أعظم من التفضل، وذلك بأن ينسب إلى العبد العمل كأنه بحول العبد وقوته، ثم يتنزل جل جلاله ويمنح الفضل الأكبر والخير الأجمل للعبد ويبين أنه جزاء للعبد ويمنحه مزيد الإحسان جزاءً له على هذا العمل، وليس للعبد في الحقيقة عمل وإنما هو المتفضل العظيم . قال تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ﴾ وقال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . في طى تلك الإشارات العلية كمال حبور العارفين بالله حيث انكشفت لهم الحجب عن إحسان تعجز الأرواح أن تدرك غيب الحكمة فيه، ولكنه سبحانه ذو الفضل العظيم، وما منّ ربك على قوم بعطاء أسبغه أو بنعمة أفاضها إلا وقد سبق في قدره إقامة الحجة عليهم، حفظنا الله وإخواننا المؤمنين من سوء الأدب مع الله تعالى .

يذكر سبحانه بني إسرائيل بما أنعم عليهم، وإن كانت المنن على سلفهم الأول، ليقيم عليهم الحجة أن الفضل على السلف هو الفضل على الخلف، لأنه لو لم يتفضل بتلك النعم لأبادهم فرعون وقومه، ولما بقى لهم أثر يذكر . فكان الفضل على سلف بني إسرائيل من معاصري موسى عليه السلام فضلا على خلفهم من معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وليقيم البرهان على صدق حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لأنه كان أمِّيًا بين أميين، لا علم لهم بأنبياء القرون المتقدمة . وقد بين لهم ما هو علم يقين لديهم مما لا يعلمه عربي في أرض الحجاز جميعه، وليعلمهم سبحانه أن اتباع الرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾ نجاة لهم في الدنيا والآخرة كما كان نجاة لسلفهم، وأنهم إن لم يؤمنوا يهلكهم الله تعالى بجند من جنوده وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وفوق تلك الإشارة أن نجاتهم من فرعون وقومه مع فاقتهم وقلتهم برهان على تفريد الله تعالى بالقوة وعلى أنه هو القاهر فوق عباده لتلحظ عقولهم قدرتـه وبـاهر معجزات رسوله عليه الصلاة والسلام غيبًا ينقش به على جـواهر نفوسـهم علـم ضروري بوحدانية الله تعالى، ونزاهته عن المثيل والنظير وتقديسه عن الآلات والأدوات أو الحلول والجسمية، ولكن الله تعالى خص نبيه محمدًا ﴿ﷺ وآله﴾ بهذا الفضل مـن العلم به، فكان حصنًا من حصون الأمن لجميع المسلمين من الجهل بالكمال الإلهـي، فلم تر مسلمًا باشر نور القرآن سويداء قلبه ويرى العرش وما حوى مُحـدَثًا مخلوقـا مقهورًا مربوبًا لا يمثل ربه بخلقه ولا يمثله بعباده، بخلاف ما جاء به الرسل قبله علـيهم الصلاة والسلام، فإن معجزاتهم كانت عملية محسوسة كإحياء الموتى وفلـق البحـر والنجاة على سفين والحفظ من النار، فإن تلك المعجزات ما لبثت أن زالت عن الحس وعن القلب فصارت أحاديث تجعل من يسمعها يعتقد ربوبية من قام بها، كما فعـل النصارى أتباع عيسى عليه السلام، وكما فعل اليهود أتباع العزير، وكما فعل اليهود أتباع موسى عليه السلام في عصره . فاللهم اجز سيدنا ومولانا محمدًا ﴿ﷺ وآلـه﴾ عنا خير الجزاء، فإنك أرسلته بالعلم الذي رفع قلوبنا عن الشرك وبالعمل الذي نفعنا به عندك، وأعنا اللهم على شكرك على نعمة الإسلام وعلمنا ما لم نكن تعلم إنك أنت العليم الخبير .

قول الله تعالى : ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يكن لآل فرعون ذنب في العلم، لأنهم أقدموا عليه بأمر فرعون وتسليطه، ولكنه سبحانه نسبه إلى آل فرعون الذين باشـروا قتل الأنفس البريئة، ليدل عل أن المباشر يؤاخذ على عمله، ولو كان مكلفًا بـه مـن غيره، وكيف لا وفرعون لو لم يطعه هؤلاء الخبثاء النفوس، لمـا دعـاه الغـرور إلى ارتكاب تلك الجرائم الشنيعة، وكم أهلك الجهلاء ملوكًا وزعماء، لانقيادهم لتنفيـذ أوامرهم التي لا يقبلها إنسان بمعناه، بل وكم أهلك زعماء الأمم أممًا بسبب جهالتهم ولاعتقادهم في الزعيم أنه معصوم أو أنه إله، فيسارعون إلى تنفيذ هواه وحظه، لا لخير

ينالونه ولا لتوقع شرٍّ يَدْرَأُونَهُ، والمُثُل ماثلة أمام أعيننا في زماننا هذا، فإنا نرى بعض الزعماء تدعوهم محبة أشخاصهم إلى خدمة غير المسلمين محاربة لله ورسوله ولإخوهم المسلمين، فيفتحون أبواب الشر على الأمة، ليتمكن العدو منها بعد ضعفها، كما وقع في السودان ومصر وأفغانستان وفلسطين وسوريا والهند وغيرها . ولو أن كل مسلم جعل الشريعة سلطانًا عليه، فيكره عصاة المسلمين، كما أمر القرآن، فضلا عن كراهية غير المسلمين مطلقًا لكان خيرا، وما ابتلاء الأمة الإسلامية إلا للتساهل بأحكام الدين .

وعلى هذا فكل من أمر غيره بعمل الشر ارتكب أكبر الجرائم، لأنه لم يطع ربه في خلقه وأطاع أمر الظلمة الطغاة . وللإكراه على العمل حدود مخصوصة، بينتها الشريعة ومثلها كثيرة – مثال ذلك أن يكره المسلم على إعطاء ماله أو يقتل أو تكره المرأة على الزنا أو تقتل بالفعل أو يكره المسلم على النطق بالكفر أو يقتل أو على الخروج من بلده أو يقتل، مثل هذه الشئون بينتها الشريعة بأن المسلم له الخيار، والأولى حفظ حياته، فلو دافع عن ماله حتى قتل مات شهيدًا، ولو قتلت المرأة دون عرضها ماتت شهيدة، ولو نطق المسلم بكلمة الكفر مع عقد قلبه على التوحيد كانت له مندوحة، وإن قتل دون دينه، كان شهيدًا، ولكن إذا أمر ذو سلطة طاغية مسلمًا بقتل مسلم بدون حق، فسارع إلى قتله خوفًا على فقد مرتب يأخذه أو جاه يناله من غير بصيرة في الأمر، حكم عليه بما حكم به القرآن من الخلود في جهنم، والغضب عليه من الله تعالى، وكذلك من نصر غير المسلم على المسلم لحظ عاجل، فالحكم فيه شرعًا مروقه من الإسلام، وتحريم حلائله بدليل قوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ .

وأصل آل أهل قلبت الهاء همزة، ولا يقال آل فلان إلا إذا كان عظيما، كـــآل قريش، وآل هاشم، وفرعون اسم لكل من ملك مصر، كما يقال في ملك الروم قيصر وملك الفرس كسرى قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَـذَابِ ﴾ أي يـــوردونكم ويولونكم . سوء العذاب أي أشده وأبشعه، وبينه بقوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَـــاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾والمعنى أنهم كانوا يذبحون من يولد من الذكور ويبقون من يولد من الإناث، وإن كان بعض المفسرين فهم من قوله : ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾أنهـــم كانوا يقتلون البنات عند ولادتهن، ويتركون النساء الكبيرات، فإن سياق الآية لا يدل على ذلك . لأن الصبيات الصغيرة في الإجمال يسمين نساء تغليبًـــا . وســـبب ذبـــح الأولاد أن فرعون جلس مع كبار قومه، فتذكروا قول الخليل عليـــه الســـلام، إن الله يجعل من ذريته ملوكًا فخاف فرعون على ملكه منهم، ولعلمه أن الكبار من رجال بني إسرائيل في ذل ومهانة، خشي أن يولد منهم من يسلب منه ملكه، فأمر بذبح كل من ولد من الذكور بغير رحمة ولا حنان. ويترك ذبح الإناث . وبتذكير معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من اليهود بالفظائع التي ابتلاهم الله بها، حـــتى رحمهـــم وأنجـــاهم باتباعهم موسى عليه السلام يقظة لقلوبهم، ليسارعوا إلى الإسلام، فإن الذكرى تنفـــع المؤمنين ولكنهم أبوا إلا الكفر فانتقم الله منهم فأجلى قريظة وقينقاع، وأهلك يهـــود خيبر بسبب تكذيبهم للقرآن المجيد . وقد أسند ذبح الأبناء واستحياء النســـاء إلى آل فرعون، وإن كان الأمر منه لسلطانه عليهم، ولكن الشريعة تدين المباشر، ولو كـــان مقهورًا من ذي سلطان . ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾، يعني في إنجـــاء الله إياكم من فرعون وإغراقه في بحر القلزم (البحر الأحمر) انتقامًا منه لظلمه إياكم نقمـــة من ربكم عظيمة، فإن البلاء من الله نعمة من الله عظيمة، إن شكر الله عليها المـــنعمُ عليه، وإن أطغته وأغوته وأخرجته عن الأدب مع الله تعالى بمخالفة أمره وعمل ما نهاه عنه، انقلب البلاء، فكان نقمة، وفى اللغة بلاء، أي أنعم عليه وابتلاه، أي انتقم منه . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ .

(إشارة) إن الله تعالى خلق الخلق والخير ابتداء ولا شر، ولكن الإنسان يقلب نعمة الله كفرًا . ينعم سبحانه على الإنسان بالعافية، فبدلا من أن يستعملها في طاعة الله تعالى، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، يستعملها في معصية الله تعالى، فيتغلب على الأبرياء ويقتل الضعفاء، ويسلب الأموال ويبيح الأعراض، بما آتاه الله من القوة . ويعطي المال سبحانه، ليطعم الجائع ويكسو العاري ويعين على نوائب الحق ويكرم الضيف ويعطى السائل ولكنه يأخذه فيؤذى به أهله وجيرانه ويستعين به على ضررهم،ويتألف به الأشقياء واللصوص ويزني به، ويشرب الخمر ويشبه قارون في زهوه وكبريائه ويورثه ما كان لآبائه من المجد الديني، فيستغل بشرف آبائه ومجدهم عرض الدنيا الفاني، ويستعبد الخلق في الدنيا، ويوردهم النار يوم القيامة . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ طَلَبَ ٱلدُّنْيَا بِعَمَلِ ٱلآخِرَةِ) . وقد يرث عن آبائه ملكًا أوسلطاناً ، فيعثو في الأرض ويهرق الدماء ظلمًا، ويستعبد العباد بالقوة القاهرة . فإذا خلا بالنساء، كان عبدًا لشهوته ﴿ رَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ عليهم إثمهم وإثم من ظلموهم معهم . وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ .

قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

تفصيل هذا الإجمال أن موسى عليه السلام لما خرج بقومه من أرض الفراعنة وبلغ فرعون خروجه قال لا تخرجوا وراءه حتى يصيح الديك، فقدر الله أن لا يصيح ديك في تلك الليلة، حتى طلعت الشمس، فقال لهم فرعون : اذبحوا شاة، وقال لا أصل إلى كبدها، حتى تجمعوا إلى ستمائة ألف فارس فما ذبحت وسويت، إلا وكان لديه ستمائة ألف منهم سبعون ألفًا على خيل دهم والباقي على غير الدهم، وقيل كان جيشه ألف ألف ومائتي ألف، وخرجوا مسرعين وراء موسى عليه السلام وقومه،

فأدركوهم على شاطىء البحر، ففزع بنو إسرائيل وشكوا إلى موسى فقال :﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وناداه يوشع : أين ربك ياموسى، والعدو وراءنا والبحر أمامنا، فقال أمامك يايوشع، فقال صدقت، وخاض بفرسه البحر، حتى قارب الغرق، فرجع وقال لموسى : أين أمر ربك ؟ فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، ففعل فانفصل الماء وهب الصبا فجفف الأرض وضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا وانفلق البحر إلى اثني عشر طريقًا، لكل سبط منهم طريق، وكان الماء قائمًا بينهم كالجبل، فحزن كل فريق منهم لأنه ظن أن قومه غرقوا إلا هو، ففرق الله بين الماء القائم كالنوافذ، فرأى بعضهم بعضًا ففرحوا . فلما رأى فرعون وقومه القوم نزلوا البحر هاب البحر، فأتى جبريل على فرس أنثى ووقف أمام حصان فرعون، فلما رأى الحصان فرس جبريل مال إليه، فولج جبريل البحر على الأرض اليبس، فنزل حصان فرعون خلف الفرس، ونزل قومه وراءه، وميكائيل ينادي ليلحق آخركم أولكم حتى نزل القوم في البحر جميعًا، فانطبق الماء عليهم فاستأصلهم . فلما رأى فرعون الماء عمَّه ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فناداه جبريل، وهو يتقدمه وقال ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾وفى رواية وملأ فاه طينًا، فلما ابتلعه الماء رفع الله جسده على الأرض، فبادر من لحقوه بعد غرقه من أقباط مصر، فانتشلوه وصنعوا له تابوتًا من توابيت الملوك، ودفنوه قبالة البركة، لما حل بهم من الفزع، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ وهو موجود بمتحف مصر (أنتك خانة) .

يمن الله تعالى على بني إسرائيل في هذه الآية بنعمتين عظيمتين، النعمة الأولى : إنجاؤهم من البحر ومن عدوهم فرعون وقومه . والنعمة الثانية : إهلاك أعدائهم في البحر، حتى لا يخافوا أن يدركوهم بالسفين، وهي ، نعمة على معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأنهم بقيتهم، ولولا إنجاء الله سلفهم من البحر، ومن فرعون لما وجد على الأرض يهودي، وإلا فمعاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من اليهود لم يشهدوا

شيئًا من ذلك . أما تأويل قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فلا يلزم من هذا أنهم نظروا بأعينهم إلى إهلاك فرعون، ولكن اليقين الحق متزل متزلة المنظور إليه بحدقة العين .

﴿ إشارة ﴾ إن الله إذا أحب بعض عبيده تفضل عليهم بمزيد إحسان من علم ويقين وكشف وتترل سبحانه وتعالى فجملهم بالشوق إليه والرغبة فيه والإقبال عليه وتفويض الأمور كلها، ثم تجلى فواجههم بوجهه الجميل مواجهة يؤنسهم بها على بساط مؤانسته ويكرمهم على موائد كرامته ثم يوالي هذا الإحسان لأنه أنزلهم متزلة خاصةأحبابه فيعطيهم خيرما أعطاه لعباده المخلصين من غيرأن يمن عليهم كماقال تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ﴾ قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُون﴾ ولا علة ولا باعث لإحسانه عليهم. وإذا قدر سلب النعمة ممن أنعم عليهم حرمهم التوفيق للشكر ومنّ عليهم بما أعطاهم من النعم ولا يمن الله على قوم إلا منعهم من الفضل العظيم وحجبهم عن شهود وجهه الجميل كما مَنّ على بني إسرائيل في تلك الآيات أعاذني الله وإخواني المسلمين من السلب بعد العطاء، ومن كفران النعم وحرمان الرضا.

قوله تعالى : وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

(وَاعَدْنَا) وفى رواية (وَعَدْنَا) وهما روايتان واردتان إلا أن من يقرأ واعدنا يرجحها، لأن الوعد من أحد الطرفين يقتضي الوعد من الآخر، وذلك لأن الله تعالى وعد موسى أن يتم أربعين ليلة عاكفًا عليه سبحانه ليتفضل عليه بما كان سأله من كتاب يترله يكون فيه هدى ونور لبني إسرائيل، وموسى عليه السلام وعد ربه الوفاء بما كلفه به، فكان الوعد بينهما ومتى كان الوعد بين اثنين اقتضى أن يكون اللفظ المخبر به (وَاعَدْنَا) ليفيد أن الوعد بينهما ومن رجح (وَعَدْنَا) فهم أن الخلق لا يعدون

الله وعدًا، لأنه هو العلي العظيم . والذي يعد الله تعالى . والذي تفيده الآيــة الوعــد أربعين ليلة، وما ورد من أنه وعده ثلاثين ليلة وأتمها سبحانه بعشر لا يمنع من أن مراد الله كان أربعين . أما قوله تعالى:﴿ مُوسَى﴾ فمعناه في اللغة المصرية القديمــة مــاء وشجر باسم الموضع الذي التقط منه لأن أمه وضعته في صندوق وألقته في اليم فأخذه اليم حتى دخل به حدائق بيت فرعون فأسرع الخادمات وانتشلنه، فلما رأتــه امــرأة فرعون وكانوا يذبحون الأطفال قالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُــوهُ عَسَــى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وحنت عليه . قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾يعني بذلك جــل ثناؤه انقضاء أربعين ليلة فأسرع موسى بالخروج إلى ربه في أول ليلة مــن شــهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين ليلة خرج قبل غروب الشمس ووقف للمناجاة، فعتب عليــه ربه، كما سيأتي بعد، وأمره بتمام الأربعين .

﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ يخبرنا ربنا جل جلاله أن بــني إسرائيل اتخذوا العجل بعد خروج موسى عليه السلام لمناجاة ربه . وتفصــيل هــذا المجمل أن موسى السامري كان من قوم يعبدون العجل والعقيدة إذا تمكنت كانــت كالنقش على الحجر، كما نرى في عصرنا هذا كثيرًا من الناس يعتقدون في المشعبذين الذين يخالفون ظاهر الشرع وباطنه مخالفة محسوسة، ومع ذلك يتعصبون له فيبــذلون أموالهم وأعراضهم في سبيله من تأثير العقيدة مع وضوح الحق جليًا .

ولا تعجب فإن موسى السامري رأى بعيني رأسه ما منَّ الله به على بني إسرائيل تأييدًا لسيدنا موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات، أقربها مثولا أمام أبصــارهم فلق البحر . ومع ذلك لم تغير عقيدتهم في عبادة العجل . فلما خرج موسى إلى ربــه وفاء للموعد، كان بنو إسرائيل قد سلبوا حلي نساء الأقباط، لأنهم كانوا خــدمًا في بيوتهن . فلما علم هارون عليه السلام بالحلي في غياب موسى عليه السلام قال هــذا لا يحل لكم، فأحرقوه بالنار، فسمعوا وأطاعوا ووضعوا الحلي في النار، فجاء موســى

السامرى وفى يده شيء من أثر الرسول – يعني جبريل عليه السلام – واستأذن هارون عليه السلام في أن يضعه في النار، فظن أن الذي في يده حليًا فأمره بوضعه، وكـــان الذي في يده كما قال بعض الرواة تراب من تحت حافر فرس جبريل عليـــه الســـلام، الذي كان يركبه ليغري فرعون بالنزول في البحر هو وقومه ليدرك بـــني إســـرائيل في البحر . وكان موسى السامرى آخر من نزل من بني إسرائيل في البحر، فعرفـــه لأنـــه كان يربيه في الغابة التي وضعته أمه فيها بعد ولادته خوفًا عليه من القتل، فكان جبريل عليه السلام يأتي إليه فيضع أصابعه في فمه يغذوه، وهذا التأويل ممكـــن . وجـــائز أن تكون القبضة التي قبضها من أثر الرسول شيئًا من علوم النفس التي لها التـــأثير علـــى الكائنات وللنفوس تأثير بحسب استعدادها .

ولا تعجب فإن الكهنة والمشعبذين والحساد الذين يؤثرون بالنظر فيما نظـــروا إليه وأشباههم ومن أهل التمتمة والعقد وأهل النفث لهم تأثير بما أودعه الله تعـــالى في نفوسهم تنفيذًا لما قدره الله تعالى أن يكون، فاستعمل ما علمه في جعل الحلي عجلا .. يؤيد ذلك قوله تعالى مخبرًا عن موسى السامرى : ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِـــي﴾ . وتأثيرات النفوس في عالم المادة عجيبة جدًا، وأعجب منها تـــأثيرات الأرواح . فـــإن أرواح المرتاضين في حصون الشريعة لها إطلاق التصريف في العالم السفلي والعلوي . وقد ورد في القرآن ما يؤيد هذا وهو : شق القمر، وفلق البحر، ونـــزول الملائكـــة لنصرة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وأمر النفوس وتأثيراتها فوق دائرة اختصاص العقـــل، وعجائب القدرة أسجدت العقول بعد الحيرة . ونحن لا ننكر الكرامة بل نثبتها ولكنا لا نعتبرها كرامة إلا إذا صدرت من تقى عارف بـــالله تعـــالى أطـــاع الله ســـبحانه واستجاب له جلت ذاته وتقدست، فاستجاب الله له كما قال تعالى : ﴿وَيَسْـــتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، أي يســـتجيب للـــذين آمنـــوا وعملوا الصالحات، فالذين منصوب على نزع الخافض .

أما خوارق العادات التي تحصل بتأثير على أيدي المشعبذين والكهنة، أو بسبب الخلط والمزج و التركيب لبعض العقاقير بعد علم خواصها، فاستدراج من الله تعالى . لأن الله لا يعطي ما عنده إلا لمن أطاعه، وهنا شرط آخر وهو أن التقى العارف بـــالله إذا أظهره الله بالكرامة التي تحصل على يديه لا يزداد بها إلا أدبًا للشـــريعة المطهـــرة، وخضوعًا لله على ترب العبودية . أما من يجعل خوارق العادات سببًا في استعباد الخلق أو للطمع في أموالهم فذلك شيطان يتجمل للخلق جهلا بالحق .

ومعنى ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا أفادت بُعد القلوب عن مطالعـــة الغيوب و لم تفد بُعد الزمان . وثم كما تفيد بُعد الزمان وبُعد المكان قد تفيد بُعـــد القلوب في مثل هذا الموضع . وبُعد القلوب أشد نكاية في القطيعة من بُعـــد الزمـــان والمكان . فإن أطول مسافة في المكان وأكثر بُعد في الزمان مـــع قـــرب القلـــوب لا يوجب حجب الغيوب عنها . وكم من قريب في الزمان والمكان بل ملتصق بالقريب من الله وهو كافر ضال مثل امرأة نوح وامرأة لوط .. وإنما على قرب القلوب المعول . وقد بينت لك سبب اتخاذهم العجل - ﴿ مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد خروجه مهاجرًا إلى الله تعالى وفاء لموعده ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي ظالمون لأنفسكم بعبادة العجل، بعـــد قيام الحجة ووضوح المحجة . والظلم هو الشرك بالله تعالى . ولا يخطر ببال أحد أنهـــم ظلموا ربهم بعبادة العجل، لأن الله تعالى علي عظيم عن أن يَظلم أو يُظلم وإنما الظلم وقع منهم على أنفسهم .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٥٢﴾

﴿ثُمَّ ﴾ هنا تفيد أن الزمن القصير الذي عبدوا فيه العجل أبعدهم بعدًا معنويًـــا عن الله تعالى شاسعًا، حتى كأنهم وقعوا في هاوية الهلكة . ومن هذا البعـــد الســـحيق انتشلتهم العناية مع أن المسافة الزمنية لم تتجاوز بضعًا وثلاثين يومًا تقريبًا . وهنا إجمال سيأتي تفصيله بعد في الآيات الآتية عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا

قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَـاقْتُلُواْ أَنفُسَـكُمْ﴾، والعفو هو التفضل على المذنبين بترك العقوبة مع بقاء الخطايا معلومة لله تعالى، فـإن الحقائق لا تتغير . فلا تكون المعصية طاعة وإنما يعفو الله عن العبد بتـرك مؤاخذتـه بالذنب . وقد يتفضل سبحانه فينسي العبد ذنوبه وينسي الحفظة وينسـي الجـوارح والمعالم التي وقعت فيها الذنوب حتى يقف العبد أمام ربه وليس عليه شاهد بـذنب . وقوله تعالى : ﴿مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي بعد رجوعهم في الكفر بالله تعـالى : ﴿لَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا لأن الترجي والتمني مستحيلان على الله تعالى، فإن الترجي والتمنى عمل من يجهل الغيب المستقبل، والله تتره وتعالى بكل شيء عليم . والشكر في الحقيقة عمل فشكر القلب عقده على التوحيد، وتقلبه بـالفكر في آلاء الله تعـالى، وتصريف النوايا في محاب الله ومراضيه، وشكر الجوارح قيامها بالعمل في طاعـة الله تعالى . قال تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي القـائم بقلبه وجوارحه موجهًا وجهه إلى الله تعالى بكله.

قوله تعالى : وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

يذكر الله تعالى بني إسرائيل بالنعم العظمى التي تفضل بها عليهم، والآية معطوفة على ما قبلها . والمعنى يقول الله تعالى : اذكروا يابني إسرائيل إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان، وفى قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَا ﴾ إشارة إلى أن ما آتاه الله موسى عليه السـلام عام له ولقومه، بخلاف قوله تعالى :﴿ أَعَطينَا ﴾، فإن الذي يعطيه لعبده خاص به كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي خصصناك بهذا الإعطاء . وهنا يقول :﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ أي منحنا موسى وقومه الكتاب يعني التـوراة الـتي جمعت سير الملوك والأنبياء للعبرة وأسرار التوحيد والأخلاق والأحكام الشـرعية في العبادة المناسبة لعصرهم،والحلال والحرام في المعاملات وغيرها.أما قولـه تعـالى:﴿ وَالْفُرْقَانَ﴾ بالفصل بواو العطف المقتضية للغيرية، فقال بعضهم إن الفرقان هو الكتاب

والواو ليست للعطف بل هي للمدح، كما تقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل وإمامهم وأولهم خلقًا وآخرهم بعثًا . قالوا هنا وللمدح . ولكنا إذا فسرنا القرآن بالقرآن انكشف لنا المعنى جلية . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، أي يوم أن فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل بنصرة أهل بدر . فكذلك الله تعالى يقول : ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة ﴿ الْفُرْقَانَ﴾أى النصر على فرعون يوم فلق البحر، لأن الله تعالى فرق بنصرة كليمه بين الحق والباطل، أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ فلعل هنا بمعنى كي أو لام التعليل، إذ تتره ربنا أن ربنا تأتي في كلامه تعالى بمعنى الترجي، لأن المترجي يجهل الغيب المستقبل، كما بينت لك والهداية بيان الحقائق للسالك، حتى ينتهج الصراط المستقيم . والهداية أربعة أنواع : هداية البيان وهي ، هداية الرسل وورثتهم من العلماء لمعاصريهم . قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فأخبرنا سبحانه أن رسول ﴿ ﷺ وآله﴾ يهدي . ولكن هداية البيان لقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فأثبت له الهداية أولا ونفى عنه الهداية ثانيًا، لأن هداية الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم وهداية ورثتهم العلماء لجماعتهم لبيان سبل الله تعالى ونفي الهداية عنهم المراد بها هداية الإحسان لأنها خاصة بالله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فالواجب على الرسل وعلى العلماء وورثتهم بيان سبل الله تعالى، والله جل جلاله يهدي من يشاء إحسانًا منه . قال تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ فظهر أن النوع الثاني هو هداية الله تعالى عباده إلى صراطه المستقيم . أما النوع الثالث من الهداية، فهو الهداية العامة التي تفضل الله بها على كل الأنواع التي خلقها الله تعالى من حيوان ونبات وإنس وجن، لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾أي هدى كل نوع إلى ما هو ضروري له، فهدى الحيوانات المولودة فورًا إلى الرضاع من ثدى الأم وهدى الطيور إلى التقاط غذائها من على وجه الأرض، وهذه هداية إلهامية هداها الله تعالى بعلم ضرورى من بدء نشء خلق الكون قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ والنوع الرابع من الهداية هداية

الدخول في المكان، قال تعالى مخبرًا عن أهل الجنة : ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَـدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿٥٤﴾

هذه الآية معطوفة على الآيات السابقة قبلها فهي تذكير لبني إسرائيل معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما من الله على سلفهم وقد تقدم أنها منة عليهم فقوله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ أي اذكروا إذ قال موسى والله تعالى يخبر بقول موسى وهو جل جلالـه يتكلم بكلام عبيده وخبره عن عبيده بكلامهم لا يجعله جل جلاله عبدًا مثلهم، كمـا أن أحبابه يتكلمون عنه سبحانه بألسنتهم وكلامهم عنه سبحانه لا يجعلهم آلهة، وإنما الحبيب يتكلم عن الحبيب وموسى تقدم معنى اسمه أنه ماء وشجر ﴿ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قوم الرجل بالنسبة للرسل أتباعه وأنصاره، وبالنسبة للملـوك أعوانهم، وبالنسبة لغيرهم أسرته وأدانيه . قوله ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ ﴾ أي باتخاذكم العجل إلهًا من دون الله، وقد تقدم الكلام عن السبب الذي به اتخذوا العجل، وفي قولـه : ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى الحكم العدل فلا يظلم . القوي القهار فـلا يظلم . وإنما الظلم منهم انصبّ على أنفسهم، والظلم في الشريعة الشرك، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . ﴿ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ التوبة هي الرجوع إلى الحـق بشروطها . وشروطها هي التحقق باستقباح العمل الذي ارتكبه فاعل الذنب والحزن على ارتكابه، والندم الشديد على استبداله الطاعة بالمعصية والعزم الأكيد، على أن لا يعود إلى تلك المعاصي، ثم رد المظالم إلى أهلها مع الاستطاعة ما لم يكن عمل لا يطيق رده، فإن له جوابر في الشريعة، كالزنا وقتل النفس والشرك بالله وكسر السن وقلـع

العين وقطع اليد وقطع الرجل وقطع المذاكير، فإن الشريعة أثبتت لها جوابر فصلت في محلها ﴿ إشارة ﴾ : أخاطب الأرواح – من علامات قبول التوبة أن يتحقق التائب بالرضا عن قدر الله تعالى، ولو كانت المعصية أكبر كبيرة . وأن يكون غضبه وسخطه على نفسه التي ارتكبت الخطيئة، وهنا أجيب من ذاقوا حلاوة التوحيد إذا جاش بخلدهم، وكيف يمقت الإنسان نفسه على عمل الخطيئة، والفاعل المختار هو الله، فأجيبه أن الفاعل المختار المقدر هو الله تعالى، ولكن مقت النفس على تقدير الله إياها أن تكون مظهرًا لمعاصيه، وأن يجعل المعاصي سببًا قائمًا لمساخط الله ومغاضبه . وهنا يثلج الصدر ويطمئن القلب وتقوم الحجة على قبول الله تعالى توبة التائب. أما من تاب وندم وغضب وسخط و لم يرض عن الله فيما قدر الله فغضبه على الله أكبر من خطيئته . ويجب عليه أن يتوب من توبته، فإن توبته مشوبة بشرك خفي عليه . ﴿ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ إشارة إلى جذب العواطف، فإن البارىء هو الذي خلق الإنسان على أحسن صورة، كما قال موسى لهارون : ﴿ يَا ابْنَ أُمَّ ﴾ و لم يقل ياأخى ولا يارسول الله، لأن الأخوة والرسالة لا تقتضي الرحمة ولا عطف القلوب، فكذلك قوله ﴿ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ أي توبوا إلى من جملكم بالنعم الغزيرة العظيمة . ﴿ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ والفاء هنا للترتيب مع التعقيب أي إذا حصلت منكم التوبة القلبية وتيقنتم قبول الله لها فاقتلوا أنفسكم تكملة لشروط التوبة . ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ الإشارة من الله تعالى المفيدة للبعد، لم تكن لبعد الزمان ولا المكان، ولكن البعد هنا شدة وقع الأمر على أنفسهم، وتوقع الضرر على أبدانهم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ بالنسبة لما ينالونه من مغفرة الله لهم، ومن تبديل الله سيآتهم حسنات، وربما كان هناك تنزل بالحنان الإلهي، فيكون الرضوان عنهم من هذا الخير . ﴿ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾يعني أن الخير يكون لهم عند بارئهم سبحانه الذي أوجدهم، وأمدهم وقوله تعالى ﴿بَارِئِكُمْ﴾ إشارة إلى التنزيل بالاسم الجمالي، الذي به إيجاد العالم وتسخيره للإنسان، لتحصل عاطفة القلوب والطمع في نيل هذا الخبر ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معناه

أنهم قتلوا أنفسهم، كما أمرهم ربهم، فتاب عليهم، أي قبلهم ربهم، ومعنى قتلهم أنفسهم أن الذين عكفوا على العجل جلسوا مستعدين لقتلهم، ووقف الذين حافظوا على الإيمان مع هارون عليه السلام وبأيديهم الخناجر وعلتهم ظلمة، حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضًا، فقتلوا أنفسهم بالفعل، حتى تداركهم الله بالعفو، فأمر برفع القتل بعد أن قتل منهم سبعون ألفًا ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أكد الخبر بإن، لأن العقل لا يدرك حقيقة معنى التواب ولا الرحيم، لأن لفظة تواب مبالغة في قبول التوبة، ولكنها ليست مبالغة في أسماء الله تعالى، فالتواب اسم من أسماء الله تعالى، ويطلق هذا اللفظ ويراد منه كثير التوبة من الذنوب إلى الله تعالى، فإن العلماء الراسخين يرون أنفاسهم في غير شهود وحضور ومراقبة ذنبًا، ويرون أنهم إذا لم يعاملوا الله في كل أعمالهم ومعاملاتهم أخطأوا، فهم دائمًا في توبة إلى الله تعالى لنظرهم كثرة خطاياهم، لدوام مواجهتهم عظمة الله وكبرياء، ولاعتقادهم العجز عن التقوى رعاية لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ والعقل محجوب عن الإشراف على سر القدر، فلا يتصور بل يتمثل وسعة الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء ،فأتى بحرف التوكيد ليتقبل العقل هذا الخبر مسلمًا، وقد تقدم بيان التوبة ﴿ الرَّحِيمُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى معناه الذي يمنح المؤمنين يوم القيامة الخير الذي يليق بكمال عطفه وحنانه سبحانه .

وهنا تحسن الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ إذ يقتضي أن كل مخالف للشريعة في قول أو عمل أو حال ظلم نفسه، والواجب عليه أن يتوب إلى الله تعالى بقدر ظلمه لنفسه . وأسرع الناس إلى التوبة أهل المعرفة بالله تعالى الربانيون الراسخون في العلم، لأن الهفوة عندهم كأكبر كبيرة عند الجاهلين بالله، لأنهم يعلمون حق العلم من يواجهونه بهفواتهم، كما يعتقد أهل الجهالة لاحتجابهم عن شهود ربهم أن الكبائر ليست شيئًا مذكورًا . ولذلك يقال أن الصغيرة عند المواجهين كبيرة، بل ربما كان أرجى عمل يقرب إلى الله هو عندهم من الكبائر لخوفهم أن

يشوب العمل شرك خفي أو أخفى، وكم يتوب العارفون من التوبة بعد استيفاء شروطها الشرعية، وخوفًا من تسرب الشرك إلى القلوب من حيث لا يعلم قال ﴿ﷺ وآله﴾ (يَاأَبَا بَكْرٍ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَيَجْرِي فِي ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَى ٱلدَّمِ) فما تقول في رجل يرى دناءته وحقارته بعين اليقين . ويرى الفاعل المختار هو الله . ويرى أن الله الكبير المتعال تنزل لنا بسوابغ نعمائه وجميل آلائه، فضلا منه وإحسانًا . ويرى أن الطاعة والقربات نعمى عظمى تعين على الشكر، ويرى أن الشكر من أعظم النعم عليه، فيشكر الله على الشكر، فلم يبق إلا العجز عن الشكر، وهو الشكر، وهم العبيد الذين عند ربهم، كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ يقول الله تعالى : (أَنَا عِنْدَ ٱلْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي) .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿ ٥٥ ﴾

قبل أن أبين هذه الحقيقة أشرح ما لابد من شرحه : تعلم أن الرؤية شيء والإدراك شيء آخر، وما سأل أصحاب موسى الرؤية إلا وهم يعلمون أنها ممكنة، ولكنهم أساءوا الأدب لطلبهم أعظم نعمة يتفضل الله بها على أفراد أولي العزم من الرسل في الدنيا وعلى أهل مقام الإحسان في الآخرة من غير سؤال . ومن الأدب أن يقف العبد أمام ربه موقف الخائف من عدله وجلاله لا موقف المطالب بحق له قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ لا من يطلب، وكم واجه ربنا جل جلاله رجالا من أحقر عبيده بوجهه الجميل كما واجه العبد (برخ) الذي أمر كليمه أن يطلبه ليسأل إنزال المطر لبني إسرائيل بعد أن خرجوا إلى الصحراء ليستغيثوا بالله سبحانه، فلما وصل إليه موسى رفع رأسه من التراب وقال – أَنَفدت خزائنك أنزل المطر لعبيدك – فنزل المطر كأفواه القرب، والعبد الصالح الذي لقيه موسى (الخضر) وأويس القرني التابعي الذي أمر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ خيرة الصحابة أن

يقرئوه السلام إذا رأوه، والذين قال الله لداود عليه السلام : (ٱطْلُبْنِي عِنْدَ ٱلْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي)، وقال لحبيبه ومصطفاه : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أما الإدراك الذي هو كشف الحقيقة على ما هي عليه فمستحيل في الدنيا والآخرة، لأن قدرة الله لا تتعلق إلا بالممكن، وليس ثم للقدرة أن تجاوز هذا، فالقدرة لا توجد مخلوقًا يدرك الخالق لعظمته - وكبريائه وعلو مكانته جل جلاله .

إذا تقرر هذا أثبت لك أن رؤية ربنا ممكنة في الدنيا بالبصائر لمن سبقت لهم الحسنى من الله تعالى، وفى الآخرة بالأبصار بما يجمل الله به عباده المؤمنين بدليل قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ في الحديث القدسى "كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ ٱلَّذِي يُبْصِرُ بِهِ " الحديث . ومن سمع بالله وأبصر بالله لا تعلم نفس ما أخفي له من قرة أعين، ومسألة عقوبة الله تعالى لأصحاب الكليم عليه السلام عندما طلبوا منه رؤية الله جهرة لسوء أدبهم في طلب ما ليس لهم، ولما اعتراهم من الفتنة في شكهم بخبر الكليم عليه السلام والشك في هذا المقام يكاد يكون كفرًا، وهذا ليس دليلاً على استحالة رؤية الله تعالى كما ذهب إليه المعتزلة وبعض المخالفين، وليس طلبهم الرؤية دليلًا على اعتقادهم التجسيمي، تتره ربنا وتعالى كما ظنه النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام،وبعض الجهلاء ممن لا بصيرة لهم في الدين الإسلامي.فإن الله تعالى إذا شاء أن يظهر خوارق العادات على أيدى من ليسوا بمؤمنين لا يسأل عما يفعل، كما أظهر تلك الخوارق على أيدي أهل الجحود والكفر بالله تعالى (بني الأصفر بأوربا وأمريكا) فإن اختراع الطيارات والغواصات والبواخر لنقل الأشباح والأسلاك البرقية والبرقيات اللاسلكية لنقل الأصوات والكلمات، وإن كان نتيجة إتقان الصناعات مما كتره الله لبني الإنسان في الأجواء والأرجاء يظهره سبحانه على يد البار والفاجر والمسلم والكافر، فكذلك قد يظهر خوارق العادات على يد شياطين الإنس الذين يخالفون الشرع الشريف الذي جاء به نبيينا عليه الصلاة والسلام والأنبياء من قبله ونحن لا ننكر كرامة الأولياء، فإن

الله تعالى كما أقام الحجة للرسل عليهم الصلاة والسلام بالمعجزة الباهرة كالقرآن الشريف، فإنه أعجز البشر، وكشقِّ القمر، وكنبع الماء من بين أصابعه ﴿ﷺ وآله﴾ وكإحياء الموتى، كما ورد في معجزاته ﴿ﷺ وآله﴾ وكفلق البحر لموسى عليه السلام، وكجعل النار بردًا وسلامًا للخليل عليه السلام، وكإغاثة الرسل من الأعداء بخسف الأرض أو بالإغراق، كل ذلك دليل على تأييد الله لأحبابه وإظهارهم على أعدائه . وكذلك تأييد الله لأوليائه العاملين بكتابه العزيز وبسنة نبيه ﴿ﷺ وآله﴾، فإن كل معجزة للأنبياء كرامة للأولياء . والفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تأتي بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام ،وأن الكرامة تأتي مبادهة بدون طلب للولي إظهارًا للحق ونصرة للشرع، فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام يتحدّون أهل الكفر بالله فيكذبوهم ويقيمون الحجة على صدقهم بطلب الآية التي في قوة قول الله تعالى : صدق عبدي فاتبعوه . فيؤمن من شرح الله صدورهم للإسلام وينكر أهل الكفر بالله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي لا نصدقك فيما جئتنا به حتى نرى الله جهرة، فأنزلوا أنفسهم مترلة الجاحد بصدق موسى عليه السلام إن لم يروا الله جهرة، وكفى بذلك ظلمًا لأنفسهم واستحقاقًا لسرعة نقمة الله منهم، وهذا وجه سوء الأدب مع الله تعالى الذي به أخذهم الصاعقة، وكل ما أمات أو أدى إلى الموت يسمى صاعقة لا فرق في ذلك بين خسف الأرض وزلزلتها، وإنزال نار من السماء أو من الأرض، أو دخول الهم على القلب أو الصرع على الأرض المؤدي إلى الموت، كل ذلك يكنى عنه الصاعقة . وقد تكون الصاعقة تجعل الإنسان كالميت وهو ليس بميت .

وقد اختلفت الأخبار في سبب ذلك كما ورد أن سيدنا موسى أخذ من بني إسرائيل سبعين رجلا من خيرهم ليناجى ربه ليقبل منه العفو عن بني إسرائيل في عبادة العجل، فلما دنا موسى لمناجاة ربه وغشيته سحابة النور ورجع إلى الذين اختارهم وأخبرهم بكلام الله، قالوا لا نصدقك حتى نسمع كلام ربنا بأنفسنا، فسأل موسى ربه أن يسمعهم كلامه سبحانه، متبتلا إلى الله خاشعًا، فقبل الله منه وجمعهم على موسى،

وكان إذا تكلم موسى مع ربه غشيته سحابة النور، فلما أشرقت أنوار السحابة خــر السبعون سجدًا فلم يروا أنوارًا ولكنهم سمعوا كلام ربنا لموسى عليه الســـلام يــأمره وينهاه . فلما غابت سحابة الأنوار قالوا يا موسى أرنا الله جهرة عنادًا من أنفســـهم، وليست بأول مخالفة خالفها اليهود لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم . وكم لهـــم من عناد ومخالفة توجب مسخهم كما ذكر الله تعالى وهو يذكرهم تلك النعم ومـــا وقع منهم من العناد ومحاربة الرسل، ليعلم معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ أن الله انتقم منهم وأذلهم وأخزاهم لمخالفة رسله صـــلوات الله وســـلامه علـــيهم لتـــنفعهم الذكرى، فيؤمنوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولكن القضاء سجل عليهم :﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يذكرهم الله قولهم لموسى ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾أي عيانا، كمـــا ذكرهم بإسباغ النعم عليهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غـــير الله، ومرة يقولون لا نصدقك حتى نرى الله جهرة، وأخرى يقولون له إذا دعـــوا إلى القتال : ﴿ فاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ومرة يقال لهم : ﴿ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾فيقولون حنطة في شعيرة ويـــدخلون من قبل أستاههم، وغير ذلك مما لا يحصى من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم عليه السلام .

ولو تتبعنا سير اليهود وسيرتهم من حادثة يوسف عليه الســـلام، ومـــا عملـــه الأسباط مع يعقوب عليه السلام إلى زمننا هذا، لعجزنا عن شكر الله بما تفضل به علينا برسالة سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ولا أبعد بك فإنا نرى تلك الفئة التي لعنت في التوراة والإنجيل والقرآن لا تزال ينبوع تلك الخبائث والشرور والفتن فهم كما قال العربي " في كل واد أثر من ثعلبة " يسلط الله عليهم بختنصر قديمًا ودول أوربا في هذا الزمان، وقد أراد الله أن يجدد لهم البلاء فانقلبوا شياطين لإهراق الدماء والإفســـاد في فلسطين ،فإنهم انتهزوا فرصة خوف إنجلترا من الترك، وبذلوا أموالًا طائلـــة للإنجليـــز مساعدة لهم على حرب الترك، وطلبوا منهم أن يبيحوا لهم الهجرة إلى فلســـطين، وأن تكون فلسطين وطنًا قوميًا لليهود، وقد رأى الإنجليز أن ذلك في فلسطين قوة تـــدفع

عنهم ثورة العرب وغيرهم، فمكنوا لهم فيها بقوة الحديد والنار : وقد استفتاني علماء فلسطين في حكم من يبيع لليهود عقارًا أو أطيانًا، فأفتيت بكفر من يعينهم بدليل الآية التي نزلت في اليهود وهي ، قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾، وسبب نزول الآية هم اليهود، وإن كان خصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم والواجب على كل مسلم آمن بالله وبكتابه وبرسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، أن يعادي مـــن حاد الله ورسوله، فإن تساهل مسلمي فلسطين مع اليهود أثار عليهم غضب الله فانتقم منهم بالعدو (اليهود والإنجليز) حفظ الله إخوتنا المسلمين من موالاة غير المؤمنين .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

ثم هنا لا تفيد البعد الزماني ولكنها تفيد البعد المعنوي، وكلاهما سواء . وقــد عاقبهم الله تعالى على سؤالهم نبيهم عليه السلام، هذا السؤال الدال علــى تكذيبــهم كليمه عليه السلام، فانتقم منهم بسرعة وأبعدهم عن حظيرة الإيمان، فاقتضى المقــام لفظة ثم . لأنه جل جلاله أنجاهم من الحضيض المعنوي إلى حظيرة قبول التوبة . قوله : ﴿ بَعَثْنَاكُم ﴾يقتضي أن الله تعالى أكرمهم بإحسان لا تحصيه العبارة : منه أنه قال : ﴿ بَعَثْنَاكُم ﴾والبعث لا يكون إلا للرسل عليهم السلام ثم أسنده إلى ﴿نَــا ﴾ المفيــدة للتعظيم، وخاطبهم بالكاف مخاطبة القريب للقريب، وفي هذا من التعظــيم لنعمتــه سبحانه عليهم شأن يدل على قبول وإقبال منه جل جلاله، وقوله : ﴿ مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ لا يدل صريحًا على موتة عزرائيل، ولكنه يدل على فقد الإنسان الحياة الإيمانية التي يشعر بها بمراقبة الله وخشيته كما قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَــهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ . ولم يقل يمشي به في القبور، وجائز أن يكون أحياهم بعد موتة عزرائيل، وعندى أن إحياءهم بعد موتة عزرائيل خير لهم .

إشارة : إن المؤمن فى مقام القرب يجب أن يكون أخوف من غيره في مقـــام البعد، لأن سوء الأدب في المواجهة قطعية كبرى، أما سوء الأدب في الغفلة عـــن الله والجهل به فكبيرة لها حدود في الشريعة . أنظر إلى إبليس حين أساء الأدب في المواجهة حيث امتنع عن السجود لآدم متأولا إذ قال خلقتني من نار وخلقته من طين، وهـــو يقتضي في نظره أن النار أرفع من الطين ولا يسجد الرفيع للوضيع فلعنة الله وطـــرده ومقته، لأنه أساء الأدب في المواجهة، نعوذ بالله من سوء الأدب مع الله تعالى، ومـــع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ورزقنا سبحانه الأدب مع العلماء فضلا عمن فوقهم .

والواجب على السالكين أو الواصلين أو المتمكنين، أن ينظروا إلى من فـــوقهم في الدين، وإلى من دونهم في الدنيا حتى يدوم إقبالهم على الله . وإن من الواجب على كامل الإيمان أن ينظر دائمًا إلى أفراد الصحابة، وما كانوا فيه قبل فتح مكة من شظف العيش، ومن الرضا عن الله، وما آتاهم الله بعد الفتح من التمكين في الأرض، ومـــن المحافظة على ما كانوا عليه قبل الجهاد الأكبر، فيمقت نفسه ويرى عظـــيم القربـــات بليات، خوفًا من أن يدخل العدو عليه فيغره ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي لتشكروا . فإن لفظة لعل وعسى في القرآن بمعنى (كي) أولاهما فإن الذي يترجى ويتوقع الأمر يجهل العاقبة والله بكل شيء عليم . والشكر كما تقدم هو العمل، ومعناه أن تستعمل كـــل جارحة من جوارحك، بل وكل ما آتاك الله من نعمة ونعيم، وما سخره لك من ملكه وملكوته في محابه ومراضيه، قال سبحانه : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيـــلٌ مِّـــنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَـــاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿[٥٧]﴾

التظليل : هو ما يكون وقاية من ضار . وقد آخذ الله بني إسرائيل بالتيه أربعين ســـنة، لحكمة تذكر عند شرح آيتها، لأنهم قالوا لكليمه عليه الصلاة والسلام : ﴿فَاذْهَـــبْ

أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾، فالله تعالى يمن عليهم بتظليل الغمام الـواقي لهم من تأثير حرارة الشمس في أعوام التيه، ويذكرهم أنه سبحانه ذو الفضل العظـيم ،لأنهم خالفوا نبيهم فعاقبهم ورحمهم في آن واحد، ومكان واحد والغمـام : رقيـق السحاب، وقال بعض العارفين من العلماء : الغمام إكرام من الله تعالى كان يتفضـل به على رجل من بني إسرائيل مكث يعبد الله ثلاثين سنة لا يعصى الله تعالى، فإذا أظله الغمام اطمأن قلبه بالقبول من الله وعظم في أعين الخلق . وهذا الغمام يظـل الله بـه رسله عند مناجاتهم له سبحانه، وهو الغمام الذي يأتي الله فوقه ليراه عبـاده . قـال تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَـامِ وَالْمَلآئِكَـةُ﴾ . وفي الغمام أسرار غامضة لا يباح تسطيرها على الأوراق، وإنما تسمع من أفواه العـارفين لقلوب خواصهم من الواصلين . أما المن : فغذاء شهي حلـو أبـيض، يعلـو أوراق الأشجار . وأما السلوى:فالطير المعروف بمصر المسمى (بالسمان)، وهـو أشـهى الطيور وأنفعها غذاء . وقد ورد أنهم كانوا يتناولونه مشويًا فيأكلون بـلا عنـاء ولا تعب، وفى ذلك دليل على عناية الله بهم مع ما وقع منهم من الخطايا التي لولا فضلـه عليهم لخسف بهم الأرض من سوء أعمالهم، ولكن الله ذو الفضل العظيم . ﴿ كُلُـواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ هنا مضاف محذوف تقديره – كلوا عوضًا عمـا كنـتم تأكلون من قبل من طيبات ما رزقناكم . وفى قوله : ﴿ طَيِّبَاتِ ﴾ معان كثيرة : منها أنه سبحانه وتعالى عوضهم بما كانوا يأكلون من حلال وحرام ومر وعفـص وملـح وقديد بهذين النوعين الطيبين : الثاني : أن هذا الطعام حلال لا شبهة فيه، فهو طيـب من جهة حله . المعنى الثالث : أنه لا ينتج سقمًا ولا ضعفًا ولا سوء هضـم.المعـنى الرابع:المساواة بين صغيرهم وكبيرهم حتى تصفو صدورهم من السخائم والحسـد.﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، نفى الله تعالى ظلمهم إياه وذلك معلوم بالضرورة لأهل الإيمان، لأنه سبحانه هو العلي العظيم عن أن يظلم خلقه أو يظلمـه خلقه، ولكنه سبحانه أراد أن يبين حقيقة من الحقائق، هي أنه جل جلالـه لم يقـدر

العقوبة على مرتكبى الآثام لأنه تأثر من مخالفتهم، فأراد أن يشفي غليله منهم لا ولكنه سبحانه وتعالى عليّ عظيم، قدر الأقدار قبل الأكوان ويسر كلا لما خلقه له وما من مخلوق يوم القيامة إلا وبيده طائره، فإذا قرأه قامت الحجة له أو عليــه، لأن المحســن أحسن إلى نفسه والمسيء أساء إليها .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا** ﴾ إشارة إلى نفي حقيقة الظلم عنه سبحانه نفيًا باتًــا يستحيل وقوعه وفيه إشارة أيضًا إلى أنه تتره وتعالى يحب الخير لخلقه جميعًا ويأمرهم به ويقدر تقدست ذاته ما شاء ،ولم يرد في قدره شرًا لأن إرادة الشر لا تكون إلا مــن عاجز عن تنفيذ قدره أو ممن يكون له شريك يخشى منه أن يقهره علــى مــراده . وهذان المعنيان مستحيلان على الله تعالى فإن الخلق من حملة العرش إلى تخوم الأرضين مخلوقون مربوبون بل عباد عابدون لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، ولكنها أقدار تنفــذ بحكمة خفية وأوامر ونواه وهي ، البلاء الأكبر لتكون لله الحجة البالغة علينا، والأوامر والنواهى تدل على تعظيم العبد ربه واستحضار كبريائه ومجده، أو على التــهاون بــه سبحانه جل جلاله، وفى الأوامر والنواهي حسن معاملة العبيد لله تعــالى أو ظلمهــم لأنفسهم بالمخالفة . والسلامة في التسليم وفى المسارعة إلى العمل بما أمر به واجتناب ما نهى عنه . والظلم استعمال الحقائق في غير ما خلقت له والتصرف في ملك الغــير وليس من الظلم أن توجد في حقيقة واحدة أنواع من المزروعات أو المصــنوعات أو المبانى مادامت تلك الحقيقة صالحة لذلك . كما يفعل مالــك الأرض في تقســيمها وإعدادها لأنواع كثيرة مختلفة فهذا ليس بظلم . ونفي الله ظلم بني إســرائيل عنــه لا يقتضي أن غيرهم ظلمه لأنه نفاه لعظمته وعلوه وكبريائه سبحانه عن أن يصل إليــه ظلم من عبيد مقهورين وعباد مربو بين وفى نفيه ظلمهم عنه بلفظ الماضى دليل علــى استحالة هذا العمل من كل العالم . وفى إثباته الظلم منهم عليهم بلفظ المضارع دليل على أن الإنسان لجهله يعمل ما يهلكه إلا من حفظ الله تعالى . ودليل ذلك ما وقــع متهم بعد موسى في زمان داود وسليمان وعيسى بن مريم عليهم السلام مما بينه الله في

القرآن المجيد . و لم يقف الأمر بهم إلى هذا الحد بل تعداه إلى أن فعلوا في الـنبي عليه الصلاة السلام شرًا مما فعلوا في زمان موسى وعيسى وها هـم إلى زماننـا هـذا لا يزدادون إلا ضلالا وغياّ . فانظر إلى فلسطين تر ما يحزن قلوب أهـل التقـوى ممـا يعملونه في مسلمي فلسطين والنصارى معهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

يذكر الله تعالى معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من اليهود أمره أسلافهم بـدخول القرية، لينالوا بها الرخاء والراحة في المأكل والمشرب والمسكن بدليل قوله تعـالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ والقرية يتعين أنها ((أريحيـا)) وإن نقـل بعض المفسرين أنها بيت المقدس، لأن سيدنا موسى عليه السلام مات قبـل دخـول بيت المقدس، والذي دخل مع بني إسرائيل بيت المقدس هو (أشعيا) عليه السلام، فلم يبق إلا أن القرية هي أريحيا . وهي ، وإن كانت أقل من بيت المقدس دينًا ودنيا إلا أنهـا ذات زراعات وتجارات ومساكن، وأمرهم الله تعالى بأن يقولوا حطـة وأن يـدخلوا سجدًا إشارة إلى الإنابة إلى الله تعالى، والاعتراف بوقوع الخطايا أمامه سبحانه بالقول والعمل والحال، فبالقول كلمة حطة، وبالعمل السجود . وبالحال خشـوع القلب وانكساره أمام عظمة وعطف وحنان وغفران الكبير المتعال، ومع هذا الفضل العظيم ظلموا أنفسهم بتغير ما أمرهم الله به، وجلسوا على أستاههم وزحفوا عليها، قالوا بدل حطة حبة حنطة في شعيرة، ليقيموا الحجة على أنفسهم أن نفوسهم عناديـة، ومـا عاندوا إلا حظهم، فإن الله وعدهم المغفرة، واستبدال سيئاتهم بحسنات، ولكنهم أبـوا أن يقبلوا إحسان الله مع توالي إساءتهم إلى أنفسهم، ووعدهم سبحانه المزيـد بقولـه تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾، والمحسن : هو من اجتهد أن يـؤدي أوامـر الله، مراقبًا جلالته وعظمته، مراقبة من كأنه يراه عيانًا . وليس من أطاع فأخطأ في عملـه،

كمن خالف معاندًا، فإن من أطاع الله مجتهدًا أو أخطأ في العمل، لوقوعه على غير وجهه، فإنه يكون من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**خَلَطُواْ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾، وعسى هنا بمعنى اللام، أي ليتوب عليهم، وهذا الخبر بالنسبة لمعاصري رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ يقظة لقلوبهم أو حجة عليهم، لأنه أكبر عبرة، ولكنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولا معقب لحكمه . نسأل الله تعالى أن يجعل سيئاتنا سيئات من أحب، ونعوذ بوجهه الكريم أن يجعل حسناتنا حسنات من أبغض، ويرزقنا حسن الاتباع، إنه مجيب الدعاء . وهنا يجب علينا أن نسمع كلام ربنا بآذان قلوبنا فإن الكلام وإن كان خاصًا ببني إسرائيل، إلا أنه بحسب المعنى الإشاري يبين لنا محاب الله و مساخطه، نسأله الإقامة فيما يحب، ونعوذ به من الإقامة فيما يكره بعد بيان كل ذلك .

قوله تعالى : **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ** ﴿٥٩﴾

﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ لفظة بدل استعملت بمعنى غير . المعنى : فغير الذين ظلموا القول الذي أمروا به بقول آخر، والقول الذي أمروا به هو (حطة) بقولهم (حنطة) أو حبة حنطة أو حبة شعيرة. وكل ما ورد من التغيير جائز لاختلاف عبارات المغيرين في القول الذي أمروا به فكان تغييرهم ظلمًا عظميًا لأنفسهم، ولذلك قدر الله تعالى أن يترل عليهم في وقته رجزًا من السماء . والرجز من السماء إما أن يكون من نوع الطير الأبابيل، الذي يسميه بعضهم (الميكروبات) فأوقعهم في الطاعون، أو أنه دخان أظلم الأفق فأماتهم الله به، أو أنه ثلج تساقط عليهم، فأهلك منهم سبعين ألفًا، وكله جائز، وهو من السماء، أي المكان السامي، أي العالي، أو أنه قاهر لهم، فهو نزل عليهم قهرًا، فيكون من السماء، يعني من القدر العالي ﴿ **بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ** ﴾ الفسق في اللغة خروج الحية من ثوبها يقال فسقت الحية، أي خلعت ثوبها، وكل مخالف لأمر

الله أو نهيه، يكون خرج من حصن الأمن، فيكون فاسقًا شرعًا . والمعنى بفســـقهم . فلفظة (**مَا**) في قوله (**بِمَا**) مصدرية تسبق ما بعدها بمصدر . والفسق أقل من الظلم فإن الظلم شرك،والفسق كبيرة،وهنا أنبه السالكين أن مخالفة السنة واستبدالها بغيرها مـــن الحظ والهوى والأوضاع التي وضعها الجاهلون، تقتضي إنزال الرجز . ولكن الله إكرامًا لحبيبه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ منح أمته الأمن من الرجز العام، وجعلـــه خاصًّـــا بالـــذين يظلمون أنفسهم أفرادًا أو جماعات . وما سمعنا أن هذا الرجز نزل على عامة المسلمين في بلادهم، ولكنه يترل على الظالمين فحسب، فقد يكون الجدب في أرض، والرخاء في أخرى. أو الطاعون في أرض، والعافية في أخرى . أو الحرب في أرض، والســـلام في أخرى، فتحصل المبادلة والخروج إلى البلاد السليمة . ودليل ذلك ما نراه الآن في بعض البلاد الإسلامية من نزول الرجز عليهم باحتلال العدو وتسليطه، أو بخـــروج الأمـــة بعضها على بعض، أو يحب المسلمين غيرهم حبا يؤثروهم به على إخوهم المسلمين . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ والواجب علـــى المسلمين أن يدفعوا عنهم شر الرجز النازل من السماء، بالرجوع إلى ما كـــان عليـــه السلف الصالح .

قوله تعالى : وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَـــوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

يذكرهم الله نعمته الثانية عشرة، التي هي من أعظم المنن عليهم، لا فرق بـــين أصحاب موسى عليه السلام في زمانه ،وبين معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ممـــن أنكروا الحق الملموس، بحجة كتابهم والمعجزات الباهرات، فهو سبحانه وتعالى يقول : واذكروا حالة سلفكم عند اضطرارهم إلى الماء، حينما قالوا لموســـى عليـــه الســـلام اشتدت حاجتنا إلى الماء ،فسأل الله تعالى أن يغيثهم بالماء، فرزقهم الله بالماء من حيث

لا يحتسبون، والماء في هذا الوقت نعمة الدنيا والدين، أما للدنيا فلأن الإنسان لا يصبر على فقد الماء في حياة نفسه، وحياة الأنواع التي بها حياته من نبات وحيوانات، وأما كونها نعمة في الدين، فإن انفجار الحجر بالماء بضربة بالعصا معجزة كبرى، تجعل العقول تسجد لآيتها، ولأن الماء أمامهم كعنصر واحد، ويمد الأنواع النباتية بما أهلت له من مر وعفص وحلو وحامض ومز، وبالفكر في تلك الحقائق يقوى اليقين بوحدانية الله وقدرته وحكمته، وأن تلك النعم التي ذكرت قبل، إنما نالوها باجتماعهم بكليم الله عليه السلام، فإنهم لما خالفوه فقالوا : ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ تاهوا أربعين سنة في الأرض مع شدة لهيب حر الشمس، فشكوا إليه فسأل الله فظلل عليهم الغمام، واشتدت حاجتهم إلى الغذاء، فاشتكوا لموسى عليه السلام، فسأل الله فأنزل عليهم المن والسلوى مع خطاياهم الكثيرة، ولذلك فإن بعض العارفين قرر أن كل معجزة للأنبياء كرامة للأولياء . ولو أن الماء والمن والسلوى والغمام كان معجزة لموسى فحسب لمنعها الله عنهم عند غيبته عنهم أربعين يومًا، لمناجاة ربه، ولكن الله أكرم بني إسرائيل في غيبة نبيهم عليه السلام عنهم بما أكرمهم به في حضوره.

وهنا أبين سرًا غامضًا، وهو أنا نرى كثيرًا من الحجارة يتفجر منها الماء بحسب الاتصالات الجمادية من حيث اتصال مسام الأرض . فقد يكون الماء فوق جبل من الجبال في مستودع، فيتصل إلى مكان حجري منخفض، فيخرج الماء من الحجر بحسب تلك الاتصالات فانفجار الماء من الحجر بضرب الكليم، وإن كان الحجر كما ورد عن بعض المفسرين كان محمولا معه، فإن تك المعجزة ليست بأعجب من نبع الماء من بين أصابع النبي، فإن نبع الماء مما ليس من عاداته أن يتفجر منه الماء أعظم في المعجزة وأجل فإنه لم يعلم بأن الماء ينبع من بين الأصابع إلا من بين أصابع رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، وذلك فوق العادة وهي ، معجزة عظمى وشتان بين المحبوب والمحب، فإن إكرام الله محبوبه محمدًا رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ بقدر محبوبيته سبحانه له . هذا

والحجر كان مكعبًا له ستة وجوه . وجه فوق الأرض ووجه مسامت للسماء وأربعة في الجوانب الأربع، ففجر الله من كل وجه من الوجوه الأربعة ثلاثة أنهـار فيكـون مجموع ما فجره سبحانه وتعالى اثنتى عشرة وهي ، معجزة دالـة علـى قـدرة الله وحكمته، لأن بني إسرائيل اثنا عشر سبطًا فجعل الله لكل سبط عينًا - ﴿**فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾ فضرب فانفجرت . وقول بعـض المفسرين إن الماء كان قبل ضرب موسى الحجر بعصاه فإنه بمجرد قول الله ﴿ **اضْرِب** ﴾ انفجر الحجر عيونًا فهو مسلم بالنسبة للقدرة، ولكن كمال المعجزة لموسى عليـه السلام أن يضرب الحجر حتى تقوم الحجة أنه رسول الله .

وقد اختلف المفسرون في حقيقة الحجر اختلافا لم يرد به صريح القرآن، فقال بعضهم إنه كان عند شعيب عليه السلام وكان من الجنة فأعطاه لموسى عليه السـلام مع العصا . وقال بعضهم إنه حجر وضع موسى عليه السلام ثوبه عليه عنـد نزولـه البحر للغسيل فمر بالثياب بعيدًا عن موسى . وموسى يقول ثوبى حجر حتى خـرج من البحر وأدرك الحجر، فقال له جبريل احمل هذا الحجر معك، فإن لك فيه معجزة .

وهنا نعلم أن الكامل في نبوته من أولي العزم أو ورثتهم جمع الله فيه الحقـائق جميعها فيفهم عنها وتفهم عنه بكل أنواع الدلالات، لأن قول موسى عليه السـلام (ثوبي حجر) ينبغي أن يكون عن علم بأن الحجر يسمع كلامـه وإلا كـان عبثًـا . وحكمة مرور الحجر بثياب موسى عليه السلام أن بني إسرائيل كانوا يتهمون موسى عليه السلام بأن له أدرة فأراد الله أن يكذبهم فأمر الحجر أن يبعد عن شاطيء البحـر حتى أسرع وراءه موسى عليه السلام عريانًا ورآه بنو إسرائيل فجللهم بالخزى، وقال بعضهم إنه حجر من الجنة نزل به آدم عليه السلام فتوراثه الأنبياء، وكان لـه أربعـة وجوه كل وجه كثدي المرأة وكان عدد الأنهار التي جرت من أوجه الحجر دالة على رحمة الله وكمال عدله وفضله، لأن كل نهر كان لسبط من بني إسرائيل فلم يحصـل

عند الاحتياج إلى الماء ضيق على أحد ولا منازعته في تناوله، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ .. ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ علم كل سبط من الأسباط محل وروده على الماء علم اليقين بشهود بوسعة جعلت القوم في راحة وهناءة . أمره سبحانه لهم بقوله : ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ للإباحة، أي مباح لكم أن تأكلوا مما أنزلنا عليكم من المن والسلوى وما أجرينا لكم من الماء حيث شئتم، ومتى شئتم .

ولما كان المن والسلوى والماء تفضل الله بها عليهم من غير كسب ولا فكر ولا عمل منهم أنزلهم مترلة أهل الجنة الذين لا يرون لأحد ولا لأنفسهم فضلا إلا لذلك قال سبحانه : ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي من الرزق الذي تفضل به عليكم من غير سبب قائم بل من حيث لا تحتسبون . قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ نهاهم سبحانه وتعالى عن كبيرتين عظيمتين عن الإفساد في الأرض وعن الدوام والاستمرار عليه، فإن العثيّ هو الفساد الوحشي الدائم . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ يعني حال كوهم مفسدين، أي حال مؤكدة .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴿[٦١]﴾

يذكر ربنا جل جلاله بني إسرائيل نعمه المفاضة عليهم مع توالي خطاياهم، ليكشف الحجاب عن أهل محبته، فيظهر لهم كمال فضله على جميع خلقه، لا فرق بين المطيع والعاصي بالنسبة لنعيم الأشباح وملاذها . فإنا نرى الكفار متمتعين بشهوات تلك الدنيا وملاذها أكثر من الأنبياء والأولياء، ونراه سبحانه وتعالى يتفضل بخيرات حبه وقربه وشهوده وإحسانه بالعلم الإلهي على من اختارهم واصطفاهم من خيرة خلقه . يقول بنو إسرائيل لكليم الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كما قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . ولن للنفي مع التأييد ظاهرًا،

فنفى عنهم الصبر، والصبر هو تحمل النفس في سبيل رضاء الله تعالى، وهـــذا القـــول معصية كبرى لأنهم لم يتحملوا الصبر فكيف يتحملون الذل، فإن الرضا هـــو فـــرح النفس بِمُرّ القضاء . وإذا فقد الإنسان الصبر والرضا نافس في الربوبية، لأنـــه يـــرى لنفسه حقًا على ربه وحرمانه منه ظلم من ربه، وحسبهم بذلك تعرضًا لمقت الله تعالى : وكان الطعام الواحد الذي ذكروه هو المن والسلوى وجعله واحدًا مع أنه اثنان، إما لأنه طعام اعتادوه وصار واحدًا، أو لأن الطعام كان السلوى والمن شرابهم أو فاكهـــة يتفكهون بها، ويظهر أن القوم كانوا أهل فلاحة اعتادوا طعام الخضر . فقولهم هـــذا يريدون به الخروج من أرض التيه في الجملة إلى مصر من الأمصار . وقولهم ياموســـى ادع لنا ربك، لا يجعل تلك المعصية عفوًا كما بين ذلك بعض المفسرين، فإن الواجب على أصحاب الرسل عليهم الصلاة والسلام أن لا يسألوهم عن شيء إلا إذا أحـــدثوا منه لهم ذكرًا .

ولقد بين الله الأدب في صحبة المرشد في حادثة موسى والخضر عليهما السلام، فإن موسى عليه السلام سأل الخضر عندما ظهرت له مجاوزته الحدود الشرعية، فذكّره قوله : ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾، فإذا كان هذا أدب الكليم مع الولي، فكيف يكون أدب المسلم مع النبي عليه الصلاة والسلام واعتذار بعض المفسرين عنهم لا يبرر قولهم فيهم إلا في إقامة أقاموا أنفسهم فيها، أما وقد أقـــامهم الله فالواجـــب الصـــبر وحرمانه معصية، ولكن الله جل جلاله قدر في أزله أن يعطى الدنيا لمن يحب ولمن يكره ولا يعطى الإيمان إلا لمن يحب، وإجابة الله دعاء كليمه عليه السلام بقوله : ﴿**اهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**﴾ ليست دليلا على رضائه عنهم، ولكنها حجـــة علـــى أن يجيب الداعي مطلقًا فضلًا منه وكرمًا، ولو كان عاصيًا ما دام الدعاء غير معصـــية في نفسه .

قوله تعالى : ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ .

الفاء هنا فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا قبلت كلامنا ﴿ فَادْعُ﴾، والمعنى : فاسأل ربك يُظهر لنا بعض الذي تنبت الأرض، وبينوا هذا البعض بقولهم ﴿ مِن بَقْلِهَا﴾ والبقل : كل نبات يؤكل بطبخ وبدون طبخ، كالفول والجلبان والهندبا والخس والفجل والجرجير وغيرها.والقثاء معلومة وهي ، الخيار،والفوم كلمة دالة على أنواع كثيرة : هي الحنطة والثوم والذرة والشعير والعدس ويكثر في بلاد مصر وهو أجوده والبصل لا يخفى على أحد، وتخصيصهم تلك الأنواع لأنها مكونة من العناصر المفيدة لأبدان أهل الفلاحة ولكل نوع منها فصل خاص من فصول السنة، لأن الله قدر إيجادها بحسب الضرورة إليها في أيام القر والقيظ، قوله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ من تلك الأنواع ﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ من المن والسلوى .

والمعنى أن البقل والقثاء والفول والعدس والبصل أنواع دنيئة، لأنها تكثر الدم الحار فتهيج الشهوة والبغي والعدوان، وتوقع في معاصي الله تعالى وسوء الأخلاق . أما المن والسلوى، فإنهما يولدان دمًا صافيًا يؤدي إلى الحلم والأناة والخشية من الله، ولذلك كان خيرًا فضلا عن حلاوة طعمهما وسهولة قضمهما وهضمهما،وحصول المساواة بين الأفراد فينتج الحب والود وينفي الحسد والطمع والحرص، فيكون خيرًا للصحة خيرًا للدين والدنيا ،وأما الأنواع التي استبدلتموها بهما، فحقارتها لأنها مضرة بالأجسام ومفسدة للأخلاق منساة للآداب الشرعية، وكذلك يقول الله تعالى، أو

يقول موسى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى ﴾من الدناءة أو من الأدون بالذى هـو خير . ولفظة استبدل أو بدل تقتضي أن المفعول الأول هو المرغوب فيه والمفعول الثاني هو المرغوب عنه، فإذا قلت استبدلت الذكر باللهو يكون المعنى رغبـت في الـذكر وتركت اللهو : قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ الذي أفهمه أن الهبوط ليس مكانيًا، ولكنه هبوط قدر ورتبة، كما قال لآدم وحواء : ﴿ اهْبِطا مِنْهَا ﴾ أي انـزلا عـن قدركما، وإن كان الهبوط المكاني تحقق وفي قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ إشـارة إلى أنه سبحانه وتعالى سلب منهم الصبر الذي يقوى النفس على تحمل أعباء القيـام بأوامر الله تعالى، فقوله تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ دليل على أنهم استحقوا من الله أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، لأن الأرض التي كانوا فيها متعهم الله فيها بما هو فوق ملك الأرض لكل واحد منهم، فليس عليهم آمر إلا الله تعالى ثم كليمـه ولـيس ثم منافس ولا منازع لحصول المساواة المطلقة بينهم، وفقد المعاوضة التي تقتضي المفاوضة للمعارضة، حيث لم يكن ما يوجب التنازع ولا الحسد، لأن طعامهم المن والسـلوى وشرابهم الماء الذي تفجر من الحجر، وهي ، عيشة كعيشة أهل الجنة، ولكـن أبـت النفوس اللقسة إلا الخروج من الحق إلى الباطل . وفى قوله : ﴿مِصْرًا﴾ دليل علـى أن الأمصار وإن كانت جامعة للخيرات وحصن الأمن لأهلها، إلا أنها تضرب على كـل فرد من أهلها الذلة والمسكنة : أما الذلة فلأن الأمصار لا بد أن تكون مسكونة مـن هيئتين حاكمة ومحكومة، والحاكم مهما بلغ من المقامات العالية لا يكـون معصـومًا فيحكم بالعدل والقسط، بل تتفاضل الناس أمامه، فكيف به إذا كان كافرًا أو فاسـقًا ما لم يكن الحاكم رسولا أو صديقًا يجتهد أن يحافظ على آثار الرسل عليهم السـلام .
قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ في تلك الجملة إشارة إلى التهديد، لأنه سبحانه جعل لهم ما سألوه فقط، والقوم ما سألوا إلا البقل والفوم والقثاء والعدس والبصـل، ولو أراد سبحانه أن يوسع لهم الفضل لقال اهبطوا مصر فأعطيناكم الخير مـثلا . ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة الْمَسْكَنَةُ ﴾ .

أما ﴿**الذلة**﴾ فالجزية التي قضت بها الشريعة الإسلامية، وأما المسكنة فــالفقر لمخالفة الإسلام، والمسكين هو الذي قصم فقارة ظهره الاحتياج فأســكنه إلى الأرض فصار مسكينًا، وهذا جزاء من يخالف الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهذا خطــاب لمعاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أيضًا، لأنهم علموا أن سلفهم خالف سيدنا موسى فانتقم الله منهم وأنذرهم مخالفة رسول الله فيصيبهم هذا الشر وصدق الله العظيم، فإن اليهود منذ الكليم عليه السلام وهم يحاربون الرسل ويخالفون أوامر الله تعــالى ولــو تصفحنا بطون التاريخ لعلمنا من سيرهم أنهم جنود إبليس ونحن الآن نراهم في كل واد يتركون الفساد والضلال ولا يتركون مسلمًا ولا نصرانيًا إلا سعوا في أذيتـــه، لأن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة حتى يمحقهم محق قوم عاد وثمود . قوله تعالى : ﴿ **وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ فلفظة ﴿**بَآؤُوْاْ**﴾ : أي رجعوا محللين بالذلة والمسكنة من حيــث أجسامهم، وبالمقت والغضب من حيث نفوسهم . فإن نفوسهم لا تتحرك ولا تهتم إلا بالخطايا، لأن غضب الله تعالى يقدره على كل من حارب الرسل، لأن مـــن خـــالف الأمر بجوارحه وتلومه نفسه لا يغضب الله عليه. ولكن يؤاخذه سبحانه وتعالى .

وهنا سؤال : هل هذا الحكم يسري على معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآلــه**﴾ من اليهود أم لا ؟ والحقيقة أنه يحيط بهم لأنهم حاربوا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ كمــا بينت لكم . قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النبــيين بِغَيْرِ الحَقِّ**﴾ . هنا كأن سائلا سأل فقال : لم تلك العقوبات الصارمة ؟ فقال الله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ** ﴾ إلخ .

وهنا سأل سائل . فقال : إن الله حكم على اليهود بالمسكنة، وإنا نراهم أغنياء العالم ؟ والجواب : أن المعطي هو المانع، فأعطاهم المال الكثير وسلبهم غنى القلــب، فتراهم في هم وغم وعناء وشقاء في سبيل جمع المال، وهذه هي المسكنة الحقيقية . قوله تعالى : ﴿ **يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ** ﴾ أي يكذبون الأنبياء لأن الأنبياء جاءوا بآيــات الله

تعالى، كما كذب معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بآيات الله وتكذيبهم كفــر . ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيَين بغَيْرِ الحَقِّ ﴾ القتل معلوم، وهو إزهاق النفس .. وكم قتل اليهــود أنبياء : كزكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهم ﴿ بغَيْرِ الحَقِّ ﴾ مؤخر عن تقديم لحكمة ،فكأنه تعالى يقول : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيَين بغَيْرِ الحَقِّ ﴾ فبغير الحق متعلق بيقتلون ، لأن القتل قد يكون بالحق وبغير الحق . وذلك لأن قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، لأن وضع تلك الكلمة مؤخرة عن تقديم تدل على أن في الأنبياء من يقتل بالحق، وذلــك مستحيل شرعًا، ولا يتحقق القتل بالحق إلا في مرتد أو قاتل أو مفســد في الأرض . قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ . يبين لنا سبحانه أن العقاب الذي أوقعه بهم لما ارتكبوه من الخطايا غير ما ذكره سبحانه . وعلى هذا تكــون المعاصــي ثلاثة أنواع : معاصي الجبروت، والمعاصي الإبليسية، والمعاصي الحيوانيــة . وشــرها وأكبرها المعاصي الجبروتية التي هي الكبرياء والعظمة جحودًا ومنازعــة الربوبيــة في جلالها وجمالها، وتلك الذنوب أعاذنا الله منها هي الموبقات الماحقات التي تسخط الله على العبد وتغضبه، وتجعل صاحبها مغموسًا في لعنة الله .

أما الذنوب الإبليسية وهي ، قريبة من الذنوب الجبروتية هــي إنكــار الحــق وعداوة أهله والحسد، والسعي بالإفساد بين أهل الصفا، وإغراء الناس على الفحشــاء والمنكر، وإيقاع الحروب بين الأمم . ولا يخلو إنسان لم يتجرد من بشريته مهما كان فقيرًا أو غنيًا إلا وفيه شعبة من تلك الكبائر الجبروتية والإبليسية، فترى العامل الفقــير إذا خرج من عمله أو توجه إلى بيته تأوه وقال العمل عناء، ماذا أفعل ؟ أنــا كــدت أكفر ؟ وترى العالم الفقيه التقي الورع إذا جلس يقرر درسًا وكان دقيقًــا في معنــاه ومبناه، قال لولاى ما فهمتم . ومن الذي يمكنه أن يفك تلك المعضلة غيري ؟ وأنــا الذي كشفت غوامضها . وترى الولي صاحب الكرامات والبينات يقول لجماعتــه : حالي أعلى مقامكم، وهمتي منحتكم العلوم، أنا يمكنني بهمتي أفعل وأفعل وأفعــل، ثم يذكر ميزته ويهمز ويلمز . وترى من جمله الله بما ليس أهلا له من الملك والمال وتنفيذ

الكلمة، ويجهل أنه جرى في مجرى البول مرتين وينازع ربه تعالى، ويغضب على من لم يتملق بين يديه، ويخاطبه بخطاب الألوهية قائلا : ياجلالة الملك، والملك عبد مسكين، يأكل ويشرب ويتغوط وينام . وإذا خلا يفعل ما لا يفعله العاقل من المنكرات، ولجهله يعتقد أنه ملك حقًا . فالإنسان بهذه الصفة يجهل نفسه ويجهل ربه وينازعه في صـــفاته العلية مع أن شريانًا صغيرًا لو تحرك حركة صغيرة لألزمه الفــراش يســتغيث ويجــأر ويستنجد بالأطباء وينسى دعواه الباطلة، فإذا شفاه الله وعافاه يرجــع إلى الكبريــاء والعظمة ..

أما الذنوب الحيوانية : فهي أقل أنواع المعاصي، لأنها تكاد أن تكون فطــرة في الإنسان، لأنه حيوان يمتاز عن البهائم بالنفس الناطقة، وهو بحيوانيته مضطر إلى منازعة الحياة لتكمل لديه ضرورياته وتلك الضروريات تقتضي تعاون كل أفــراد الإنســان بعضهم لبعض، إلا أن تلك الضروريات كلها يجمل أن يكون الإنسان العامل لأجلها محصنًا بالشريعة المطهرة، فإن الله أباح الكسب الحلال من وجهه، ولو أنك تكتسب في اليوم ألف دينار . وأباح لنا جميع الطيبات من مأكل شهي، ولباس بهــي . وفــراش وطي، ومنكح وفي – قال تعالى : ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِــيَ أَخْــرَجَ لِعِبَــادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ وإنما حرمت الشريعة من كل الطيبات أن تتصرف في حقوق الغير، وأن تتعدى حدود الله فيما نهاك عنه . وقد فتح الله تعالى بــاب التوبــة علــى مصراعيه لمن ارتكب معصية من معاصي البشرية وأقبل على الله تائبًا نادمًا . ولكــن المعاصي الجبروتية والإبليسية فإن الله تعالى يقول في الجزاء عليها : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِــرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وهذا معنى قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِمَــا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ..**﴾

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿[٦٢]﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ .. ألخ ﴾ الآية . بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أخبار أعداء أنفسهم، وما أعده لهم من سوء العاقبة، تنزل جل جلاله بما هو أهل له من الحنان والعطف والرحمة والإحسان ففتح أبواب الخير لعباده، ليجمعهم على الحق بفضل منه ،فقال مؤكدًا الخبر بإن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ مبتدئًا بأهل الإيمان ليشرح صدور من سبقت لهم منه الحسنى بخبره هذا عن تلك الأنواع كلها . ومعنى ﴿ آمَنُواْ ﴾ هنا : أي صدقوا الله ورسوله مع الدوام والاستمرار على التمسك بعقيدة الإسلام والعمل بشرائعه . وإن فسر بعضهم قوله تعالى ﴿ آمَنُواْ ﴾ أي بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل بعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكن سياق القرآن يقضي بكشف الستار عن عميم الرحمة والترغيب في الإسلام، أما من آمنوا بالسابقين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إيمانًا لم يَشُبه زيغ ولا ضلال مما وقع فيه اليهود والنصارى، فذلك معلوم من الدين بالضرورة أن لهم الأجر والثواب، أما أهل الفترة من أهل الجاهلية وغيرهم، فإنهم ناجون إلى بعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، أما بعد بعثته عليه الصلاة والسلام وعلمهم به، فإنهم يكونون كفارًا مخلدين في النار إن لم يسلموا .

﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ﴾ أما الذين هادوا، فان كانت الكلمة عربية، فهاد يهود : يعني تاب يتوب، بدليل قوله تعالى :﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ وإن كانت غير عربية، فمعناها تهودوا، يعني دخلوا في اليهودية، والحكم إنما هو لمن أدركوا عصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بدليل قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ والنصارى جمع نصراني، والأنثى منه نصرانية، أو نسبة إلى المدينة (نَاصِرَة) التي نزل بها المسيح، فكانوا يسمونه ناصريا، وهم الذين ظنوا أنهم آمنوا بالمسيح، ولكنهم اختلفوا

فيه : فمنهم من قال هو ابن الله، ومنهم من قال هو الله . ومنهم من قال حل فيه الله . ومنهم من رأى قداسة مريم وهم أهل التثليث . ﴿ **وَالصَّابِئِينَ** ﴾ : الصابيء لغة : هو الذي يميل عن دينه، سواء أكان من باطل إلى باطل، أو من حق إلى باطل، أو يبتدع في الدين بدعة تخالف الإجماع، وهم أهل الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة في كل ملة، جمعهم الله مع ما هم عليه من الكفر بالله ليقيم الحجة سبحانه عليهم أن من آمن منهم بالله،أى صدق رسله عليهم السلام فيما جاءوا به من عند الله تعالى:﴿ **وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أي أنه حفظ أنفاسه وجوارحه من مخالفة السنة، وقام بما أوجبته الشريعة عليه من أركان الإسلام وسننه التي جمعها رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بقوله : " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً) فإيمان المؤمنين ثباتهم على التصديق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيامهم بالعمل بما أمر به مع الاستطاعة، وتركهم ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام مطلقًا . فإن المسلم يجب عليه أن يفعل ما أمر به مع الاستطاعة ويجب عليه أن يترك ما نهى عنه مطلقًا إذ لا عذر لمسلم يدعوه إلى الوقوع في معصية الله تعالى، لأن الله تعالى ما نهانا عن شيء فيه نفع لنا أبدًا بل نهانا عن كل ضار بالدين والجسم والأهل والمجتمع الإسلامى . وقد أغنانا الله بما وسع لنا فيه من ضرورياتنا وكمالياتنا .

والشريعة هي الطريق الواسع الذي لا يضيق على سالك فيه . وإيمان غير المؤمنين هو اعتناق الإسلام بقلب وقالب ﴿ **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ الجملة بعد الفاء جواب الشرط، والشرط وفعله وجوابه خبر، لأن السابقة والأجر معلوم أنه الجزاء الحسن على العمل الحسن، كما أن العقوبة هي الجزاء العدل على العمل السيىء . وفي العقوبة غاية العدل من الله تعالى . وفي الأجر نهاية الرحمة والفضل .

وهنا إشارة عجيبة : لأن الأجر لا يكون إلا لعامل بحوله وقوته، مكافأة له على ما ضحى به من العمل . والحق جل جلاله هو الفاعل المختار المنزه عن الشريك والمعين . ومن فهم قوله تعالى : ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ يذق حلاوة

ما أقول : إن الله تعالى تفضل علينا بالإيجاد، وأحسن إلينا بالإمداد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون** ﴾، وتتره جل جلاله عن أن ينتفع بمخلوق خلقه، أو يحتاج إلى عمل عامل من خلقه، فكيف يقول : ﴿ **لَّهُمْ أَجْرُهُمْ** ﴾ إلا أني على قدر فهمي في هذه الآية الشريفة أقول : إن الله تفضل بالإيجاد والإمداد فوفقنا لمحابه ومراضيه، وهدانا صراطه المستقيم، وأكرمنا بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس، ثم تفضل فضلا أعظم فأكرمنا بنسبة عمل الطاعات لنا، وبأن تلك الطاعات له منا بنا . ثم جعل سبحانه ما أعده لنا من الملك الكبير جزاء أعمالنا التي وفقنا لها ليكون إكرامه أجمل وإحسانه أشمل، ولنتذوق حلاوة وسعة رحمته وجمال إحسانه وخير حنانه، فنتخلق بخلق من أخلاقه في معاملة إخوتنا المسلمين الذين جذبتهم العناية إلى القيام لرب العالمين . وهذا مشهد من مشاهد التوحيد العلية . كشف الله لنا تلك المقامات كلها، وحفظنا من العمى في تلك الدار الدنيا، حتى نشهد كل المشاهد ونحفظ من قوله تعالى : ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**﴾ .

وهنا جذبت جواذب الألطاف الإلهية، من قدر الله لهم في الأزل أن يلحقوا السابقين الأولين بفضل الله وبرحمته . قال تعالى : ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ . عطف سبحانه وتعالى الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بالله جل جلاله، وفى ذلك من عجائب الحكمة الإلهية ما لو انكشف لذوي الألباب لكان المجتمع الإنساني العام كالجسد الواحد كل فرد منه ككل عضو في الجسد يعمل لخيره، لأن الإيمان باليوم الآخر مع المراقبة يشهد الإنسان شهودًا تصويريًا بهجة النعيم المقيم في سبيل عمل قليل يستطاع، فينجذب الإنسان بعوامل الرغبة الشديدة والشوق المزعج إلى الفوز بهذا الملك الكبير، وفي دار البقاء جوار الأنبياء والصديقين والشهداء، ويجعله يحارب هواه وحظه وشهوته، محاربة من يشعر بآلام النار عند هجوم سلطان الحظ والهوى والشهوة . ومتى راقب المسلم تلك الحقائق التي توعد بها القرآن أهل الكفر بالله، رسم على جوهر نفسه رسوم تلك الحقائق من الآلام

والعذاب والبلاء الشديد الذي يقع فيه المخالف للشريعة، في صغير الأمر وكبيره، فيفر من الوقوع في المعاصي كما يفر من الوقوع في هوة نار ملتهبة، وما ارتكب العصاة الكبائر ووقعوا في الخطايا والآثام إلا لنسيانهم ذلك اليوم . قال تعالى : ﴿**الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ وقال تعالى ﴿**بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ . ولما كانت تلك الملاحظات تكبح جماح النفوس عن غيها وتقيم الحجة على إيمان المرء بالغيب الذي سمع به من الصادق و لم يره صار برعايتها ناهجًا الصراط المستقيم مصححًا حاله عملا، ولذلك فإن الله تعالى عطف الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بذاته العلية، رحمة منه بخلقه وإحسانًا إليهم .

وقد تقدم شرح حقيقة الإيمان فيما سبق من الآيات بقوله تعالى : ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ تدل أهل المعرفة بالله أن هذا الأجر فوق الجنة مكانة، لأن الأجر عند ربنا جل جلاله واسع جدًا : فقد تكون الجنة، وقد يكون مقعد صدق، وقد يكون الرضوان الأكبر، وقد تكون مواجهة وجه الله تعالى، والأنس على بساط مؤانسته . وقد وقد وقد .. كما قال تعالى : ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ وبرهان صحة الرعاية والتمثيل قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ . ﴿ **وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ .

معلوم أن الإنسان بما ركب فيه من عناصر تقتضي تغيراته، حتى إذا تم اعتبار المثنوية تحقق بأنه لا يصفو نفسًا من الأنفاس إلا وهو تحت تأثير تلك التغيرات : فتراه موفقًا للخير مقبلا على الله بكليته، وأخرى ملتفتًا عن الحق سلس القياد للشهوة حريصًا على الدنيا والسعي لها، ومرة تراه زاهدًا ورعًا خاشع القلب خانع الجوارح لله تعالى، وأخرى تراه في حيرة ودهشة مما يرد عليه من غرائب الآيات وأسرارها، وآنا يكون كافرًا جاحدًا منكرًا . وكل تلك التأثيرات والانفعالات النفسية خصوصًا إذا كبرت سنه وضعفت قوته وتحقق الورود على البرزخ، ويخاف الرجل من سوء ذنوبه

ومن الحساب يوم لقاء ربه، ويحزن على أولاده وأهله بعد مفارقته إيـــاهم، فلمزيـــد الفضل من الله تعالى طمأن قلوب من آمنوا به وبآياته، وعملوا الأعمال الصالحة الـــتي بينتها لك في أول الآية في قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾، أي أنه تعالى بدل سيئاتهم حسنات، فأمنوا على أنفسهم من الحساب يوم لقائه، وأظهر لهم سبحانه إمَّا بإلهام أو وارد أو بُشرى من ولي عارف، بأن الله يكون وليًا ووكيلا على أولاده . تلك الآية بعد خبر الله تعالى بقوله : ﴿ **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ تدل على أن هذه البشرى من الله تعالى لمن أقامهم الله مقام المخـــاطبين بكلامـــه، لأن الله لـــو منحهم هذا الأجر الذي هو عنده لما خطر على قلوبهم دواعي خوف أو مقتضـــيات حزن .

وقد يكون خوف كمل أولياء الله تعالى أشد من خوف العصاة، لأن أولياء الله تعـــالى يخافون أن يوقفهم موقف عدل، أو يحجبهم عن شهود جماله العلي، أو يبعدهم عـــن الأنس على بساط مؤانسته قدام وجهه . أما العصاة فخوفهم من النار الـــتي تفـــرق الأجسام. أما النار التي توقد في القلوب فمنها خوف العارفين والمقربين وهي ، المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ **نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَـــى الْأَفْئِـــدَةِ** ﴾ . ﴿ **وَلاَ هُـــمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ أي لا يحصل لهم حزن والحزن قبض القلب من توقع ضرر أو غلبة عدو أو دين، أو من خوف ضياع خير أو مفارقته، والإنسان بعد أن ألف الحياة الدنيا، واعتقد أنه سبب لنفع أهل أو أولاد أو أقارب، إذا ظن أو تحقق مفارقته لهم فيكون مع كرب الموت كرب تلك الحالة، فيخفف الله عنه شدة الحزن بالبشائر عند الموت بأن الله تعالى يكون وليه ووصيه على من يفارقهم، وفى حالة الصحة يرد على قلبه الثقة بالله تعـــالى وانتظار النعيم المقيم يوم القيامة فيزول حزنه . وقد وعد الله تعالى أهل الإيمان به بخفي ألطافه في كل دور من أدوار حياتهم مهما اعتورتهم الأهوال والشدائد حتى لا يخلـــوا فيها إنسان مهما كانت حالته من القوة والشدة والغنى، لقوله تعالى : ﴿**وَهُوَ الْقَـــاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ فسبحان من له الخلق والأمر، وهو بكل شيء عليم .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

الميثاق : هو اليمين أو العهد الذي يقطعه على نفسه الإنسان ليقوم لغيره بما كلفه به أو طلبه منه، وهذا الميثاق هو رفع الطور فوق رؤوسهم لما أتاهم موسى كليم الله بالألواح فيها حكم الله، وطلب منهم أخذها فأبوا عليه، وقالوا حتى نرى الله جهرة ويكلمنا كما كلمك، فأخذهم الصاعقة، فكان ما بينته لك في شرح الآيات السابقة . فلما أحياهم الله تعالى بتضرع كليمه قال لهم : أين كنتم ؟ قالوا : كنا موتى وحيينا، قال : خذوا الألواح، فأبوا . فرفع الله الطور فوق رؤوسهم بقدرته الباهرة التي أبدع بها كل شيء، وطلب منهم أخذ الألواح فتعهدوا بأخذها وخروا سجدًا على جانب جباههم، والجنب الآخر إلى الطور خوف وقوعه عليهم، فرفع الله الطور عنهم، وأمرهم الكليم عليه السلام أن يأخذوا الألواح فأبوا ﴿خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ فكان رفع الطور فوق رؤوسهم تهديدًا لهم وهو الميثاق، وكأنه سبحانه وتعالى يقول : إن لم تأخذوا الألواح بقوة وإلا فالطور يلقى فيهلككم . والميثاق : قد يكون بالقول وبالحال وبالإشارة . فكان يومَ ألست بربكم بالقول والحال والمعاينة، وكان في يوم بيعة الرضوان بالقول والحال والعمل، وكان يوم ميثاق بني إسرائيل بالحال والعمل فقط .

﴿خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ تكليف من الله تعالى يقتضي وجوب الامتثال مع سرعة العمل وهو مما لا يطاق، لأنه لا مشقة فيه، وليس بعد الأمر الصريح تأويل خصوصًا بالقياس، فإن أول من أول بالقياس إبليس أعاذنا الله منه ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ﴿بِقُوَّة﴾ أي يقين ثابت لا ريب فيه ولا خديعة، لأنهم لو أخذوه بالقوة القاهرة لم يكونوا أخذوا، ومن فسر ذلك بالقوة القاهرة أن الطور فوق رؤوسهم نظر إلى ظاهر اللفظ لا إلى روح المعنى، فالقوة هنا بمعنى اليقين الذي لا شك فيه، لأن اليقين يأتي إما من صفاء جوهر النفس لتصور المعنى ، وإما من قوة الحجة والدلائل . فرفع الطور فوق رؤوسهم حجة قاطعة على أن الله تعالى هو الآمر بذلك، لأن موسى عليه السلام لا يستطيع أن

يرفع حجرًا منه . ورفع الطور هذا إشارة إلى أن الله تعالى كأنه يقول : صدق عبــدي فيما جائكم به من عندي . وفي قوله : ﴿بِقُوَّةٍ﴾ إشارة إلى العمل به مع الاســتدامة وفقه معانيه، لأنهم أئمة لخلفهم من بعدهم. وتلك الآية أول آية بين الله فيها انتقامه من بني إسرائيل، وهي ، تدل على أن معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا خالفوه كما خالف أسلافهم موسى عليه السلام ينتقم الله منهم أشد مما انتقم به من أسلافهم الأول ﴿ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أمر الله بني إسرائيل بذكر ما في الألــواح، مــن آيات الأحكام وأسرار شرائع الدين وأنوار الْحُكم، أمرًا يقتضي الوجوب ليتمثلوا تلك الحقائق بعد معرفة أنفسهم، فتنجذب نفوسهم وأشباحهم بعد التمثيل الاستحضــاري أو الشهود الحضوري، جذبة ترفعهم من حضيض الأسفلين إلى مقام الأرواح العاليــة من عليين، فيكونون على الأرض بأجسامهم، وقلوبهم معلقة بالرفيق الأعلى .

وهنا يظهر لنا أن أمر الله بني إسرائيل بذكر ما في الألواح يقتضي أن يكونــوا مأمورين بذكر ما في القرآن . ولذلك يجب أن تكون تلاوة القرآن وخدمته برعايــة العمل به، فإذا تلاه التالى غير عامل به ولا مجاهد نفسه في جميــع أقوالــه وأعمالــه وأحواله، لتكون مطابقة لما جاء في القرآن المجيد، وإلا كان ممن أخبرنــا رســول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله عنهم " إِنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ حَفِظَ آيَةً مِنْ ٱلْقُــرْآنِ وَنَسِيَهَا " ويكون معنى ونسيها، أي لم تحصل له رعاية القرآن في جميع شئونه، وذلك دليل على حرمانه من ذوق الإيمان، فإن من ذاق حلاوة القرآن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وكان حبه لغيره في الله وبغضه في الله، وكان يكره أن يخرج من الإيمان كما يكره أن يقذف به في نار جهنم . ولا تكون تلك الصفات العالية إلا لمن ذكر ما في القرآن ذكر تمثيل فيما وعد به و ما توعد عليه . كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ وهذا هو ذكر ما في كتــب الله المنزلة، أما ذكره بالألحان والأصوات لذة بنغمات الأصوات مع الغفلة عما فيه فذلك غفلة لا ذكر، اللهم إلا إذا جمع الله للعبد حسن الصوت في ترتيــل القــرآن، وبــين

خشوع القلب أدبًا على بساط المخاطبة، فإن من عباد الله من يسمع القرآن من الله مكافحة، ومنهم من يسمعه من جبريل، ومنهم من يسمعه من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ومنهم من يسمعه من المرشد الكامل. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي لتحصل لكم التقوى، لأن لعل هنا بمعنى اللام، وقد تقدم ما في ذلك . والتقوى في هذا المقام خشوع القلب لتأثيره بتمثيل الأحكام أمرًا ونهيًا واستحضار ما وعد الله به وما توعد عليه استحضارًا يجعل القلوب تخشع والأبدان تقشعر فيسارع العبد إلى العمل بمحاب الله ومراضيه سبحانه، وبذلك يجمله الله تعالى بجمال الأتقياء من خيرة عباده .

قوله تعالى : ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ﴿٦٤﴾

ثم هنا للبعد ما بين الإقبال على الله تعالى والحجاب عنه بالغفلة في الدنيا ونسيان الآخرة وإن كانت تدل على بعد الزمان، وتولّى رجع وانقلب . وتولى على كذا من الولاية . وهنا (توليتم) أي خالفتم أمر ربكم . وفي قوله ﴿ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أكبر العجب لأنه سبحانه وتعالى أفاض عليهم من النعم التي يعجز العقل عن حصرها من غير حول منهم ولا قوة فأنجاهم من فرعون وأنزل عليهم المن والسلوى وسقاهم ماء عذبًا نميرًا ينبع من حجر صلد يحمل على الأعناق في كل مرحلة . وغير ذلك من الإحسان الذي يجعل المحسن عليه يلمس آثار الألوهية بيده فلا يغيب عنها لشدة ظهورها وقوة الحجة والدلائل القائمة لها ومع كل هذا يلتقون بوجوه كالحة وقلوب قاسية بالقطيعة جانحة غير مبالين بما توعدهم الله به إن هم خالفوا .. وفي هذه الآية بيان جليّ لمعاصري رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكأن الخطاب خاص بهم دون غيرهم من معاصري الكليم عليه السلام وإن كان معاصرو الكليم هم الذين ارتكبوا تلك الكبائر فقد ذكرها الله تذكيرًا لمعاصري رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليتدبروا سر الخطاب وليعتقدوا أنهم يصيبهم ما أصاب سلفهم إن هم خالفوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

هذه الآية وإن كانت خاصة بالمخاطبين إلا أنها عامة، لأن الله تعالى ذو الفضل العظيم، ولولا فضل الله ورحمته على العالم أجمع، لخسف بهم الأرض، أو أنزل عليهم من السماء كسفًا . والمخاطبون هنا هم معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾، لأن الله تفضل عليهم ببعثة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه، ورحمهم بالقرآن المجيد، الذي هو خاتم الكتب، والمهيمن على جميع الكتب، الذي يقول الله فيه ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾ وقد ذكر الله لمن خاطبهم أن أسلافهم وقعوا في الكبائر، التي منها مخالفة الله تعالى، ومخالفة رســول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ القائم بين ظهرانيهم بما تقدم فذكرهم بهذا الشأن، ليعتبروا عبرة تجعلهم يحذرون مخالفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويسارعون إلى طاعته، وحسن اتباعه، حـتى يفوزوا بهذا الفضل، الذي أمدهم الله به، وبالرحمة التي أحسن الله بها إلـيهم، وهـي، القرآن . وإني أنبه قلوب إخوتي المسلمين أن كل آية نزلت في الأمـم قبلنـا، تجـب رعايتها علينا، فإن المسلمين مخاطبون بأكثر مما خوطب به أمم الأنبياء السابقين، بدليل قوله : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ الذين يخسرون في الدنيا الحياة الروحانية في طاعة الله، وفي الآخرة النعيم الأبدي في جوار رسـل الله علـيهم السلام .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴿٦٥﴾

أي لقد عرفتم . لأن العلم يقتضي عدم سبق الجهل، والمعرفة تقتضـي سـبق الجهل، فعلمتم هنا متضمنة معنى عرفتم، أي أدركتم بالخبر المتواتر ما حصل لأسلافكم من النقم التي أحاطت بهم، بسبب مخالفتهم لكليمه عليه السلام ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ** ﴾ أي خالفوا نبيهم في تعيينه لهم يوم الجمعة للإقبال على الله تعالى وعبادته، فخالفوه وقالوا : إن يوم السبت استراح فيه ربنا، وترك فيه العمل بعد

خلق السموات والأرض، فهو أولي بأن يجعله للعبادة، كما قال عيسى لقومه : اجعلوا يوم الجمعة للعبادة، فقالوا : يا عيسى إن الأحد يعني واحدًا . والله تعالى واحد، وفيه افتتح الله العمل لخلق السموات والأرض، فنحن نقدسه لذلك، فأمر الله موسى وعيسى أن يتركا القوم وما أرادوا . ثم أمروا بأن لا يعملوا في السبت، فقبلوا وابتلاهم الله، بأن جعل السمك يكثر جدًا بقرب ساحل البحر، وهم يشتهونه، وفى غير السبت يبعد عنهم فوسوس إليهم الشيطان أن يتأولوا وأول من تأول رجل منهم قبض على سمكة في البحر، وربطها في خيط، وربط الخيط في وتد، وأخرجها يوم الأحد، فأكلها، وكان يظن أن تصيبه مصيبة على ذنبه، فلم تصبه، فتشجع وقام معه رجال، فحفروا بجوار الشاطيء حفرًا عظيمة، وجعلوا لها موصلا للبحر، فكان السمك يجرى فيها، ويقع في الحفرة، فيخرجونه يوم الأحد ويستعملونه في شهواتهم، وتأول آخرون، فأخذوا شحوم البقر والغنم المحرمة عليهم، وباعوها وأكلوا بأثمانها تأويلا، وهذا من الاعتداء في السبت، الذي اقتضى قوله تعالى : ﴿ **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾وهذه الحادثة قد بينها الله تعالى في قوله : ﴿ **واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**﴾ وهي ، (إيليا) أما قوله تعالى : ﴿ **فَقُلْنَا لَهُمْ** ﴾ أي لمن ابتدأوا الاعتداء في السبت، كلما قدمنا وقوله ﴿ **كُونُواْ** ﴾ من كلمة (كن) أي صيروا بكن ﴿ **قِرَدَةً**﴾ ولقائل أن يقول : إن هذا مثل ضربه الله تعالى، أي أنه تعالى جعل قلوبهم قلوب قردة، وكذلك هممهم ونواياهم وقصودهم . جائز أن يكون نوع حقائقهم الإنسانية . وعلى هذا القول قد ثبت أنه سبحانه أبادهم جميعًا فلم يتناسل منهم نسل . وقوله ﴿ **خَاسِئِينَ** ﴾ أي مطرودين ملعونين .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴿ ٦٦ ﴾

الجعل معلوم، والنكال العقوبة الشديدة، والضمير في قوله ﴿**جعلْنَاهَا**﴾ الذي هو الهاء والألف يعود على المسخة، التي مسخها الله إياهم، وإن جاز أن يعود الضمير على

الحيتان، وإن لم يتقدم لها ذكر إلا كناية، فجائز أن يعود على القرية، وجائز أن يعود على القردة الذين كانوا أناسى، وجائز أن يعود على الأمة، التي اعتدت في السبت . والذي يناسب التتريل أن يعود على العقوبة التي هي مسخهم ﴿**لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** ﴾ يحذر الله سبحانه من خلف من بعد من وقعت هم العقوبة، أن ينكل الله هم فيمسخهم، كما مسخ المعتدين في السبت ﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾ . قوله سبحانه ﴿ **وَمَا خَلْفَهَا** ﴾ يخوف الله من في عصر الرسالة من بني إسرائيل وغيرهم، و لم يشهد الاعتداء في السبت، أن يترل هم هذا النكال، وهذا التحذير والتخويف والإنذار، لكل من خالف من بعدهم، ممن ارتكب معاصي الله تعالى، مخالفًا رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وإن جاز غير ذلك، كأن يعود الضمير فيما بين يديها، وما خلفها إلى المعاصي، التي عملوها قبل وبعد، حتى نكل الله هم . قوله تعالى : ﴿ **وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ يعني عبرة وتذكرة للمتقين، وهم المسلمون، وإن جاز أن يكون لكل تقي ممن اتبع الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام . والموعظة لغة : هي الذكرى والعبرة .

قوله تعالى : **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿ [٦٧]﴾**

بين الله تعالى لمعاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بيانًا، يقوم مقام المعجزة له عليه الصلاة والسلام، لأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ونشأ بين أهل جاهلية عمياء، لا علم لهم بتاريخ الأمم قبله، ثم يخبرهم بما لايعلمه إلا الراسخون في العلم من أتباع الكليم عليه الصلاة والسلام، فيقول لهم اذكروا خطاياكم التي منها قول موسى الكليم عليه السلام لأسلافكم : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً** ﴾ من غير تعيين ولا تخصيص، فأنكروا عليه هراء القول، الذي لا يقال إلا لأهل الجهالة والسخافة ﴿ **قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾ أي أهزأ بنا في قولك، وهي ، كلمة على جهلهم بنبيهم وبرهم

وبأنفسهم، ولولا فضل الله عليهم لاختصاصهم بأن يكونوا أمة لكليمه، ورحمته عليهم بوجود كليمه عليه السلام بين ظهرانيهم، لمسخهم قردة، كما فعل بمـن اعتـدوا في السبت . والاستهزاء استهانة بالمخاطب وتكذيب له ﴿**قال أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ الاستعاذة بالله الالتجاء إليه، والاستعانة به من الوقوع فيما يغضبـه الله سبحانه ﴿ **أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ بعد أن أكرمني الله تعـالى بـالنبوة وبـالكلام وبالرسالة، والجاهل هو الذي لا بصيرة له يحفظ بها لسانه، وجميع جوارحه من الوقوع في الخطايا . فكل من خالف الشريعة بجارحة من جوارحه، كالعين والأذن واليـدين والبطن والفرج، يكون جاهلا بالحقيقة، لأنه لو كان عالمًا ما ارتكب مـا يوقعـه في جهنم مخلدًا . هل يقبل العقل أن إنسانًا غير جاهل يرى السبع في الغابة، فيدخل عليه غير متحصن بحصون الوقاية ؟ اللهم لا . وكل من سمع كلام الله أو خبر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن الزنا حرام والربا والخمر والسرقة وما أشبهها حرام . هل يقع في شيء منها ؟ اللهم لا . فقولهم لنبيهم ﴿ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ حجة على جهالتهم . وتشديدهم على أنفسهم في كثرة الأسئلة لنبيهم، دليل على شكهم وريبهم قوله تعالى: **قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِـكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرون ﴿٦٨﴾**

﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾ ذلك أن الله ما أقام حيًا يدعو إليه سبحانه وتعالى، وأيده بالمعجزات الباهرات، إلا ابتلاه بمن سجل عليهم القضاء بالكفر..انظر إلى بني إسرائيل، يسأل القاتل منهم نبيهم أن يبين لهم خفية الأمر في المقتول، ومن الذي قتله والسائل هو القاتل غير هياب ولا وجل. وذلك دليل على نفاقهم وتكذيبهم أنبياء الله تعالى عليهم السلام، فلما أمروا بذبح بقرة من غير تقييد، أنكروا كل الإنكار، وقالوا ما للقتيل وما للبقر، ولكنهم بعد الرد عليهم بالشـدة لم يقبلوا وقالوا لنبيهم ﴿ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**﴾ وجهلوا أن أمور الرسل عليهم

الصلاة والسلام كلها اختبار من الله تعالى لتظهر قوة يقين القوم أو ضـــعفها، ولكـــن الحجة قامت على أنهم ضعفاء الإيمان، لأن الذي قتل عمه وهو شقيق والده، لأنه كان غنيًا ولا ولد يرثه، فتعجل الإيثار بالمال وقتل عمه، فتدافع القوم فيه، فأسرع القاتل إلى كليم الله عليه السلام يسأله كما تقدم، وهل يفعل مثل هذا مؤمن صادق.لا..

ومن إنكارهم قولهم: ﴿ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ** ﴾. وقد أخذ بعض المفســرين الواقفين عند دلالة اللفظ، أن لفظ النكرة عام يحتاج إلى بيان وتمييز وتخصيص، فجعل لأسئلته هذه وجهًا من التأويل، ولكن أهل العلم بالله تعالى يرون أن كلام الرسل حجة لا تقابلها حجة. والواجب على من يسمع كلام الله يبينه رسوله عليــه الســلام أن يتحمل بالسمع والطاعة، وأن لا يرفع صوته فوق صوت النبي بفتح أبــواب الفــتن والتشديدات: قال ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً** ﴾ فيســارعون إلى ذبــح أي بقرة، لأن الله تعالى يخاطبهم على قدر عقولهم، وليس في كلام الله تعالى فوق العقل إلا ما تعلق بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه، أو ما أنزله ولم يخاطب به إلا الراسخون في العلم كالآيات المتشابهات في القرآن. وما على المؤمن الصادق في إيمانه إلا أن يسلم تسليما وينفذ الأمر بحسب اللفظ الظاهر. ورسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بين ظهــرانيهم، فإن كان محتاجًا إلى مزيد بيان بينه. والمعقول أن النوع من كل حيوان لا تتميز أفراده بزيادة عضو أو بنقص جارحة بل كل أفراد النوع سواء من حيث ما كونــت منــه الحقيقة والله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً** ﴾ أي أي بقرة كانــت كما قال الله تعالى: ﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ** ﴾.

وقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ كره من سأله مشددًا على نفسه، والقرآن نور منبلج في صدور العالمين لا يحتاج إلى كل تلك المعارضات فيه قال تعالى : ﴿**الرَّحْمَنُ ۞عَلَّمَ الْقُرْآنَ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** ﴾ . ومن تعلم القرآن قبل أن يتعلم الإيمان والتقــوى لا

ينال من العلم إلا قوة الجدل والمناظرة اللتين يناهما الكافر إذا تعلم العلم كما نرى الآن .. أما أهل التقوى فإن الله عمر قلوبهم بالخشية منه والرغبة فيما عنده وسلموا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تسليمًا . وقد نفى الله الإيمان عن قوم تعلموا القرآن قبل الإيمـان، فأرادوا أن يزنوا القرآن بعقولهم وضوابطهم العقلية واللغوية فقال تعالى : ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ .

قوله تعالى : ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**﴾

والمعنى أنه سبحانه وتعالى يقول : إنها بقرة وسط ليست فارضًا أي هرمة ولا بكرًا صغيرة لم يعلها فحل . و ﴿ **عَوَانٌ** ﴾ أي أنها ولدت مرة فهي في قوتها وشبابها .. وقوله تعالى : ﴿ **بَيْنَ ذَلِكَ** ﴾ أي أنها بين المرتين .. وقوله تعالى : ﴿ **فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ**﴾ أي نفذوا أوامر الله من غير تردد أسئلة تدل على الريب والشك . وهذا عتاب من الله تعالى يشعر بأن سؤالهم هذا من سوء الأدب . والواجب على كل من سمع كلام الله أمرًا ونهيًا، أن يسارع في تنفيذه بقدر اجتهاده إن لم يعلم أسلوب التنفيذ بنقل عن الصحابة والتابعين ...

قوله تعالى : **قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴿٦٩﴾**

لم يكتف بنو إسرائيل بأن حرموا التسليم لله ولكليمه عليه السلام بإجابتهم بسوء الأدب حتى بين الله لهم بيانًا في البقرة لو أخذوا به لفازوا بعفو الله عنهم ،ولكنهم رجعوا لعنتهم وعمههم فقالوا مرة ثانية ﴿ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا**﴾ الخ الآية . اللهم إنك من تهدي فهو المهتدي ومن لم تجعل له نورًا فما له من نور : يسألون عن لون البقرة وألوان البقر كله متناسب تقريبًا، ولكن ضعف الإيمان يجعل الإنسان يشدد

على نفسه من حيث لا يعلم والله صبور حليم، ولكنه يعامل عباده على قدر تشديدهم على أنفسهم فبين الله لهم لون البقرة بقوله : ﴿ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء ﴾ الآية . والصفرة والخضرة لونان بين البياض والسواد . وقد تأول الصفرة بعض المفسرين في هذه الآيــة أنها السواد، وهو تأويل ولكنه بعيد لقوله تعالى ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ لأن السواد لا يقال له فاقع ولكنه يوصف بحالك، ومن هنا نقول إنه هو اللون المعلوم بالصـــفرة وقولـــه : ﴿ فَاقِعٌ﴾ أي شديد الصفرة أقرب إلى البياض في لونها ومن شدة صفرته ولمعانه يســر الناظرين ولذلك فإنك ترى أهل العلم يحبون استعمال الألوان الصفراء في كل شـــيء من ملابسهم ودوابهم وغيرها . والسرور انبساط القلب بما تراه العينان، كما يحصـــل سرور القلب بسماع ما يشرح الصدر .. وهنا يجب أن نتأدب بأدب الله تعالى الـــذي أدبنا به مع رسله الكرام عليهم السلام، فإن الرسل وإن كنا فقدنا هياكلهم الجسمانية ولكننا ما فقدنا ما جاءوا به من عند الله عليهم السلام من الكتاب والحكمة ونعتقد أن كل من فعل ما فعله بنو إسرائيل من التردد والشك والتشديد يوقعه فيما وقعوا فيه من اختلافهم على أنبيائهم الموجب لغضب الله تعالى .

قوله تعالى : قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴿٧٠﴾

لم يترك بنو إسرائيل ما جبلت عليهم نفوسهم اللقسة من كثرة سؤال نبـــيهم عليـــه السلام، وترددهم فيما يأمرهم به من أول الأمر، ولو لم يكن منهم إلا قولهم في الآيـــة السابقة ﴿ قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ لكان ذلك كافيًا في أنهم تعدوا حدود الأدب مـــع الأنبياء عليهم السلام أعاذنا الله وإخوتنا المسلمين، وفى هذه المسألة بعينها ترددوا مرارًا وتكرارًا والقوم يقولون للكليم عليه السلام ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِـــيَ﴾ بيانًا خاصًا بعد هذا البيان العام يحصرها في قوله ﴿ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ يعـــني أن البيانات السابقة لم تبين لهم بقرة خاصة تطمئن بها القلوب مع أنهم لو ذبحوا بقرة مـــن

أول حكم لكشف الله لهم حقيقة القاتل ولكن الله سبحانه وتعالى يحب التخفيف على عباده ما لم يشددوا على أنفسهم وإنما يكون إحسانه رحمة بكل عبد عظم كلامه فسارع إلى تنفيذ أمره ونهيه غير هياب ولا وجل ولا شاك ولا مرتاب وقد تفضل الله تعالى بعد سؤال موسى إياه عن حقيقة البقرة

لقوله سبحانه : **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴿٧١﴾**

بين الله لهم أن البقرة ليست مذللة بتدريبها في الحراثة والسقيا بل هي مهملة فكانت أشبه بالبقر الوحشي وذلك أنها كانت لامرأة أيم وولد يتيم لا يقويان على استعمالها فيما ينفعهما . وقوله تعالى ﴿**مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا**﴾ بينها سبحانه بأنها سالمة من العيوب لا شيء فيها يعني أن لون جلدها أصفر ليس فيه ألوان أخرى ﴿ **شِيَةَ** ﴾ مأخوذ من الوشى . وعندي أن الله سبحانه وتعالى بين لهم هذا البيان الخاص جزاء لقولهم ﴿ **وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ** ﴾ هنا نعتقد أن أدب المخاطب خاص بأهل المعرفة بالله تعالى وبنو إسرائيل وإن كانوا يتلقون العلم عن الكليم عليه السلام إلا أنهم حرموا الأدب مع أنبيائهم، لأنهم عاشوا بين الفراعنة في قهر، و لم يكن ثم ظلم ولا انتقام مع موسى وسبب ذلك أن نفوسهم طبعت مع الفراعنة، على الذل بالقهر والانتقام، ولما منحوا كمال الرحمة والعدالة والمساواة من قبل أن تتزكى نفوسهم بالتهذيب وأدب المعاشرة والمحاضرة والمواضعة و لم يتذوقوا طعم الإيمان الذي يجعل النفوس مؤهلة لتلقي الحكمة والعمل بها وتعظيم من أقامه الله حكيما بينهم لنيل السعادتين . وقعوا في تلك الخطايا جاهلين بنتائج المخالفة وهذا سر من أسرار الاجتماع الإنساني الذي لأجله بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين والاجتماع الإنساني ضروري جدًا، لأن الإنسان لا يقوى

على تحصيل ضرورياته فضلا عن كمالياته إلا بكثير من أبناء نوعه وبمساعدة الأنواع الحية في هذا الكون، ولا ينال الإنسان تلك الضروريات والكماليات إلا بمعاوضة تصحبها مفاوضة، وقد تقتضي معارضة، ولولا بعثة الرسل لكان المجتمع الإنساني كالوحوش في غابة بين بهائم سائمة، ولكن الله تعالى اغتفر لبني إسرائيل ما أتوا به في تلك الحادثة إلى قولهم ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ لأنه سبحانه أرحم الراحمين ورحمته وسعت كل شيء . قوله تعالى ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾أي أنهم عندما بين لهم حقيقتها الخاصة بها تعارفها القوم . فقالوا هذة بقرة فلان وطلبوها فأغلوا ثمنها جدًا فحصل تردد في شرائها لقوله تعالى :﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي قاربوا يفعلون، ولكن الرغبة في بيان القاتل جعلتهم يتساعدون في دفع ثمنها حتى قيل إنها بيعت بملء جلدها ذهبا .

قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

يذكر الله سبحانه بني إسرائيل من معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حادثة تنتسق في عقد ما ارتكبوه من مخالفات وما تفضل به سبحانه من الصبر عليهم والحلم لينفذ ما قدره عليهم جل جلاله . وفى قوله تعالى (قَتَلْتُمْ) بلفظ الجمع مع أن القاتل اثنان دليل على مرض في نفوسهم هو الطمع فيما زين للناس من المال حتى يرتكب الرجل قتل عمه ليرث ماله وهي ، خصلة أصحاب النفوس الخبيثة التي فقدت الرحمة منها وتلك الذكرى تجعل من سبقت له الحسنى منهم يصدق رسول الله . ومن لم تسبق لهم الحسنى يجللهم الذل والصغار، لأن تلك الأحداث لا يعلم خفيها إلا علماء الأخبار والكهنة وقوله تعالى : ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ أي في القتلة التي وقعت على النفس المقتولة .. ومعنى . إدَّارَأْتُمْ ؛ أي تدافعتم والمدافعة قد تكون باليد وباللسان عند الاختلاف على ما يقع من المنكرات . قوله تعالى : ﴿ وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ذكر لفظة (مُخْرِجٌ) التي تدل على الاستقبال والمقام بعد ذكر تلك القصة يدل على

الماضي، لأنه أتى بها في سياق الحكاية على الحادثة قبل ذبح البقرة لتأخير هذه الجملة مع أن محلها التقديم يدل على الإعجاز في نسق القرآن، لأن الله تعالى أراد أن يبين مخازى بني إسرائيل منظمة مرتبة، فأمر موسى قومه أن يذبحوا بقرة مع ترددهم وكثُرة أسئلتهم دليل على ضعف ثقتهم بالكليم عليه السلام، فهي تناسب ما سبق من الآيات، وتأخر السبب عن الحكم في اللفظ لا يقتضي تأخيره عن تنفيذ الحكم .

﴿إشارة﴾ قوله تعالى ﴿ **وَاللّهُ مُخْرِجٌ** ﴾ بيان لأهل البصائر أن الله تعالى يظهر جمال سريرة العبد المقبل على الله، ولو اختفى عن جوارحه في أعماله القلبية، كما يظهر قبائح السرائر، مهما أخفاها الإنسان، لأن القلب محل نظر الله تعالى . وهنا نعلم أن ظهور العبد التقي بين الناس، لا يضره بشيء، لأن الله تعالى هو الذي جعل جمال سريرته علانية لخلقه، ليكون هداية لأهل عصره، نسأل الله تعالى أن يجمل سريرتنا لذاته العلية مخلصين له الدين، حتى يجعل لنا لسان صدق في الآخرين .

قوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٧٣﴾

إن الله تعالى قادر على أن يحي القتيل، بضرب وبغير ضرب وبعصا موسى، ولكنه عليم خبير بدسائس نفوس عباده، ولو أن موسى ضربه بالعصا أو كلمه وخاطبه القتيل، لظنت النفوس الشريرة أن ذلك سحر، ولكن الله تعالى أراد أن يظهر سببًا من الأسباب تطمئن به قلوب الشاهدين، طمأنينة تجعلهم يعتقدون حقًا . ولما لم يرد في القرآن، ولا في أثر من آثار العلم تعيين الجزء المضروب به من البقرة، فنحن نصدق خبر الله تعالى، ونسلمه لجنابه المقدس تسليما. قوله تعالى:﴿ **كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى**﴾ هنا كلام محذوف ملحوظ، أي فضربوه، فأحياه الله، وقال قتلنى فلان وفلان، ولكن الله جل جلاله يظهر في حادثة صغيرة آية عجيبة ينبه بها أهل البصائر، ممن أهله لنيل مشاهدة جماله العلي، فكأنه يقول : يا من رأيتم قتيلا ضرب بقطعة من بقرة مذبوحة، فأحياه

الله، لا تنكروا البعث، فإن القادر الحكيم الذي أحيا قتيلا بضرب قطعة لحم، هو القادر الذي يحيي الموتى . والكلام قد تم قبل قوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ **فإن** آية ﴿ **كَـــذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى** ﴾حجة على موضوع آخر، لأن الذي أحياه لم يكن ميتًا، ولكنـــه كان قتيلا، و لم يكن جمعًا، ولكن كان شخصًا واحدًا، وتلك الحادثة آيـــة واحـــدة . وقوله تعالى : ﴿ **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**﴾ يشير سبحانه إلى أن في هذه الحادثة آيات كـــثيرة، كالإحياء ومسألة البقرة وإظهار القاتل وصفاء قلوب بني إسرائيل، وتأديبـــهم الأدب اللازم، الذي يناسب مخاطبة الرسل، أو أن الله يشير إلى الآيـــات الـــتي أظهرهـــا في مكوناته، مما يؤيد حكم البعث، والله جل جلاله يعظم بعض الحوادث الصـــغيرة، لمـــا يريد أن ينفذه، ويظهره من دلائل البعث، ومن إزعاج قلوب المنكرين .قوله تعالى : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ . العقل ما يحفظ الحقائق من التروع إلى المفاسد، كما تعقل الجمـــل فتحفظه . والعقل هنا بمعنى تصور الحقائق بمدلولاتها، التي تؤديها، أو تومي إليها . وقد جعلها الله تعالى السلطان . الذي يقبل ويرد . وكفاه شـــرفًا أن الله تعـــالى يقـــول : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ والعقل إنما يشير الله إليه في الآيات المحسوسة الملموســـة وكآيـــة إحياء القتيل، وأما ما فوق تلك الآيات، مما ليس للعقل أن يتصورها، أو يرسم صورها على جوهر النفس، فالله تعالى يسندها إلى أهل مقام الإيمان، أو الإحسان أو الإيقان أو أولي الألباب : وليست الآيات التي أراها الله رسولَه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ليلة الإسراء، كتلك الآية التي في الكون المحسوس الملموس، ولا كالآية التي أراها موسى لفرعون والله تعالى يكشف لكل مرتبة من مراتب خلقه آيات تناسبهم وهذا شيء لا يتذوقه إلا العارفون بالله تعالى ..

قوله تعالى : **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾**

قسوة القلوب مرض نفساني يجعل القلوب لا تقبل النور الواصل من الحـــق ســـبحانه لغلظها وكونها كالصخرة الصماء . أما قلوب أهل الإيمان فإنها إذا تليت عليها آياتـــه هشت وبشت وقبلت، وكما قال تعالى ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَـــابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْـــرِ اللَّهِ**﴾، فالقلوب القاسية هي القلوب الجافية الغليظة التي لا تؤثر فيها الحكمة . ﴿ **ثُمَّ** ﴾ هنا تفيد تعميم القسوة من زمن بعيد، لأن بني إسرائيل من يوم خروجهم من مصر إلى حادثة القتل، وهم يترددون ويرتابون في أوامر الله تعالى، وإن كـــان المفســـرون يخصصونها بالرجلين القاتلين اللذين أقسما بالله بعد شهادة المقتول الذي أحياه الله تعالى الأمر الذي قامت به الحجة الناصعة على أنهما قتلاه . ولو كانت خاصة بالقاتلَين لقال سبحانه : فقسا قلباكما، لأن لكل حرف من القرآن معنى خاصًا يتذوقـــه أهـــل الله العارفون بالله . ﴿ **مِّن بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ أي من بعد بيان الله لهم بيانًا تطمئن به القلـــوب، فكان من أعجب العجب بعد هذا البيان الجلي أن يكون إنكار وتـــردد . ﴿ **فَهِـــيَ كَالْحِجَارَةِ**﴾ أي في قسوتها أشبهت الحجارة التي لا تنبت كلأً ولا تصلح غـــذاء . ﴿ **أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ بحسب نظرهم وتقديرهم للحقائق، لأن الله تعالى تتره عـــن الشـــك والريب في الحكم على حقيقةٍ ما مهما دقت . ولك أن تقول ﴿ **أَوْ** ﴾ بمعنى بل تشنيعًا عليهم من الله تعالى . ﴿ **أَشَدُّ**﴾ بالرفع لعطفها على محل الكاف التي هي بمعنى مثل، أو لأنها خبر فهي مقدرة دل عليها ﴿**هِيَ**﴾ السابقة . وفى ذلك من التخويف الشديد لمن ينكر الحقائق بعد تقريرها بالعقل ما يجعل المنكر يخشى على نفسه الهلاك بإنكاره .

ثم بين الله تعالى أن قسوة الحجارة لخير يعود على الإنسان . لقوله تعالى : ﴿ **وإن مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ**﴾ والمعنى أنه ما يسيل منه الماء الكثير الغمـــر الـــذي تتكون منه الأنهار وتلك الخصوصية تدل على أن الحجر خير للإنسان مـــن الإنســـان القاسي القلب لنفسه . ﴿ **وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ** ﴾ أي وإن منها لما يدك

ويتشقق أو تتفيأ ظلاله . وانفجاره بالماء وتشققه . جميع ذلك من خشية الله، وذلـــك لأن الله قوي قهار قادر ولا يحس الإنسان بتلك العظمة والقـــوة والقهـــر إلا إذا رأى آثارها فإذا رأى جبلا اندك أو انشق أو تفجرت الأنهار منه انكسر قلبه من خشية الله تعالى القادر على أن يفعل هذه الأعمال العظيمة إن كان من أهل الشهود،وانصـــدع قلبه من خشية الله إن كان من أهل العلم، ﴿ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ الغفلـــة هي ترك الشيء تساهلا أو نسيانًا، إما لعدم العناية أو للعجز عنها، والله تتره وتعـــالى عن كل ذلك، ولكن قتل الإنسان ما أكفره، يحكم على ربه بما يحكم به على خلقـــه جهلا منه بنفسه، فضلا عن جهله بربه، لأنه لو عرف نفسه لعرف ربه . والمعنى أن الله تعالى ليس بساه ولا ناس ..

قوله تعالى : أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُـــمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أحداث بني إسرائيل مع كليمه عليه الصلاة والسلام، مما يـــدل على صبر الله تعالى وحلمه وواسع رحمته، بعد أن فعلوا ما فعلوا من الإنكار والشـــك وعبادة العجل، وغير ذلك مما تقدم ذكره، بين سبحانه وتعالى لحبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ البيان الحق في شأن معاصريه عليه الصلاة والسلام، الذين كأنهم هم من كانوا مع موسى عليه الصلاة والسلام بحقيقتهم ومعناهم، لأن ما بينه الله تعالى على لســـان نبيه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من أكبر معجزاته عليه الصلاة والسلام، وكيف لا، وهو غـــامض أسرار التوراة، وصحيح ما ورد فيها مما لا يعلمه إلا حبر راسخ في العلم، ورسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ نشأ بين جاهلية عمياء وضلالة صماء، لا علم لهم بتـــاريخ أنفســـهم . وثبت أنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ مضى شبابه في شغل لعمه أبي طالب، ولم يخرج من مكة إلا مع عمه أبي طالب، وفى تجارة لخديجة رضي الله عنها مع عناء السفر . وتلك المعجـــزة كانت تكفى أن تجعل بني إسرائيل الذين هم أهل كتاب يلبون دعوته ﴿ ﷺ **وآله**﴾،

ولكن الله قدر حرمانهم من السعادة في الدنيا والآخرة . فقولــه : ﴿ **أَفَتَطْمَعُــونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ**﴾ الهمزة هنا للإنكار لشدة وضوح الحجة التي تأخذ بمجــامع القلــوب وليست لإنكار الوقوع ولكنها لإنكار الواقع، لأن الواقع أن اليهود كان يجب عليهم أن يصدقوا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فيما قامت عليه الحجة، ولكن الألف هنا لإنكار الوقوع، لأن الوقوع غير الواقع، إذ أن الحقيقة واجهت اليهود بجلي البيان، وحكــم عليهم الأمر الواقع فأبوا وقوعه، وكم من أمم خالفوا رسلهم عليهم الصلاة والســلام بعد وضوح الحجة، وتركوا الأمر الذي أيده الواقع .

وهنا يخاطب الله تعالى رسوله والمؤمنين من أصحابه مبينًا لهم أن بني إسرائيل المعاصرين لكم الذين هم خلف من آذوا أنبياء الله ورسله وكذبوهم لا يزالون خلفًا بعد ســلف على الإنكار، فلا طمع في إيمانهم بالله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، كما آمنتم بدليل قوله تعالى : ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْــدِ مَــا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، الواو في قوله ﴿ **وَقَدْ** ﴾ واو الحال والجملة حــال مؤكــدة، والمعنى أن الله تعالى يقول : إن أسلاف بني إسرائيل المعاصرين لموسى عليــه الســلام سمعوا كلام الله كفاحًا مع كليمه عليه الصلاة والسلام، ولما أن رجعــوا إلى قــومهم حرفوه بالتغيير والتبديل بعد أن بلغه موسى عليه السلام لقومه، و لم يسلموا تســليما لكلام الله تعالى، فكيف تطمعون أن يؤمنوا لكم أنتم يا أصحاب محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعد أن حرفوا ما سمعوه من الله تعالى بالبيان الفصيح الذي يعقله الجاهل، فلا طمع في إيمانهم لكم أنتم بكلامكم إياهم، وهذا المعنى هو المناسب، لأن الله تعالى يقــول : ﴿ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ** ﴾ و لم يقل يسمعون كتاب الله . وإن شرح بعض العلماء تلك الآية بأنهم سمعوا التوراة من علمائهم فحرفوها أو أن علماءهم الذين غيروا معالم التوراة طمعًا في نيل ما يضر يوم القيامة،أو بأنهم سمعوا كلام الله من رسوله محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قبل الحادثة وحرفوه . وكل ذلك جائز، لأن صريح اللفظ يــدل

على أن الكلام فيمن اختارهم موسى عليه السلام ليسألوا الله التوبة على من عبدوا العجل، فطلبوا سماع كلام الله تعالى، فسأل موسى عليه السلام ربه، فأسمعهم سبحانه وتعالى، فحصل منهم ما ذكرت لك بعد رجوعهم .

(لطيفة تاريخية) : لو سألنا التاريخ عن اليهود من أيام الخليل عليه السلام إلى أيامنا هذه لأظهر لنا صحيفة سوداء، أولها السعي بالخليل عند نمرود حتى ألقاه في النار وآخرها سعى الصهيونيين عند الإنجليز لخراب فلسطين، فكأن الله تعالى يخبرنا عن شرورهم من أول وجودهم إلى آخره . وقد كتبت عليهم الذلة والمسكنة وفرقهم أيدي سبأ، ولولا خوف التطويل لذكرت حوادثهم مع أنبياء الله ورسله كداود و زكريا ويحي وعيسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام، ولا تزال تلك الآثار الشيطانية ماثلة أمام أعيننا وأسماعنا بحالة تشيب الوليد أعاذنا الله منهم ومن شرورهم، وجدد مجد الإسلام وجمع الله المسلمين وأهلك أعداء الحق أو هداهم للإسلام إنه على كل شيء قدير .

وما قولك فيمن سمع كلام الله بَيِّنًا ويعلمه مفصلا، ثم يحرفه، إلا أن هؤلاء سجل عليهم القضاء باللعنة والبعد عن الحق وأهله، ولكن الواجب على العلماء أن يهدوا الناس هداية البيان وعلى الله هداية الإحسان .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴿[٧٦]﴾

بعد أن بين الله تعالى لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه أو اليهود الذين سمعوا من الله كلامه جل جلاله و لم يؤمنوا به لأنه محكوم عليهم بالحرمان من هذا النور المحمدى،أخذ سبحانه يبين لنا نوعًا آخر لتقوم الحجة على خبث نفوسهم، وعلى أنهم أهل عناد ونفاق، بل وكفر بالله وبرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ

﴿قَالُواْ آمَنَّا﴾، فإنهم لما رأوا قوة الإيمان في قلوب الأنصار والمهاجرين، وبعد أن يئسوا من التأثير عليهم في أن يردوهم عن الإيمان مع علمهم بصفات رسول الله في التوراة . ومع أنهم كانوا يستظهرون به على العرب قبل بعثته ﴿ﷺ وآله﴾، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا يقولون إنا آمنا بما آمنتم به أي صدقنا محمدًا ﴿ﷺ وآله﴾، مصرين على الكفر وهو صريح النفاق .

وهنا يجب أن نبين بيانًا شافيًا في النفاق، وهو أنواعُ : شرها أن يخفى الإنسان الكفر ويظهر الإيمان لسلامة نفسه وماله وعرضه، أو لطمع فيما في أيدي المؤمنين، ومنه أن يعمل عمل الآخرة، لينال الدنيا، كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ : (مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ . قَالُوا مَنْ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ) . ومن النفاق أيضًا أن يعمل ليقول الناس إنه صالح، وهذا هو الرياء وهو نوع من النفاق . ومنه أن يترك العمل الواجب عليه خشية أن يعيب الناس عليه، فيقولون مجنون . ومنه أيضًا أن يطلع المسلم على كتب الإفرنج، فيرى فيها نهضة لنيل السعادة في الدنيا وتفوقهم في الصناعات، فيظن لجهله أنهم أولي بأن يقلدهم والقوم على أخلاق إبليسية وأعمال بهيمية، حرموا من العلم النافع ومن العمل الرافع، ومن الإيمان بالله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾، بعد أن قامت الحجة ووضحت المحجة، وهذا الأخير وإن لم يعتقد في نفسه النفاق فهو شر المنافقين، لأن الإسلام لم يجعل المسلمين في مثل هذا العصر حجة عليه، بل هو حجة عليهم إن لم يعملوا بأصوله وفروعه، والإسلام نور مبين لا يحتاج إلى مجاهدة في بيانه، بل يكتفي كل إنسان بالإطلاع عليه، فلا يلبث إلا أن يؤمن به إيمانًا حقًا، وإنما الضرر أن يهجر الكتاب والسنة، ويدعو إلى الإسلام مَن لا علم له بروحه، ولا قلب له يعقل عن الله خطابه،وللنفاق أنواع كثيرة تظهر في المعاملات والمبادلات وفى المجالسات، لا تخفى على من عنده مسحة عقل . ﴿وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ﴾، معنى ذلك أنه إذا خلا أهل النفاق بأهل العناد من المتظاهرين بالكفر، لاموا عليهم في قولهم للمؤمنين ﴿آمَنَّا﴾، لأن قولهم

هذا ناتج عما ورد في التوراة من صفات رسول الله، ومن وجوب الإيمان به، إذا بعثه الله تعالى فيقولون لهم أتحدثون المؤمنين بما بينه الله في التوراة من صفات نبيهم ومـــن وجود الإيمان به، وذلك حكم من الله عليكم، لأن معنى ﴿ **بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَـيْكُمْ** ﴾ أي حكم عليكم أن تؤمنوا بمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ إذا بعثه الله في أي زمـــان، وفى أي مكان .

وقد ورد بسند الإمام ابن جرير الطبري قال قال رســـول الله ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾ : (لا يَدْخُلُ عَلَيْنَا قَصَبَةَ الْمَدِينَةِ إِلا مُؤْمِنٌ)، فكان اليهود إذا دخلوا المدينة مبكـــرين قـــالوا آمنا، وإذا خرجوا منها رجعوا إلى كفرهم، فإذا لقوا أعداء الله من قـــومهم أنكـــروا عليهم كما تقدم، وزادوا في الإنكار بقولهم : ﴿ **لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِنـــدَ رَبِّكُـــمْ** ﴾ أي ليقيموا عليكم الحجة عند ربكم، لأن الله بين لكم صفات محمد في التـــوراة وحكـــم عليكم أن تؤمنوا به إذا ظهر وهذا سر خفي إذا أظهره اليهود وهم مصـــرون علـــى الكفر، آمن العرب برسول الله وحارب اليهود، فيكون هذا العمل شرًا علـــيهم، أولا بتكذيبهم كتاب الله بين أيديهم، وثانيًا لتـــأييد رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بغير أهـــل الكتاب إذا سمعوا اليهود يبينون الحق لهم، كما بينوه قبل بعثة النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ حيث كانوا يستظهرون به على العرب، فيقولون أظلتنا بعثة نبى سننصره عليكم ونقـــاتلكم معه، فلما بعث الله رسوله أصروا على الكفر، وحرفوا ما في التوراة، فبعضهم قال إنه من ولد يعقوب، وبعضهم قال إنه بعث للعرب خاصة وكذبوا . وقـــد بينـــت لـــك تاريخهم مع رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم من أيام الخليل إلى حوادث فلسطين في زماننا هذا، فأجابهم المعاندون بقولهم الذي أخبر الله به عنهم ﴿ **أَفَلاَ تَعْقِلُـــونَ** ﴾ هذا من قول أهل العناد للمنافقين منهم . والمعنى أنتم لا تتعقلون ما يحدث بهذا الخـــبر من المسلمين من الشرور والبلايا التي تحيق باليهود، فحكم الله عليهم بالجهالة وشـــنع عليهم .

قوله تعالى : أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

ينكر الله عليهم حالهم الدال على عنادهم بعد علمهم بأن الله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون ومع علمهم بهذا يخفون الحق عن الخلق ويظهرون الباطل بفقد مراقبتهم ربهم سبحانه وتعالى، حتى أنزلوا أنفسهم مترلة الجاهلين بأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وكل عالم لا يعمل بعلمه فهو أجهل من الجاهل . وإنما العلم للعمل وإلا ارتحل، وكل عالم يخالف علمه عمله فهو شر من الجاهلين .

وهنا يجب علينا اعتقاد أن الله تعالى ما قص علينا قصص الأمم السابقين قبلنا إلا لنعتقد أن سنته الماضية في عباده باقية أبد الآبدين . وكل من وقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل حكم عليه بما حكم عليهم . وشر الكبائر البدع المضلة واتباع الأهواء المفسدة للعقائد والأعمال، والعارفون بالله يرون أن أصغر البدع في الدين شر من أكبر الكبائر من أعمال الجوارح، لأن البدع المضلة توبق كثيرًا من الناس . وأما ما سواها من الكبائر فهو أمر خاص بالفاعل لم يضر غيره في دينه – أسأل الله السلامة والعافية من البدع المضلة ومن أن أسلك سبيلا غير سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين رضوان الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

بين الله تعالى لنا أن أحبار اليهود كان لهم السلطان الأكبر على عامتهم، لأنهم خصصوا أنفسهم بالعمل بأسرار التوراة ليكون لهم السيادة على العامة، لأنهم لا يعلمون أسرار التوراة إلا ظاهرًا . ولذلك كان التشنيع من الله واقعًا على علماء اليهود الذين أضلوا عامتهم ومالوا بهم مع أهوائهم المضلة، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ** ﴾ لا يقرأون ولا يكتبون، نسبة إلى أمة العرب التي لا تكتب ولا تقرأ وبيَّن ذلك بقوله : ﴿ **لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ** ﴾ أي لا يحيطون علمًا بأسرار التوراة إلا أماني،

وهنا الاستثناء منقطع، ومعناه لا يعلمون أسرار التوراة، ولكن علمهم ﴿ **أَمَانِيَّ**﴾ أي ظنون وأباطيل مما حرفه الأحبار، وكفاهم بذلك جهلا بحقيقة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ الذي بين الله تعالى صفاته في التوراة، لأن الله بين صفاته بالإشارة لا بالتصريح لحكمة يعلمها الله جل جلاله : منها حفظ مقامات الأنبياء في زمانهم . ومنها أنه حفظه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من أن يدعي رجل كاذب أنه هو المنعوت في التوراة كما يدعي المهدية أهـــل الباطل، لأن الحديث الشريف بين صفات المهدي، ومنها أن يعلم الرسل عليهم الصلاة والسلام قومهم أن الله يبعث آخر الزمان خير نبي ليتجملوا بالتواضع له أمـــام أممهـــم ،لينالهم شرف الإيمان به ﴿ ﷺ **وآله**﴾ .

تلك الحكمة جعلت أحبار اليهود يتمكنون من إخفاء تلك النعـــوت عـــن العامـــة، وبعضهم تأولها، وقال إن نبيّ آخر الزمان من ولد يعقوب لا من أولاد إسماعيل، فكان ذكر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ في التوراة والإنجيل، والاستثناء مفرغ، لأن المستثنى منه محذوف مذكور صفته . والمعنى : إن هم إلا قوم يظنون . وهؤلاء الأميون من اليهود طهر الله المسلمين من أمثالهم، لأن الله قد فضل الإسلام على سائر الأديان السابقة بما أنزله على محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من البيان الجلي بقوله تعالى:﴿ **تِبْيَانًا لِكُلِّ شيء**﴾ حتى صار كل مسلم عالمًا بما يجب عليه من دينه فلا يحتاج إلى عالم آخر . وليس في الإسلام من يدعي الاختصاص بأسرار القرآن والحديث، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّـــهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** ﴾، وكل من ادعى أن في الإسلام أسرارًا خفية وأن له همة وحالا ينفع بهما المسلمين أو يضر بهما فهو كاذب مضل، لأن نور القرآن وبيان رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أغنيا كل مسلم – وإنا لنرى في الأديان الأخرى رجالا يحلـــون ويحرمـــون، كالبطارقة والأساقفة والأحبار والرهبان، حتى أنتج هذا العمل أن يباح للرجل منـــهم كل شيء ظنًا من العامة أن الرب حل فيهم،وتتره ربنا وتعالى عما يقولون علوًا كبيرا وهذا مقام الإسلام فإذا عمل المسلم بما علم وتمكن من علم التشبيه والتتريه ، دلـــه الله

على عالم رباني يبين له مقامات الإيمان والإحسان والإيقان بيانًا لا يخرجه عن الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، وإنما المرشد كالسراج الذي يبين للسالكين آثار السلف الصالح بقوله وعمله وحاله، من غير أن يبتدع بدعة في الدين، قال الله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾، وقال تعالى : ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾. فالمسلم ليس فوقه من يقتدى به إلا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وليس فوقه من يعبد ويعظم ويقدس إلا الله تعالى . وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وإنما يتلقى العلم عن العالِم العامل بالكتاب والسنة، لأن كتاب الله تعالى صرح بكل حقيقة من الحقائق، فلم يكن هناك من داع إلى أن يختص علماء المسلمين بخصوصية عن عامتهم، فإن الإسلام جلى إلا ما تفضل الله به من مقامات الإسلام والإحسان والإيقان لأهل المراقبة به ليبينوه لنظرائهم، ويودعوه في قلوب أشباههم . أما ما يتعلق بالإسلام والإيمان فشريعة عامة يسلك فيها من كان بالأمس كافرًا، وآمن اليوم . قال الله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ .

قوله تعالى : **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴿٧٩﴾

هنا يبين الله تعالى الحكم على أحبار اليهود الذين أولوا التوراة وحرفوها، وجعلوا ما حرفوا وأولوا بأهوائهم من عند الله تعالى . والويل بلغة الشريعة واد في جهنم أعاذنا الله منه، وويل في اللغة العربية كويح . وويل كلمة دعاء بالهلاك وبالحزن . وقوله تعالى : ﴿ **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾ حجة قاهرة على أن الأحبار تعمدوا إضلال الناس فإن معنى ﴿ **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾ أي يتعمدون أن ينشروا آراءهم المفسدة ومذاهبهم الباطلة بين الأميين مصبوغة بصبغة النسبة إليهم فصدقهم الأميون، وهنا

يقهرهم الله تعالى بإقامة الحجة عليهم أنهم مع علمهم ببطلانهم في عملـــهم يخـــبرون الأميين أنه من عند الله تأييدًا لنشر الباطل بين الناس، ثم بين علة ذلك بأكبر منه، وهي ، أنهم يعملون ذلك، لينالوا ما يزول، ولا يبقى من حطام الدنيا الفانية ، سماه سبحانه قليلا لزواله ،وإن ملكوا الأرض، فإنه قليل بالنسبة لما يناله العبد المؤمن من الفرح يوم القيامة، وقليل أيضًا لما يعقبه من العذاب الأليم يوم القيامة . وتلك الآية أحرقت قلوب أهل المعرفة بالله : وقد جرت بشدة وعيدها من يكتبون المصاحف، ويأخذون أجـــرًا على تعليم الأحكام الشرعية، أو الفتوى بغير ضرورة، ويأخذون أجرًا على بيان سبل الله تعالى . وقد جرت الآية أيضًا من تلقي الحكمة لينشرها بين الناس، و لم يعمل بهـــا كبعض الذين يتعلمون الشريعة، ويعلمون الناس العلم، ولا يعملون به، أو كالمتصـــوفة الذين يتكلمون بكلام يخدعون به العامة ليصرفوهم عن الحق . والصوفية مبرأون مـــن هذا، ولذلك أخذ الله العهود والمواثيق على علماء الشريعة، أنهـــم إذا كتمـــوا علمًـــا يلجمهم الله تعالى بلجام ممن نار يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَـــا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّـــهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ** ﴾ الآية : وأخذ العهود والمواثيق على الراسخين في العلم، أنهم لا يبينون هذا العلم المصون، إلا لنظرائهم من أهل المعرفة، وأشباههم مـــن أهل الأدب مع الشريعة المطهرة . قال ﴿ ﷺ **وآلـــه**﴾ : (أَتُحِبُّـــونَ أَنْ يُكَـــذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ) ومعنى هذا أن الرجل الراسخ في العلم، إذا أباح بسر مكنون، لا تتحملـــه عقول العامة كذبوه، فيكون فتح باب الفتنة على عباده، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ والمعنى : علموا الناس بقدر عقولهم، حتى تزكو نفوسهم، وتتثقف عقولهم، ثم أبيحوا لهـــم بغـــوامض المسائل المتعلقة بالتوحيد، وبحكمة أحكام الشريعة، وبسر إيجاد الله خلقه وإمداده، كما فعل رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ في بداية الإسلام ... وما فرق الأمة أيـــدي ســـبأ، إلا

الاختلاف في التفاضل بين الشيوخ، كما فعل الأمم السابقة : مات موسى عليه السلام، فلما أرسل الله عيسى عليه السلام أنكروا عليه، وقالوا : لا نترك نبينا، وكذلك فعلوا مع كل أنبياء الله، سنة الله التي قد خلت من قبل . وكذلك نجد في المسلمين أن الرجل العالم العامل، إذا مات تمسكوا به، وأبوا أن يتلقوا العلم من الحي الذي أقامه الله في عصره، فيحرمون مزيد العلم، وتقع الفتن بين القوم مع أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، سنوا لنا السنة الحقة، فأبوا أن يرفع جسم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من بين ظهرانيهم، إلا أن يقيموا خليفة عنه لهم، فبايعوا أبا بكر رضي الله عنه . وليس لتلك التفرقة أصل في دين الله، وإنما أنتجها الطمع، حفظ الله إخوتنا المسلمين من تلك الفتنة وجمعنا جميعًا على الحق ... ومعنى ﴿ **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾ ينحصر في ثلاث معان : شرها التبديل فالتحريف فالتأويل . وبذلك كان لهم الويل يوم القيامة .... وقوله تعالى : ﴿ **وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ والذي يكسبونه ينحصر في ثلاثة أمور : المال ونفوذ الكلمة والسعادات البشرية، ولم تكن تلك الكبائر خاصة باليهود، من حيث أنهم يهود، بل هذه أمراض إنسانية تصيب الإنسان من حيث هو إنسان، وأنت تعلم أن الذي أول كلام الله هو أول رجيم، وهو إبليس أعاذنا الله منه، ومن كل شياطين الإنس والجن، وأول من بدل حكم الله تعالى قابيل بن آدم، الذي قتل أخاه هابيل وأول من حرف كلام الله تعالى بلعام بن باعوراء اليهودي مع كليم الله موسى عليه السلام، وهذه الأمراض النفسانية ناتجة عن فطر ثلاث في النفس، وهي ، : الحسد والحرص والطمع، فإن الحسد فطرة إبليس، والحرص فطرة قابيل، والطمع فطرة الإنسان الأول (آدم) . وهنا يصح لي أن أقول ويل لمن قرأ تلك الآيات الصريحة في اليهود ومسح بها سَبَلَتَهُ، ولم يجاهد نفسه لشفائها من تلك العلل الإنسانية، حتى يجمله الله تعالى بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ .

قوله تعالى : وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

الواو في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ ﴾ : ضمير الجمع يعود على من شنع الله عليهم في الآيات السابقة، والجملة معطوفة على الجمل قبلها، وتلك الآية تبين الظلم الثالث لأنفسهم المبين من أول قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ وخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ حجة على جهلهم بأنفسهم، لأن الشريعة دلت على أن مرتكب الكبيرة يخلد في النار ما لم يتب، فيقبل الله توبته، أو يعفو عنه، والعقل السليم يحكم على الخاطئين بالعذاب الدائم، إلا إذا عفا الله عنهم .. وقولهم ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ بلفظ لن التي تفيد النفي مؤبدًا حكم باطل لا دليل عليه نقلا ولا عقلا، وهذا الحكم منهم أخذوه بالقياس، لأنهم عبدوا العجل أربعين يومًا، فحكموا أن الله يعذبهم أربعين يومًا في النار، ومنهم من حكم أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، ثم حكم على الله أنه يعذبهم عن كل ألف سنة يومًا، وهذا الضلال جر بذيله من أحبار اليهود إلى رهبان النصارى، وإن كان بهتان اليهود دون باطل النصارى، فاليهود يرون خطيئتهم بعبادة العجل، تجعل الله تعالى لا يطيق حرارة غضبه عليهم، إلا بأن يحبسهم في النار أربعين يومًا، وهذا التأويل مع بعده عن الحقيقة واستحالته من حيث الحكم على الله تعالى، فإن العقل يحكم على قائليه بالجهالة العظمى بأنفسهم وبربهم، ولكن المسألة الشبيهة بها التي تكاد تكون مأخوذة منها لتشابه النفوس، فإنها قول النصارى إن الله عجز عن أن يغفر لآدم خطيئته لضعفه عن العفو عنها، فأراد أن يفدي العالم بقتل ولده البار الذي ولدته مريم، وإنا وإن كنا نرفع العقل الإسلامي السليم من الهوى والعلة عن أن يسلم بقول اليهود، فإنا نرى أنه من المستحيل على العقل السليم أن يسلم بأن الله عجز عن قبول توبة آدم، وظلم الخلق بأن جعل خطيئة آدم تحيط بكل بنيه، ثم ندم واحتال على خلاص العالم من الخطيئة، فولد ولدا ولدته له فتاة إسرائيلية، وقدر عليه الخزي والذل والصغار و الصلب، وقدر على امه فقده والهمّ الطويل عليه،

كما يقولون في كتبهم . أعوذ بالله ممن أعماهم الطمع والهوى، فكتبوا بأيــديهم مــا أملاه عليهم الطمع والجشع، ثم قالوا هذا من عند الله ﴿ **لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْــلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ .

بينت لك أن اليهود حكموا على أنفسهم بأن النار تمسهم أي تتصل بأجسامهم أيامًــا معدودة . ولا يقال أيامًا إلا لما فوق العشرة لغة، وهنا نرجع باطل من قالوا إن العذاب أربعين يومًا بعدد عبادة العجل ولو لم يكن في هذا من الضلال إلا حكمهم علــى الله تعالى بما لم يأت به أثر من علم ولا حجة من عقل لكفاهم شرًا . ثم خاطب الله حبيبه محمدًا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن ينكر عليهم قولهم هذا بالحجة بقوله سبحانه : ﴿ **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا** ﴾ الهمزة هنا للإنكار ﴿ **أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِــفَ اللّــهُ عَهْدَهُ**﴾ على أنهم قوم بهت يكذبون على الله مع قيام الحجة الشرعية ووضوح المحجــة العقلية، ومعنى العهد بالنسبة لله مطلق وعد منه، فإن الوعد منه سبحانه فوق العهد منا المؤيد بالمواثيق والإيمان والنذور، والله سبحانه يكذبهم لأنه لم يعدهم أنه يدخلهم النار، ثم يخرجهم منها بعد كفرهم وكذبهم عليه سبحانه وعلى رسله عليهم الصلاة والسلام، وخلودهم في النار هو العدل الذي يليق بعظمة الرب العلي المتعال، وإن كان العقــل يسلم أن الله تعالى قد يخلف وعيده، لأن ذلك من الكرم الذي يليق به ولا يخلف وعده جل جلاله . قوله تعالى : ﴿ **أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ أم هنــا تكــون للمعادلة، والمعنى أن الله تعالى يقول لليهود قولهم إن النار لن تمسهم إلا أيام معــدودة، إما أن يكون صدقًا بوعد وعدكموه الله، فإن كان كذلك فلن يخلف الله وعــده، أم يكون بغير وعد من الله تعالى فتكونون قلتم على الله ما لا تعلمون، فتكون الآية معادلة بعد (أم) والحقيقة أن (أم) وما بعدها حكم عليهم من الله تعالى بأنهم أهل فرية وبهتان يكذبون على الله تعالى بما ليس لهم به سلطان .

قوله تعالى : بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾

﴿ بَلَى ﴾ زجر لهم ورد عليهم قيلهم الذي قالوه، والحكم عليهم بالحق . وجعل السيئة كسبًا مع أنها في الحقيقة خسران، لأن الإنسان لا يسارع إلا للخير بالنسبة لمسارعته إليها ورغبته فيها معتقدًا أنها نفع له، لأن الإنسان لا يخالف أمر الله تعالى فيتعدى حدوده إلا ليقينه أن هذا يفيد، ولولا ذلك ما تعدى حدود الله تعالى، وقد تكون كلمة ﴿ كَسَبَ ﴾ توبيخًا للمسيء، والسيئة الوقوع في وسائل الكبائر . فإن زاول وسائل الكبائر حتى وقع فيها أحاطت به خطيئته . وقد بينت كبائر الجوارح وهي ، محصورة في سبع عشرة خطيئة . قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وعيدًا حقًا من الله تعالى، وإن كانت الآية خاصة ببني إسرائيل لأنهم سببها، إلا أن خصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم فإن السبب خاص والحكم عام، أعاذنا الله تعالى من الوقوع في الكبائر الموبقة، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتوب علينا حتى نتوب إليه توبة نصوحًا ترضيه، فإنه هو التواب علينا أولا ونحن التائبون بتوفيقه ثانيًا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

الإيمان ينحصر في ثلاث معان عقد القلب على العقيدة التي قررها القرآن تسليمًا لما بينه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا عقد القلب على عقيدة الحظ والهوى التي يدعو إليها جمع فيما يزول ولا يبقى من سلب عقول البسطاء بما لا يقبله عقل ولا يرد به شرع . ونطق باللسان إلا باللفظ الصريح الوارد في القرآن ما لم يعجز الناطق عن ضبط الحروف للكنة أو عجمة يعجز معها عن خروج الحروف من مخارجها كإبدال الشين

بالسين أو الهاء والحاء بالخاء فإن الضرورة تبيح المحظورة،وعمل بالجوارح حتى يكــون المسلم مؤمنًا والمؤمن مسلمًا لأنه لا إسلام بغير إيمان ولا إيمان بغير إسلام .﴿ **وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ . أن يكون العمل بالقلب والجوارح مطابقًا كل المطابقة لعمل رســول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ في العزيمة والرخصة فيكون قلــب العامــل في رعايــة وخشــوع وإخلاص، والجوارح في نشاط للعمل في آناته ومقتضياته وبهــذا تكــون الأعمــال صالحات ويكون المتجمل بهذه المعاني وليًا من أولياء الله تعالى، مســتحقًا بفضــل الله تعالى أن يكون من أصحاب الجنة كما قال سبحانه تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ . ومعنى الآية أن الله تعالى سوى بين المسلمين في كتابه، فلم يجعل لنسب ولا لغنى ولا لقوة في الجسم ولا لعلم غزير ميزة يتميز بها الشخص، لأنه لم يقل والشريف نسبًا والقوي والغني والعالم ولا فلان وفلان ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ أي كل إنسان آمن وعمل الصالحات صار من أصحاب الجنة وبهذه الآية وجب علــى كــل مؤمن أن يسارع بهمة عالية إلى أن يتجمل بتلك المعاني بعد تحصيل وسائلها من العلم والطهارة وتزكية النفس ثم يصدق الله تعالى فيما وعد مطمئن القلب طمأنينة لا تجعله يأمن مكر الله تعالى . وهذا هو الحق لأن الناس أبناء آدم وحواء خلقهم الله ليعبــدوه، وبين لهم المناهج جلية معقولة، وهو تتره عن العلة والغرض والوالــد والولــد وعــن الصاحبة والمعين . ﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ أي إن الذين جملهم الله بهذا الجمــال يملكون الجنة ملكًا بالإحسان فيعمروها لا بمعنى أنهم يرثوها ميراثًا حقًا، لأنهم خــالفوا حظهم وهواهم وأطاعوا أمر ربهم بتوفيقه : ﴿ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ بشر سبحانه من وفقهم لما يحبه أنه جل جلاله يقيمهم فيما يحبون ممن النعيم المقيم والمســرات إقامــة أبدية، لأنه سبحانه وتعالى أخبر أنهم أصحاب الجنة، أي أهلها الذين لا يفارقوها وهذه الآية والتي قبلها حجة على كذب اليهود في دعواهم أن النار لــن تمســهم إلا أيامًــا معدودة، فرد عليهم بأن الله يخلد أهل الخطايا في النار، ويخلد أهل الطاعات في الجنة،

وهو العلى، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، والمعنى بقوله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ آمَنُـــواْ** ﴾ هو رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ والتابعون له بإحسان إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـــانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾**

يذكرنا ربنا جل جلاله بنعمة عظمى على بني إسرائيل، تضاف إلى النعم السابقة، وهو تفضله عليهم بأن واثقهم ميثاقا منه هو فوق القسم، وهذا خبر من الله تعالى أنه أحسن إليهم بأن واثقهم على القيام بما يأمرهم به، وترك ما ينهاهم عنه . وفى مسارعتهم إلى نيل محابه ومراضيه الفوز بالسعادتين، فيكون ميثاقه إياهم خيرًا فوق كل خـــير . ﴿**لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ**﴾ رفع الفعل هنا، لأنه سبحانه ساقه مساق الخبر، وكـــان يجـــوز أن يكون منصوبًا بأن لو ظهرت، ويكون السياق أن لا تعبدوا إلا الله، فلما حـــذفت أن رفع الفعل، لأنه ليس من المواضع التي تنصب فيه أن وهي ، محذوفة . وكون الفعل بياء الغائبين أو تاء المخاطبين جائز لغة، ويكون المعنى أنه تعالى يخبر بأنه واثقهم على أن لا يعبدوا إلا الله أو أنه يخبر بأنه واثقهم، وساق الجملة سياق مخاطبتهم هـــم فقـــال ﴿**لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ**﴾، وبأى قراءة قرأت أصبت رواية ولغة . والعبادة لغة هـــي الـــذل والتسليم بأكمل معانيه، يقال طريق مُعَبَّدْ يعني مذلل . والعبادة شرعًا الاستجابة لله فما أمر ونهى . ولما كانت العبادة تكليفًا من الله تعالى بأنواع كثيرة اقتضاها ما قـــوم بـــه الهيكل الإنساني، وما أودعه فيه من قوى النفس والجسم والحس، وما أحاط به مـــن ضرورياته وكمالياته في السموات والأرض، فيما بينهما لزم أن تكون العبـــادة بعـــد معرفة المعبود جل جلاله، والعلم بآلائه تعالى التي أسبغها على المسلم، فإن كـــل مـــا أحاط به العرش خلق للإنسان، وجهل حقيقة من تلك الحقائق جهل بالله تعالى، لأنـــا ما عرفنا الله تعالى، إلا بقدر ما علمناه من بدائع إبداع صنعه،وعجائب آثار قدرتـــه،

وغرائب آيات حكمته، فإن ذاته العلية وأسماءه المقدسة وصفاته المنزهة وأفعاله جلت فوق قوة الروح والعقل والجسم، فما بقى وسيلة لمعرفته إلا بكشف غيوب آثاره، ويبقى لأحكام العبادة شيء آخر عجز العقل عن أن يدركه لنفسه، وهو بيان أنواع العبادات على لسان رسول بينها بعمله وبقوله وبحاله وبإقراراته،وقد قال بعض العارفين إن الله تعالى إذا اجتبى عبدًا من عباده المسلمين علمه سبعين ألف علم يأخذها من القرآن المجيد، وإنما ميزان الرجال بقدر علومهم بما غاب عن العقول، وقد بينت بعضها في كتاب (الإسلام نسب) قال تعالى : ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**﴾ ولا بد لكل سالك في طريق الله أن ينفذ من أقطار السموات والأرض ليطلع على ما اطلع عليه رسل الله عليهم الصلاة والسلام الذين أوجب الله علينا أن نقتدي بهم، وأن نتشبه بهم . إذا تقرر هذا فالمسلم لا يفوز بوصف العبودية لله إلا إذا حصل كل تلك العلوم بعد العمل بالتسليم والإيمان بالغيب، كما قال تعالى ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** ﴾ والمسلم في مقام الإسلام لا يحتاج إلى التقليد، وإنما يحتاج إلى العلم بعد القيام بأركان الإسلام بتقليد رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى صلاته وصيامه وزكاته وحجه وجهاده ومعاملته والتسليم له في العقيدة أولا وبعد ذلك يسارع إلى العمل بما علمه من رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فيما تقدم فيفوز بتلك العلوم كلها قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) لأن أكثر تلك العلوم لا ينال بالتلقي ولا بالتلقين، وإنما ينال بالإلهام وبما يجعله الله من النور في القلوب . قال تعالى ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ وفى قوله تعالى : ﴿**لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ**﴾ قصر العبادة علينا لله تعالى قصرًا حقيقِيًّا يجعل أقل شرك يفسد العبادة . وقد بينت هذا الموضوع مفصلا في كتبنا السابقة . قوله تعالى : ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ تكلم المفسرون في هذه الآية كثيرًا، والذي فهمته فيها أن الجملة الأولى، وإن كان فيها نفى وإثبات، إلا أن الاستثناء يؤيد أن الجملة إثبات لا نفى، فإن معنى ﴿ **لاَّ إله إِلاَّ اللّهَ**﴾ الإله هو الله .

ومعنى ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ﴾ العبادة منا خاصة لله، فجاز عطف وبالوالدين إحسانا على الجملة قبلها بالمعنى ويكون معناها : الإحسان واجب للوالدين . وهنا عجب يحتار فيه عقل العاقل، وهو كيف عطف الإحسان بالوالدين على تفريد الله بالعبادة دون غيره، والعقل ربما يحكم بأن الوالدين ما دعاهما الولد لعمل الوسائل التي تؤدي إليه، وإنما دعاهما الفطر الجبلية في الحيوان، فيحكم أهل العقول الناقصة بأن الوالدين ليس لهما حق على الولد فنقول للعقول الحيوانية : قفي عند دائرة اختصاصك من إتقان صنعة أو قوة في تصريف تجارة أو حيلة في جلب ما هو نافع ولو حرامًا أو دفع ما هو ضار ولو كان واجبًا شرعًا، فإن سر هذا من غوامض المعرفة . ذلك لأن الله تعالى تنزه عن أن تدركه العقول الكاملة، وإن رأته الأبصار المستنيرة بالإيمان، ولكنه جل جلاله أراد أن يجعل له مثالا تتصور الأرواح الطاهرة فيه رحمة الله ونعمه وإحسانه وعنايته وغيرها من صفات الجمال لأنا نرى الحيوان الأعجم يرفع رجله بسرعة عن ابنه رحمة وشفقة بينما نراه يهلك نظيره بآلة الدفاع كقرن وحافر وناب فتجلى لنا حقائق الرحمة التي أودعها الرحيم القريب في قلوب الوالدين ونشكر الوالدين، لأن الله أجرى لنا الخير على أيديهما، ونشكر المنعم جل جلاله شكرًا يليق بكمال عبوديتنا له سبحانه . والإحسان إلى الوالدين بحسب العادة أن تطعمهما من مالك وتحفظ مالهما، وأن تؤثرهما على من تميل إليه نفسك وما تميل إليه نفسك مجاهدًا نفسك في ذلك، وأما الإحسان بحسب أهل المقامات العالية فهو أن ترى نفسك ومالك لهما، وأن تجتهد في أن تنال رضاهما رضا حقيقيًا شكرًا لله تعالى، وأن تقوم بما يلزمهما ضروريا ًولو كانا كافرين . وضروريًا وكماليًا إن كانا مسلمين وما فوق ذلك لا يسطر على الأوراق، وإنما يسمعه من أفواه العارفين نظراؤهم وأشباههم . قوله تعالى : ﴿ وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.

القربى هنا ما أدلى إليك بنسب لأم أولا وبالذات ولأب ثانيًا وذلك مأخوذ من صريح الشريعة لأن الله تعالى أوصانا بصلة الرحم وأول الأرحام أقاربنا من جهة أمنا . ولقوله

﴿ ﷺ وآله﴾ لمن سأله من الصحابة : (أي الناس أحق بحسن صحابتي يارسول الله ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال أمك، قال: ثم من قال أمك ؟، قال ثم من ؟ قال أبوك) فذو القربى هنا لفظ عام يقتضي القرابة من الوالدة فالوالد، ابتداء من الجد القريب إلا قرابة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فإن الواجب علينا شرعًا أن نحسن إليهم ولو كان بين الرجل منهم وبين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أربعون جدًا، وخير من نحسن إليهم ذو القربى من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأنه أبو المؤمنين ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أب لكل تقي والتقوى هي النسب الأقوى ، والإحسان إلى ذي القربى أن يعطيهم حقوقهم التي فرضها الله لهم في ميراث وأن يحسن إليهم بصلتهم من ماله، وبإغاثتهم وسد ضرورياتهم ومشاركتهم في أحداث هذا الزمان.قوله تعالى : ﴿ **وَالْيَتَامَى** ﴾ اليتيم من الناس من مات أبوه، بخلاف اليتيم من الحيوانات فإنه من ماتت أمه، والإحسان إليهم أن يقوم مقام والدهم، حتى يكون والدًا لهم خاصة يترلهم مترلة ولده رحمة وعناية ومحافظة على مالهم من الحقوق من غير غرض آخر كطمع في مال أو في أم يتزوجها، أو في نفس اليتيمة يتزوجها أو يزوجها أحد أبنائه لجمالها أو لمالها . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿**والْيَتَامَى**﴾ إطلاق يراد به كل يتيم من الأقارب و الأباعد ﴿ **وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ والمسكين هو من أذلته الحاجة وأخشعته الفاقة وأخره عن اليتيم، لأنه وإن فقد المال والقوة فإنه لم يفقد الفكر في تدبير شئونه بخلاف اليتيم، فإنه فاقد كل شيء . قوله تعالى : ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ .

قرأ بعض القراء حُسْنًا بضم الحاء وسكون السين وبعضهم يفتح الحاء والسين . وقرأها بعضهم حسنى بالألف المقصورةوليست من السبعة والجملة معطوفة على الجمل قبلها . وجواز عطفها عليها مع أنها بصيغة الأمر، لأن الجمل قبلها جائز أن تكون مشربة معنى الأمر والنهي فيجوز أن يقول : ﴿ **لاَّ تَعْبُدُواْ** ﴾ بلا الناهية ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾

وإحسان القول يقتضي إحسان العمل إلا ما كان لتأليف منافق أو كافر أو فاجر،فإنه يحسن له القول ويبغض فعله بقلبه كما قال تعالى أيضًا ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ وقد يكون القول الحسن إظهار قبائح أهل الفجور لهم منفردين ليرتدعوا عن أعمالهم السيئة ويرجعون إلى الله تعالى فيكون قولا حسنًا جدًا، والظاهر أن المراد من الناس المعهودون وهم من يجب عليك لهم حق فيكون الإحسان عليهم منك واجبًا أو يكون المراد الناس عامة وعلى هذا المعنى يكون الإحسان متفاوتًا بحسب الشرع فمنهم من يجب عليك أن تقول له الحسن من القول ومنهم من يندب أن تقول له الحسن ومنهم من تداريه بقول حسن . وتلك الآية حجة على الذين أقاموا أنفسهم مقام الدعوة والإرشاد وإذا هم أساءوا القول بتركهم ما به تزكية أنفسهم أولا فإن خالفوا فهم دعاة على أبواب جهنم، وما فرق المسلمين إلا دعاة الجهالة المغرورون بعلومهم وأعمالهم الذين يحكمون على الناس بالكفر أو بالضلال أو بالردة أو بالبدعة مع أن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ** ﴾ كأن الجاهل الذي يحكم بحكم لم يتزله الله تعالى ظلم نفسه وسلبت منه صفة الدعوة والإرشاد، ووجب عليه أن يتلقى علوم الأخلاق ممن هو أعلم منه . ويكون معنى ﴿**وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾ أي شدة في إقامة حدود الله تعالى، وفى قهر الكافرين إذا حلوا محلة المسلمين لا في بيان الله ولا في الوعظ والنصح، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ . وهذا خبر عن معاملة المسلمين والآخر أمر بطريق معاملة غير المسلمين من الكافرين والمنافقين، والمجاهرين بمعصية الله تعالى بعد نصيحتهم وتذكيرهم بالقول الحسن وفى قوله تعالى:﴿ **لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأساليبه المؤلفة المؤثرة على النفوس تأثيرًا ينوع الأفكار حتى تنجذب القلوب والجوارح إلى محاب الله ومراضيه سبحانه . أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحمق الذي حصل قشورًا من العلم لا ينتفع بها هو فكيف ينفع غيره : ومثل هذا أضر على المسلمين من مرتكبي المعاصي، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ . و " من " في قوله تعالى " ﴿ مِّــنكُمْ ﴾ للتبعيض فكأنه أمر العالم الحكيم الذي وهب له الرحمة في قلبه أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ليكون حجة لمن قبلوا منه وعلى من أنكروا، ومع هذا كله فإن اليهود بعد هذا الميثاق تولوا معرضين ونأوا بجانبهم مخالفين مستثنيًا سبحانه منـــهم من سبقت لهم الحسنى وصاغ نفوسهم من نور جماله وهذا سر القدر المكنون أبـــرزه سبحانه وتعالى كما قال جلت ذاته ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾سبق لنا الكلام على إقامـــة الصـــلاة وإيتاء الزكاة ولا نخلي هذه الآية من مزيد . يقال في اللغة سوق قائمة أي رابحة وإقامة الصلاة رعاية تنبلج في القلب تجعله دائم المراقبة في أوقاها،والمحافظة على وسائلها قبـــل دخولها وتذوق البهجة بالمسارعة إليها واستحضار عظمة المعبود قبل افتتاحها ليـــدخل قانتًا خاشع القلب مخبتًا إلى الله، مشاهدًا نسبة الصلة بينه وبين ربه في الصلاة أنه العبد المأمور بإقامتها إلى الله تعالى،فيقف فيها موجهًا قلبه بإخلاص إلى الله سبحانه وجسمه بخنوع إلى كعبة الصلاة الجسمانية، وعقله يفكر في أركاهما وقراءهما مجردًا عـــن العلـــة والغرض في إقامتها، إطاعة للأمر وشكرًا لله تعالى على توفيقه ورغبته في نيل رضـــوانه الأكبر .وبهذا يكون المصلي قد أقام الصلاة . أما إيتاء الزكاة فاللفظ خاص بزكاة المال والحرث والماشية والركاز، ولكنه يتضمن تأدية زكاة العلم والجاه والعافية والـــنفس، فالعالم يزكي علمه بنشره بين المسلمين، وصاحب الجاه يزكيه بنفع المحتاجين . وكـــل إنسان يزكي نفسه بطهارة أخلاقه.وحسن معاشرته وقهرها على العفـــاف والأمانـــة والصدق وغيرها من الأخلاق الفاضلة، وإن دل على هذا قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُـــمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ لأن الزكاة الفعلية ليست كالتأدية، فإن التأدية إعطاء الفقـــير مـــا أوجبه الله له . وأما فعل الزكاة فخاص بما ذكرنا من الصفات إلا أن التأدية تفيد ذلك ضمنًا، قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾ يخبر الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ عن اليهود الذين واثقهم الله على الإخلاص في عبادته، والإحسان بالوالـــدين

وبذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسنًا، وعلى أن يقيموا الصـــلاة ويؤتوا الزكاة ﴿ وأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴾ الواو هنا للحال والمعنى والله أعلم، والحال أنكم متلبسون بالإعراض عن الحق إلى الباطل لما جبلت عليه نفوسكم من الانقياد بالقهر من فرعون وجنوده، لأن نفوسكم لا تميل إلى الكرامة ولا تبصر النور المشرق في الكائنات من آيات الله تعالى، ولعلم الله فيهم ذلك أقام عليهم الحجة ثم حكم علـــيهم بالتيـــه أربعين سنة حتى مات أهل تلك النفوس وبقى شباب ناهض منهم تذوقوا طعم الكرامة والحرية وأقبلوا وهم القليل الذين استثناهم الله تعالى منهم .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَـــكُم مِّـــن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴿٨٤﴾

سبق البيان في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ﴾ الآية وهذه الآية كسابقتها معنى وإعرابًا . وسفك الدم : صبه وإهراقه . وقولـــه تعـــالى : ﴿ولاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ ﴾ بيان من الله تعالى أن الإنســـان الـــذي يسفك دم غيره كأنه يسفك دم نفسه كما قال تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُـــلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ تغليظًا للجريمة وكقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ . وفى هذا البيان الذي يجذب الأرواح إلى حظائر الرحمة والشفقة مـــا يعجز العقل عن تصويره . فهو من الوجهة الاجتماعية تزكية للنفس وجمال للأخلاق وحفظ للمجتمع . وهذا البيان من الوجهة الدينية وعيد من الله تعالى بأن الذي يسفك دم غيره على الأرض سيذوب جسمه في الحطمة حتى يسفك فيها دمـــه في عـــذاب وآلام، فلا يموت ولا يحيا : وأما من وجهة النظام الاجتماعي فالذي يسفك دم غـــيره يسفك الحاكم دمه جزاء على ما ارتكب . وأما من جهة التعاطف والتوادد والتناصر فإن من سفك دم غيره من قومه نقصت قوته وذل بين قومه، ولذلك فالله تعالى يقول

﴿ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ ﴾ وفى هذا التعبير معان لا تباح إلا لأهل الذوق العالي تظهر لك من قوله ﴿ ﷺ وآله﴾: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا أشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) وفى قوله تعالى : ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ما في قوله تعالى: ﴿ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ ﴾ من المعاني . وهذه الآية يخاطب بها معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذين يدينون بدين موسى، لأن التكاليف التي كلف الله بها موسى وقومه واجبة على خلفهم من بعدهم، إلى أن يبعث الله رسولا ينسخ شريعتهم . وجائز أن يكون هذا الخبر عن الله تعالى بحسب ما كان في أيام سيدنا موسى عليه السلام مما يعلمه معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فيكون كمعجزة له، وقد يكون الخبر خطابًا له مباشرة لتقوم الحجة عليهم أنهم مكلفون به . ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ معناه قبلتم الميثاق قبول من ينفذه وأنتم تشهدون على إقراركم، أو يشهد بعضكم على بعض بذلك . وجائز أن يكون الخطاب لمعاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ويكون المعنى ثم قبلتم ما قبله سلفكم وأنتم تشهدون على ذلك أو قبله سلفكم وأنتم تشهدون على صحته . وكان الواجب عليهم بعد قبولهم وشهادتهم أن ينفذوا هذا الميثاق وغيره من بيان صفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ودعوة الناس إليه .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

يشنع الله على اليهود بصفة عامة من لدن من كانوا مع الكليم عليه السلام، بل وإلى الآن، بعد أن واثقهم على أن لا يسفكوا دماءهم،ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم،وبعد

هذا الميثاق أقروا واعترفوا بتنفيذه، ثم بعد هذا كله خاطبهم جل جلاله بقوله تعــالى : أنتم يا من واثقتم، وأقررتم وأشار إليهم بقوله سبحانه ﴿ **هَؤُلاء** ﴾ للتأكد أو يا هؤلاء بياء النداء محذوفة ملحوظة لجوازه لغة بحصر التشنيع عليهم خاصة . وفى قوله تعالى ﴿ **تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ من المعنى في قوله سبحانه وتعالى ﴿ **لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ** ﴾ فإن الإنسان لا يقتل نفسه، ولكنه بقتله أخاه استحق القتل ،فكأنه قتل نفســه، أو مكــن العدو منه لإضعافه قوته بقتل أخيه، أو لأن قتل الغير بغير حق موجب للخلود في النار، فيكون قتل نفسه شر قتلة . قوله تعالى : ﴿ **وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ** ﴾ . جائز أن يكون الخطاب لمعاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ،لأن بني النضــير كــانوا حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، فإذا حصل بــين الخــزرج و الأوس خصومة أدت إلى حرب، نصر النضير الخزرج وقاتلوا قريظة، ونصرت قريظة الأوس، وقاتلوا النضير نصرة للأوس، حتى يخرجوا بعضهم من ديارهم مخالفة لميثاق الله إياهم . وجائز أن يكون هذا الخبر عنهم جميعًا سلفًا وخلفًا، فهي سلفهم ما كان يحصل مــن الخصومات بسبب الطمع، وفى الخلف ما تقدم، وفى ذلك مخالفة أحكــام الله تعــالى وميثاقه، وفيه الحكم عليهم بأنهم يخالفون الأنبياء جميعًا ويتعدون حــدود الله تعــالى، ويحرفون التوراة في بيان الله تعالى صفة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : ﴿ **تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَان** ﴾ التظاهر : أن يسند الرجل ظهره على الآخر ليتقوى بــه، وهــو التعاون على دفع شر أو جلب خير ﴿ **عَلَيْهِم** ﴾ أي على بعضهم ﴿ **بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَان** ﴾ الإثم هو الظلم الفادح من غير حق والعدوان هو المبالغة في التعدي، وهو مصدر من عدا وتعدى . والمعنى : أنتم يا بني إسرائيل بعد أخذ الميثاق والإقرار به خالفتم فــأثمتم وتعديتم بقتل أنفسكم نصرة للمشركين فرأوا إخراج فريق منكم من ديــارهم بعــد تخريب بيوتهم تأييدًا منكم للمشركين عبدة الأوثان بعد أن أخذ الله الميثــاق وحــرم عليكم قتل أنفسكم وإخراج فريق منكم من ديارهم مظاهرة لأعداء الله تعالى، فخنتم هذا الميثاق وآزرتم عباد الأوثان وأخرجتم أهل دين اليهودية من ديــارهم فــارتكبتم

بذلك غضب الله ومقته، وفى هذه الآية حكم على كل مسلم ودّ غــير المســلمين أو أعانهم ونصرهم وخذل إخوته المسلمين خاصة لوقوعه، فيما وقع فيــه اليهــود مــع المشركين . اللهم إلا إذا كان أهل بلاد واحدة كأهل مصر والهند غلبهم العدو فاحتل بلادهم، فقام المسلمون والهندوس أو المسلمون والأقباط يدًا واحدة على الغاصــب، فذلك ما نطمع أن يغفره الله لنا.أما إذا قام المسلمون والهندوس والمسلمون والأقبــاط يعادون فئة من المسلمين،فينصر الله الهندوسي **على** أخيه المسلم أو ينصر المسلم القبطى على أخيه المسلم، فذلك ما توعد الله به سلب الإيمان والخلود في جهنم. وما من حكم من الله تعالى على أمة قبلنا إلا وهو يجر من وقع في العمل الذي عمله الأمم السابقون، فلعنهم الله وأخزاهم وتوعدهم بالعذاب . يقول الله تعالى ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ الآية، فكيف بمن ينصر العدو المغتصب،وليس بمسلم من ينصر عدو المسلمين، أو ينصر من ينصر المغتصب إذا كان ناصــر المغتصــب مــن أهــل الذمة،كما فعل نصارى الشام وفلسطين كمن نصرهم فرنسا وأنكلترا، وكمــا فعــل نصارى مصر من تفرقة المسلمين أيدى سبا، حتى مكنوا العــدو الغاصــب منــهم . والمسلم الجاهل بأحكام القرآن لا يقبل الله منه يوم القيامة عذر الجهل، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم . وكان اليهود من بني قريظة والنضير وقينقاع يظاهر كل فريق منهم حلفاءه من الأوس أو والخزرج، ثم يرجعون إلى التوراة فيفدون أسراهم في يــد الفريقين . أما نصارى مصر وفلسطين والشام فإنهم ينصرون العدو الغاصب، وينصرهم بعض الجهلاء من المسلمين فيفرح المسلمون بخــذلان إخــوانهم في الــدين وبــذلهم ويظاهرون عدوهم من غير دينهم على إخوانهم في الدين فيكون عملهم هذا شرًا مــن عمل اليهود لها من قبل زمان رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وفى عصره، ولكن قاتــل الله الجهل بأحكام الدين ومنحنا الله العلم الذي به نعادي أعداءه ونوالى أحبابــه : ﴿**وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**﴾ . يبين الله تعالى لليهــود أن

نصرة المشركين بقتل إخوانهم اليهود مخالفة لحكم الله تعالى، لا يقبل الله فيها التوبة، والعمل بما في التوراة من فك الأسرى منهم لا يقبله الله تعالى بعد قتل بعضهم بأيديهم، لأن بني قينقاع والنضير كانوا يفدون أسراهم من الأوس، وكان بنو قريظة يفدون أسراهم من الخزرج عملا بحكم التوراة والحال أن إخراجهم محرم عليهم . وهذا إيمان ببعض الكتاب، وكفر ببعضه، والكافر ببعض الكتاب كافر مطلقًا لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلا، وكذلك نصرة المسلم لغير المسلم على أخيه المسلم كفر ببعض الكتاب يورث سوء الخاتمة، أعاذنا الله من الكفر ببعض الكتاب وأيقظ الله قلوب إخواننا المسلمين إلى الحب في الله والبغض في الله، وقد رأيت بعيني رأسي في السودان، أن نصرة علي المرغني ويوسف الهندي للإنجليز جعل كثيرًا من المسلمين ينصرونهم على إخوانهم المسلمين من المصريين والترك . ورأيت أيضًا في بلاد مصر أن كثيرًا من المسلمين كانوا ينصرون بعض الأقباط على إخوانهم المسلمين . والمسلمون لا يجهلون أن الإنجليز في فلسطين هموا بمحو الإسلام منها بجعلها وطنًا قوميًا لليهود، وكما كانوا يهمون مع فرنسا في إخراج المسلمين من آسيا وأوربا الشرقية، وكما فعل حسين بن علي من إخراج الترك نصرة للإنجليز والفرنساويين، وكان ينصرهم على هذا أهل الطمع ممن يدعون أنهم مسلمون .

كان ذلك العمل طمعًا في زينة الحياة الدنيا، وحبا في الانتقام ممن يكرهون من المسلمين غير مبالين بوعيد الله تعالى في القرآن، والله لا يهدي كيد الخائنين . وقد صدق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ في قوله (مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَّطُه اللهُ عَلَيْهِ) فقد سلط الله الإنجليز على من نصروهم في السودان ومصر وفلسطين والشام، وفى بلاد الترك . فقد صدق الله ورسوله، فأذل المرغنى ويوسف الهندى في السودان وحسين بن على في الحجاز . وأذل الشيخ صبري شيخ الإسلام في تركيا، حتى أصبح في بلاد اليونان لا يجد ما يقتات به بعد أن نصر اليونان على الكماليين في الحروب الأخيرة . والمظاهرون في الأصل هم الذين يشجعون ويعينون دعاة التفرقة . أو يعينون الذين يباشرون الضرر

للمسلمين بأنفسهم والله تعالى حكم على الذين يظاهرون أهل الشر بما حكم به على من يباشر الضرر للمسلمين نصرة لأعداء الله، لأن الذين يظاهروهم مكنوهم من تفرقة المسلمين ومن تسليط العدو عليهم . ولو أن الحاكم المسلم ظالم، فإن أعداء الله ورسوله، إذا تمكنوا من المسلمين وأظهروا أنهم مصلحون . فذلك من السياسة الخرقاء التي بها يخدعونهم، حتى إذا استضعفوهم سلبوا منهم دينهم وعوائدهم ومرافق حياتهم، كما فعلت الروسيا في بخارى وخوقند وسيبريا، وكما فعل الإنجليز في الهند وجاوا وسومطرا والسودان، وفى مستعمراتهم في أواسط وجنوب وشواطيء إفريقيا، وكما فعلوا في عدن ونجد والعراق، وكما فعلت فرنسا في مراكش والجزائر وتونس .

وكما فعلت إيطاليا في طرابلس وأرتريا،وكما فعلت اليونان في تراقيا،وكما يفعل الإنجليز في مصر الآن بعد أن كان المجتمع الإسلامي يمثل رجلا واحداً كل فرد منهم كعضو واحد في الجسد لقوة رابطة الإخاء الإسلامي، فأصبحت الأمة بالتفرقة مستعبدة بسبب مظاهرتها لعدوها دينًا بعد قول الله تعالى : ﴿ **لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ بعد أن كان فوق رأس هذا المجتمع خليفة يمثل رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أصبح المجتمع الإسلامي عزين لكل جماعة ملك يعينه من كانوا عبيدًا يباعون في أسواق المسلمين بل في زمان العثمانيين الأول .

قوله تعالى : ﴿**فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ .

الفاء هنا للفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره، إذا علمتم ما ارتكبتموه من معصية الله فجزاؤكم.ثم أتى بما النافية للاستثناء الدال على قصر الموصف على الصفة . والصفة هي الخزي في الحياة الدنيا وأشد العذاب يوم القيامة، أي أن من يفعل ذلك منكم لا يتعدى الخزي في الحياة الدنيا والعذاب الأليم يوم القيامة إلى غيرهما

من الرحمة والنعيم، وهذا هو الجزاء يعني الأجر أو العوض عن الذي عمله، وقد تقـــدم أن تلك الأحكام المبينة في القرآن خبرًا عن حكم الله على اليهود تجر بذيلها من خالفوا من المسلمين ما لم يكن الحكم منسوخًا بنص صريح والخزي في الحياة الدنيا هو قتـــل القاتل وقطع يد السارق وأخذ الجزية من أهل الكتاب ولا جزية على أهل الشرك بالله، فإن دعوتهم إلى الإسلام محصورة في أمرين، إما الإسلام أو القتل، وأما أهل الكتـــاب فالإسلام أو الجزية أو القتل، وهذا هو الخزى في الدنيا، وأشد العذاب الخلود في جهنم من غير أمل في الخروج كمن يدخلها من عصاة المسلمين الذين يتنفسون نفس أمل في الخروج منها، ولا يكون عذابهم كعذاب من مات كافرًا بالله وبرسوله عليه الصـــلاة والسلام، بل يكون على قدر ما ارتكبوه من الكبائر بالجوارح عامـــة أو خاصـــة إلا عقوق الوالدين فإنه يعم الجسم كله ﴿ **وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ آيـــة تـــذيب قلوب من آمن بالرسل عليهم الصلاة والسلام ،لأنها تهديد لمن حجبتهم عن مطالعـــة الغيب جوارحهم المجترحة من الذين عبدوا الحس ، والحس في الحقيقة هـــو الشـــيطان الرجيم الذي هو أضر على الإنسان من إبليس، فإن الإنسان قد يطوف بالكعبة خاشع القلب مستحضرًا رب البيت جل جلاله فترى عينه ما يشغل قلبه أو تسمع أذنـــه أو يشم بأنفه أو يمس بحسه فيزول خشوعه واستحضاره وينقلب سبعًا كاسرًا أو شيطانًا ماكرًا أو حيوانًا شهوانيًا، ولو تحققوا أن الله ليس بغافل عما يعملون ، ولكن قاتل الله الحس وأعاننا على قهر نفوسنا الأمارة بالسوء حتى تدوم مراقبتنا لله تعـــالى ورعايتنـــا لحكمة أحكامه فقوله : ﴿ **وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ يقتضي تدبره الفرار إلى الله تعالى والتبرئة من حوله وقوته والتجاءه إلى الله تعالى الهادي التواب الغفور الموفق، وما تلك الآيات المنذرات المزعجات التي لو نزلت على جبل لدكته بمؤثرة علـــى قلـــوب أقفلت بقفل الحجاب ولا على آذان صمت بالوقر . قال تعالى : ﴿**إِنَّ الهدى هُـــدَى اللّهِ**﴾ ومعنى غافل أي ساه أو مشغول بعمل آخر تتره وتعالى قال تعـــالى : ﴿ **يَعْلَـــمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَـذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

﴿ أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من ارتكب ما حرمه الله تعالى من القتل والإخراج مع الفدية وهي ، مبتدأ والذين اشتروا الحياة الدنيا بدل من أولئك وتفيد التوكيد واشتراء الحياة الدنيا بالآخرة، وهو الإعراض عن الآخرة، والإقبال على ما يلائم الحس والجسم والنفس الأمارة بالسوء من الحسد والحرص والطمع في الشهوات والرياسة والانتقام وجمع المال والبخل به على مستحقه ولا يقع في تلك الخبائث إلا كافر بالآخرة، لأن المؤمن بالآخرة يكره أن يتمتع قليلا ويعذب طويلا ويحرم من نعيم الآخرة المقيم استهانة بأمر الله ونهيه وازدراء بأخباره عن الغيب، وليس في الدنيا لتلك الكبائر عقوبة فكم أعطى الكافرين من خيرات الدنيا استدراجًا، و لم يعجل لهم العقوبة في الدنيا لاحتقار عقوبات الدنيا في جانب هذه المعاصي، فإن أشد عقوبات الدنيا الفقر والمرض والقتل والزلازل، وتمكن الأعداء وهي ، قليلة جدًا لا قيمة لها بالنسبة لعذاب يوم القيامة ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ و عندي أن الفاء لعطف الجملة على التي قبلها، وإن جاز أن تكون الفاء داخلة على جواب أمر مقدر تقديره احترس منهم فإنهم لا يخفف عنهم العذاب . والأولى أن تكون للعطف وقوله : ﴿ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ صادق بأن هذا العذاب لا ينقطع أبدا أو أنه لا تنقص آلامه والمعنى واحد ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي علم الله في سابق علمه أنهم يخلدون في النار، و لم يقدر لهم ناصرًا ولا شفيعًا ولا وسيلة تدفع عنهم ما علمه الله فيهم أزلا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿٨٧﴾

يبين الله تعالى ما تفضل به على بني إسرائيل وما قابلوا به هذا الإحسان من ارتكاب الإساءة ومن الظلم لأنفسهم وشتان بين من يتفضل الله عليهم بأكمل الإحسان ويخبر عنهم بأن لهم أجرًا غير ممنون، وبين من يتفضل عليهم ويمن عليهم بما تفضل به، لأنهم قابلوه بما فطرت عليه نفوسهم الأمارة بالسوء وما جبلت عليه فطر طبعهم وبيان ذلك خير للمسلمين، لأن الله تعالى أراد بكشف تلك الحقائق تزكية نفوس المسلمين وتأديبهم لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ .

يقول سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** ﴾ وخص موسى دون غيره من الرسل السابقين لأن الخبر من أوله مسوق في بيان خبث نفوس اليهود من بني إسرائيل . وموسى عليه الصلاة والسلام أول نبي أكرمه الله بكتاب جامع لأخبار الرسل والملوك وللتسع كلمات، والذي كان قبل موسى صحف وكلمات . قوله : ﴿ **وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ** ﴾

قبل أن نتكلم على هذه الآية نكشف سرًا من حكمة توالي الرسل، وقد يكون في زمن واحد عدة رسل وأنبياء، علم حكمة ذلك من علم وجهلها من جهل، فإن الله تعالى كان قادرًا أن يقيم رسولا واحدًا للعالم من لدن آدم إلى ما بعد يومنا هذا، ولكنه سبحانه وتعالى وضع الأواسط والأسباب وخلق الإنسان لعمارة الأرض وإبراز ما علّمه الله في الكون من بدائع وإبداع صنعه وغرائب إحكام فعله، وعجائب أسرار قدرته، وخلق الإنسان مؤهلا لأن يكون خليفته في الأرض يتصرف في جماداتها ومعادنها ونباتاتها وحيواناتها بقدر ما يحصل فيها من علوم الرياضات النفسانية والدربة الجسمانية وحتى تملأ الأرض نورًا وعدلا وحكمة وقسطًا بما يحصله الإنسان من علوم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما يتلقاه من كلام الله تعالى الذي أنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام، ولا يتم هذا النظام الكوني بنعمة الأرواح ونعمة الأشباح إلا على التقدير الذي أراده الله تعالى في الإنسان قال سبحانه : ﴿ **وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن**

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ فنفى عن الإنسان العلم بذاته وأثبت له الاحتيـاج إلى التعليم من غيره، بل ونفى سبحانه عن كل كائن من عوالم الإنس والجن والملائكة العلم بغير معلم . وفي قوله تعالى : ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَـالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا** ﴾برهان على أن العالم بذاته هو الله تعالى. ولما كان العلم بـالله وبأيام الله وبأحكام الله وبحكمة أحكامه لا سبيل إليه إلا بالعقل السليم مـن الهـوى والحظ، وبالجسم الصحيح من الآفات المرضية وبالحس المحفوظ من سلطان الشـهوة، ومن الحسد والطمع والحرص قدّر سبحانه أن يترل أحكامه والآداب التي تليق بعظمته وجلاله والعبادات التي تجب على كل عبد بقدر ما تبلغه قوة العبيد والأخـلاق الـتي يتمتع بها النوع الإنساني مستريح القلب والجسم من مرض مؤلم، ومن عدو قاهر، ومن احتياج إلى القوت والمأوى واللباس حتى يتفرغ قلبه من تلك الشواغل الفادحة وتسكن نفسه إلى منفسها سبحانه فلا تتحرك إلا فيما يجب أن تتحرك إليه رحمهم جل جلاله، فجعل الرسل بمقاديرهم زمانًا ومكانًا وعلمًا وصناعة، وكلهم عليهم السلام يبتـدئون دعوهم بتوحيد الله وبما يناسب المكان والزمان من المساواة بينهم أو من التطفيـف في الكيل أو الوزن من الرحمة والبر والصلة . ولذلك فكانت معجزة نوح بعـد تبليغـه ودعوة قومه النجاة في السفينة . وكانت معجزة الخليل عليه السلام النجاة من النـار وكانت معجزة موسى عليه السلام أن أعجزهم في علمهم الذي هو السحر و كانت معجزة عيسى عليه السلام أن أعجزهم فيما تفوقوا فيه وهو الطب، وكان كل رسول يختص بأمة من الأمم أو فئة من الناس كما اختص شيث بإخوتـه وأبنـاء قابيـل في الدعوة، وكما اختص نوح بقومه فكانت دعوته في حياة جده آدم . واختص الخليـل عليه السلام بقومه في بلاد فلسطين، واختص موسى بقومه من يهود إسرائيل في بلاد مصر وغيرها . واختص عيسى عليه السلام بقومه في بلاد فلسطين وكانـت معـاداة الملوك والأمراء للرسل نشرة لدعوهم حتى استعد الإنسان لتحصيل الكمال الروحـاني والجسماني فبعث الله محمدا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ رحمة للعالمين رسولا من الله للنـاس كافـة

بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا أنزل الله تعالى عليه كتابًا جمع له فيه ما به كمال الروح والنفس والعقل والحس والجسم . ولذلك كان خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبي بعده . ومن ادعى النبوة بعده كفر ووجب قتله إن لم يكن ممرورًا، فإن كان ممرورًا وجب على المسلمين معالجته وإنزاله مترلة البهيم الأعجم .

إذا تقرر هذا أظهر لك معنى الآية الشريفة وهي ، قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ** ﴾ الآية : والقفو، الاتباع. وقوله تعالى : ﴿ **مِن بَعْدِهِ** ﴾ دليل على بعد المسافة بين الرسل وبعضهم، إلا أهم جميعًا اتبعوا موسى عليه السلام فكانوا يبينون شريعته إلا عيسى عليه السلام، ومنهم يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وأشعيا وأرميا وعزير وحذقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم للحكمة التي فصلتها لك حتى بلغ الإنسان روحًا وجسمًا مبلغًا يجعله قابلا لحكمة إيجاده وإمداده بانبلاج الآيات في المكونات المحيطة به .

أنزل سبحانه القرآن على خير إنسان تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين . والمؤمن كل إنسان صدق الله ورسوله بقلبه، فإن وفقه الله تعالى للعمل الصالح رفعه إلى مقام الإحسان . فبعثة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ رحمة عامة للعالمين،وفى العالمين بيان أنه رحمة للملائكة، ولكل الأنواع الحية فإنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أمرنا بالرحمة، حتى في ذبح الحيوانات، وأمرنا القرآن بالإحسان، ولو إلى المسيء قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ **وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ** ﴾ إشارة إلى أن من ذكرت لك من الرسل من بعد الكليم عليه السلام كانوا مجددين لشريعته و لم يأت واحد منهم بشريعة ناسخة، ولذلك فإنه سبحانه يقول : ﴿ **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ** ﴾ نسب عيسى إلى مريم، كما نسب آدم إلى الطين، وكما نسب حواء إلى آدم في قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾ وفى قوله : ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾

كذلك أتم دورة العقل، فخلق رجلا من طين وخلق امرأة من رجل وخلق عيسى من مريم، وخلق الكون جميعه من لا شيء، فتمت الدورة الدالة على كمال القدرة المطلقة، التي لا تتقيد بالأوساط والأسباب . ﴿ **الْبَيِّنَاتِ** ﴾ أي الحقائق المعجزة الظاهرة للحس من غير أن يعلم لها سبب كإحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص، وكالأخبار عن الغيب وكخلق الطير من الطين، والنفخ فيه، فيكون طيرًا بإذن الله . وتلك الآيات البينات التي أظهرها عيسى عليه السلام أمام قوم لا يميزون بين الخالق والمخلوق، ولا بين القاهر والمقهور، ولا بين التتريه والتشبيه، لم تسعها عقولهم ووسعها حسهم فقال له بطرس الذي هو أصدق أتباعه، أنت الرب . فمزق عيسى عليه السلام ثيابه ونتف لحيته وقال : لقد قلت كلمة أغضبت الرب سبحانه وتعالى، ولتنكرني بعد، فلما دل عليه يهوذا أعداءه من الرومان والكتبة، وبحثوا عن أصحابه، فقال لهم بطرس، والذي قال له أنت الرب : أنا لا أعرفه . فكانت بيناته الجلية سببًا في كفر أتباعه ومن بعدهم . أما معجزات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وبيناته، فإنها محصورة في القرآن المجيد، الذي بين أن محمدًا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عبد الله ورسوله وأنه رحمة للعالمين،لأنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ جاءنا بالعلم والمعرفة وبالفضائل كلها، حتى نالت القوة الإنسانية منه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قوتها، لكل نوع من الروح والعقل والنفس والخيال والوهم والفكر والحس والجسم ،وبذلك كان خاتم الرسل وسيدهم بما جاء به من الخير العام لعامة الخلق، ولولا ذلك ما وجد على وجه الأرض من يخالف الإسلام من نصارى ويهود وغيرهما . دليل ذلك أن المسلمين كانوا أصحاب الطول والحول والقدرة على إبادة العالم أجمع من زمان عمر بن الخطاب إلى ما بعد العباسيين والتاريخ شاهد عدل، ومع ذلك كان الخليفة يقف أمام القاضي يخاصمه يهودي أو نصراني أو جمّال في حق له فيحكم القاضي على الخليفة لنصراني أو يهودى أو غيرهما غير هياب ولا وجل، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ** ﴾ وبعد أن بين إحسانه إلى اليهود ببعثة موسى عليه السلام، ومن بعده إلى عيسى عليه السلام، أخذ سبحانه يشنع عليهم ويذمهم ببيان ما ارتكبوه من

الخطايا، كما بين أعمالهم في الآيات السابقة، قوله تعالى : ﴿ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾روح القدس هو جبريل على الأصح . وجائز أن يكون هو الإنجيل بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾ وإن اعترض علينا معترض بقـــول الله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَـــى وَالِـــدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَــةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ الآية : فنجيبه بأن قوله تعالى : ﴿ **تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ الآية : تفصيل لمجمل قوله تعـــالى : ﴿ **إِذْ أَيَّـــدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ ويكون روح القدس جبريل كما ذكرنا : أما المعنى الذي يجـــب أن يبين لأهل مقام الإحسان والإيقان فحظر أن يسطر على الأوراق،وإنما يتلقاه الفرد عن الفرد، كما قال عليّ عليه السلام : (حَتَّى يُودِعُوهَا قُلُوبَ نُظَرَائِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ) .

قوله تعالى : ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ .

هذه الآية وإن سيقت في مقام الخبر، فإنها تقرير للحقائق التي يشنع الله بهـــا علـــيهم، وذلك أن اليهود من بني إسرائيل كانوا يبغضون الأنبياء والرسل ، لأنهـــم يكشـــفون للناس ما فيهم مما يبغضه الله تعالى من سلب أموال الناس، ومـــن الكبريـــاء علـــيهم، ودعوى أنهم ينفعون ويضرون ويغفرون الخطايا ويحلون ويحرمون . والرســـل علـــيهم الصلاة والسلام يقيمون عليهم الحجة بتكذيبهم فيما يدعون من أنهم ينفعون ويضرون ويغفرون الذنوب، ويبيعون الجنة لمن يشتريها، وغير ذلك من الحقائق التي هي خاصـــة بالله تعالى، وكل ذلك لجمع المال، وتنفيذ الكلمة، وحب الرياسة، ولذلك يقـــول الله تعالى ﴿ **فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ** ﴾ أي فريقًا من الأنبياء كذبتم بأباطيلكم وخدعتم سواد الأمة بزخرف أقوالكم ممن لم تكن لهم عصبة يتأثرون بإقامتهم الحجة ﴿ **وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ ممن كانت لهم عصبة إذا أقاموا الحجة لله نصروهم، فكادوا لهم قبل أن يتأثر بهم العامة

وقتلوهم، كما قتلوا كثيرا من الأنبياء الذين منهم يحيى وزكريا وغيرهما، وكما أغــروا الرومان على قتل عيسى عليه السلام، فأنجاه الله ورفعه إليه، وذكر الماضي في قوله : ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾، وذكر المضارع في قوله تقتلون دليل على أنهم فيما مضى كانوا يكــذبون حتى خبثت النفوس وصارت كالكلاب المسعورة فحصل القتل حتى هموا أن يقتلــوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن قدموا له ﴿ ﷺ وآله﴾ الذراع المسمومة، وقاموا ليلقــوا عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ حجر طاحون وهو جالس تحت ظل جدار هو وأبو بكر وعمــر فوقع الحجر على اليهود، وأهلك منهم كــثيرًا وأنجــى الله رســوله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ وصاحبيه،وهم وإن لم يقتلوا رسول الله ﴿ ﷺ وآلــه﴾، إلا أن الله تعــالى عاملــهم بنواياهم فآخذهم مؤاخذة من يقتل الرسل .

قوله تعالى : وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴿٨٨﴾

الغلاف هو الغلاف الذي يغشى الجسم، فيمنع ما في داخله عن الاتصال بالخارج ويمنع الخارج عن الاتصال بما في داخله . ولما كانت نفوسهم عنادية ناسب أن نفهم هــذه الكلمة : أن قلوبهم غلف يعني ظروفًا للعلم لا تحتاج إلى علم آخر فهم في غــنى بمــا علموه عن قبول الهداية من الله تعالى ومن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبهذا الفهــم ثبــت عنادهم وكفرهم.وجائز أن تكون المعنى **أن** قلوبهم موانع عن قبول الهداية كما قال الله تعالى عنهم ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾ ويكون المعنى أن الله تعالى خلق نفوسهم من سجين، ولم يمنحهم القابــل الذي يقبلون به الهداية من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وليس للعقل أن يحكم علــى الله تعالى، لأن العقل يحكم على ما دونه من الكائنات، وهو مقهــور بــالحكيم القهــار والخلاق العظيم، لا يسأل عما يفعل . والواجب الأدب مع الله تعالى عند فهم كلامه، لأن الكلام صفة المتكلم، وهو منزه ذاتًا واسمًا وصفة . وإنما طــرأ الاختــلاف بــين مذاهب الأشعرية والمعتزلة والماتوريدية والأباضية والشيعة والمجسمة بسبب الحكم على

الله تعالى بالعقل والله تعالى يقول : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وليس من التسليم أن يحكم الإنسان على كلام الله تعالى حكمًا يخرجه عن مراد الله تعالى وما للعقل ولسر القدر، لأن الله تعالى قدر أقدارًا وأخفاها عن الأرواح العاليات وأمر أمرًا وأظهره للعقول والنفوس والأجسام والحس، فعلينا أن نسلم لله تعالى في أمره وقدره، فنعمل بالأمر ونرضى بالقدر بحسب مراتبه، فإنه تعالى خلق النار وقدر لها سكانًا وعمارًا، وخلق الجنة وقدر لها أصحابًا وعمارًا.فقولهم قلوبنا غلف ظاهرها عناد ومحاربه لله ولرسوله،وباطنها إبراز ما علمه الله فيهم فألزمهم الإقرار على أنفسهم بالبعد والقطيعة عن الله تعالى، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبرنا الله تعالى بأنه لعنهم بكفرهم واللعن هو الطرد والقطيعة والبعد عن الله تعالى ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ لأهل القلوب تأويل في هذه الكلمة أن الله تعالى قدر في أزله أن يشهدهم جماله عليًا جليا يوم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ويعاهدهم على أنفسهم أن لا ينسوا هذا المشهد، ويعتذروا بكفر آبائهم من قبلهم فنسوا وكفروا بهذا المشهد العلي واتبعوا آباءهم، فكان كفرهم في سابق علم الله، لما قدره عليهم من إقامة الحجة الواضحة بالشهود كفاحًا وبجحودهم، وإنكارهم عهد الله . وهذا التأويل إشارة ظاهرة . أما ما فوقها فيعلمه الله تعالى لمن يشاء بدليل قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾، أما ما يتلقاه السالكون المخلصون من أفواه العارفين بالله تعالى، فإنما هو التوحيد فحسب . الذي يجعل من تلقاه من أفواه أهل العلم بالله يفوز بشهود وجه الله حيث ولي وجهه، ويذكر الله تعالى عند شهود كل كائن لأن آيات الله تعالى المنبلجة في الكائنات يكون بها داوم الذكرى والذكر . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ولا يتحقق الذكر الكثير بأن يكون باللسان فقط، بل لابد أن يكون بكل الجوارح . فذكر العين شهود آيات الله في مكوناته . وذكر الأذن سماع تسبيح الكائنات لله تعالى، وذكر الأنف ظهور الحي النافع في كل نفس .

وذكر اللسان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتلاوة القرآن ودراسة العلم وأن يكون رطبًا بذكر الله تعالى، وذكر اليد دفع الأذى ونصرة المظلوم والبسط بالعطية للفقراء والجهاد في سبيل الله وذكر القلب دوام مراقبة الله تعالى واستمرار رعاية أحكامه واستحضار عظمته العلية، وعقده على كمال التوحيد والحب الخالص . وذكر البطن أن تتغذى بقليل من الحلال الخالص . وذكر الفرج التدبر فيما أودعه الله فيه من عمارة الكون وحفظه من معصية الله تعالى . وذكر الرجلين الصبر على الشدائد في الجهاد بسرعة إغاثة الملهوف، وهذا بحسب الظاهر وهو الذكر الكثير أما ذكر الروح والعقل والنفس فإنه يتلقى من ألسنة العارفين لقلوب الصديقين وقد يتفضل الله به على أهل التقوى علمًا لدنيا ، وقد بين الله لنا لعنة يهود بني إسرائيل بكفرهم . قوله تعالى ﴿**فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ هذه الجملة تفيد بحسب المقتضيات اللغوية نفى الإيمان بالمرة عنهم، ومن قال " ما" زائدة أثبت لهم الإيمان بموسى عليه السلام ونفي عنهم الإيمان بمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ومن آمن بموسى عليه السلام و لم يؤمن بمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فإن إيمانه قليل جدًا لا يعتد به عند الله تعالى وهو كفر ويكون ﴿ **قَلِيلًا** ﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره، يؤمنون إيمانا قليلا .

وبذلك تكون " ما" ليست زائدة وتكون بمعناها اللغوي دالة على أشياء عامة يخصصها ما بعدها ويمنع كونها بمعنى من ، لأنها لو كانت بمعنى من أو بمعنى الذي لوجب رفع ﴿ **قَلِيلًا** ﴾ والإيمان في اللغة هو التصديق وقد بين الله تعالى الإيمان بكل حقائقه في قوله تعالى ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ** ﴾ الآية فمن آمن بأي رسول من الرسل و لم يؤمن بخاتم الرسل كان كافرًا شرعًا وعقلا لأن الله تعالى أرسل الرسل تترى، وأوجب على أهل كل زمان رسول أن يؤمنوا به وإلا كانوا كفارًا، لأن لكل رسول حكمة يقتضيها الزمان والمكان . ولما كان رسول الله خاتم النبيين وجب على العالم الإنساني الإيمان به بل، وعلى الجن والملائكة، بدليل ما ورد عن إيمان الجن برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ .

وأما الملائكة فبدليل قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ ومن الإيمان بالله الإيمان بكلامه ومن الإيمان بكلامه سبحانه الإيمان برسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ .

قوله تعالى : **وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ**

فى هذه الآية يبين الله تعالى خبث نفوس يهود قريظة وقينقاع والنضير، وأن نفوسهم خلقها سبحانه وتعالى من سجين البعد عن الله تعالى، وذلك لأنهم كانوا قبل بعثة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يهددون الأوس والخزرج بقرب بعثة نبي يحصدهم بالسيف حصدًا، ويكونون أنصارًا له عليهم، حتى إذا بعث الله حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله من قريش لا من ولد إسحق كفروا وأنكروا، حتى أقام الأنصار عليهم الحجة بتلك الحوادث والأخبار بعد إسلامهم رضي الله عنهم، فقال رجل منهم إنا لم نخبركم بهذا ولا نعلم أن نبيًا من العرب يرسل فشنع الله عليهم وكذبهم بقوله تعالى : ﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾الآية. الكتاب الذي جاءهم به من عند الله القرآن . وقوله : ﴿ **مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ صفة للكتاب والذي معهم هو ((التوراة والإنجيل)) وقوله تعالى ﴿ **مِّنْ عِندِاللّهِ** ﴾ صفة ثانية للكتاب وفيها قصم لظهور اليهود وتشريف لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وجائز أن تنصب ﴿ **مُصَدِّقٌ** ﴾ على أنه حال ويكون قوله ﴿ **مِّنْ عِند اللّهِ** ﴾صفة مخصصة للكتاب جعلته كالمعرفة وجواب ﴿ **لِّمَا** ﴾ هنا محذوف ملحوظ تقديره كذبوابه ﴿ **وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَىالَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ أي أنهم كانوا يستنصرون على المشركين من الأوس والخزرج ويسألون الله النصرةبه،ويهددون الأوس والخزرج كما قدمنا ببعثته. وفى هذا نهاية

الجهولية والظلومية، وكفاهم تعسة أنهم من أهل النفوس العنادية، وتلك النفوس كثيرة فإنك ترى بعض المسلمين إذا اعتقدوا عقيدة في رجل ثم مات الرجل وأقام الله بـــدلا من أبدال الصديقين غيره أنكروا على الحي مع أنهم يعلمون حديث عليّ عليه السلام : (اللَّهُمَّ لا تَخْلِ الأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لَكَ بِحُجَّةٍ) وقول رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ (الْعُلَمَاءُ سُرُجُ الدُّنْيَا وَمَصَابِيحُ الآخِرَةِ) فأعاذنا الله وإخواننا من حصر فضل الله في رجل مات بعد قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء** ﴾ ثم كشف الله الستر عنهم وبين قبائح أعمالهم وأقوالهم بقوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّـــه عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ يشرح الله لنا حالهم بالحجة البالغة أنهم بعد أن كانوا يستنصـــرون ببعثة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ علىالمشركين وجاءهم ﴿ ﷺ **وآله**﴾ الـــذي عرفـــوه موصوفًا عندهم فىالتوراة والإنجيل رضوا بالخزي والكفر والكذب وأنكروا، فحكـــم الله تعالى عليهم بالكفر واللعنة . واللعنة هي الطرد والبعد والقطيعة عن الله تعالى .

قوله تعالى : **بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**

ذم بعد ذم من الله تعالى ليهود بني إسرائيل فإن معنى بئس ساء وليس هنا محل الضوابط النحوية والصرفية وإنما هنا بيان كلام الله تعالى و (ما) هنا نكرة موصوفة كناية عن فاعل (بِئْسَ) فهي بمعنى الشيء، والمراد هنا والله أعلم : ساء وقبح الشيء الذي باعوا به أنفسهم، وهو كفرهم بالله وجحودهم رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ .

وهنا إشارة : وهي ، أنهم باعوا ما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بالباطـــل الـــذي ادعوه، وإنما قال الله (اشتروا به أنفسهم) أي باعوا به أنفسهم، لأنهـــم أهلكوهـــا وأوجبوا عليها الخلود في الحطمة أعاذنا الله . وإن كان البيـــع والشـــراء حصـــلا في كفرانهم بما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وفى حرصهم على باطلهم عنادًا وطغيانًا .

(بَغْياً) يعني تعديًا لحدود الله بالظلم والكبرياء مع علمهم اليقيني أن رسـول آخـر الزمان يكون من ولد إسماعيل بالنص الصريح في التوراة والإنجيل، ولو ضيق المقام لأوردت آيات التوراة والإنجيل الصريحة التي بينتها في كتاب ((وسائل إظهار الحق)) فراجعه إن شئت .

وقد جمع الله تعالى في اليهود معاصي إبليس فمن دونه من أعداء الله تعالى، فإنهم لما بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من العرب حسدوه وحسدوا العرب أيضًا، وكذبوا كتاب الله في أيديهم، وأنكروا ما كانوا يستفتحون به على المشركين، وبدلوا صفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في التوراة، وقالوا إن نبى آخر الزمان من ولد إسحاق لا من ولد إسماعيل، وحظروا على الله تعالى أن يتفضل على غير أولاد إسحاق، حاكمين عليه سبحانه بالعجز بغيًا منهم وعنادًا بعد العلم وهو شر الكفر بدليل قوله تعالى : ﴿ **أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ . والله تعالى ذو الفضل العظيم، وهو سبحانه يؤتي فضله من يشاء . فكانوا في كل تلك القبائح والأباطيل شرًا من كل اليهود الذين كذبوا الرسل وقتلوهم، فكانوا لعنهم الله تعالى شر الأشرار جميعًا . ولتلك الضلالات التي أرداهم الله بها وحفظ العرب منها بعد أن نشروها بينهم أخبرنا الله تعالى عنهم بما هو عدل منه بقوله سبحانه : ﴿ **فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾، ومعنى ذلك أن معاصري رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من اليهود الذين كانوا يستنصرون ببعثته على المشركين ويبشرون المشركين بقرب زمانه، فلما أن أرسله الله بالحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا كفروا به، فباءوا أي رجعوا بكفرهم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بغضب من الله عظيم على غضب مكرر قبل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأن الله تعالى غضب عليهم بكفرهم بعيسى عليه السلام وبعبادتهم العجل، وبما رموا به موسى وغير ذلك، ولكن غضب الله عليهم بكفرهم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أشد وأنكى، وللكافرين منهم وهم من ماتوا على

الكفر من غير أن يؤمنوا برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ((عذاب)) أي آلام شديدة وذل . وذلك العذاب مهين يعني أن ذلك العذاب مهين لهم يذلهم ويخزيهم ويهينـــهم إهانـــة يتمنى الواحد منهم أن يكون ترابًا .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُـؤْمِنُ بِمَـآ أُنــزِلَ عَلَيْنَـا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يبين الله لنا كفر اليهود بما في كتبهم بإقامة الحجة عليهم، أنهم هم وأسلافهم فطـــروا على العناد، ومحاربة رسل الله .

يخبرنا الله تعالى أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أو أصحابه رضي الله عنـــهم، إذا قـــالوا لليهود آمنوا، أي صدقوا بما أنزل الله . والمراد به القرآن المجيد، الذي أنزلـــه ســـبحانه مصدقًا لما معهم، لأنه يدعو إلى توحيد الله، وإلى الإيمان برسله، الـــذين أرســـلهم الله تعالى لهداية الخلق . فصار إرسال الرسل سنة الله التي قد مضت ولن تجـــد لســـنة الله تبديلا . وليس بعجيب أن يرسل محمدًا ﴿ﷺ وآله﴾، الذي بين اسمه ونعتـــه، بـــل ومولده وهجرته، وأنه خاتم الرسل، صلوات الله وسلامه عليه، بيانًا صريحًا في التوراة والإنجيل،فيدعوهم العناد إلى تكذيب التوراة، وإنكار ما فيها من دلائل نبوة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ويغيرون ما ورد في التوراة من ذلك بدليل خبره عنهم بقوله تعالى : ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ﴾، والذي يعنيه معاصرو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من اليهود هو التوراة، وكذبوا بل وكفروا، لأن التوراة وضحت صفات رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بفصيح العبارة، ودعواهم أنهم آمنوا بها فرية، فقـــولهم هـــذا جعلهم كفارًا بموسى عليه السلام، وبالتوراة . وبمحمد ﴿ﷺ وآلـــه﴾، وبـــالقرآن . ﴿وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ﴾ أي ويكفرون بما سواه من الكتب، ولك أن تقول بما بعده

أو بغيره، فأخزاهم الله تعالى وكذبهم بقوله تعالى : ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد ﴿ **فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين** ﴾ والمعنى إذا كانت الفاء رابطة لجواب شرط مقدم تكون ﴿ **إِن** ﴾ في ﴿ **إِن كُنتُم** ﴾ شرطية و ﴿ **كُنتُم** ﴾ فعل الشرط ،و ﴿ **تَقْتُلُونَ** ﴾ جواب مقدم . وإن كانت ﴿ **إِن** ﴾ نافية وعليها يكون الكلام – ما أنتم مؤمنون، وتكون الفاء رابطة لجواب شرط محذوف ملحوظ تقديره إن كنتم مؤمنين فلم تقتلون ؟ ونفى عنهم الإيمان بقوله ما أنتم مؤمنون، التي كنى عنها بقوله تعالى : ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين** ﴾ إذا فسرنا، ﴿ **إِن** ﴾ في هذا الموضع نافية والخطاب لليهود من بني إسرائيل من بعد موت موسى عليه السلام إلى معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بطريق التغليب،وأتى بالمضارع في قوله﴿ **تَقْتُلُونَ** ﴾والمحل للماضي رعاية للتغليب، لأن سلفهم قتل والذين كانوا في عصر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لو استطاعوا أن يقتلوا رسول الله لفعلوا فهم بحسب نواياهم يقتلون الأنبياء،وجائز لغة أن يحل المضارع محل الماضي إذا دلت القرينة على أنه للماضي والشواهد في اللغة على مثل هذا كثيرة . وهنا يظهر لنا أن العبارة لا تكشف الحقيقة مطلقًا، لأن العبارة لو كشفت الحقيقة لما كفر من سمعوا كلام الله من رسله . وإنما كانت العبارة للبيان لمن سبقت لهم الحسنى من الله تعالى وللحجة على من قدر الله تعالى لعنهم وطردهم من رحمته،ونعلم أيضًا أن العلم والعمل والشهود والحال لا يطمئن بها قلب عارف بالله بل يجب أن يكون المؤمن بين الخوف من السابقة واللاحقة، وبين الرجاء من فضل الله ورحمته فلا ييأس العبد من رحمة الله ولا يأمن جانب الله، والعبد عبد وإن رفعه الله إلى العرش والرب رب وإن تنزل بإحسانه وعطفه على العبد حفظنا الله تعالى من الغرور بالعلم والعمل والحال والكشف بل ومن الغرور بالتصريف بكلمة . كن . قال تعالى ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ والبلاء قد يكون بإسباغ النعم كلها ويكون العبد مستدرجا . وقد يكون البلاء بتوالي الخطوب والمصائب، ويكون العبد فيها محبوبًا لله مرفوع الدرجة عنده، وقد ابتلى إبليس بنعم لم تعط لغيره وهو

مستدرج، حتى لعنه وأقامه داعيًا إلى اللعنة والنار . وابتلى آدم بأن نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ونهاه عن الأكل من الشجرة فخـــالف، فـــابتلاه بالطرد من الجنة، وبالكدر والعناء في طلب قوته من الأرض، وسلط عليه قابيل وكثيرًا من أبنائه، فصبر وتاب، فقبل منه سبحانه وأكرمه، فكيف يأمن سالك مكر الله تعالى أو يقنط من رحمته سبحانه. وما تقدم من الآيات في يهود بني إسرائيل عبرة لمعتـــبر . قال تعالى ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْـدِهِ وَأَنـتُمْ ظَالِمُونَ﴾

يبين الله تعالى لنا أحوال اليهود التي ينكرها الشرع والعقل، وتقوم عليهم بها الحجـــة أهم قوم لا يصلحهم إلا قهر فرعون لهم، لأهم لما أنجاهم الله منه كان الواجب عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم، ولكن النفوس التي لا يصلحها إلا القهر يفسدها العـــدل والحرية والمساواة . قال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَـى قُلُـوبِهِمْ وَاتَّبَعُـوا أَهْوَاءهُم، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ**﴾ وصدق الله العظيم، فـإن اليهود أشهدهم الله تعالى من الآيات العلية ما تنجذب به قلوب الذين اهتدوا، ولكنهم أخزاهم الله تعالى فلم يزدادوا إلا بغيًا وكفروا بالله وبرسله . وفى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ الحجة عليهم . ومعنى جاءكم موسى بالبينات يعني بعـث الله رسولا لهم . والبينات التي يذكرها الله تعالى منها :

العصا التي أبطلت عمل السحرة، وفلقت البحر، وأنبعت الماء من الحجر متفجرًا ينابيع . ومنها اليد البيضاء التي بعد ضمها إلى جيبه تخرج بيضاء، كأنما هي نجم ثاقب .

ومنها أخذ الله منهم الميثاق أن يأخذوا ما في التوراة بقوة بعد أن رفع فوق رؤوسـهم الطور وغيرها مما بينه القرآن المجيد في آيات كثيرة تقدم منها شيء في كتابنا هذا، وبينا

فيه ما يناسب هذا العصر، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جمع بينة، وهي ، الآية التي تعجز البشر، فإن فرعون وجنوده عجزوا عن أن يدفعوا عن أنفسهم قهر العصا .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ ذم لليهود، لأن الله بعد أن أرسل موسى عليه السلام وأشهدهم بحسهم وعقلهم آيات بينات أعجزت العقل، وأعجزت فرعون الذي كان يدعى الربوبية فيقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ويدعي الألوهة فيقول : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وغير ذلك مما لا تفي العبارة ببيانه . وكل ذلك لتقوم عليه الحجة بتتريه الله وعلوه عن الجسمية التي تحتاج إلى حيز وحدود وعن الوالد والولد، وعن الاحتياج إلى المكان والمعين، ثم بعد هذا كله يقدم لهم السامري عجلا جسدًا له خوار فيتخذونه إلهًا يعبدونه بحب وتعظيم عجيب .

قوله تعالى : ﴿مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني من بعد مجيء موسى عليه السلام، وبعد هذا البيان الذي يكاد يكون أقوى من لمس الحقائق . وتفسير هذه الآية بتلك العبارة أحب إِلَيَّ . وإن جاز أن نفهم أن قوله تعالى : ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد خروج موسى لوفاء وعد ربه ليتشرف موسى بمناجاة ربه سبحانه، وقد فصلنا فيما سبق من كتابنا هذا مجمل تلك الآية، وبينا حقيقة العجل ومادته التي صنع منها، وكيف كان خواره، ولكنا نزيد طالب العلم بيانًا أن الله تعالى توعد أهل المعاصي بالعذاب الأليم يوم القيامة، وزجرهم بحدود حدها في كتابه العزيز، لتكون زواجر وجوابر . والمعصية التي ارتكبها قوم موسى، هي أنهم سرقوا حلي المصريات بحيلة وفرحوا به، فابتلاهم الله تعالى فجعلوا هذا الحلى عجلا بإضلال السامري، وكان عاقبة هذا الأمر غضب الله عليهم وقتلهم أنفسهم بسبب تلك المعصية، فنسأل الله سبحانه أن يحفظنا من المعاصي، ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُون﴾ أي ظالمون لأنفسهم، لأن الخلق لا يقدرون على ظلم ربهم وظلمهم هذا إنما كان لسلبهم مال غيرهم وفرحهم بمعصية الله تعالى، فأوقعهم الفرح

بالمعصية الذي هو فطرة النفس الأمارة بالسوء فيما هو شر من المعصية وهو الشـــرك بالله تعالى بعبادة العجل بعد قيام الحجة ووضوح المحجة .

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِـــهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

يذكر الله تعالى يهود بني إسرائيل من معاصري رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، بما وقع فيــه سلفهم مما لا يخرج عما ارتكبوه هم مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، ثم إنــه ســبحانه وتعالى يأتي بالآية بعد الآية فيظن الجاهل بهذا السياق أن الله تعالى يعيد الآية برمتــها مكررة من غير حكمة، وهذا هو الجهل المركب، لأن الله تعالى لا يترل آية بعد آيــة فيذكر في المتأخرة شيئًا من الأولى إلا لحكمة يتذوقها العارفون بالله تعــالى ويســلمها السالكون لله تسليمًا، والآيات في هذا الشأن أكثر فيما يقصه الله علينا مـــن قصــص الرسل وأخلاق أتباعهم، أو ظلم أعداء الله تعالى رسل الله، أو إلى تفصيل لمجمــل أو بيان لمبهم تقوم الحجة ناصعة بيضاء، لأن الله تعالى قال في الآية السابقة ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ فلم يبين لنا سبحانه حال المخاطبين بعد تلك المعجزة الباهرة، وأنزل هذه الآية التي هي ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّة** ﴾ ثم بــين حالهم السيئة التي لا يقع فيها إلا ظلوم جهول، لأنه سبحانه وتعالى يقول ﴿ **وَاسْمَعُواْ** ﴾ بدل قوله ﴿ واذكروا ﴾ فأجابوا بكلمة هي الكفر الصريح وهـــي ، أهـــم قـــالوا ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾ ومعنى أشربوا في قلــوبهم العجل أن قلوبهم عقدت على حب العجل، فلا يكاد ينفذ إليها شعاع من نور الهداية كما تعقد المعدة على الماء الذي يشر به الإنسان، وإنما قلنا عقدت على حب العجل، لأن القلوب قوتها بالمعاني لا المباني، وحذف المضاف كثير في لغة العـــرب، وآيـــات

القرآن صريحة في ذلك لقوله تعالى ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةِ** ﴾، أي اسأل أهل القرية ﴿ **فِيهَا وَ الْعِيرُ** ﴾ . قوله تعالى ﴿ **بِكُفْرِهِمْ** ﴾ أي بكفرهم بالله الذي خلقهم وأمدهم بـالنعم الغزيرة وبين لهم كليم الله عليه السلام نزاهته وقداسته وعلوه عن خلقه .

ولكنهم طبع الله على قلوبهم فسلبهم القابل الذي يقبل عن الحق بالحق، وأبقـى لهـم العقل الكسبي الذي به تقوم الحجة على وجود الله تعالى، ولا تقوم به الحجة على جماله وجلاله وكماله سبحانه، ولا على نوره وبهائه، بل ولا على كماله الذاتي عز وجـل، وكان من خديعة السامري لمن عبدوا العجل، أن قال لهم هذا العجل إلهكـم وإلـه موسى، فنسى موسى إلهه الذي هو العجل، وخرج يفتش عليه في البادية والقوم طبـع على قلوبهم فصدقوا السامري : فقال تعالى ﴿ **قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ** ﴾ يشنع الله تعالى على يهود بني إسرائيل، والخطاب من الله لمعاصري رسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ولسلفهم تغليبًا . يقول لمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، قل لهم ﴿ **بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ** ﴾ والمعنى بئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم من قتل الأنبيـاء وعبـادة العجل، وقتل بعضكم وإخراج فريق منكم من ديارهم . الصفات التي لا يتصف بها إلا أبالسة الجن، وشياطين الإنس، وأى إيمان إيمانهم هذا الذي يأمرهم بإنكـار صـفات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، التي يجدونها عندهم في التوراة بمعاداته ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبدس السم عليه في الذراع، وبالكيد له ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ليقتلوه مع أبي بكر وعمـر بحجـر طاحون، إن كان إيمانهم يأمرهم بهذا فساء الإيمان إيمانهم .

وهنا إشارة غريبة : هي أن الله تعالى يريد تزكية أنفسنا من التشبه بـاليهود الـذين يهمهم أنفسهم فهم مع حظهم وشهوتهم لا تجذبهم أنوار الحق إليه، بل إذا وجدوا خير الدنيا في الكفر كفروا، أو إذا نالوا خير الدنيا في تكذيب الرسل كذبوا، كما فعلوا مع كعب بن الأشرف في إنكار ما ورد في التوراة من صفات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ، ومولده وهجرته، بوسق من التمر، بعد أن جلسوا مع رسـول الله ﴿ ﷺ **وآلـه**﴾ ،

وسمعوا منه وآمنوا به، وتوجهوا إلى كعب بن الأشرف فأخبروه بأهم آمنوا بهذا الـــنبى العربى، فغضب عليهم وقال لا أعطيكم صدقتي حتى تكذبوه وتنكروا وتغيروا مـــا في التوراة من صفاته، فقالوا إن نبي آخر الزمان من ولد إسحق لا من مولد إسماعيل على الفور والبديهة ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ ((إن)) إما أن تكون شرطية ويكون (**كُنـــتُم**) فعلها ويكون جواب الشرط محذوفًا دل عليه (**بِئْسَمَا**) وجائز أن تكون ((مَا)) نافية وتكون المعنى : (ما أنتم مؤمنون)، لأن الحقائق نفت الإيمان عنكم بسبب الأعمـــال التي لا يعملها إلا شيطان مارد، لا يحسن أن نحكم عليه بالإنسانية فضلا عن الإيمان . وأعمالهم هذه مع حكمهم على أنفسهم بالإيمان حجة على كذبهم وضـــلالهم كمـــا يدعي سكان أوربا وأمريكا أنهم مصلحون للشرق وكذبوا . نعم هم مصلحون، ولكن كإصلاح النار للأجسام، وإصلاحهم في الحقيقة إفساد . ﴿ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾.

قوله تعالى : **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴿[٩٤]﴾

بعد أن بين الله تعالى مخازي يهود بني إسرائيل من معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ومن سلفهم الأول،أقام الحجة عليهم سبحانه حجة قاصمة للظهور، كما أقامها على نصارى نجران عندما حضروا لمجادلة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، في حادثة المباهلة،فقال سبحانه لمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، قل ليهود قريظة وقينقاع والنضير : ﴿ **إِن كَانَتْ لَكُـــمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ** ﴾ والمعنى والله أعلم: إن كنتم علـــى يقين من دعواكم أن العالم أجمع لا ينال خيرًا في الآخرة، وأن خير الآخـــرة لليهـــود فحسب، والعقل لا يرضى بعناء وفساد وبلاء في دار إذا فارقها نال النعـــيم والخـــير

والسعادة، وأنتم معاشر اليهود تدعون أن الآخرة خاصة لكم، ومع هذا أنتم تحرصون على ما به تدوم لكم الحياة في كون الفساد، فتسلبون أموال الأميين بالباطل، وتجمعون من المال ما لا يحل لكم، وهذا عمل يخالف تلك العقيدة إن كانت مؤيدة باليقين الحق، فإن كانت لكم الدار الآخرة باليقين الكامل، فأقيموا الحجة على صدقكم بالمسارعة إلى تمني الموت من أي أنحائه لتفارقوا كون الفساد والهلاك، كون العناء والبلاء إلى كون الصفاء والبهاء وبذلك تقوم الحجة على أنكم صادقون، بدليل قوله تعالى ﴿ **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ نزلت تلك الآية صاعقة على اليهود، فانحنت رؤوسهم، وتلجلجت ألسنتهم وخفقت قلوبهم، لأنهم أعلم بأنفسهم من غيرهم . وفى ذلك أخزاهم الله ودحرهم . فقال لهم سبحانه : ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ .

وهم بعد تلك الحجة كأنهم خرس لا ينطقون، لعلمهم بخطاياهم التي أنذرتهم التوراة بأن الذي يقع فيها يلعن ويخلد في السعير، وإنما يكون ذلك بعد الموت، فهم لما يعلمونه من أنفسهم يخافون من الموت فرارًا مما توعدهم الله به في التوراة .

قوله تعالى : ﴿ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ إن كان المراد من أيد جمع يد، فتكون كناية عن عمل الخطايا بجميع جوارحهم، وإنما ذكر اليد لأنها العضو العامل، ويكون المراد التغليب، وإن كان المراد بالأيدي أنه مصدر آد يئيد أيدا ،ومعناه القوة، فيكون بما قدمت قوتهم التي يدعونها لأنفسهم، ثم يخالفون بها أمر ربهم، فيكونون وقعوا في الشرك وفى الخطايا أما الشرك فلأنهم أسندوا القوة والجوارح والعمل لأنفسهم، وذلك باطل، لأن الحقائق تنادي بأعلى صوتها أن الفاعل المختار هو الله، ونسيان العبد ربه واعتقاده أنه قوي فاعل غافلا عن الله تعالى باطل، لأنه قد يريد الشيء و يهييء له أسبابه ويقوم لتنفيذه فلا ينال خيرًا . وقد يكون في قوة وشباب ومتعة وفى لمحة عين يفقد الحياة فيصير كشجرة ملقاة، وقد يكون فقيرًا معدمًا مفلوكًا بائسًا، وإذا به يصبح سيدًا عظيمًا، وكل تلك المؤثرات تدل على أن الإنسان مخلوق مقهور لا إرادة له في هذا

الكون . أما الخطايا التي وقع فيها اليهود، فإنها فضلا عن نسبة الفعل لأنفسهم وقوتهم، فإنهم خالفوا الأمر الذي أنزل عليهم في التوراة من اتباع الرسل، ومن تـــرك إهـــراق دمائهم، وترك إخراج فريق منهم من ديارهم .

قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ هذه الآية خبر عن الله تعالى، يبين لنا أنه يجب علينا دوام مراقبته بمعنى الاسم العليم، فإنا إذا راقبناه سبحانه وتعالى بمعنى هذا الاســـم تحققنا أنه يعلم حركاتنا وسكناتنا ومشيئاتنا، ففررنا مما يغضبه علينـــا مـــن الأقـــوال والأعمال والأحوال والهمم واللمم إلى محابه ومراضيه، فإنه سبحانه يمكـــن أن يقـــول والله قهار . قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ** ﴾، إشارة للروح أن تتمثـــل وســـعة علمـــه سبحانه وحيطته بجميع العالم من المادة وما فوقها، وقولـــه ﴿ **بِالظَّـــالِمِينَ** ﴾ المـــراد بالظالمين هم الذين ظلموا أنفسهم بترك التعقل عن الحق والفهم من العلماء الربـــانيين الراسخين في العلم إلى الاعتماد عى من تنجست نفوسهم بقاذورات المادة، وانطمست بصائرهم عن النظر إلى ما فوقها، ليعملوا لنيل السعادة الباقية حيث الصفاء والبهاء، في جوار الأخيار في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وإني أضرب لك مثلا يبين لك حال من سجنوا في سجن المادة فلـــم يـــروا غيرهـــا، فاستعبدهم من دون الله، ومن نفذت نفوسهم الطاهرة من أقطار المـــادة إلى الجمـــال المطلق في الحياة الروحانية، كبهيم سائم في غيضة نضرة، لا يهتم إلا بطعام وشـــراب وملبس وكل شهوته أن يملأ بطنه من نجم الأرض أو يعلو أنثاه، وبين حكيم صـــيغت نفسه من أصفى الجواهر النورانية، له في كل نفس من أنفاسه مشـــهد أنـــس بربـــه، وإشراف على عجائب قدرته، وغرائب حكمته، فلا تقع عين بصيرته إلا على جلـــيٍّ الآيات في تلك المكونات، وشتان بين من حظه شهوة بطنه وفرجه وبين من قصـــده شهود وجه ربه، ولذلك فإنك ترى عباد المادة شغلتهم المادة حتى حكموا أنها هي الله، لأنهم لم يجدوا أمامهم سواها، فخدموها : كما عبد الأقباط العجل أبيس، وكما عبد

الهندوس بالهند البقر . دليل ذلك أنهم قد تفوقوا في اختـــراع آلات وأدوات حـــيرت العقول، ولو أنهم تنسموا نسيما عليلا بليلا، من علوم النفس أو علوم الروح، أو علم الغيب المصون من العلم بالله، وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه، وبتفريده ســـبحانه بإيجاد الخلق وبإمداده‍م لاحتقروا المادة ونظروا في أنفسهم وفى الآفاق نظرة تجعلـــهم يفرون إلى الله تعالى من الكونين . قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

يكشف الله الستر عن مخازي اليهود ليزيد أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، يقينًـــا، لأن اليهود مسخهم الله قردة وخنازير من حيث قبول الحق عن الله تعالى وإن كـــانوا طوال القامة عراض الأظافر متكلمين بالفعل، فإنهم فطروا على طبع البهائم التي لا لذة ولا مسرة لها إلا في شهوتي البطن والفرج والحرص على الخلود للتمتع بهما ففي الآيـــة السابقة يقول الله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم أن الدار الآخرة لكم خالصة من دون الناس، ثم كذبهم في دعواهم

بقوله : وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ﴿٩٥﴾

ثم أقام الحجة على ذلك بحالهم وقالهم وعملهم بقوله سبحانه ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْـــرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أتى بالفعل مؤكدًا بنون التوكيـــد لاتصـــاله باللام، والواو هنا حرف عطف، وتجد فعل ينصب مفعولين والضمير العائـــد علـــيهم مفعوله الأول، وأحرص مفعوله الثاني . والمعنى والله أعلم أن الله تعالى يخبرنـــا في ذات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فيقول: ولتجدنهم من الوجدان العقلي العلمي الذي يظهـــر للمسلمين جميعًا من سوء ضمائر اليهود بتغير أحوالهم ومن شرور أعمـــالهم . ومـــن مقاصد الضرر في أقوالهم الحقائق الدالة على حرصهم على الحياة حرصًا يفوق حرص

الناس أجمعين . وأحرص أيضًا من الذين أشركوا، لأن حرص المشركين على الحياة ناتج عن جهلهم بالدار الآخرة فلهم العذر، ولكن اليهود قبحهم الله تعالى يؤمنون بالتوراة، والتوراة بينت يوم القيامة، ونهت عن الخطايا، وتوعد الله فيها من عصاه بالنار، ووعد من أطاعه بالجنة . فقوم يعلمون كل هذا، ويقعون في الخطايا العظمى التي من شرها عبادة العجل وقتل الأنبياء، وقولهم سمعنا وعصينا، وكذبهم على الله تعالى في تغيير صفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، التي أنزلها الله على موسى في التوراة، ويعتقدون أن تلك الخطايا تخلد مرتكبها في النار، كيف يتمنون الموت وبعده أليم العذاب لهم . وبهذا يكون حرصهم على الحياة أشد من حرص الذين أشركوا الذين بين الله حالهم بقوله : ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ وهم الأعاجم الذين كانوا يقولون لملوكهم عش ألف نيروز وأحي ألف مهرجان، وقد أحيا أهل زمننا هذا تلك البدعة المجوسية فيقولون يحيى فلان ويعيش فلان ويسقط فلان، وذلك تقليد للعجم ولا يرضى بهذا إلا الذين سلب الله منهم نور الإيمان، فصار الواحد منهم يتولى غير المؤمن ويوليه ثقته ويعادى أخاه المسلم أعاذنا الله من الفتن المضلة، وجائز على تفسير بعضهم أن يكون المعنى ولتجدنهم أحرص الناس يعني من الناس جميعهم . وقوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ** ﴾، أي من الذين أشركوا من اليهود باتخاذهم عزيرًا ابن الله تعالى، والذين اتخذوا عزيزًا ابن الله حرصهم على الحياة شديد . أما معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، من يهود بني إسرائيل، فحرصهم على الحياة أشد من حرص كل الناس : ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ** ﴾ .

يشنع الله تعالى على اليهود من بني إسرائيل لمكانتهم من العلم بيوم القيامة، وبما فيه من النعيم المقيم والعذاب الأليم، وأنهم مع ذلك يرتكبون الخطايا الموجبة للعذاب ويحرصون على الحياة حرصًا هو أشد من المشركين الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . والمعنى والله أعلم يود كل واحد من هؤلاء المشركين أن يعمر ألف سنة ليبعد

عن العذاب فيشدد الله تعالى عليهم بالوعيد المخزي بقوله تعالى ﴿ **وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ** ﴾ فما هنا نافية حجازية، والضمير كناية عن نيل ما يوده من طول الحياة بمزحزحه عن العذاب أي بانعه من العذاب تهديدا لهم وقوله تعالى : ﴿ **أَن يُعَمَّرَ**﴾ مصدر ذكر تفسيرًا للضمير أو بدلا منه . والظاهر أن الله تعالى أثبت خزى اليهود وضلالهم بحالة تدل على أنهم لا يعقلون إلا ملاذ الحياة الدنيا، وأن ما أنزل الله عليهم في التوراة سمعوه وما عقلوه، وإذا تلي عليهم حرص كل واحد منهم على الحياة أشد من حرص المشركين، وهذا الحرص ولو نال به الحياة لا يزحزحه عن العذاب تمنيه نيله . ﴿ **وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾، ولفظ بصير بمعنى مبصر، والبصير هو المحيط بالواجب والجائز والمستحيل علمًا وإدراكًا،لأن في معنى بصير شهود الحقائق، ومن معناه علمها كمالا وقدرًا وكيفًا، وعلم حكمة إيجادها وحالها ومآلها .

قوله تعالى : **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٩٧﴾**

بعد أن بين الله تعالى ما بينه في يهود بني إسرائيل من مخالفتهم أمر الله تعالى ومحاربتهم أنبياءه عليهم الصلاة السلام، وبخهم سبحانه وتعالى على كفرهم بخاتم الأنبياء بعد اعترافهم بأنه النبي الأمي، وأنه خاتم الأنبياء الذي بشر به أنبياؤهم محتجين على معادلتهم له ﴿ ﷺ **وآله**﴾، على سبب هو الحجة القاطعة على فريتهم وضلالهم وخزيهم، وهو قولهم لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ولعمر بن الخطاب : إن جبريل عدونا كما سنبين . وجعلوه محل كفرهم برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لأن جبريل هو رسول الله إليهم فكذبهم الله تعالى بقوله : قل يا محمد ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ** ﴾. وفى هذه الآية البرهان القوي على أن القوم لم ينتفعوا بما أنزل الله عليهم من العلم بغيًا وعنادًا وحرصًا على الدنيا، وطمعًا فيما ينالونه منها من شياطينهم الأغنياء .

وفي قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ بكاف الخطاب، بيان لمكانة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، عند الله تعالى،لأن الله تعالى هو الذي يخبر عنه اليهـــود مخاطبًـــا لـــه ﴿ ﷺ وآله﴾، . وشتان بين أن يقول نزله على قلبي وبين نزله على قلبك، وهذا نوع مـــن بديع اللغة العربية، ومن كمال تشريف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهو من العلم الذي لا يذوقه إلا أهل المقامات العالية . وذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ينقل خبر الله في إقامة الحجة على صدق رسالته،والحجة التي قصمت ظهورهم ،فيـــبلغهم كـــلام الله بصفته رسوله عليه الصلاة والسلام، وفي هذه الآية بيان لنوع من أنـــواع الـــوحى، وسنشرح كل أنواعه عند المناسبات﴿ بِإِذْنِ اللّهِ﴾، أي أن الله تعالى أذن جبريـــل أن يترل ما تلقاه من الله تعالى على قلب محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وفي ذلك من تعظيم النبي ورفعة شأنه ما فيه كما تقدم، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمعنى أن القرآن جمع الكتب التي أنزلها الله على رسله من قبل، وزاد عليها مـــا بـــه أكمل الله من الدين، وأتم علينا نعمته . فالقرآن مهيمن على كل الكتب، وفي قولـــه تعالى : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى ﴾، الهدى هو البيان المؤيد بالحجة البالغة، فلا يماري فيه إلا من أعمى الله بصائرهم، والبشرى في اللغة العربية كل خبر بخبر لم يسبق للمخبر به أن يسمعه، وكل القرآن بشائر للمؤمنين، فوعده بشرى لهم، لأنه يقرر لهم الفوز بالسعادة الدائمة، وبالخير العاجل في الدنيا، وفي وعيده يبشرهم بنصـــرهم علـــى أعـــدائهم، وبالانتقام من خصومهم، وبالتمكين لهم في الأرض بالحق، وبعـــد إذلال أعـــداء الله وأعدائنا، ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ للمصدقين الذين صدقوا الله ورسوله قلبًا ولسانًا وتصـــديقًا انعقدت عليه قلوهم وعملت الصالحات جوارحهم . وهنا أبين لك ما أورده المفسرون في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ .

قوله تعالى : مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَـــدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴿ ٩٨ ﴾

في هذه الآية الشريفة حكم على اليهود بأهم أعداء الله تعالى، وفي ذلك أشنع التوبيخ . يقول سبحانه لمحمد ﴿ﷺ وآله﴾، ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾، أتى سبحانه باسم الشرط ليفصل المجمل السابق، وذكر الملائكة والرسل، ثم خصص جبريل وهو من الملائكة لتكون الآية الشريفة جامعة مانعة : أما جامعة فللملائكة والرسل، وأما مانعة فلمنع تأويله الفاسد من أن يقولوا إن جبريل ليس من الملائكة، وقد يبلغ هم هذا التأويل الباطل إلى أن يقولوا إنك لست من الرسل، لأن الذي جاءك جبريل ونحن نحب الملائكة إلا جبريل، فقهرهم الله تعالى بقوله﴿ وَجِبْرِيلَ﴾ فكان الحكم الذي هو جواب الشرط، وهو ﴿ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ صاعقة أهلكتهم في الدنيا بالخزي والذل، وفي الآخرة بأليم العذاب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

عظم الله سبحانه وتعالى الآيات التي أنزلها إلى ﴿ﷺ وآله﴾، مبينة لسر غامض لا يعلمه إلا أحبار اليهود، وفى ذلك من المعجزة ما فيه، وتعظيم تلك الآيات لأنه أسند إنزالها إليه سبحانه مخبرًا عنها ب (نا) التي للتعظيم في قوله ﴿ أَنزَلْنَآ ﴾، وفى ذلك من تعظيم الآيات وتعظيم من أنزلت عليه ومن نزل بها من عند الله تعالى ما تقوم به الحجة على معاصري رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، من يهود بني إسرائيل . وفى قوله ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ تعظيم آخر، إذ لو لم تكن كذلك، واليهود أعداء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، لكذبوا وأنكروا، ولكن الله تعالى قهرهم على أن يعترفوا أنه النبي الأمي، وأن صفته مذكورة في التوراة، ولكنهم يكرهون وليه من الملائكة الذي هو جبريل، وأجل وأعظم تلك الآيات التي أنزلها إليه القرآن المجيد ، لأن الله تعالى كشف فيه الستار عن مخازى وأباطيل اليهود، وبين فيه ما أنزله على رسله السابقين، مما لم يكن يعلمه أحد من الناس إلا كبار الأحبار . وهذا فيما يختص بمعاصري رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منهم .

أما فيما يخص بالمعجزات الباهرات في القرآن المجيد مما أعجز فطاحل العرب وكبـــار الفلاسفة، ومحا أثر الكهانة والعرافة والسحر، وحير عقول العالم المتـــربص لاســـتعداد تلقي أنباء الشياطين عن الغيب، فإن القرآن المجيد أورد آيات بين فيها ما يـــأتي بعـــد نزول القرآن بعشرات السنين وبمئات السنين من الإخبار بالغيب المستقبل، لقوله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾. وقوله تعالى : ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿**وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَـيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾. وقوله تعالى في غزوة الحديبيـــة :﴿ **إِنَّـــا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ولم يحصل فتح لمكة في هذه الغزوة إلا بعد زمن محدود معلوم .

وقد بين القرآن المجيد غيب الغيب المصون فيما يتعلق بتراهة ذات الله وصفاته وأفعاله، بيانًا سجد له العقل واطمأن به القلب . وفى القرآن المجيد من الرحمة العامة بـــالمجتمع فيما بُين من الأخلاق الفاضلة والمعاملة قد تكون فوق العدل بالنســـبة للمســـلمين في معاملتهم لأهل ذمتهم، ومن كشف الحقائق الكونية ومن أعلـــى علـــيين إلى أســـفل سافلين. ومن بيان حقيقة النفس بيانًا جعل كل مسلم محصل لعلم النفس يتصور النفس تصورًا حتى كأنه يراها بعين بصره، وجاءنا القرآن المجيد ببيان أيام الله تعالى من الأزل إلى الأبد حتى تمثلتها النفوس تمثيلا جعل محصل العلم كأنه في جنة الفردوس رضًا عـــن الله فيما قدر، وصبرًا مع الله فيما أمر ،وفى القرآن المجيد أسرار ضاقت مواعين العقول عن أن تحوم حوالى فنائها، ولكنها تتلقى من الراسخين في العلم لنظرائهم وأشـــباههم من أهل مقام الإحسان . وقد تفاض إلهاما من الله تعالى بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** ﴾، وهنا حذف مفعول يعلم لينال أهل المقامات قسطًا من هـــذا الطهور المدار . فأهل مقام اليقين يقولون إن المفعول الثانى الملحوظ في ﴿ **يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ**

﴿هو جل جلاله فهو الفاعل، وهو الذي يعلِّم عباده عَلِيَّ جماله وجلاله وبهائه وكماله، وأكمل محصل لتلك العلوم العالية يعتقد أنه ما حصل العلم إلا بقدر ما حصل العصفور من الماء إذا ارتشف من محيط أعظم . يقول سبحانه لمعاصري رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تلاها عليكم محمد ﴿ﷺ وآله﴾، فيما أظهرتم وأخفيتم، من لدن سلفكم من أيام الكليم عليه السلام إلى أيام خاتم الأنبياء، مما لا يعلمه إلا من ورث عن السلف من الكهنة والرهبان والكتبة . وهذا النبي الأمي نشأ في جاهلية عمياء صماء، لا علم له بالكتابة ولا بالقراءة ولا بالكتب السابقة، وأنتم تعلمونه حق العلم . وظهر محمد ﴿ﷺ وآله﴾، كالشمس المشرقة في جوف الليل الأليل، وكنتم قبل بعثته تستظهرون به على المشركين، وتبينون أوصاف النبي الأمي خاتم الأنبياء في التوراة لأهل تهامة، وتهددونهم بظهوره لأنكم ستنصرونه عليهم، وتقتلونهم معه، فلما أن أشرقت تلك الشمس المبينة لما أخفته الجاهلية العمياء ودرسته القرون الطويلة من أيام موسى عليه السلام، أنكرتم الحق الواضح وأجمعتم أن تطفئوا النور الفاضح لأسراركم، وهممتم بقتله مرة بالسم وأخرى بإلقاء حجر الرحى عليه وعلى صاحبيه . ونقضتم عهد الله وميثاقه، كما فعل سلفكم من قبلكم مع أنبياء الله ورسله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

الفسق : هو الخروج من الحق إلى الباطل، ومعناه : خروج الحية من ثوبها لتضر الناس، ولما كان معاصرو رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، من يهود بني إسرائيل خرجوا من عهد الله وميثاقه الذي عاهدهم به في التوراة، أنهم إذا جاءهم النبي الأمي رسول آخر الزمان، الذي يكون مولده مكة وهجرته يثرب، ويربيه جده بعد موت أبيه وأمه، يجب عليهم تصديقه واتباعه، ونشر ما ورد في التوراة، فأبوا وخرجوا من هذا الحق البين إلى تغيير آيات الله، وإلى ما ذكر الله عنهم في الآيات السابقة فحكم الله عليهم بالفسق،

لأنهم كفروا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأن القرآن المجيد أخنع العقل لما فيـه مـن المعجزات الباهرات والآيات البينات . ولا يكفر به إلا من سجل عليه القضاء بالبعـد عن الله تعالى ... وقد جرّت تلك الآية بذيلها من أعمى الله بصائرهم في هذا الزمان ممن قلدوا الإفرنج فيما دعاهم إليه الغرور بالمال والصناعات وبالمخترعات، بعـد أن تفرق المسلمون أيدى سبإ، طمعًا فيما يزول، وكثر المتغلبة فيهم، حتى إنك لتـرى في كل أمة من الأمم ما يسمونه ملكا، فتفرقت الأمم، وسارع أهل الجهل والطمـع إلى بلاد الإفرنج، ورجعوا منها بصريح الكفر، بما حصلوه من زخـرف الحيـاة الـدنيا وزينتها، فأنساهم الدار الآخرة، ونسيان الدار الآخرة لعنة من الله تعالى . قال سبحانه : ﴿ **فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ مَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا** ﴾، والنسيان من الله تعالى، طرده أهل الكفر به وأهل معاصيه، لأنه تتره سبحانه وتعالى عن النسيان، قال تعالى :﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

إن الله تعالى يخبرنا عن يهود بني إسرائيل لا ليبين لنا حقائق كانوا عليها ولا أخلاقًـا تمسكوا بها، ولكن يريد سبحانه أن يعلمنا العلم النافع من حيث لا نحتسب وخير العلم الذي ينفعك الله به أن ترى شر الأشرار فتجتنبه، وإحسان المحسـنين فتسـارع إليـه ويكون هذا خير تربية لك . فإن الله أدب الأنبياء وعلمهم بهذا الأسلوب . قال تعالى : ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾، وقال عيسى بن مـريم، وقد سئل كيف تأدبت ؟ قال :(رأيت ما أكره من غيرى فاجتنبته، ورأيت ما أحبـه من غيري فسارعت إليه) . يوبخ الله اليهود ويشنع عليهم شر التشنيع لما وقعوا فيه مما أو بقهم في سجين القطيعة عن الله تعالى . يقول سبحانه ﴿ **أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا** ﴾ مستفهمًا استفهامًا تقريريا، لأنهم وقعوا في تلك الخطايًا . والواو هنا للعطف والجملـة معطوفة على ما قبلها و﴿ **أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا** ﴾، بيان لدوام خيانتـهم ورمـيهم

عهودهم ومواثيقهم وراء ظهورهم بديل قوله تعالى: ﴿ **نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم** ﴾ ونبذ لغـــة بمعنى ألقى ورمى، مأخوذ من النبيذ وهو وضع الثمار الجافة في الماء زمنًا مـــا . ونبـــذ تلك الثمار من الماء يعني إخراجها . وقوله : ﴿ **فَرِيقٌ مِّنْهُم** ﴾ الفريق اســـم جمـــع لا واحد له من لفظه، كجيش ورهط، وفى الغالب يكون كالقليل من الجماعة . وهؤلاء الذين نبذوه هم الذين يتظاهرون بالباطل الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

بينت لك أن الفريق الذي نبذ عهود الله ومواثيقه نفوسهم خبيثة لا تقبل، ودائمًا كان قبولهم العهد والميثاق بحسب أنواع تلك العهود والمواثيق بالقوة القاهرة، التي إن لم يلبوا قبول العهد والميثاق لدكوا كما تدك الجبال الشامخات . فلما ستر المشـــهد المقتضـــي رجعوا إلى خبث نفوسهم، فأبوا قبول العهد والميثاق . مثال ذلك أن الله رفـــع فـــوق رؤوسهم الطور وقال : ﴿ **خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا** ﴾، وقلوبهم منعقدة على العصيان . ولذلك يقول الله تعالى مخبرًا عنهم ﴿ **سَـــمِعْنَا وَعَصَـــيْنَا** ﴾، كذلك يوم أن أصعقهم الله تعالى عندما قالوا لموسى عليه السلام : أرنـــا الله جهـــرة، فتضرع موسى لربه حتى أذهب عنهم الصاعقة، فلما رجعوا إلى قومهم كذبوا على الله ورسوله، وفوق ذلك سر خفي يقبله أهل سابقة الحسنى، وهو أن الله تعالى يوم ألست بربكم) واجه ذرية آدم التي أخرجها من ظهورهم فرسمت أنوار المواجهة على جواهر النفوس ونادى ربنا جل جلاله : ﴿ **أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَـــالُواْ بَلَـــى** ﴾ لقهـــر المشـــهد ولاتضاح الحقيقة، ثم إنه سبحانه عاهدهم عهدًا بقوله تعالى : ﴿ **أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا** ﴾ وغير ذلك من العهـــود الـــتي خانوها . هذا معنى قوله تعالى : ﴿ **أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم** ﴾، ولولا خوف الإطالة لفصلنا إجمال هذا الكلام المقدس . . ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُون** ﴾ .

يخبرنا ربنا جل جلاله عن الأكثر من الفريق الذين نبذوا عهده بقوله : ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾، ذلك لأنهم علموا ما أنزل الله تعالى وما عاهدهم به، ولكنهم أبــوا أن يقبلوا أو يصدقوا، وإن أظهروا القبول والتصديق، ولهؤلاء اليهود من بني إسرائيل ممــن أخبرنا الله عنهم أشباه ونظائر من المسلمين، وهم أنواع بحسب مراتبــهم في ضــعف الإيمان أو النفاق أو الكفر : فمنهم من ينكر الأحاديث الواردة التي تحظر على المــؤمن أن يتوسع في المباح، أو يبيح ما حرمه الله تعالى .منهم من ينكر الشفاعة، وينكر مــا لأولياء الله تعالى من الجانب عند الله تعالى، أو يحقر أولياء الله تعالى الأحياء لزهدهم في الدنيا، وعكوفهم على بيوت العبادة . منهم من يؤول ما ورد في القرآن بحسب رأيــه وهواه وحظه . ومنهم من يجحد بالله ورسوله وبأيامه . ومنهم من يقلد من أعمى الله بصائرهم في اتخاذ المادة فاعلا مختارًا، وعبادته لها لوقوفه عندها .

قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَنــتَ بِهَــادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾، ومــن علامــة هؤلاء جميعًا ترك الصلاة والصيام والحج والمسارعة في أعداء الله تعالى مــن الإفــرنج وغيرهم، وصرف أنفاسهم في تفرقة المسلمين نصرة للكافرين، وما من آية شنعت على من كانوا قبلنا من أهل الكتاب إلا وهي ، تجر بذيلها من قلدوهم في هذا الزمان، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ وقال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ((لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً عَلَى ٱلْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ ٱللهِ وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ)) نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظ إيماننــا، وأن يقمنا في محابه ومراضيه .

قال تعالى : وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّــذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴿ ١٠١﴾

بين الله لنا ما ارتكبه اليهود من بني إسرائيل من زمان موسى عليه السلام إلى معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، بيانًا أقام الحجة أن نفوسهم خلقت من سجين العناد، ولو أن الإنسان نظر نظرة المتأمل لعلم أن بني إسرائيل قبل اليهود كانوا على جانب من الغلظة والجفوة مهما كان المقتضى، انظر إلى أولاد يعقوب عليهم السلام كيف فعلوا بيوسف، وانظر إلى الصديق كيف قابلهم بما هو فوق الفضيلة، فإنهم ألقوه في الجب، ولما أخرجه السيارة جعلوه رقًّا مملوكًا لهم وأخذوا ثمنه ممن أخرجوه من البئر، ويوسف عليه السلام تأبى أخلاقه الفاضلة أن يدفع هذا الشر عن نفسه، فيقول إني أخوهم من أبيهم وإن أبي وأباهم في هذا الحي، لكنه آثر جميل الأخلاق فأحسن إلى إخوته بأن أبي أن يكذبهم . فيخجلهم، وشتان بين من يقتل الشخص فإذا أنجاه الله من القتل باعه مملوكا وبين من يرضى بالقتل والرق تخلقًا بأخلاق الله تعالى فيحسن إلى من أساء إليه وهذه أخلاق لا تصدر إلا ممن جملهم الله بمعاني صفاته . . لا تعجب إذن . إذا أخبرنا الله عن يهود بني إسرائيل معاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، بقوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ**﴾﴿ **رَسُول** ﴾يعني محمدًا ﴿ ﷺ وآله﴾، ﴿ **مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ أي بالتوراة التي أنزلها الله عليهم وذكر فيها نعت رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، كما تقدم وأخبر الله تعالى في القرآن عن أحوال بني إسرائيل وأطوارهم أخبارًا لا يعلم حقيقتها إلا الراسخون في العلم منهم من الكهنة والأحبار.ومعلوم أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، نشأ أميًا بين جاهلية عمياء صماء لا علم لهم بأيام الرسل ولا بصحفهم . ولا بأخبار الملوك والأمم وهذه معجزة يسجد العقل لها . ولكنهم أبوا إلا أن يهبطوا في غضب الله ولعنته ﴿ **نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ** ﴾ تقدم شرح قوله ﴿ **نَبَذَ فَرِيقٌ**﴾ وقوله ﴿ **مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ** ﴾من الأحبار والكهنة، وإن الظاهر يقتضي جميع اليهود، ولكن قوله تعالى : ﴿ **مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾ يبين أن إيتاء الكتاب يقتضي العلم به مجملا ومفصلا وليس عامة اليهود يعلمون ذلك ويؤيد ذلك قوله تعالى (من)

لأنها للتبعيض .. ﴿**كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ**﴾ أي أهملوا العمل به وأظهروا تكذيبه . والمراد بكتاب الله هو التوراة . وإن قال بعض المفسرين هو القرآن لأنهم لم يؤتـــوا القرآن و لم يؤمنوا به وقوله تعالى ﴿ **كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون** ﴾دليل على أن هذا الكتاب هو التوراة، لأن في قوله تعالى ﴿ **كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون** ﴾دليل على أنهم يعلمون ولا يعلمون إلا التوراة وفى التوراة ما يوجب عليهم الإيمان برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فنبذهم نبوته ﴿ ﷺ **وآله**﴾، تكذيب للتوراة التي تثبت مجيئه وتبين صفاته ومولده وهجرته ويتمه ﴿ **كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون** ﴾ وبخهم الله توبيخًا فوق التشنيع بهم وأثبت أنهم أهل عناد وفريــة لأنهم مع علمهم بأن الله تعالى يرسل رسولا أميًا في آخر الزمان، وبعد أنهـــم كـــانوا يستظهرون على المشركين بظهوره كما تقدم أنكروا وكذبوا وأولوا كلام الله تعـــالى كما أوله إبليس فقالوا إن نبي آخر الزمان من ولد إسحاق لا من ولد إسماعيل ولـــيس العجب في كل هذا، إنما العجب في أن كثيرًا منهم شهدوا أنه النبي الأمي، ولكنه غير مرسل لهم . ومنهم من قال إنه النبي الأمي، ولكن وليّه من الملائكة جبريل . وجبريل عدو لنا، وقد جرت تلك الآيات بذيلها كثيرًا من المسلمين الذين يحظرون على فضل الله تعالى أن يناله غير الشيوخ أو أبناء الشيوخ أو الأشراف، ويتعصبون لشيوخهم في قبورهم، ويسعون بالإفساد بين المسلمين، فترى المسلمين الآن صاروا شيعًا كل جماعة تنسى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وتنسى سنته وتعمل بآراء شيوخهم، أو بأهواء أبنـــاء شيوخهم، وإذا ذكرهم بالله ورسوله أبوا . وهكذا الإنسان من لدن أبيه آدم . قـــال تعالى : ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**﴾ وما عليه الإنسان من لدن آدم إلى يومنا هـــذا، وبعده إنما هي صورة الأزل يبرزها الله تعالى في الأبد . قال تعالى : ﴿ **فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** ﴾ ولكن الواجب علينا بغض العصاة وحب الصالحين كما أمرنا الله تعـــالى ودفع البدع وحد العصاة عند التمكين في الأرض أو علينا بخويصة أنفسنا، كما قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ :(فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُــلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِــهِ، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ) . والذي يخلصنا في هذا العصر أن نتبرأ بقلوبنا من أعمـــال

الخطاة، ونسأل الله لهم التوبة ولأنفسنا حتى إذا ظهر أهل الحق علـــى أهـــل الباطـــل وأقيمت حدود الله يتعين علينا واجب آخر .

قوله تعالى : وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِـــنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَـــيْنِ بِبَابِـــلَ هَـــارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَـــا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

بين الله تعالى لنا أنواع نفوس البشر بيانًا يجعلنا نسير على صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، هذا البيان يأتى به الله تعالى في عبر تتمثلها نفوس الأخيار وتلـــك العـــبر تؤخذ من أعمال يهود بني إسرائيل الدالة على خبث أنفسهم . وما يهود بني إسرائيل إلا من البشر يقول الله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ ﴾ . والمراد بِالْمُتَّبِعِينَ هم كهنة وأحبار اليهود الذين كانوا قادة لعامتهم . وذلك لأن اليهود يرمون سليمان بأنه ساحر ولا عذر لهم لأن قدرة الله تعالى صالحة، لأن يكرم أنبياءه وأولياء بما شاء مـــن الآيات التي تعجز عقول البشر ولخبث أنفسهم ظنوا السوء بسليمان لما أكرمه الله بـــه من المعجزات الباهرات المحسوسة الملموسة للحس والجسم . وهنا يحسن بنا أن نشكر الله تعالى على ما أكرمنا به على يد رسوله محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لأنه جعل معجزاتـــه العظمى كلامه المقدس الذي حفظ به قلوبنا من الشرك والشك وحفظ رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، من أن نتخذه ربًا أو نرميه بما لا يليق، كما فعل اليهود بسليمان وكما فعـــل النصارى بعيسى، فإن معجزات سليمان وعيسى عليهما السلام كلها محسوسة . أمـــا سليمان فإنه مشى على البساط في الهواء ودانت له الوحوش والجن والإنس والطير مما يجعل النفوس الخبيثة تسيء الظن بأنه ساحر، وبالفعل وقع . أما عيسى عليه السلام :

فإن معجزاته إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالغيب مما جعلهم يقولون إنه هو الرب أو ابن الرب أو حل فيه الرب . وكذلك كانت معجزة موسى عليه السلام . العصا التي قال له فيها فرعون ﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾ ولكن معجزة رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، أسجدت العقل وبلغت بالمسلمين مقامًا من تتريه الله تعالى وتقديسه وعلوه عن خلقه مبلغًا، جعلهم الأعلين مكانة . انظر إلى قوله تعالى : ﴿**قُل لاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ . وإلى قوله : ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ . وإلى قوله تعالى : ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ . وأشباهها في القرآن مما جعلنا إذا رفعنا مقام رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾،قلنا عبده ورسوله، والذي تلته الشياطين على ملك سليمان، أن سليمان عليه السلام لما تزوج جرادة بنت فرعون مصر شغف بها وكان يحب أن ينصر أهلها على خصومهم ابتلاه الله تعالى بلاء سلب منه الملك حتى كان يجوع اليوم واليومين، وبلغ من جوعه أن وقف على البحر وقال للصيادين أعطوني سمكة أقتات بها . فقالوا له : نطرح شبكتنا على بختك وطرحوها، فوقع فيها سمكة عظيمة جدًا، فنظروا إليه وقالوا : أنت قدوس الله تعالى، فلما هموا بجذبها من البحر مزقت الشبكة فوقعوا فيه ضربًا حتى غشى عليه وانكسر قلبه أمام ربه فعطف سبحانه عليه، وَرَدَّ عليه ملكه، فاجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير . فجاء الصيادون يتملقون ويقولون: اغفر لنا يا قدوس الله . فقال : لا، هذا فعل ربي، غفر الله لكم .وفي زمن البلاء يقول المفسرون – إن الجن كانوا يقربون من السماء فيسمعون أحداث الأرض قبل إبرازها، فكانوا يخبرون الكهنة بها والكهنة يخبرون العامة فاعتقدوا أن الجن يعلمون الغيب وكتبوا تلك الأخبار في كتب وزادوا عليها أكاذيب كثيرة وكتبوا فيما كتبوا أبوابًا من السحر منها أنه من كانت له حاجة يعطي وجهه للشمس صباحًا، ويقول كلمات تعظيمًا للشمس فتقضى حاجته . وأشباه هذا : فلما رجع سليمان إلى كرسيه، وعلم بهذا نادى قائلا : كل من ينشر أن الجن يعلمون الغيب أقطع رأسه، وجمع تلك الكتب، وحفر لها تحت كرسيه

ودفنها . وكان كل جنى يدنو منها يحترق فانتشر بينهم أن الذي يعمله سليمان مـن السير في الهواء ومما هو مبين في مظانه كان يعمله بقوة السحر وأن سـليمان كـان ساحرًا وليس نبي . فلما ذكر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، سليمان وأخبر أنه رسول الله قالوا : إن محمدًا يدخل الخبيث في الطيب ،يدعى أن سليمان رسول الله وهو سـاحر فوبخهم الله وكذبهم قائلًا : ﴿ **وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ . وهنا يحسن أن نبين بيانًـا قد تقبله العقول . والله أعلم بالحقيقة .

يقول الله تعالى : ﴿ **شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ** ﴾ فأخبرنا بأن من الإنس شياطين، وعندي أن هذه الشياطين هم الفينيقيون سكان صور وصيدا اللذين غـزاهم سـليمان عليـه السلام وأخذهم أسرى، وأخبرنا الله عنهم بقوله : ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَـوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾ وهم الماسون البناءون لأنهم بعد أن سـلب ملكهـم سليمان وأخذهم أسرى بيت المقدس أقامهم خدمًا كالأرقاء فاجتمعوا سرًا وجعلـوا بينهم رموزًا هي آلة البناء، وأسسوا لهم جمعية يأتي كل عامل منـهم إليهـا، فيخـبر الجمعية بأسرار البيت الذي يخدم فيه حتى اشتهروا بأنهم يعلمون الغيب، وأجمعوا على تدمير ملك سليمان . وكان لسليمان في كل سنة، سُنة : هي أن يختلي بنفسه يعبد ربه أربعين يومًا عشرة منها قائمًا وعشرة ساجدًا وعشرة راكعًا وكانت له عصا " منسأة " لها ثلاث شعب يركزها على الأرض، ولها قوس في طرفها يضعه تحت إبطيه إذا عبـد الله واقفًا، فقدر الله موته في حال عبادته قائمًا، فلما مات ثقل على العصـا وكانـت الأرضة أكلت باطنها فسقط على الأرض، وهؤلاء الشياطين كانوا يرقبون قلب ملك سليمان يوم خروجه من الخلوة فلما دخل عليه من يقدم له الطعام وجده ميتًا ملقـى على الأرض، وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه العزيز بقوله : ﴿ **فَلَمَّـا قَضَـيْنَا عَلَيْـهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ**

﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، ولما انتشر في المدينة موت نبي الله سليمان عليه السلام وقام ابنه مقامه، ضرب على أيدي هؤلاء الشياطين، ولكن جـــاء شيطان منهم فقال : إن لكم كنزًا أدلكم عليه . احفروا تحت كرسي سليمان، فحفروا فوجدوا كتب السحرة التي تقدم الكلام عنها، ونشروا بين العامة أن هذا السحر كان يستعمله سليمان في أغراضه . ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ كما تدعون، ولكن الشياطين الذين هم شياطين الإنس ﴿ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّـــحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ . اختلف المفسرون بعضهم قال : إن الملكين اللذين يعنيهما الله تعالى هما : جبريل وميكائيل . وأما هاروت وماروت فإنهما رجلان، وذلك لأنهمـــا اعتقدا أن الله لا يعلم السحر، وأن الملائكة لا تعلمه للأناسى، والحقيقة أن هـــاروت وماروت ملكان، وهما ترجمة عن قوله تعالى ﴿ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾وأن الله سبحانه يعلم الناس السحر، ويجوز تعليمه كما علمنا سبحانه وتعالى الشر لنرتد عنه فذكر الزنـــا، وفعل قوم لوط، وقتل النفس، وما أشبه ذلك . كذلك يجوز للمسلم أن يتعلم السحر، وأن لا يعمل به، فمن تعلمه ليعمل به كفر، كما أن من علم الزنا والخمر والربا وعمل بها أخطأ . وحدود الخطايا مبينة في القرآن والسنة، وهي ، عندي زواجـــر جـــوابر، وهاروت وماروت ملكان ممنوعان من الصرف، لأنهما ترجمة أو بدل مـــن ملكـــين المتقدمة المجرورة، فكان فتح آخرهما دليلا على أنهما ترجمة عن ملكين المتقدمة . ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ و "ما " هنا للجحد، لأنهمـــا إذا جاءهما من يطلب تعليم السحر لا يعلمانه حتى يعاهداه ألا يعمل به، بـــل يتعلمـــه لفضيلة العلم لا للعمل، وينذران من يعمل به بالكفر . وفى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا نَحْـــنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ دليل على ما ورد أن الملائكة لما نظروا إلى خطايا بني آدم، ضـــجوا إلى ربهم وقالوا : ياربنا هؤلاء أبناء من أسجدتنا له وأكرمته بسكنى الجنة . فقـــال الله تعالى لهم : إني أودعت فيهم من الشهوة ما لو تحملتموه لفعلتم أكثر من أفعالهم، فقالوا

: لا يا ربنا لا نفعل . فقال اختاروا ملكين منكما فاختاروا هاروت وماروت من خيارهم وأنزلهما إلى الأرض متطورين بالهيئة الإنسانية، فلما نزلا للحكم جاءهما امرأة تسمى الزهرة تشكو خصمها، وكانت أعطيت نصف الحسن فعشقاها، وحكما لها ظلمًا، وطلبا منها ما يطلبه الرجل من المرأة، فأبت عليهما حتى يشربا الخمرة ويقتلا ويسجدا للصنم، فغلبت عليهما الشهوة فشربا الخمر وقتلا فتاة، وطلبا منها فأبت إلا أن يعلماها ما به تصعد إلى السماء فعلماها . وبعد ذلك رجعا إلى الصواب، فأمر الله سليمان أن يخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا فعلقهما الله تعالى من أعقابهما، وابتلاهما أن يعلما الناس السحر ،فكان يتعلم منهما كهنة اليهود . وقد كتبوا عن " آصف بن برخيا" كتبًا كاذبة نشروها، وذلك لأنه أحضر صرح بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه . كما قال تعالى : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ فحكموا أن هذا من التفوق في السحر . وإنا في هذا الموقف نعوذ بالله تعالى ممن يظهر الكرامات ليفتن الخلق، ونسأله تعالى أن يحفظنا باتباع الكتاب والسنة، وأن يجعل إكرامنا الأدب معه والمعرفة به . والسحر كما قدمنا نوعان : نوع بقوة الذهن وحسن التعبير، كما قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : " إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْرًا " أو بعلم خواص الجمادات والنباتات والحيوانات مفردة ومركبة كما فعل سحرة فرعون، فإنهم لتفوقهم في علم خواص المادة مزجوا بعض المواد ودهنوا بها حبالهم في وقت الظهيرة، فكان هذا الطلاء مع أشعة الشمس يتخيل للناظر إليه أنها تسعى . وفى تأثير العين في المعيون، وفى اقتدار الختال أن ينوع الأفكار إلى ما يريده، وفى الاقتدار في التأثير على العامة كما يعمل بعض أدعياء المتصوفة أو خبثاء زعماء الأمم. وتعليمه مباح إذا قصد به الخير.

النوع الثاني : وهو السحر الذي ينتج الفرقة بين الزوج وزوجته لتغيير الحقائق والإفساد بين أهل التقوى والصلاح وغير ذلك، وتعليمه كفر كما قال تعالى﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ قوله تعالى: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا**

﴿ يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ الفاء للاستئناف ويعلمون خبر لمبتدأ محذوف، ملحوظ في الجملة السابقة ،والمعنى : والمتعلمون يتعلمون . فتكون الجملة خبرًا للمبتدأ المقدر، وليست جوابًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ فقوله سبحانه : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ خبر، وجواب الشرط المتقدم محذوف تقديره فيأبى المتعلمون على الملكين إلا أن يتعلموا ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي يتعلمون من السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، وليس الأمر قاصرًا علي ما أخبر الله عنهم به، بل ذكر التفريق هنا لبشاعته وقبحه وهو بالنسبة لغيره من أنواع السحر شر شديد، فقد يقبل السحرة غير ذلك من تغير الحقائق في نظر الناظر، فقد يسمع تهديدًا حيث لا يرى أحدًا، وقد يرى في نومه ما يزعجه، أو يرى في يقظته أنواعًا من الحيوانات المؤذية وهو جالس في حجرة مغلقة عليه، وقد يكون ذلك بسبب التمتمة وتجريد النفس الخبيثة من القيام بالواجب عليها من جهادها، ومن المسارعة لتأدية الواجب الشرعي حتى تتفرغ للسحر، وعندي أن ذلك لا يكون إلا للاستعداد الفطري، فإن الإنسان مركب من حقائق الكون ففيه النفس النباتية والجمادية والحيوانية والإبليسية والملكية، وقد يزيد عليها إذا تفضل الله عليه بنفخة القدس التي بها يتصرف في العوالم كلها، فإذا تسلطت عليه النفس الخبيثة الإبليسية كان الإنسان شرًا من إبليس، لأن إبليس قهره الله تعالى فلم يمكنه من شيء إلا الوسوسة . أما الإنسان إذا استعبدته النفس الإبليسية فإنه يضر العالم بكل حقيقة من حقائقه التي خلقه منها فيضر بلسانه وبذكره وببطنه وعينه وبأذنيه وبرجليه بل وبكل جسمه، أعاذنا الله تعالى ممن سجل عليهم القضاء أن يكونوا سببًا في الشرور والبلايا الإنسانية، وإذا علت نفخة القدس على بقية الحقائق الإنسانية كان الإنسان أكرم على الله من خيرة ملائكته، لأن الملائكة تخدم أقل المؤمنين في الجنة قال تعالى : ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . فإذا كان الملائكة يخدمون عامة المؤمنين فكيف بأهل مقام الإحسان والإيقان، اللهم هذا مالا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر . نسأله سبحانه أن يقيمنا في محابه ومراضيه، وكـــذلك إذا علت النفس الحيوانية كان الإنسان مسخرًا لكل حقيقة تعلو كالسبع والنمر والـــديك والقرد والخنزير، وقد تجمع فيه أنواع الحيوانات فيكون شرًا من كل حيوان كما كان شرًا من إبليس والسحرة شر من الشياطين، فإن الشياطين الذين يسترقون السمع مـــن السماء غاية تأثيرهم تعليم الكهنة والأحبار من يهود بني إسرائيل ﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ . بين في الآية السابقة أُنهم يتعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وفى ذلك ما يوهم أن لهم قوة التأثير على التفريق وغيره، وهذا ما جعل أهل الإيمان يرتابون من حيث أن التوحيد يقتضي أن الفاعل في الحقيقة هو الله تعالى ليظهر العدل ملموسًا بين الناس، ويكون دخول الجنة بفضله سبحانه ودخول النـــار بعدلـــه وحكمته جل جلاله وفى قوله تعالى : ﴿ **بِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ ليس كما يتوهم من لا معرفة له بمعاني كلمات العرب، فإن الإذن كما أنه يدل على الأمر، فكذلك يدل على العلـــم، والقضاء والقدر، ويكون معنى هذه الكلمة إلا بعلم الله وقضائه كما قررت لك، لأنه لا يجوز أن نفسر الإذن بمعنى الأمر لاستحالة ذلك على الله تعالى . قال ســـبحانه : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـــاء وَالْمُنكَـــرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ والسحر مما نهى الله عنه كالكفر، فلا يجوز أن يأمر بشيء نهى عنه ﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ** ﴾ أثبت الله تعالى الحكم بالضرر على كل ساحر في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا : فلأنه أضر نفسه ببعدها عن الله تعالى وحرمانها مواجهته سبحانه التي بها أنس روحه وطمأنينة قلبه وفرحه بفضل الله الـــذي يواليه به من تعظيمه بين الناس ومن إقامة أوليائه سبحانه خدمًا له، ومن تسخيره ملكه وملكوته له، إذا هو عمل بعلمه واتقى الله تعالى .. وإذا خالفه سبحانه وعمل بالسحر أضر نفسه وغيره، وأما ضرره لغيره، فإنه ما يقع من تأثير السحر إذا قدره الله أزلا من المصائب بين الزوج وزوجه ومن الإضلال وغيره .

وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ** ﴾ وقوله ﴿ **وَلاَ يَنفَعُهُمْ** ﴾ نفى الله عنهم النفع بهذا العمل بالسحر، لأن النفع في الحقيقة ونفس الأمر هـــو إقامـــة الله العبد في محابه ومراضيه ليكون في الدنيا وليًا لله، وفى الآخرة في جوار الله تعـــالى مـــع النبيين والصديقين والشهداء . أما غير ذلك من وفرة الأموال والأولاد وتنفيذ الكلمة، فذلك وإن كان خيرًا، فهو خير زائل، وعاقبته معيبة، ولا يراه خيرًا إلا الجاهل بنفسه، والجاهل بربه، والمغرور بالدوام في تلك الدار- أما المسلم العاقل ، إذا تذكر الموت بين يدي الله تعالى فر من الغرور بالدنيا، كما يفر الحي من أن يلقى في نار مقهـــورًا، وفى قوله " ما " في الجملة الأولى هي بمعنى الذى، أي ويتعلمون السحر الذي يضرهم، أو يتعلمون الذي يضرهم من السحر، ويكون الضرر بتقدير الله تعالى، والتعليم ســـبب : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ** ﴾، ويخبرنا الله تعـــالى عـــن يهود بني إسرائيل، ومعاصري رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، الذين بين الله لهم في التـــوراة صفات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وأخبر عنه موسى عليه السلام في التوراة بقوله : من أبناء عمنا يملأ الأرض قسطًا وعدلا، وأبناء العم من أولاد إسماعيل عليه الســـلام، لأن موسى من أولاد إسحاق فيكون رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من أبناء عمه، وهنا يشـــنع الله على هذا الفريق الذين نبذوا ما أنزل الله على حبيبه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ظهورهم بعد علمهم بصدقه، وعلمهم بتحريم السحر .. كل ذلك يعلمون به . وهذا معنى قوله : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُواْ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لَمَنِ اشْتَرَاهُ** ﴾ يقال في اللغة اشترى بمعنى باع لقوله تعالى : ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ** ﴾ يعني باعوه . فيكون المعنى : ولقد علموا لمن باع الحق مستبدلا به الباطل من السحر ومن تكذيب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾. ﴿ **مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ** ﴾ أي ليس له في الآخرة من نصيب أو من جزاء حســـن . ولك أن تقول : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ** ﴾ أي اشترى تكذيب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ والسحر ببيع تصديق الله تعالى في التوراة والقرآن وعمل ما حرمه الله علـــيهم من السحر، ليس لهم في الآخرة نصيب من الخير . و ﴿ **مِنْ** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **لَمَنِ**

اشْتَرَاه﴾ بمعنى الذي ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، يشـــنع الله تعالى عليهم شر التشنيع بقوله : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ ﴾ يعني بئس الذي بـــاعوا بـــه أنفسهم، لأني شرحت لك فيما سبق أن شرى في العربية بمعنى باع، وأتيتك بالحجة في قوله تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي باعوه . وهنا بين الله تعـــالى، أنهـــم بـــاعوا أنفسهم بتكذيب التوراة فيما بينته من نعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وصفاته، وفى بيع أنفسهم بثمن خبيث هو السحر . ومعنى باعوا أنفسهم أهلكوها فإن الله أخبرنـــا أن الساحر كافر وكفاه هلاكا لنفسه أن باعها بمغاضب الله ومســـاخطه ومـــا يوجـــب خلودها في نار جهنم، ثم شنع الله عليهم بالجهل، بعد أن أثبت لهم العلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ . وفى ذلك من البشاعة والتوبيخ والذم ما يجللهم الله به خزيًا في الدنيا وذلا في الآخرة، وهنا يظهر لمن منحه الله نورًا في قلبه أن من حصل أمثال الجبال من العلم، ولم يعمل به كان شيطانًا إنسيًا، لأنه فضلا عن تركه ما أوجبه عليه العلـــم ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا بارتكابه محارم الله، ومع علمه حال عمله أنهـــا معصـــية الله فيكون شرًا من الجاهل، وأضر لنفسه من عمل إبليس اللعين . وهنا يحسن أن نقول – العلم يهتف بالعمل وإلا ارتحل، ونقول إن أجهل الناس من علم ولم يعمل لأنه حمـــل العلم ودنسه ولا يفعل ذلك إلا النفوس الخبيثة التي سجل الله عليها الخلود في نار جهنم وجائز أن تكون تلك الآية مؤخرة عن تقديم . ويكون سياق قوله تعالى : ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُـــونَ ﴾ ﴿ وَلَقَـــدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّـــنْ عِنـــدِ اللَّـــه خَيْـــرٌ لَّـــوْ كَـــانُواْ يَعْلَمُونَ﴿١٠٣﴾

هذه الآية الكريمة برهان على أن الله تعالى أخفى عن الخلق جميعًا سر قدره وأظهر لهم ما يحبه منهم فأمر ونهى وأنذر وبشر وتوعد ووعد . وهنا توعدهم بقوله : ﴿ وَلَبِئْسَ

مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾، ثم وعدهم بالخير كما سنه الله تعالى في الجمع بين الوعد والوعيد فقال جلت ذاته : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه** ﴾، ويكون الوعد في هذه الآية أعظم وضوحًا إذا تأولنا ﴿ **لَوْ** ﴾ بمعنى التمني فتكون المعنى ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ** ﴾ يعني يهود بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ آمنوا أي صدقوا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فيما جاء به من عند الله، وصدقوا التوراة التي بين الله فيها لسلفهم بعثة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **لَمَثُوبَةٌ** ﴾ اللام ابتدائية ﴿ **مِّنْ عِندِ اللَّه** ﴾ صفة ﴿ **لَمَثُوبَةٌ** ﴾ ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ خبر . وعلى تأويل ﴿ **لَوْ** ﴾ بمعناها اللغوي تكون ﴿ **مَثُوبَةٌ** ﴾ مصدرا لجواب شرط لو المقدر، أي لأثيبوا مثوبة . وعلى هذا يكون المعنى انتفت مثوبة الله عنهم لانتفاء إيمانهم وتقواهم، ويكون معنى تقوى الله هنا، هو ترك العلم والعمل بالسحر الذي هو شر كله، وترك مخالفة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ، والمثوبة هي الجزاء الحسن من الله تعالى وتكون بعد العمل سواء أكان بالقلب أو الجوارح أو بهما .. ﴿ **لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ** ﴾ بين الله لنا أن العلم لا يكون صاحبه عالمًا إلا اذا عمل به . فترك العمل به حجة على أنه جاهل لأن العلم هو تصور جوهر النفس رسوم المعلوم ومتى تصورت النفس رسوم المعلوم كان معالم بين عينيها فلا يغيب العالم عن شهود معلومه نفسًا ومتى كان الحق جل جلاله معالم بين عينيك سارعت إلى مغفرة من ربك وجنة عرضها السموات والأرض. ومتى كان العلم لا يتجاوز الأذنين واللسان إلى القلب كان بلاء على محصله فإنه يستعمله في مغاضب الله ومساخطه أعاذنا الله بوجهه الكريم . ولست أبعد بك يا أخي فإنك ترى من حكم لهم بالعلم من الخلق أنصار أعداء الله تعالى من المغتصبين والظالمين، وكيف لا والعلم يكشف للعالم الحجاب عن الآخرة وما فيها والستار عن الدنيا وما فيها .فإذا آثر الدنيا على الآخرة أقام الحجة على نفسه بجهل يوم القيامة أو نسيانه .وكفى بذلك بلاء على الإنسان أن ينساه الله تعالى يوم القيامة بدليل قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ وأنت ترى أدعياء العلم يقفون على أبواب أعداء الله من

المتسلطين المغتصبين فيتولوهم ومن يتولهم من المسلمين فهو منهم . بهذا التقرير ثبت أن الله تعالى نفى عنهم العلم لتركهم العمل به . والجاهل إذا عمل الذنب نطمع لــه في المغفرة إذا تعلم وتاب ولكن الصغيرة من العالم توبقه في نار جهنم، لأنه استعمل ما به ينال رضوان الله و الفوز بالنعيم المقيم يوم القيامة فيما يغضب الله تعالى ويوبقه في نار جهنم . قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٤﴾

قبل أن نشرح تلك الآية الكريمة، نبين لك سرًا من نداء الله عباده، فإن المنــادى بيــا قريب يسمع النداء، فإذا قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، أو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾، فإنما يخاطب قريبًا منه تسمع من الله روحه سر خطابه، إما سماع بيان أو سماع عيان . أما سماع البيان فما ينكشف للقلب من سر الخطاب كشفًا به تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ثم مقام سماع العيان، وإذا نادى الله تعالى بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أو يا أيها الذين كفروا فقد يكون النــداء للحجــة عليهم أو للرحمة بهم إن أنذر وخوف، فإن قدر الله سبحانه هدايتهم كان نداء للقرب، وإن قدر سبحانه شقوهم كان نداء للبعد، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى : ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تقولوا راعنا فإنكم تقولوها لتفوزوا بفقه كلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويحفظه . ومعنى قولهم رضي الله عنهم راعنا أي انظرنا وتفضل علينا بالتأني، حتى نحصل ما تشرفنا بإلقائه علينا من العلم النافع، واليهود معاصرو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام راعينا بالياء وهي ، كلمة سب في اللغة العبرانية أو السريانية . وكان يعلم ذلك الأنصار، لأن اليهود كانوا حلفاءهم وكــانوا يفهمون منهم كلمات من لغتهم، فلما أن سمعها سعد بن معاذ رضي الله عنه، قــال لقائلها إن أعدتها مرة ثانية قطعت عنقك بسيفي هذا وذهب مغضبًا مــن ســوء أدب

اليهود مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأنزل الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا** ﴾ يعني إذا جلس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يلقي عليكم العلم، وأحببتم أن تتمكنوا من تحصيله، فقولوا أنظرنا، يعني أوردنا أو أمهلنا ولا تقولوا راعنا، فإن اليهود يقلدونكم فيقولون كلمة سب في لغتهم لفظها راعينا، أو يقصدون بها راعنا من الرعونة وقبح الله اليهود فإنها ليست بأول فعلة من نوعها، لأنهم كانوا إذا أقبلوا على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ يحيونه بقولهم : (السّام عليكم) والسّام هو الموت، فكان صلى الله عليه وسلم يرد عليهم من نوع كلامهم . فيقول ﴿ ﷺ وآله﴾ (وعليكم) حتى كان بعض الصحابة إذا سمعوا ذلك قالوا والسّام عليكم أنتم و (لا) هنا ناهية عاملة . إذا كان الله تعالى ينهى المؤمنين عن أن يقولوا كلمة يقصدون بها خيرًا، ولكنها أشبهت كلمة شر عند اليهود فكيف بالمسلم إذا خالف سنة رسول الله قاصداً ذلك . لعل المتساهلين من المسلمين يفقهون كلمة الله بقوله : ﴿ **لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا** ﴾ . وقوله ﴿ **وَاسْمَعُوا** ﴾ أمرنا سبحانه وتعالى أن نسمع قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بإمعان وقبول مع المسارعة إلى العمل به وتبليغه لمن لم يسمع وفى ذلك راحة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ورضا لله تعالى وقهر لليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أي لليهود الذين سمعوا وعصوا والكافرين هنا هم اليهود الذين كفروا بما أنزل الله على رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾. وفى قوله تعالى : ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ نهاية التبكيت لأن العذاب لما كان محكومًا به عليهم للخلود كان كأنه لهم لا يفارقهم، وكما قال الله تعالى في حق المؤمنين ﴿ **الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾أى يرثونها ميراثًا، لأنهم فروا من الدنيا إلى الآخرة أما من كذبوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلهم عذاب أليم، يعني مؤلمًا ألمًا فوق الطاقة البشرية ليذوقوا وبال أمرهم وفى هذه الآية كمال تعظيم المسلمين لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حفظنا الله تعالى من سوء الأدب مع الشريعة الغراء، ورزقنا معية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

بعد أن بين الله لنا عداوة اليهود والنصارى والمشركين بما أقاموه من الحجة على بغضهم للحق من زمان الكليم عليه السلام وقبله إلى أن اشتدت تلك العداوة والعناد مع رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ بحالة ينكرها العقل والعرف . ولولا سماحة الإسلام وما أودعه الله في قلوب المسلمين من الرحمة لما بقى على الأرض يهودى ولا نصراني، ولكن الله تعالى يقول : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ الآية . وبعد هذا الإحسان والعطف والمساواة ترى اليهود والنصارى في كل زمان ومكان يتربصون بالمسلمين الدوائر بغضًا في الإسلام والمسلمين . قال تعالى : ﴿ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا** ﴾ . بعد هذا البيان في صريح القرآن حذرنا الله تعالى من اليهود والنصارى بقوله تعالى ﴿ **مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ الآية . نفى سبحانه وتعالى عن الكفار الذين بينهم بقوله ﴿ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ وهم اليهود والنصارى وعباد المادة كالشمس والقمر والأصنام والبقر ويلحق بهم من عبد المال والرياسة والانتقام عبادة جعلته يتعدى حدود الله تعالى ويخالف أوامره عنادًا وكبرًا . كل هؤلاء لا يحبون أن يتفضل الله علينا بالوحى إلى حبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ **وآله**﴾ ليخرجنا من الظلمات إلى النور ويهدينا صراطه المستقيم، وعلى هذا فإنهم يتمنون لنا الكفر بالله ورسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ويبذلون في سبيل ذلك ما في وسعهم، تارة بالقهر إذا قدروا، وبالدسائس والكيد للمسلمين، ونشر عبارات بين المسلمين هي أوْ هي من نسج العنكبوت لو تعقلوا ما فيها لجللّهم خزيًا ،ولكن الهوى أخو العمى . وقد سبق لى أنى نشرت كتابًا سميته " وسائل إظهار الحق " بينت فيه شيئًا من عداوهم للمسلمين

وردت عليهم ردًا قصم ظهورهم . وقوله تعالى : ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وقوله ﴿ يُنَزَّلَ ﴾ المبنى للمجهول بيان للعلم بالفاعل وهو الله تعالى . وقوله تعالى ﴿ مِّنْ ﴾ في ﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ تفيد الاستغراق و ﴿ مِّنْ ﴾ في قوله ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ لابتداء الغاية والخير هنا هو الوحي . أما قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء ﴾ ففيه بيان لمشاهد التوحيد ووعد بأن الله تعالى يحفظ دينه وأهل دينه من كيد الكافرين مهما قويت صولتهم وجولتهم . قال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وقال سبحانه ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

وهنا سأل سائل عند إملاء الدرس قائلا : هل في زماننا هذا أثر من تلك العداوة حتى يكون تحذير الله تعالى سلفنا الصالح من كيد أهل الكتاب والمشركين منسحبًا علينا، فيكون من الواجب أن ندفع الشر عنا بمثله أم تلك الآيات اقتضتها ظروف الزمان .

فأجاب نفع الله بعلمه قائلا : إن عداوة أهل الكتاب والمشركين لم تكن لاعتقادهم بطلان الدين الإسلامى، لأن كثيرًا من الأحبار والرهبان، اعتنقوا الدين الإسلامى بصدق وإخلاص، ونشروه بين قومهم لما أن اطلعوا على أصول الدين وفروعه، ولكن تلك العداوة دعا إليها خبث نفوسهم والحرص على الطمع في الدنيا لبقاء الجاه والمترلة والتسلط على الناس، فإن رهبان النصارى يرون أنفسهم أربابًا من دون الله، لأنهم يوهمون العامة أن المسيح ابن الله وأنه حل فيهم وأقامهم مقامه في الأرض يحلون ويحرمون ويغفرون الخطايا ويبيعون الجنة لمن شاءوا حتى بلغوا درجة أنهم امتازوا عن الخلق،فلما بلغتهم دعوة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى قيصر في بصرى، وكان قيصر رجلا عالمًا فلما قرأ كتاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ دعاه علمه إلى الإسلام فأحب أن يدعو قومه فأرسل لإحضار من كانوا في الشام من تجار قريش وسألهم عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومترلته في نسبه وقومه وما يدعو إليه، وكان المسئولون من قريش أعداء رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأجابوه عن أسئلته فسكنت نفسه إلى الإسلام . فقال لهم

ولقومه ما بينه الإمام البخارى في صحيحه، فصاح الأحبار صيحة بقر الوحش وهمـوا بقتل قيصر خوفًا على ملكهم، وعلى مالهم من الجاه والمال والمترلة، ورضـوا بالحيـاة الدنيا واطمأنوا بها ﴿ **وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا في الآخرة إِلاَّ مَتَاعُ** ﴾. هذا ما كـان فيمـا سلف . أما الآن واليهود والنصارى والمشركون عبدوا الدنيا، وأفسدت عليهم المـادة عقولهم، وأصبحوا يرون أن دينهم لا تقبله عقولهم، لأن الحجة لم تقم به على العقول كما فعل أكثر دول أوربا كالبلشفيك (الروسيين) وكالفرنساويين والألمان والإنجليز الذين حاربوا الدين النصراني في ذات البابا و لم يبق في أوربا من يتمسك بالدين إلا من جعلوا الدين مصيدة لا ستعباد العامة منهم، ووسيلة لإيقاع الشرق في الفتن والخطوب كالإنجليز وإيطاليا، وإلا فكل إفرنجى خصوصًا من أيقظت قلوبهم إلى البحث والنظر في الصناعات والفنون يرون أن الدين اليهودى والنصرانى لا يقبلهما إلا من فقد عقلـه . ولي ظن إن شاء الله تعالى أن ينشر الإسلام بينهم إذا طهرهم الله تعالى من عمى قلوبهم بالمادة ولوازمها، وإن اليهود والنصارى في هذا الزمن شر مما كانوا عليـه في الـزمن السابق، لأنهم كانوا في عصر كنا فيه أصحاب الطول والحول والقوة فيترلون أنفسهم لنا مترلة الأرقاء، وكنا نعاملهم بالرحمة كما أمرنا ديننا، حتى جاءت الحروب الصليبية في زمان تفرقة المسلمين وتكالب الإفرنج على المسلمين في الشرق، وكانـت تلـك الحملة سببًا في يقظة قلوب المسلمين ورجوعهم إلى العمل بالكتاب والسنة، فنصـرهم الله على أهل الصليب، ووقع ملك فرنسا وملك الإنجليز في الأسر بمصر، ومـن بعـد ذلك أخذ الإفرنج يكيدون لنا في الخفاء ونحن ساهون لا هون، حتى كانت مصيبتنا في الأندلس، فأخذوا يستعملون الدسائس والكيد والسياسة العوجاء فتمكنوا من الشرق بصبغة أنهم مصلحون، فلما أن تمكنوا، لا أبين لك ما بعد ذلك لأن العـداوة للـدين وأهله أصبحت علنًا . انظر إلى فلسطين وإلى مصر وإلى الشام وإلى وإلى وإلى، تـرى الإفرنج أوقعوا العداوة والتفرقة بين أفراد كل أمة فترى في مصر حربًـا عوانًـا بـين المصريين وبعضهم، وترى أصحاب القوة من المصريين يفتخرون بصداقة الإنجليـز، ثم

انظر إلى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ترى شرًا من ذلك، فترى السـلطة بيـد الإفرنج والتنفيذ بيد أصحاب الدولة من الأمة، وترى المنافقين من المسلمين يسارعون في الإفرنج، بل انظر إلى أقرب مكان منك وهو السودان، فترى السواد الأعظم مـن السودان كما رأيت يحبون الله ورسوله حبا ملك عليهم قلوبهم، ومع ذلك فلا تخلـو كل أمة من أهل النفاق، وإن في الغيب لبركانًا لو انفجر لأحـرق هـؤلاء المنـافقين المدعين الإسلام قبل أن يحرق غيرهم، قال الله تعالى : ﴿ **وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وقد سألني أهل فلسطين عن الحكم علي من بيع عقارًا وأطيانًا من المسلمين لليهـود ؟ فأفتيتهم بأن من يفعل ذلك كفر وطلقت زوجته بحجة قوله تعالى : ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ .

وهنا سأل سائل : هل النصارى واليهود والمشركون المواطنون للمسلمين في بلـدانهم يجب أن نحذرهم كما نحذر الإفرنج المتسلطين بقوتهم المادية على بلاد الشرق،فأجاب عليه السلام : إن النصارى واليهود المواطنين لنا من أهل ذمتنا لهم ما لنا وعليهم مـا علينا إلا إذا خالفوا العهود والمواثيق بنصرتهم أعداء المسلمين أو بالطعن على الدين أو بكشف عورات المسلمين للأعداء، فإنا نبرأ منهم ونلزمهم بالرجوع إلى ما عاهـدونا عليه، أو نوجب عليهم الخروج من وطن المسلمين، فإن خيانة أمثال هؤلاء لا يستهان بها لأنهم شر من العدو الخارج، وقد حذرنا الله منهم جميعًا، أما أعداء الله وأعداؤنا من أهل الكتاب والمشركين فإن الواجب علينا الوفاء لهم بما عاهدناهم عليه، فإن جاسـوا خلال ديارنا وطعنوا في ديننا فالواجب على المسلمين أن يكونوا يدًا واحـدة علـى عدوهم، فإن تفرقوا في مثل هذا الحال وتركوا العمل بأحكام الدين فالحكم الشـرعى في هذا على المستضعف أن ينكر بقلبه، وأن يكون إما متحيزًا إلى فئة أو متحرفًا لقتال،

فإنه يكون ناجيًا . أما من رضي احتلال الأعداء وسارع فيهم أو تـــولاهم، فـــالحكم الشرعى أن من فعل ذلك يكون كافرًا بالله ورسوله وتكون زوجته حرامًا عليه بصريح نص القرآن في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَـــلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ** ﴾ وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَـــيْهِم بِـــالْمَوَدَّةِ** ﴾ .
فالنجاة في هذا الزمن وقد تغلب الأعداء فجاسوا خلال ديار البلاد الإسلامية وأعانهم على ذلك أهل ذمتنا من اليهود والنصارى، وأعانهم المنافقون من المسلمين، حتى أخذوا علينا البر والبحر : إذا حصل كل هذا فالواجب علينا أن نتحرف لهجرة أو قتـــال، أو نتحيز إلى فئة قوية تدفع عنا أعداء الله وأعداءنا مع البغض الشديد بما يترل بالمسلمين : وهنا تسن المدارة شرعًا باللسان مع طمأنينة القلب حتى يقضى الله أمرًا كان مفعـــولا وبذلك ينجو المتحصن بتلك الحدود .

كل تلك الأحكام يراعى غيها إخلاص القلب فلا يقبل ممن يتخلص بأن يقول بلسانه إني متحيز إلى فئة أو متحرف لقتال لأن الله يعلم السر وأخفى . وأهل النفاق شنع الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قالوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِـــكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا** ﴾ . قوله تعالى ﴿ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ .

يرد الله تعالى بهذه الآية على يهود بني إسرائيل مبينًا عجزهم وحقارتهم لأنهم لا يملكون شيئًا، والخير والرحمة والفضل في هذة الآية هو وحى الله تعالى إلى خاتم أنبيائه بما بـــه هداية العالم ونجاته في الدنيا والآخرة، وبما به نسخ الشرائع السابقة نسخًا يجعل كـــل متمسك بها مخالفًا لما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ كافرًا، وبذلك أصبح يهود بني

إسرائيل كفارًا ليسوا على شيء من الهدى، وذلك لأن الله تعالى هو المتفضل على من يشاء من عباده لا معقب لأمره، ولا يسأل عما يفعل، يضل من يشاء ويهدى من يشاء، والفضل هو ما يمنح من الخير من غير سبب ممن ناله، والفضل العظيم من الله تعالى هو الرسالة العامة . قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾، وليس فضل الله تعالى بالتمنى ولا بالتعنى، بل هو كما أخبر عن نفسه سبحانه بقوله : ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء** ﴾. فإذا أراد أن يتفضل بخير على عبد تفضل عليه بتأهيله لنيله، فهو الوهاب وهو المعين والموفق، وهو الواضع للأسباب، وفى قوله﴿ **الْعَظِيمِ** ﴾ دليل على أن هذا الفضل من الله تعالى لنيل الخير في الدنيا والآخرة، وللفوز برضوانه الأكبر .

قوله تعالى : مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

هذه الآية الشريفة قصمت ظهور اليهود الذين كانوا ينكرون على رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ، فيقولون إن محمدًا يأمر قومه بالأمر أو ينهاهم عن الأمر ويغيره ليوهموا الناس أن القرآن فيه تغيير وتبديل فأخزاهم الله تعالى بهذه الآية الشريفة التي بينت سر النسخ، والجملة شرطية لأن (ما) اسم شرط جازم وهو مفعول مقدم لننسخ، والنسخ لغة التغيير في هذه الآية، وقد يكون النسخ بالإزالة في قولك : نسخت الشمس الظل والريح أثر الديار . ويأتى بمعنى النقل كقولك : نسخت الكتاب والنسخ في كتاب الله تعالى لا يتحقق إلا في الأمر والنهى، ويستحيل أن يكون نسخ لما جاء فيه من عقيدة وأخبار عن يوم القيامة، أو عن الأمم السابقين، أو فيما دعا إليه عباده لنيل رضوانه الأكبر، والفوز بالنعيم المقيم بمجاهدة النفس وغيرها، فإن ذلك من الآيات المحكمات .

أما الأمر والنهى فإن الله تعالى الرءوف الرحيم بعباده العالم بمقادير عقولهم وقابلياتهم، الذي أخبر عنهم بقوله تعالى : ﴿ **وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا**

﴾ . اقتضت رحمته العلية أن يبتدئهم بما هو مقبول لديهم ليسهل عليهم القيام به حتى تتمرن قواهم العقلية والجسمية على القيام به فيزيدهم من فضله بنسخ ما أراد نسـخ حكمه ولفظه أو بقاء لفظه ونسخ حكمه أو نسخ لفظه وبقاء حكمه مثال ذلــك . قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾ .

ثم نسخ الحكم وبقيت آية الفرائض تتلى بين المسلمين في ذلك، فمن قال لا نســخ في القرآن فهو صادق . ذلك لأن الآيات الدالة على الله وعلى كماله وجمالــه وجلالــه وبهائه ونوره وضيائه، وعلى الأخبار عن الأمم وعن أيامه سبحانه كيوم البعث ويــوم الحساب ويوم الجنة والنار . كل ذلك يستحيل أن ينسخ، والقائل بالنسخ صادق لأنه يريد نسخ الأمر والنهى كما تقدم . والنسء : هو التأخير، والنسيان : هو الترك وعدم الحفظ والذكر . فقوله تعالى ﴿نُنسِهَا﴾، أي بترك العمل بها إن كانت الكلمة الشريفة من النسيان، وإن كانت من النسء فيكون المعنى التأخير . وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه الفاعل المختار في النسخ والنسء أو النسيان، وأنه سبحانه يتفضل علينا بمـا هــو صلاح لنا وخير بدليل قوله تعالى: ﴿ **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا** ﴾ أي نترل آية غيرها يكــون العمل بها خيرًا لنا ﴿ **أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ يكون العمل بها أروح لأنفسنا، وأريــح لأبــداننا، والأجر فيهما واحد . وفى النسخ ما فيه من الخير ومن إقامة الحجة للعباد أهم لا مراد لهم مع الله تعالى، وأن هداهم فيما يحبه سبحانه، والنسخ والتأخير لا يؤثران علــيهم لأهم عبيد مقهورون وعباد مربوبون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يــؤمرون، كما أخبر عن عباده عمار السموات والأرض والأولى لأهل الإسلام أن يسلموا الله في أوامر ه ونواهيه، لأنه سبحانه ينسخ لمصالحنا وخيرنا . وقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَـمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ يخاطب النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ مبينًا له حقيقة ما يعلمه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وهو أن الله الذي نسخ الآية بتغييرها أو أخرها بنسئها قادر سبحانه أن يــترل عليك ما هو خير منها في الأجر إذا عملت به، وما هو أروح لنفسك وأريح لبدنك،

وليس بعزيز على القادر القوي أن يترل عليك ما بالعمل به تتيسـر لـك مصـالحك ومصالح أمتك قال تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وفى هـذه الآيـة الشريفة قهر اعداء الله اليهود وطمأنينة قلوب المسلمين .

قوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

الهمزة للتقرير والخطاب وإن كان لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فالمراد بـه نحـن الأمـة وللعرب في مثل هذه أساليب عجيبة، فقد يخاطب العربى الرجل ويريد قومًـا وقـد يخاطب القوم والمراد به سيدهم .

والقرآن هو الحجة البالغة على هذه الأساليب العالية، كأنه يقول : أنت يا محمـد، أو أنتم يا أمة محمد تعلمون أن الله له ملك السموات والأرض وذكر الجملة الاسمية هنـا دليل على أن ملكة للسموات والأرض ثابت مستقر لا افتتاح لأولية . أما قول القائل : ملكت السموات والأرض، فإن الجملة الفعلية قد تفيد أنه ملكه بعد أن كان مملوكًا لغيره . ولا تقرر بقاء الملك بخلاف الجملة الاسمية . وهنا تنكشف الحقيقـة للعقـول فتسلم صاغرة بأن القادر الذي له ملك السموات والأرض يتصرف فيهما كيف يشاء من تغيير وتأخير ومن محو وإثبات، لا معقب لحكمه ولا شريك له تتره وتعالى .

وقد بينت لك حكمة النسخ والتأخير . وهنا قهر الله أهل الضلال والنفوس الخبيثة بأن أثبت له سبحانه ملك السموات والأرض، وملك ما في السموات والأرض، وملك من في السموات والأرض بحجة أسجدت العقول وأسكنت النفوس إليه سبحانه وتعـالى واطمأنت القلوب، ولكن قلوب من ؟ قلوب من سبقت لهم منه تعالى الحسنى، وأمـا من سبقت عليهم السوءى، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ومعـنى ملـك السموات والأرض : أنه سبحانه هو القاهر فوق عباده المبدع كل كائن، مـن بـه

سبحانه الإيجاد والإمداد، وكل ما سواه محدث فان، وهو القديم الأزلى الخلاق العظيم لا يسأل عما يفعل . وعناد اليهود وإنكارهم النسخ والتأخير دليل على أن الله جـل جلاله سجل عليهم ما سجله على إبليس أعاذنا الله منه .

قال تعالى : ﴿ **فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** ﴾ وهنا إشارة لأهل القلوب في هذه الآيـة الشريفة، وهي ، أن الله بين لنا أنه تعالى قادر حكيم . فبين القدرة بقوله : ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾، وبين الحكمة بقوله : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْـكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾، وأهل محبة الله تعالى يمكنهم الله في مشاهد عجائب القـدرة وغرائب الحكمة، فمن شهد القدرة وتاه عن شهود الحكمة هلك، لأنه يرى القـدرة بدون حكمة فتخفى عنه الكائنات فيحكم بما يقوله الفاسق من ضلال المتصوفة بوحدة الوجود، والوجود ليست له وحدة إلا عند من أوقعهم الله في التيه . ومن شهد الحكمة الغريبة و لم يلحظ القدرة نسى الله تعالى وهو في مهاوى الضلال، لغفلته عن القـدرة، ولا نجاة للعبد المسلم إلا بعلم القدرة والحكمة، فإنه بالقدرة يشهد نور الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ . وبالحكمة يشهد البرزخ بين الخالق والخلق وبين المالك والمملوك وبين العبد والرب، فيرى الأكوان مظاهر جماله وجلاله وألواح آياته وهـو العلي العظيم، ليس له مجانس يجانسه، تترهت ذاته أن تكون ظرفًا للأشياء، وتعالت أن تكون الأشياء ظرفًا لها، وكان الله ولا شيء قبله وهو على ما عليه كان، لم يغيره إيجاد الأكوان، فهو هو والأكوان قائمة بقيوميته، وهو بعد فناء الأكـوان، جلـت ذاتـه وتترهت صفاته وتقدست أسماؤه . قوله تعالى : ﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِـيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ** ﴾ .

هذه الجملة شراب طهور لأهل الإيمان تجذبهم إلى الفناء عن الكـونين فـرارًا إلى الله تعالى، فتقيمهم في مقام المشاهدة التي يتحققون فيها بلا حول ولا قوة إلا بالله . وهو مقام الإحسان الذي بينه رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بقوله: " الإحسـان أن تعبـد الله

كأنك تراه " والآية تنفى عن كل مسلم اعتقاد أن له وليًا أو نصـيرا مـن دون الله، والولى بوزن فعيل الذي يدل على فاعل ومفعول وهنا بمعنى فاعل . ومعناه أنه ليس لنا من يتولى إيجادنا وإمدادنا، ولا من يغذونا بما به قوام أجسامنا وقوام أرواحنا، ولا من يتولانا بالحفظ وتجديد الضروريات والكماليات، ولا من يعصمنا من شـر الشـيطان الرجيم وشر نفوسنا الأمارة وشر أهل الشر إلا هو جل جلاله، وبذلك يعرف المسلم نفسه ويعرف ربه، فيحب فيه ويبغض فيه . ولا يرى نافعًا أو ضارًا سوى الله تعـالى، بل كل من علي التراب وفى التراب من التراب وإلى التراب، وبذلك تعظم نفس المسلم فلا يرى فوقه إلا ربه، فإذا سأله لباه . والنصير بوزن فعيل أيضًا وهو بمعنى فاعل . وإذا انحصرت صفات الجمال والجلال والكمال والبهاء والضياء والنور في الله تعالى وتمثلنا ذلك بقدر قوانا العقلية ظهرت أنوار وجهه العلي لنا حيث ولينا وجوهنا . ومسـلم يرى وجه الله محيطًا ودعاه إبليس أو النفس الاماره بالسوء إلى ارتكـاب معصـيته في خلوة هل يرى خلوة، فالمسلم لا يكون مسلمًا كاملا إلا إذا تداركه الله عند الخطـر كما تدارك يوسف بن يعقوب .قال تعالى : ﴿ **لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ يعني لهمّ بها على تقدير جواب لولا .

قوله تعالى : أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَـدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

إن الله تعالى خلق الإنسان جامعًا لكل الأنواع الكونية بحسب مراتب الوجـود مـن جماده إلى ملكوته، فلا يختلف الإنسان عن الإنسان بحسب فطرة طبعه، فمن كـان في زمان آدم والذي في زمان إبراهيم وموسى وعيسى وفى زمان رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من حيث الفطر والسجايا والغرائز وما وقع فيه شر إنسان في زمان الأنبيـاء علـيهم الصلاة والسلام يقع فيه الإنسان الشرير في زمان رسـول الله ﴿ ﷺ **وآلـه**﴾ إذا لا عجب إذا قام من يسأل رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قائلا له : ﴿ **أَرِنَا اللّهِ جَهْـرَةً** ﴾،

ومن يقول : أنزل علينا كتابًا من السماء نقرؤه، وفجر لنا عيون الماء لنؤمن بك، ومن يقول : اجعل لنا الصفا ذهبًا . فإن الله سبحانه خلق النفوس من جواهر مختلفة، فمنها ما هو من سجين، ومنها ما هو من عليين وبينها أنواع شتى . والإنسان من حيث هو إنسان قابل للخيرات وللشرور . قال تعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ . ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ** ﴾ وكان الأولى بهم أن لا يسألوا، لأن التثقيف قد يزكى النفوس ولكن النفوس الأمارة بالسوء لا يزيدها التثقيف إلا شرًا . أما سؤال أهل الإيمان لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فكان لتمني مزيد الأدب مع الله تعالى . قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا نبغيها " ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل .

كان بنو إسرائيل إذا فعل أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفّرها كانت له خزيًا في الدنيا وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة، فقد أعطاكم الله خيرًا مما أعطى بني إسرائيل قال تعالى ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾، وقال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن "، وقال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: " من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنه فإن عملها كتبت له عشر أمثالها " . ولا يهلك على الله إلا هالك . أما قوله تعالى : ﴿ **أَمْ** ﴾ فإنها وإن اختلف فيها تأويل العلماء فالأوجه أن يكون الاستفهام بمعنى الهمزة وليست دالة على الشك لأنها هنا للإنكار والتوبيخ، والتقبيح عمل من يسألون رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ كما سئل موسى عليه السلام، فإنهم إن سألوه شيئًا لا تقتضيه الحكمة الإلهية لجهل السائلين الأدب ومنعه الله، كفروا ،وإن كان من الحكمة فأعطاهم الله ما سألوا، فإما أن يؤمنوا وإما أن يكفروا كما كفر بنو إسرائيل، وفى ذلك من الخطر ما فيه، فإن الذي يسأل الرسل صلوات الله

وسلامه عليهم إظهار ما يعجز البشر، دليل على الإنكار والكفر، والنفـوس المنكـرة الخبيثة لو أتيت ما سألت ما ازدادت إلا خبثًا . ﴿ **وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ** ﴾ حجة قاصمة لظهور من ينوون السوء والإنكار علـى الرسـل صلوات الله وسلامه عليهم ويظهرون الرغبة في الاستدلال على صـدقهم، وهـؤلاء رضوا بالكفر وكرهوا الإيمان، لأن المستبدل المقبول هو الكفر، والمستبدل بـه هـو الإيمان، ودليل ذلك تعرضهم بالأسئلة المعجزة للخلق ليصدوا عباد الله عن سـبيله ولا مقصد لهم إلا هذا ولذلك حكم الله عليهم بالكفر خصوصا السائلين من اليهود ومن كفار قريش . أما السائلون من أهل الإيمان الذين يسألون التشديد عليهم في العبادة أو غير ذلك، فإنما هم قوم شددوا على أنفسهم فيسر الله لهم رحمة منه سـبحانه والأدب أن لا يسأل الإنسان، فإن الله تعالى أعلم بالإنسان من نفسه وأعلـم بمصـالحه، وأن يكون وسطًا فلا يتمنى تخفيفًا ولا تشديداً رضًا بما أنزله الله تعالى، و ﴿**مَـن**﴾ هنـا شرطية، وقوله ﴿ **يَتَبَدَّلِ** ﴾ فعل الشرط، أي تدعوه شهوته إلى ما يلائم طبعه وفطرته فتقهر عقله وتحجب نور الإيمان عن أن ينفذ إلى قلبه فيغضب الله بأقوالـه وأعمالـه وأحواله في ذات رسله عليهم الصلاة والسلام وهؤلاء حكم الله عليهم حكمًا عـدلا ولا معقب لحكمه فقال سبحانه في حكمه عليهم ﴿ **فَقَدْ ضَـلَّ سَـوَاء السَّـبِيلِ** ﴾ والفاء هنا رابطة للجواب لدخول قد المفيدة لتحقيق الوقوع الذي اقتضاه الأمر الواقع وضل أي خالف أو تجاوز أو مال ﴿ **سَوَاء السَّبِيلِ** ﴾ وسط السبيل أي السير علـى الصراط المستقيم الذي هو أقرب طريق إلى الوصول . ومن ضل سواء السبيل سـلك طريقًا معوجًا يميل به عن جادة الصراط بدايته هوى وحظ وشهوته ونهايتـه حطمـة ولظى وسعيرا أعاذنا الله وإخوتنا المؤمنين من الضلال والإضلال ووفقنا وهدانا صراطه المستقيم في حصون السنة عاملين بالكتاب المجيد .

قوله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠٩]

هذا تحذير من الله تعالى بعد التحذير الأول وإيقاظ لقلوب المؤمنين رحمة ربنا ورأفة من الله تعالى ومن رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ حتى لا نخدع بقول الكافرين ولا المنافقين . وسبب نزول هذه الآية أن بعض يهود قريظة وقينقاع كانوا يلقون الصحابة كعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فيقولون لهما لو كان محمد على الحق لما حصل ما حصل يوم أحد والأولى أن تتهودوا معنا فإن ديننا هو الحق فيقول لهم عمار ابن ياسر . ما تقولون في نقض العهد عندكم فيقولون خيانة عظمى فيقول وأنا عاهدت محمدًا على ما جاءنا به فلا أخون عهدى أبدًا، ويقول حذيفة رضي الله عنه . أما أنا فقد رضيت بالله تعالى ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ نبيًا وبالقرآن إمامًا وبالكعبة قبله وبالمؤمنين إخوانًا ثم ذهبا فاخبرا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بذلك فأنزل الله تعالى تلك الآية طمأنينة لقلوب المؤمنين وتلك الآية أزلية وهي ، أبدية أيضًا فما خاطب الله به أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يخاطبنا به الآن وبعد الآن إلى قيام الساعة فإن القرآن لا يزال طريًا غضًا كأنه نزل علينا اليوم لا تنتهى معجزاته ولا تنحصر آياته ألفاظه قدسية جذابة للأشباح والعقول وأنواره إلهية مسكرة للأرواح، فالله تعالى يحذرنا في الزمان أن لا نصغي لقول عدو لله عدو لرسول الله عدونا، ولا تميل قلوبنا إلى المنافقين الذين أعماهم الحظ والهوى ممن يدعون الإسلام وليسوا بمسلمين ممن يدلون على غير رسول الله ليسلبوا أموالنا و لم يحذرنا الله تعالى ممن يدلونا على رجل عالم حى عامل بكتاب الله وبسنة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منحه الله العلم والحكمة والفقه في دينه، فإن ذلك متعين حتى ينتفع المسلمون بدليل قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وفى ﴿مِّنْ﴾ إشارة

إلى التقليل . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ فالعالم بالله العالم بأيام الله العالم بأحكام الله العالم بحكمة أحكام الله يجب عليه أن يعلم الناس ولو ناله في ذلك ما ناله مما حصل لمن يعلم شريعته عليه الصلاة والسلام.ومعنى ﴿وَدَّ ﴾ هنا أي تمنى والمتمنى باذل ما في وسعه لنيل أمنيته فلا يترك كذبًا ولا افتراء ولا خدعا ولا كيدًا لرد المؤمنين عن الإيمان إلا فعل . وقد ابتلينا في هذا العصر المظلم بشر خلق الله (الإفرنج) الذين ملأوا الارض خمرًا وربًا وزنًا ونشروا بيننا دعاة الشر (دعاة النصرانية) الذين يسموهم كذبا (مبشرين) وما هم مبشرون، ولكنهم مهلكون فيراهم المنافقون ممن يدعون الإسلام يذمون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ويكذبون القرآن ويدعون أن الله ولد ولدًا وما كان لله أن يتخذ من ولد وتنزه وتعالى . هل حضروا عقد العقد ليلة زواج ربنا بمريم وما كان صداقها ولو أن رجلا قال للآخر إن جملا تزوج بنملة لعلا رأسه بالنعل تكذيبًا له والجمل حيوان والنملة حيوان فكيف تقبل العقول زواج رب كبير أبدع الكائنات بقدرته وأبرزها بحكمته لا جنس له يجنس به ولا كم له ولا كيف : إن تلك العقول لأخس من عقول الحيوانات السائمة لا تعجب، فإن أكثر العالم يعبد البقر، والعجل، ويعبد فرج النساء ويعبد الكواكب . قال تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، ولكن عجبى من أن أرى أهل الأديان التي لا تقبلها البهائم كيف يقبلوها وينصروها ويرمون الشمس في على مكالها بالأحجار، وقد ظهرت الحجة ووضحت المحجة ولا مرد لقضاء الله تعالى .

هذا التمنى من أهل الكتاب في زماننا هذا ليس المراد به التعصب للنصرانية واليهودية، وإنما ذلك دسيسة من الدسائس يريدون بها وقوع الحرب بين الشرقيين وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم ويستعملوهم عبيدًا لهم كما كانوا عبيدًا لنا أيام تمسكنا بديننا . والذي أراه أن كل مسلم أحب عاصيًا أو منافقًا أو والى كافرًا سلب إيمانه وطلقت زوجته

سواء أكان هذا الكافر من المتغلبة كالإفرنج أو ممن تفضلنا عليهم وأدخلناهم ذمتنا كنصارى مصر والشام فإن حكم الله لا يتجزأ بدليل قوله تعالى : ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ فلم يعين نوعًا مخصوصًا بل كل من لم يصدق رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فهو عدونا إلا أنه يجب علينا أن نداري المتغلب منهم كدول أوربا الظالمة الغاشمة، أهلكهم الله وأرونا فيهم ما أرى سلفنا الصالح فيهم من رق وذل وخزى حتى نتمكن فنجليهم عن أرض المسلمين . أما أهل الذمة فلا مداواة لهم عندنا، بل الواجب علينا أنهم إذا خالفوا ما عاهدونا عليه أن نقرهم إما على الإسلام أو القتل أو إجلائهم عن بلاد الإسلام، وقد بين الله لنا علة إقدامهم على محاربة الإسلام بالدعاية مرة وبالحديد والنار أخرى، وبانتشار الخمر والربا والزنا طورًا، وبالكيد والخديعة للأغنياء والأمراء، وبختل العلماء بما ينيلونهم من زبرج الدنيا وزخرفها بقوله تعالى : ﴿ **حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم** ﴾ فالله تعالى بين لنا أن عداوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى لنا ليست لأنهم على الحق ونحن على الباطل ولا لأن الحق لذى عينين في أصول ديننا ودينهم نحن نقول : " لا إله إلا الله محمد عبد الله ورسوله " فنثبت للجناب العلي التزاهة والقداسة والتبرئة من كل عيب يكون ضروريًا للإنسان كالزوجة والولد والصاحبة والمكان والزمان واللباس والمأوى والألم والسقم والصحة . وكل تلك الأدوار المثنوية تتزه الله تعالى عنها وثبت لمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ صفات البشرية وأعراضها، وأنه مخلوق مثلنا إلا أن الله تعالى أكرمه فأطلعه على غيبه المكنون ومنحه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ما منح رسله السابقين،وزاده على ذلك بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فجاءنا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ متوجًا بتاج العبودية والخشوع لله تعالى، وكان يأكل كما تأكل العبيد، وقال لنا كما قال له تعالى : ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ حتى أكسبنا يقينًا حقًا أن ربنا الله تعالى فلا نرى فوقنا أحدًا سواه سبحانه وتعالى، ولا نرى لنا إمامًا إلا القرآن ولا قبلة إلا الكعبة ولا رءوفًا رحيما بنا

أنجانا الله به من ظلمة الكفر ومن عذاب جهنم إلا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وقد مضى أربعة عشر قرنًا و لم نسمع أن مسلمًا رأى أن رسول الله إلهًا أو ابن الإله أو رفع قدره حتى ساوى مقام الألوهية بل كل مسلم يقول لا إلــه إلا الله محمــد عبــد الله ورسوله، وكفى ديننا بذلك شرفًا . أما اليهود فإنهم يقولون عزير ابن الله ،والنصارى يقولون المسيح ابن الله، وبعضهم يقول هو الله، فهل بعد أن قامت الحجة ووضــحت المحجة تقوم لهؤلاء الخفافيش قائمة فيهرفون بما لا يعلمون، أعاذنا الله تعالى من ســابقة السوءى، وأعاننا على الشكر على نعماه وجملنا بالأدب لحضرته ،بين لنــا أن هــذه المهمة إنما كانت حسدًا من عند أنفسهم . والحسد أنواع منه ما هو حــرام، ومنــه المكروه ومنه المرغب فيه كما قال ﴿ﷺ وآله﴾ ((لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في سبيل الله، ورجل آتاه الله علمًا فهو يعمل به ويعلمه الناس)) أما الحسد الحرم فهو صفة من صفات إبليس لأن أول حاسد هــو إبلــيس حســد آدم، والحسد في اللغة هو تمنى زوال نعمة الغير، فإن تمنى زوالها لينالها كان كافرا، وإن تمــنى زوالها لبغضه للمنعم عليه بها كان ظالمًا لنفسه وإن تمنى زوالها لتكــون لــه الســيادة والشهرة كان مرتكبًا أكبر كبيرة، وكفى الحسد شرًّا أن الحاسد فقد الرضا عــن الله تعالى وأنكر ألوهته، ولذلك فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكــل النــار الحطــب والحسد فطرة بشرية، فالذين جاهدوا أنفسهم راقبوا الله تعــالى فأشــهدهم مشــهد التوحيد العلى، فرأوا أن الفاعل المختار هو الله تعالى وهو المعطى المانع فقد يعطى خيرًا دنيويًا للإنسان ويمنعه عن آخر فيعطيه بمنعه خيرًا مما أعطاء لغيره لأن الله تعالى ما منع إلا وأعطى ولا أعطى إلا ومنع، فإن سبحانه إذا أعطى خيرات الدنيا من المال والعافية ونفوذ الكلمة والأولاد منع الهداية والتوفيق والاستقامة، وإذا منع مــن العبــد المــال والعافية أعطاه اليقين والرضا، فإن جاهد نفسه ورضي كان مع الذين ﴿**أَنْعَــمَ اللّــهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ**﴾ وإن أهمل نفسه وحسد أهل النعمة الحسد المحرم شرعًا لجهل هذا الحاسد فإنه ينكر على ربه نعمته، ويعارض المنعم

في كمال تصرفه وإطلاقه جل جلاله، فيسجل على نفسه الحكم بالكفر راضيًا ويعيش في هم وغم ناسيًا نعم الله عليه . قال تعالى : ﴿**الْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا** ﴾، لأن المؤمن إذا تذكر يوم القيامة اضمحلت الدنيا في عينه وتمنى الذل والفقر . وقد يبلغ بالحاسد أن يحقد على المحسود فيصيبه ما قدره الله عليه بسبب الحسد فيكون محاربًا لقضاء الله وقدره، بغضًا لنعم الله على عباده، ولو تذكر ما أنعم الله عليه من العافية والسمع والبصر والزوجة والمأوى والطعام والشراب لعجز عن شكر الله على نعمه المتوالية عليه، وإن كان و لابد من الحسد لأنه فطرة، فليحسد أهل التوفيق والهداية ليكون مثلهم قوله تعالى : ﴿ **مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم** ﴾ يخزى الله اليهود بالحكم عليهم بأن هذا السحر لم يتزله الله على نبى من الأنبياء كما يدعون أنه نزل على سليمان عليه السلام وثبت أهم قوم بهت، تسلطت عليهم النفس الأمارة بالسوء فتلقت من الشياطين ما يلائمها . قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ ورفع قدر عباده المؤمنين عن أن تتدنس أنفسهم بتسلط الشيطان عليهم، لأنه صاغ أنفسهم من نوره بدليل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾، وهنا يبين الله تعالى أنه وإن قدر علي شياطين الإنس من اليهود الكفر بعلمهم السحر، فإنه سبحانه لم يأمرهم بذلك وهاهم عنه وحذرهم من عمله، وأخفى عنهم قدره وأظهر لهم أمره سبحانه، فخالفوا الأمر بما فطرت عليه نفوسهم الأمارة بالسوء . قال تعالى : ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ أثبت الله تعالى خبث أنفسهم وفطرها على العناد ومسارعتها إلى ما يغضب الله ورسوله، لأهم لم يقبلوا الحق من الله تعالى، ودعتهم أهواؤهم وحظوظهم إلى اتباع أعداء الله تعالى من شياطين الجن والإنس، وإلى رمى أنبياء الله بما لا يليق بمقامهم، وإلى الكذب على نظائرهم وأشباههم من الخبثاء بأن ذلك العمل (السحر) بقولهم إن هذا موروث عن سليمان وآصف بن برخيا مثبتين ذلك بما أجراه الله على يد آصف بن برخيا من إتيانه بصرح بلقيس قبل أن يرتد البصر، وما أكرم الله به

سليمان عليه السلام من قهر مهرة الصناع من الفينيقيين الذين أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ** ﴾ أي لسليمان عليه السلام، وقد برأ الله سليمان مما افتراه عليه شياطين اليهود بقوله تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ .. والشيء بالشيء يذكر . بتلك المناسبة أقول : إن الشياطين قد كثروا في هذا العصر، فإن صناع بني الأصفر ورثوا هذا العلم من الشياطين فتراهم الآن يصنعون التماثيل والجفان التي هي كالجواب والقدور الراسيات وغير ذلك مما لو كان قبل أن تتضح للعقول أسرار الكون بالقرآن المجيد لعبد الصناع من دون الله تعالى ولصدقوهم فيما يدعون، ولو قالوا إننا آلهة، ولكن القرآن بنوره الساطع حفظ العقول بما بينه من أسرار الحقائق ومن تتريه الله وتقديسه وعلو قدره عن أن يكون على التراب من يشابهه سبحانه وتعالى، بل هو الذي وهب العقول، وأودع في الكون كنوزًا غالية وجعل مفاتيحها العلوم والصناعات . اللهم إنا لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، والفنيقيون هم سكان صور وصيدا في زمان سليمان عليه السلام قهرهم سليمان وأجلاهم عن أرضهم إلى أرض بيت المقدس وكانوا من مهرة الصناع بحرًا وبرًا يشبههم الإنجليز في هذا العصر، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿**وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾ أي في ظلمات السجون، وقد ظهر قرن الشيطان في زماننا هذا على يد أقوام يريدون تفرقة المسلمين، وهم الذين يسمون أنفسهم بنائين (ماسون) أعاذنا الله من شرهم، والمعنى أن شياطين بني إسرائيل (السحرة) بين الله لهم في التوراة صراطه المستقيم ونهاهم عن الوقوع فيما يغضبه من السحر وغيره، ومع ذلك فإنهم لم يقبلوا عن الله ما دعاهم من الخير لهم، وأبت نفوسهم إلا معاداة الحق حفظنا الله وإخواننا من الوقع فيما يغضب الله تعالى وأقامنا في محابه ومراضيه إنه سميع الدعاء ﴿ **فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ في هذه الآية أسرار خفية عن فهم العقول وعن دركها بالأفكار، لأن أهل العقول يرون في

قوله تعالى ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ ﴾ أن هذا أمر من الله تعالى بما يكرهه ثم يتأولون بعد ذلك تأويلات بقدر عقولهم والذي يظهر لمن جعل الله لهم نورًا في قلوبهم أن الأمر من الله تعالى بالعفو والصفح مراد به الخير لنا، لانه سبحانه أحب أن يمنحنا التخلق بأخلاقه العلية من جهة . وأراد سبحانه أن يعلمنا أنه لابد من تنفيذ ما قدره على بعض خلقه حتى يأتى الوقت الذي يزيل هذه الضَّلالة إما بهداية فاعليها أو بمحقهم من على وجه الأرض بما يمنحه سبحانه أهل الحق من القوة والتمكين في الأرض، فأهل المعرفة يتذوقون من هذه الآية أسرار الحكمة العلية وغيب أخلاق الله الجميلة فيتعلمون الحكمة ويتذوقون أنوار القدرة ويتحققون بقوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وبذلك تجمل أخلاقنا لأنه أمرنا بالعفو والصفح عن ظالمى أنفسهم بالكفر وعداوة الحق لنعتبر بذلك فنعفو عمن ظلمنا ونصفح عمن أساء إلينا، ثم إنه سبحانه وتعالى نسخ هذه الآية في هذا الشأن الخاص، وطالبنا بمعناها في أنفسنا من العفو والصفح، قال تعالى تدليلا على نسخها : ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وقال تعالى : ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ .وقد بلينا في هذا الزمان بقيام المشركين وأهل الكتاب علينا كافة وخصوصًا أهل ذمتنا الذين أقمناهم بين ظهرانينا أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، متمتعين بالحرية والمساواة وبالأمن والسلامة، بل ومتمتعين بما لا نتمتع به من الأموال والراحة . وهنا أورد لك ما كان يتمتع به أهل الذمة من نصارى مصر والشام والعراق ويهودها .بكى أبو يوسف عند موته، فقيل له : ما يبكيك وأنت الإمام العادل ؟ قال إنى أخشى من وقوع حادث، وهو أن يهوديًا خاصم عندى أمير المؤمنين هارون، فأرسلت إليه ليسمع الخصومة فحضر، فمالت نفسى إلى أن يكون الحق لأمير المؤمنين، فكان عليه، فحكمت به على أمير المؤمنين، فأنا أخشى من ميل نفسى أن يعذبنى الله به . وهذا ما

كان يعامل به أهل الكتاب أيام صولة الإسلام وجولته، وأيام طوله وحولـه، وأهـل الذمة هؤلاء هم شر علينا من المتغلبة من دول بني الأصفر .

قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

حفظت قوله تعالى : ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ﴾ من أن تكون الآية منسوخة لأنه أمر مـن الله تعالى بالمدارة من الكفار بالعفو والصفح، وفيها من أدب الله تعالى لعباده الصالحين ما فيها، وكأن الله تعالى يقول فيها لأمة محمد ﴿ﷺ وآله﴾.إذا بليتم بقـوم ظلمـة متغلبة فلا تخاطروا بأنفسكم بإعلاهم بالحرب، ولكن تحرّفوا أو تحيزوا وأظهروا العفو والصفح انتظارًا لفرج الله تعالى . قال ﴿ﷺ وآله﴾: (لن يغلب عسر يسرين) . وفى الأثر ك انتظار الفرج بالصبر عبادة وقوله تعالى : ﴿فَاعْفُواْ وَاصْـفَحُواْ﴾ كـلام الله القديم المخاطب به كل مسلم من لدن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إلى يـوم القيامـة : يأمرنا بالعفو والصفح عن أعدائه وأعدائنا، فكيف يكون حالنا مع المسلمين إخواننا .. أرى من المسارعة إلى محابه ومراضيه أن يطلب المظلوم مـن أخيـه المسـلم الظـالم العفووالصفح تأليفًا للقلوب، وقطعا لشأفة الشيطان من قلب أخيه . وقد أمر الله تعالى أبا بكر الصديق بقوله تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُـمْ﴾ في حادثة الإفك التي أذاعها مسطح قريب أبي بكر رضي الله عنه، والذي أغدق عليـه أبو بكر النعمة ورباه صغيرًا في بيته، فلما أذاع الإفك طرده أبو بكر من بيته . وكـان الأحرى أن يقتل بالسيف حدًّا، ولكن الله قال لأبي بكر ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَـا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقال أبو بكر عفوت وصفحت وإن كان الحكم في الآية خاصًا بأبي بكر إلا أنه عام للمسلمين، فإن خصوصه في سبب النزول والحكم عام ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ : منعت الآية السابقة من النسـخ لأن الله لا يـأمر بـالعفو والصفح عن أعدائه، لأن العفو والصفح عن أعدائه من الكبائر فكيف يأمر الله تعـالى بالكبائر، فلما قال ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ علمنا أن هذا العفو والصفح مقيـد .

والمراد بأمر الله تعالى هنا إبراز ما قدره في إنزال آية القتال في وقتها الذي قدره لهـــا . وقد نزل أمر الله تعالى بقتال المشركين في قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ وقوله تعالى ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَـــرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ الآية . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني أن قدرته صـــالحة أن تهلك أعداءه وأعداءك وأعداء أصحابك في أقرب من لمح البصر، ولكن حكمته العلية أخفت في الغيب أمورًا : منها هداية بعضهم بتمحيصهم، ومنها أن تكون الحجة البالغة عليهم، ومنها أن يعلمنا أن نتجمل بالحلم والأناة في أعمالنا، لأن القوي القادر أرجـــأ أعداءه حلمًا بهم وصبرًا عليهم، جملنا الله بجمال أخلاقه إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

سبق لنا أن بينا معنى الصلاة ومراد الله تعالى من إقامتها ولكنا لا نخلى هذه الآية مـــن المزيد . معلوم أن الصلاة عمل قلبى جسمانى، وقد دللنا على ما يتعلق بأركانها وسننها الجسمانية، وبقى أن نتكلم على ما يتعلق بعلم الرعاية في الصلاة وعمل القلوب .

أثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَـــلَاتِهِمْ خَاشِـــعُونَ ﴾، والخشوع من أعمال القلوب، ولا يخشع القلب إلا إذا تصور ثلاثة معان : لمن يصـــلى استحضارًا وحضورًا . وبمن يصلى علمًا ويقينًا . وبعمل من يقتدى في تأدية صـــلاته حتى يكون أشبه الناس برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾؟ ومن تجمل بتلك المعانى الثلاثة أقام الصلاة حقًا . وقد شرحنا إيتاء الزكاة فيما سبق وبينا أنواعها ونصابها ونصاب كـــل نوع، والقدر الذي تؤتى به الزكاة، والأنواع التي تعطى لهم الزكاة ولكن هنا نز يدك بيانًا . الزكاة في اللغة : الطهرة . وإنما أوجب الله عليك الزكاة لتتحقق أنـــه يملـــك نفسك ومالك ويتصرف فيهما بما شاء وكيف شاء، لتقوم الحجة على كمال إيمانـــك أنك على يقين أن الله هو الخلاق العظيم الملك فأمرك بإخراج القليل الأنـــواع الـــتي

ذكرها في آية الصدقة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

وإذن لا تكون الزكاة مقبولة إلا إذا أنزلت نفسك منزلة العبد المملوك لله لا يملك شيئًا وليس له التصرف في ماله ولا نفسه إلا بأمر الله له . فمن أخرج الزكاة غافل القلب عن رعاية ما بينته لك طولب عندنا بإخراج الزكاة، لأن الله تعالى إنما ينظر إلى أعمال القلوب، فإذا تجردت اعمال الجوارح عن رعاية القلب لم تسقط الزكاة عنه، والله تعالى غفور رحيم .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ ﴾ هذه الآية بشرى ووعيد ، أما كونها بشرى : فهي خبر من الله تعالى للمؤمنين بأن لهم ثواب عملهم وأكثر . وأما كونها وعيدًا : فهي للمتساهلين من المسلمين الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذين ربما أخروا الصلاة عن أوقاتها أو شغلتهم شئوهم الكونية عن رعايتها بقلوبهم بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ و"ما" للشرط و" تُقَدِّمُواْ " فعل الشرط و " تَجِدُوهُ " جواب الشرط، والضمير كناية عن أن تجدوا ثواب ما علمتم فإنا لا نجد ما عملنا يوم القيامة ، وقوله: ﴿ عِندَ اللّهِ ﴾ يعني مدخرًا أو محفوظًا لنا يوم الوقوف بين يديه سبحانه، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هذه الآية تشرح صدور المؤمنين وتترعج منها قلوب المنافقين، لأن المؤمن يحب أن من يعمل له عملا يراه في عمله، فإذا تحقق ذلك تجمل بقلبه وقالبه في العمل و ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فعيل، وأصله مبصر، كما أن بديع أصله مبدع، وبينا ذلك فيما مضى .

قوله تعالى : وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿[١١١]﴾

يكذب الله تعالى اليهود والنصارى الذين يثبت كل فريق منهم أنه يدخل الجنة مغرورًا بما هو عليه من الدين الذي يظنه حقًا . ولو تعقّل بعد أن بين القرآن ما بين لفر من دينه فراره من الأسد، لكنهم مع هذا الباطل يحكمون لأنفسهم بما لا حقيقة له . ومعنى ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ أن النصارى قالوا لن يدخل الجنة إلا النصارى، وقال اليهود لن يدخل الجنة إلا اليهود، لأن بينهما حرب العداوة والبغضاء . وكل فريق منهم يكفر الآخر وينكر عليه، ويفتيهم بعض الناس في هذة الآية أن اليهود والنصارى قالوا هذه الكلمة مؤتلفين . ودلالة الآية بحسب القرائن المعلومة تدل على ما بينته لك . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ أي ما يتمونه لغرورهم وجهلهم بالحقيقة . قال العربي : إن الأماني والأحلام تضليل . فشنع الله عليهم بقوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يقول لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، قل لهم يا محمد : أقيموا الحجة على صدق قولكم، لأنكم قبلتم من الأحبار والرهان مالا حجة عليه ولا دليل من العلم على صدقه، وأنتم يا معشر اليهود تعلمون حقًا نعت رسول الله في التوراة وأنه خاتم الأنبياء ومع ذلك فإنكم تجحدون الحق وتحاربون العلم عنادًا وحسدًا من عند أنفسكم غير مبالين بوعيد الله الذي يهدد به المكذبين بكتبه، وكفاهم بذلك شرًا .

قوله تعالى : بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[١١٢]﴾

بينا فيما سبق معنى ((بلى)) ولا نخليها هنا من المزيد ((بلى)) جواب للتحقيق توجب ما يقال لك لأنها ترك للنهي وهي ، حرف لأنها ضد ((لا)) . قال تعالى : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي خالف ما يزعمه النصارى واليهود من أن الجنة لا يدخلها إلا يهودى أو نصرانى، منكرًا عليهم قولهم، فكذبهم في خبرهم وأسلم وجهه لله وهو محسن . والمعنى أن كل من أسلم وجهه لله محسنًا في إسلامه متجملا

بجمال أهل الإحسان الذين يعبدون الله كأنهم يرونه هم الذين يفوزون بالنعيم المقيم في الجنة العالية منعمين بشهود جمال الله سبحانه وتعالى، لأن الله لا يعطى ما عنده إلا لمن سمع من أنبيائه، وأطاع مجاهدًا نفسه في ذات الله ليفوز بما عند الله . وفى الكلام طــرد لليهود والنصارى عن نيل النعمة والرحمة يوم القيامة، وتكذيبهم فيما حكمــوا بــه لأنفسهم ﴿ وَأَسْلَم ﴾ بمعنى استسلم، أي خضع وذل وخشع لله تعالى . و ﴿وَجْهَه﴾ كناية عن حقيقته وكليته، لأن الوجه أشرف الأعضاء وأعلاها وأعظمها . ومــن ذل وخضع وخشع بوجهه دل ذلك على ذل باقي الجوارح بالأولى . و ﴿ مَنْ﴾ شرطية، و ﴿ أَسْلَمَ ﴾ فعلها . وقوله تعالى ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِند رَبِّهِ﴾ جوابــه . ﴿ وَلاَ خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جاءت دلالة على معنى لفظ ﴿﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّــه ﴾، وتأويل﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أن الخوف هو الهم من توقع العقوبة على ما فرّطوا في جنب الله تعالى لمخالفة أمره، وبالوقوع فيما نهى، وهذا لا يكون إلا عند الموت فيرسل الله لهم ملكا يقول للمحتضر ما أخافك يا أخى ؟ فيقــول ذنــوبى الكثيرة، فيقول الملك له، إنى رسول الله إليك أبشرك بأنه غفر لك ذنوبــك، فيــزول خوفه ويحصل له حزن، فيقول له الملك ما أحزنك يا عبد الله ؟ فيقول حزنى على من تركت من أبنائى وأهلى، فيقول له الملك إن الله تعالى يقول لك أنا وليك عليهم أقوم لهم بما لا تقدر أن تقوم لهم به فيزول الخوف والحزن معًا، ويشتاق المحتضر إلى لقــاء ربه، فيتناول الملك روحه وتصعد به إلى مقر الرحمة والرضوان . وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي انتفى خوفهم وحزنهم بعد وقوعهمـــا في حالة الاحتضار، وذلك لأن العبد أسلم وجهه إلى الله وهو محسن أي استسلم وجهه لله خضوعًا وذلا وخشوعًا كما تقدم .

قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَــارَى لَيْسَــتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَاب ﴿١١٣﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن وفد نجران لما وفدوا على رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، حضر أحبار اليهود فتنازع الفريقان، فقال اليهود للنصارى لستم على شيء وكفروا بعيسى، وقالت النصارى لليهود لستم على شيء وكفروا بموسى، فكذبهم الله تعالى .

هنا سؤال : هل كان اليهود والنصارى على شيء . بعد بعثة رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾؟ والجواب أن هذا السؤال لا وجهة له، لأن المراد ليست اليهود على شيء من دينها أبدًا من أول موسى لكفر النصارى وذلك باطل، لأن اليهود كانوا على حق أمام موسى، وكذب الله النصارى في نفيهم الحق عن اليهود من أول الأمر، وكذلك فإن النصارى الذين آمنوا بعيسى كانوا على الحق في أولهم حتى ابتدع اليهود والنصارى بدعًا مضلة وغيروا وبدلوا . أما حالتهم بعد بعثة رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ فليسوا على شيء، لأنهم وقعوا في الكفر بجحدهم رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وتركهم الإسلام، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** ﴾، يعني اليهود والنصارى، لأن كل فريق منهم كان يقرأ كتابه الخاص، وكان النصارى يقرأون الإنجيل وفيه تصديق نبوة موسى ووجوب العمل بشريعته في التوراة، وكان اليهود يقرأون التوراة وفيها الخبر بمجيء عيسى ووجوب اتباعه إذا بعث، وكذب بعضهم بعضًا وهم يعلمون أن تكذيب بعضهم لبعض باطل عنادًا من أنفسهم، وقوم يكذبون كتابهم المترل عليهم عنادًا وبغيًا هل يصدقون القرآن المترل على رسول الله العربي الذي هو من أولاد إسماعيل، وإنما كذبهم الله تعالى على إنكارهم ما هو ثابت في كتاب كل فريق منهم . ومعنى هذه الآية أن اليهود والنصارى قوم بهت عميت عيون بصائرهم عن الحق وعقدت قلوبهم على الباطل، وصدق الله العظيم في قوله تعالى : ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** ﴾ .

ينكر الله تعالى على اليهود والنصارى ما قاله بعضهم لبعض مع علمهم بحقيقته المترلة في كتبهم، ونزلهم مترلة من لا علم له من الجاهلية الأولى، مبينًا أن أهل الجاهلية قبل التوراة قالوا هذا القول لأنبيائهم ولأتباع الأنبياء، ولهم العذر لجهالتهم، وكذلك قاله أهل الجاهلية من العرب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه رضي الله عنهم . وشتان بين إنكار العالم وعناده وبين إنكار الجاهل وعناده، وفي ذلك من تقبيح قول اليهود والنصارى وخزيهم ما فيه . وكفى اليهود والنصارى خزيًا أن حكم الله عليهم بأنهم شر من أهل الجاهلية العمياء الصماء . نسأل الله تعالى أن يعننا على شكر نعمائه علينا، وأن يعصمنا من الفتن المضلة ومن الأهواء المذلة إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : ﴿ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

أخبرنا الله تعالى بأنه جلت ذاته وإن أمهل الكافرين في هذه الدار الدنيا لا يهمل مؤاخذهم يوم القيامة، بأن يحكم بينهم بالعدل الذي هو صفة من صفاته العلية، ويكون ذلك الحكم بعد أن يبين لهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ما أوجبه الله عليهم وما نهاهم عنه، وكشف لهم بالحجة البالغة تتريه الله تعالى عن المثل والند والضد والولد والوالد، وتقديسه سبحانه علوًا وعظمة عن الاحتياج إلى الزمان، وعن الولي والظهير، وكل ذلك قام به الرسل بأقوى بيان وأجلى حجة، ولكن أبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يحاربوا رسل الله، فيقتلون بعضهم، وكفى بذلك كفرا بالله، ويوم القيامة هو قيام الناس للحساب والجزاء . فإما إلى جنة وإما إلى نار . وقد ورد في القرآن أن اختلافهم هذا لم يكن إلا بعد أن جاءهم البينة، والبينة الرسل الله الذين قربوا لهم الحقائق علمًا وعملا، فأسلم من سبقت لهم الحسنى وكفر من لم يقدر الله لهم الهداية، وكان اختلافهم كله في ضلال فالنصارى ينكرون على اليهود وعلى أنبيائهم جميعًا، واليهود ينكرون على النصارى وعلى عيسى عليه السلام عنادًا وحسدًا والنصارى واليهود يكذبون التوراة والإنجيل اللذين بينا صفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ويغيرون النص

الصريح في التوراة والإنجيل . والحكم بينهم أن الحجة تقوم على كـــل فريـــق منـــهم بوجوب الخلود في نار جهنم حتى يعتقدوا أن خلودهم في النار عدل من الله تعـــالى، ويعلوهم الخزى والندم حتى لا ينفعهم، فيكون عذاب النار وآلام ضميرهم على مـــا فعلوا، كما بين الله تعالى ذلك بقوله عنهم ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَـــا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾ .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِـــرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فإذا تجاوز الظلم إلى أن يكون فيما ينسب لله تعالى كان الفاعل أظلم، والمسجد : موضع السجود، كما أن المجلس محل الجلـــوس . وقد اختلف العلماء في المعنى بهذا الكلام، فكان ما بينوه أن المساجد، مســـجد بيـــت المقدس، والحرم الشريف . أما بيت المقدس، فقد ورد أن بختنصر خربه ومنع السجود فيه . وخربه الروم مرة ثانية، وأعاهم على ذلك النصارى عنادًا لليهود، ومكـــث في خرابه إلى أن عمره الله على يد المسلمين في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان النصارى قبل الإسلام يضعون فيه القاذورات . وأما الحرم الشـــريف، فإن العلماء وإن قال بعضهم به إلا اني أرى الحجة تقوم على صحة القول بأن الآيـــة الشريفة تدل على الحرم، لأن أهل الجاهلية قبل الإسلام كانوا يعظمونه ويجلونه . وما سعى أحد منهم في خرابه اللهم إلا ما كانوا يعملونه من منع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من الصلاة فيه، ومن قراءة القرآن في فاتحة الإسلام، وإن كان الذي أدخل الحـــرم في تلك الآية تأول ذلك، لأن وجود الأصنام في الحرم وعبادها تخريب معنوى له بـــدليل قوله تعالى ﴿**فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ**

وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾إلى قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا** ﴾وهذا ما فعله بختنصر وفعله الروم.أما الحرم الشريف:فإنه لم يبلغنا أن أحدًا خربه وفى هذة الآية يكشف الله الستارة عن نفوس بني الإنسان كيف تبلغ بهم الجرأة على الله تعالى حتى يخربوا بيته ويمنعوا عباده عن أن يذكروا فيه اسمه، لتستبين لنا الآداب اللازمة لمساجد الله لأنها بيوت الله تعالى .

قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾، قال الله تعالى : (إن بيوتى في أرضى المساجد، وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لمن تطهر في بيته وزارنى في بيتى، وحق على المزور أن يكرم زائره) .

وتلك الآية الشريفة تنذر كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أو سعى في خرابها دون استبدالها أو بدون عذر شرعى يقتضي . ﴿ **أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ** ﴾ أخبرنا الله تعالى أن الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها أسمه وسعوا في خرابها جللهم الله بالذل والخزى على أيدينا، فصار النصرانى واليهودى إذا دخلوا بيت المقدس بعد الإسلام يهانون، وقد يقتل الرجل منهم بما ثبت عنهم أنهم لا يدخلون إلا لإهانة البيت . وهناك ذل آخر، وهو قهرهم على دفع الجزية، فكان ما يعلوهم من الذل والخزى من تأييد الله للمسلمين أيام عملهم بالكتاب والسنة، فلما تهاون المسلمون وعظموا الدنيا وزينتها وزخرفها أذلهم الله بما ابتلاهم به من المنازعات والخصومات حتى تسلط عليهم من كانوا عبيدًا لهم يباعون في أسواقهم من أمم الغرب، ونسى بنو الأصفر ما كانوا فيه بالنسبة للمسلمين من العالة عليهم ومن التحفظ بهم مما كان فيه دولهم . وقد دام هذا العز للمسلمين بعد فتح القسطنطينية، فإن سلطان العثمانيين كان إذا قامت أسبانيا تضرب فرنسا أمرها السلطان العثمانى بوقف الحرب أو بمحوها من على وجه الأرض فتذعن لأمره، كل ذلك من التمسك بشعائر الاسلام . أما الآن وقد غر أوربا إمهال الله لها **وما آتاها من قوة الحديد والنار وقد أصبحت دولها الظالمة الغاشمة تتحكم في المسلمين كيف شاءت وقد سلطوا** أذل

الأمم وأحقرها " اليهود"على المسلمين والنصارى في فلسطين، غرورًا بما آتاهـا الله تعالى والظلم مرتعه وخيم – قال الله : ﴿ **حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وسنة الله الماضية أن يؤدب عباده المسلمين بتسليط الكافرين، فإذا أيقظتهم أهوال الكفار رجعوا إلى الله منيبين، فسلط الكافرين على الكافرين وأخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾.

قوله تعالى : ﴿ **لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ توعد الله الذين منعوا مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه وخربوها بالخزى في الدنيا وهو الذل والهوان . وصدق الله العظيم فقد أخزاهم في الدنيا خزيًا انتقم منهم به بسبب ظلمهم لأنفسهم بقتل أنبيائه ومنع مساجده سبحانه وتخريبها، فأذل الروم وأذل نصارى الشرق واليهود انتقامًا لعيسى وموسى عليهما السلام ولمن بينهما من الأنبياء، تصديقًا لقول عيسى عليه السلام في الإنجيل : " ما جئت لأضع حربًا على الأرض، ولكن جئت لأضع سلمًا، وسيأتيكم بعدى (البار قليط) يحصدكم بالسيف حصدًا " وصدق عيسى . فإن الله تعالى بعث محمدًا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فحصد اليهود والنصارى بسيفه حصدًا إظهارًا لدين الله وانتقاماً من أعداء الله وأعداء أنبيائه، أما العذاب في الآخرة فهو بيان ما كانوا عليه من الباطل حتى يلقيهم الله في نار جهنم خالدين فيها أبد الآبدين، وهذا جزاء أهل الكفر بالله . وقد تجر الآية من والاهم ونصرهم وظاهرهم وغرهم ما هم فيه من القوة والزخرف الفانيين .

قوله تعالى : **وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴿١١٥﴾

كان ﴿ ﷺ وآله﴾ يستقبل بيت المقدس، وكان وهو في مكة يقف ناحيــة الــركن اليمانى فيواجه الكعبة ويتحرى أن يكون أمامه بيت المقدس، فلما أذن له في الهجــرة وشرف المدينة كان اليهود يقولون إن محمدًا يصلى لقبلتنا، وكان رســول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يحب أن يستقبل الكعبة بيت أبيه إبراهيم، وصار ينظر إلى السماء فيقلب وجهه فيها فأنزل الله عليه : ﴿ **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَــاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ . فقال اليهود، إن محمدًا تحــول عــن بيــت المقدس، لأنه تحير في قبلته فأنزل الله تعالى ذمًا لليهود وتقبيحًا لقيلهم هذا . قوله تعالى : ﴿ **وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ** ﴾ يعني أن الله جل جلاله لا يتحيز بجهة ولا يتقيد بمكان، فإن الأزمنة والأمكنة بالنسبة لحضرته العلية واحدة، وهو الظاهر بجماله وجلاله يواجه بوجهه الجميل كل عبد وقف مصليًا وجَه وجهه شــطر القبلة التي أمر الله بها، سواء أكان بيت المقدس أو الحرم الشريف، وذلك لأن المشــرق والمغرب لله خلقًا وإيجادًا، وله سبحانه ملكًا وهو القاهر فوق عباده، يشرف ما شــاء من الأمكنة، فيجعله قبلة للصلاة أو للطواف أو للسعي، ويشرف ما شاء من الأزمنــة فيجعل منها ما شاء للصلاة أو للزكاة أو للصيام أو للحج ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْــهُ اللّهِ** ﴾ أي ففى أي جهة توجهون وجوهكم اتباعًا لأمر الله لكم فثم وجه الله تعــالى مشرقة أنواره يراها أهل القلوب المستنيرة ويؤمن بها من لا يراها بعينى قلبه.﴿ **إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾إن الله سبحانه واسع وسع علمه كل الحقائق مما أحاط به العرش ومـــا هو فوق العرش، بل وسع أسماءه وصفاته وجلاله وكماله وبهاءه ونوره وضياءه.

و ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ يعني محيطًا علمه بما قدرته إرادته ودبرته مشيئته . وفى تلك الآية شراب طهور لأرواح الواصلين والمتمكنين يدار عليهم في صلاتهم، فيجرد أرواحهــم مــن ملابسه الحظوظ والأهواء، فيغيبون عنهم بشهود وجه الله تعالى فيكون الله تعالى معالم بين أعينهم لا يغيبون عنه إذا غاب الغافلون، ولا يحجبــون عنــه إذا حجــب عنــه

الجاهلون، شتان بين من يصلى وهو يشاهد وجه الله تعالى، وبين من يصلى وفى قلبـــه شواغل الدنيا فيقول بلسانه الله أكبر، ويقول قلبه كذبت، المال أكبر والتجارة أكـــبر والزراعة أكبر والوظيفة أكبر . أسأل اله تعالى أن يشرق شمسه العلية في قلوبنا حـــتى تمحو هذه الدنيا الدنية كما حجبت شمس النهار أنجمها .

قوله تعالى : وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾

يشنع الله تعالى على النصارى وعلى اليهود أيضًا ويبين قبيح أقوالهم وأفعالهم ليزيـــدنا بيانًا عن شرورهم وعن كفرهم وخزيهم فنعتقد أنهم شر من الشياطين، وذلك لأن الله تعالى أخبرنا بأنهم يقولون أتخذ الله ولدًا فقهرهم سبحانه بالحجة الدامغـــة والبرهـــان القاطع بقوله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ وسبحان علَم على التتريه . ومعناه سبحانه وتعالى بعد عن النقائض وعن مقتضياتها، فإن الولد إنما يرجوه الإنسان ليكون عضدًا له، ومساعدًا له عند ضعفه ومعينًا له عند حاجته .وتتره سبحانه عن أن يحتاج إلى زوجة أو ولد وعن الوزير أو الكفيل .وسبح في اللغة بمعنى بعد، فيقال سبح في البحر يعـني بعـد فيـه وسبحانه أي بعد بعدًا لا تدركه العقول عن النقائص كلها، واتخاذ الولد نقص . ولعنة الله على اليهود والنصارى، هل حضروا العقد على مريم فشهدوا عليه أو دعاهم ليلـة الدخلة ؟ وقد سبق أن بينت أن رجلا لو قال لآخر إن جملا تزوج بنملة وحملت منه، لما وسعه إلا أن يلطمه لطمًا شديدًا ويجره من عنقه إلى مستشفى المجانين فكيف يسمع الرجل أن الله نزوج امرأة ويسلم بذلك . اللهم إن عقول الخنازير أكمل من عقول من يقولون اتخذ الله ولدا . قوله تعالى : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُـلٌّ لَّـهُ قَانِتُونَ ﴾ يكذب الله النصارى القائلين بأن المسيح ابن الله ويكذب اليهود القائلين بأن العزير ابن الله بقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُـلٌّ لَّـهُ قَانِتُونَ ﴾ أي بعد النقائص التي ينسبونها إلية بنسبة الوالد إليه تبارك وتعالى ثم يؤيـد

ذلك بقوله تعالى : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إكبار لهذا الكلام وقوله ((بلى)) إضراب عن كلامهم وإثبات للحجة، وله سبحانه ما في السموات والأرض إيجادًا وملكًا وقهرًا ومتى تحقق أنه سبحانه له ما في السموات والأرض ثبت له ملك السموات والأرض، ثم أقام الحجة تلو الحجة فقال ((كُلٌّ لَّهُ قَانِتُون)) والقنوت طول القيام في الصلاة، ومتى كان كل ما في السموات والأرض قانتًا لله ثبتت عبوديتهم لذاته العلية وتقرر قهره إياهم . والولد لا يكون عبدًا لوالده، ولكنه نظيره وشبيهه فيثبت أنه سبحانه طُهر وقدس، ليس له نظير ولا مثيل بلى له كل ما في السموات وما في الأرض كما قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾. ومن ظن أن من يعتقد أن لله ولدًا من بني الانسان لهم عقول، أو أن لهم قيمة في الوجود فقد أخطأ مهما اخترعوا من أنواع الصناعات والفنون، فإن أكثر البهائم السائمة والطيور الطائرة والأسماك في جوف البحار، لها صناعات واختراعات كالنحل وكالطيور التي تهاجر عن بلادها، وكالأسماك التي تعيش في البر والبحر كالسقنقور الذي يصنع له نفقًا بين البر والبحر، وكالنحل الذي له معمل كيماوى يأخذ ما على الأزهار من الندى فيضعه عسلا فيه شفاء للناس . وليست صناعات أوربا ولا مخترعاتها تدل على أن لهم عقولا تعقل عن الله، ولكن لهم عقول كعقول العصافير التي تتقن عشها فوق الأشجار .

قوله تعالى : بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

أقام سبحانه الحجة على فرية النصارى وادعائهم الباطل، وحكمهم على الله تعالى كذبًا وبهتانًا أنه اتخذ ولدا، تعالى الله علوًا كبيرًا . حكم عليهم بتلك الآية التي قصمت ظهورهم وأوجبت عليهم الطرد عن الله والقطيعة والحرمان من العقل الذي يعقل عن الله تعالى . وذلك بقوله سبحانه ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهي ، حجة بالغة، لأن أكبر كافر وألعن مجوسى عابد للبقر إذا سئل، من خلق السموات والأرض يقول الله . فكأن تلك الآية حجة دامغـــة و ﴿ **بَدِيعُ** ﴾ بوزن فعيل يراد بها فاعل أصلها أبدع فاسم الفاعل منها مبدع فبديع بمعـــنى مبدع وبديع الذي بمعنى مبدع هو الذي أوجد الشيء من لا شيء، فافتتح إيجاده بعد أن لم يكن، فمن خلق تلك السموات السبع وما فيها من كواكب سيارات وثابتـــات وشمس وقمر وما فيها مما لم نره بأعيننا، ولكن سمعنا به من رسول الله ﴿ ﷺ **وآلــه**﴾ فآمنا به فمدحنا الله على إيماننا بقوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ وذلك كالجنة ونعيمها والعرش والكرسى والحوض المورود ومقعد صدق ودار الرضوان الأكبر وغير ذلك مما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى . كل ذلك افتتح الله إيجاده بكلمة ﴿ **كُـــن** ﴾. فكان إيجاد ذلك كله بين الكاف والنون، وخلق سبحانه الأرض وزينـــها بأرجائهـــا وأجوائها وجبالها وأنهارها وبحارها فلم يدع فيها قدر أنملة أصـــبع إلا وقـــد عمرهـــا بحيوانات حية تسبحه سبحانه ونقدسه وتدل على كمال قدرته وغرائب حكمته حتى لم يخل النار من حيوان فترى في النار حيوانًا يسمى (الســـمندل) وهـــذا الحيـــوان يستعمله أهل الشعبذة فيدهنون ألسنتهم وجلودهم من دمه ويدخلون النار فلا تحرقهم فيملكون بذلك قلوب العامة من الجهلاء الذين يظنون أنهم قادرون وهو فن من فنون السحر، حفظنا الله من الجهل الذي يوقعنا في الشرك .

هنا تُبين دلالة الآية على نزاهة الله تعالى عن أن يتخذ ولدًا، فإن مبـــدع الســـموات والأرض الذي افتتح إيجادهما من غير سابق مثال ومن غير وجود مادة يكون منـــها، ولكن كان إيجادهما بكلمة ﴿ **كُن** ﴾ بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَضَى أَمْـــرًا فَإِنَّمَـــا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ هذا الرب الكبير المتعال هو الغني المطلق عـــن الاحتيـــاج إلى الولد، لأنه ليس له من جنسه مثيل ولا نظير، والحكم بأن له ولدًا دليل على جهل من حكم على الله بذلك وعلى أنه أضل من البهائم السائمة بل أدنى من الجمادات وسيأتى عليهم يوم يتمنى الواحد منهم أن يكون ترابًا . وإنا لا نرى المدعين تلك الـــدعوة إلا

قومًا أعمى الله بصائرهم فرأوا عيسى لا والد له، وقد أكرمه الله تعالى بمعجزات مادية كإبراء الأكمه والأبرص وكإحياء الموتى بإذن الله تعالى، فحكموا لجهلهم بأنفسهم وبخالقهم أنه ابن الله، تعالى ربنا علوًا كبيرًا . فإن عيسى ولدته امرأة مؤهلة للحمل والولادة . ومن الجائز عقلا أن تلد مثلها إذا توفرت فيها الكمالات البشرية، ولكن آدم ليس له أم ولا أب . وإذا كان عيسى لأنه ليس له أب يحكمون بأنه ابن الله تعالى فبم يحكمون على آدم ؟ إذن يكون هو الله تعالى، وتعالى الله علوًا كبيرًا . وبم يحكمون على حواء وأبوها وأمها آدم ؟ لقد بلغ العمى بهم مبلغًا جهلوا عجائب قدرة الله تعالى فإن الله خلق الملك والملكوت من لا شيء وخلق آدم من الطين وخلق حواء من رجل وخلق عيسى من امرأة فليس عيسى بعجيبة بالنسبة لآدم وحواء . بل العجب كل العجب أن يخلق رجل من طين وامرأة من رجل . وإذن فعيسى مخلوق خلقه الله بقدرته من امرأة ليعجز الروم واليهود والمعاصرين له، لأنهم كانوا تفوقوا في علم الطب وأفسدهم فلسفة اليونان .فأظهر الله آية كبرى في وجود عيسى من غير أب لتقوم الحجة على الرومان أن علمهم هذا ضلال وباطل وتقوم الحجة على اليهود أنهم قوم بهت ضالون مضلون لأنهم رموا عيسى بأنه ابن زنا وهم أخواله فهلك بعيسى طائفتان يهود بني إسرائيل والذين يدعون أنهم نصارى هلكوا بادعائهم أن عيسى ابن الله . وهنا نحكم أن عيسى جاء ليهلك العالم وقد أنجى الله العالم برسوله ﴿ﷺ وآله﴾ فبعثه الله رحمة للعالمين وقد مضى علينا أربعة عشر قرنًا تقريبا وأصغر مسلم يقول . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . وهي ، نعمة الله العظمى التي مُنحها قلب كل مسلم من النور ..

قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

يزيدنا الله بيانًا عن اليهود والنصارى فيما كانوا فيه من الضلال والعناد، بعد أن فيهم مابين وحكم عليهم بما حكم مما تقدم ذكره في الآيات السابقة وبينا معنى ذلك . وهنا يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أي اليهود والنصـارى وإن اختلـف العلماء فيمن قال ذلك فمنهم من قال هم اليهود ومنهم من قال هم النصارى ومنـهم من قال هم المشركون، والله تعالى يقول في هذه الآية ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُـونَ** ﴾ وفى الآية السابقة يقول : ﴿ **وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** ﴾ أي يعلمون ويفتـرون علـى الله الكذب . والفرق بين قوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ والخبر عن قوم بعينهم في الآيتين إلا أنهم في الآية السابقة كانوا يعلمون ما ينكرونه من أن عيسى ليس رسولا، وأن موسى ليس رسولا عند النصارى مـع أن الإنجيل أثبت رسالته وأمر النصارى باتباع شريعته، لأن الإنجيل لم يأت بشريعة جديدة فأنكر الله عليهم افتراء اليهود على عيسى وافتراء النصارى على موسى، أما في هـذه الآية فهم لا يعلمون حقًا، لأنهم لو علموا أن الله تعالى لا يكلـم إلا مـن اصـطفاه لكلامه، وإنما يكلم من أقامه في محابه ومراضيه . وأما أهل العناد الـذين يخاصـمون أنبياءه فإنهم أعداء الله تعالى لا يتفضل عليهم بكلامه جل جلالـه، وإن كـان كلـم سبحانه سبعين رجلا من بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، وهو يعلم سبحانه أنهم من أصحاب النار فذلك كان معجزة لموسى عليه السلام وإكرامًا له ﴿ ﷺ **وآلـه**﴾، وقد علمت فيما سبق أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام إلى قومهم وافتـروا كـذبًا عليه، وأنكروا ما أخبر به قومه، ولكن اليهود والنصارى في عصر رسـول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ كانوا أعداء له عليه الصلاة والسلام والله لا يستجيب إلا لمن استجاب له ولا يلبى داعيًا دعاه إلا إذا كان عمله في السنة والكتاب، لذلك حكم الله عليهم أنهـم لا يعلمون الأدب مع الله تعالي فقال سبحانه ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ** ﴾ ومعنى لولا في اللغة أنها حرف امتناع لوجود، يعني امتنع إسـلامنا إلا أن يوجد لنا كلام الله كفاحًا أو تأتينا آية من عند الله . والله سبحانه وتعالى إنما مدح

الذين يؤمنون بالغيب قال سبحانه : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ . وقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وهؤلاء من اليهود والنصارى قبحهم الله تعالى بعد أن بين لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بيانًا أسجد العقل بما قام به من حجته . أبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يعاندوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ويطلبوا منه أن يقهر ربنا على أن يكلمهم، ومن هم حتى يعتنى الله بهم، وهم أقل من القردة والخنازير في عين أهل التقوى فكيف بهم في عين الله تعالى ؟ فأثبت الله خبث نفوسهم ورماهم بالقطيعة والطرد من رحمته بقوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ من سلف اليهود كما فعل السبعون الذين اختارهم موسى ليكونوا شفعاء لمن عبدوا العجل ليغفر الله لهم، فلما وقف للمناجاة وغشيته غمامة النور وتكلم مع الله تعالى ورجع إليهم وأخبرهم فقالوا لا نصدق حتى نسمع كلام الله تعالى، فرفع موسى الأمر إلى الله تعالى وتبتل حتى قبل الله تعالى أن يسمعهم كلامه فغشيتهم غمامة النور فخروا سجدًا لأنهم لا تقوى أرواحهم على مواجهة الله تعالى وتكلم ربنا جل جلاله فسمعوا وهم سجود، فلما رفعت غمامة النور وقاموا من سجودهم، قالوا يا موسى لا نصدقك حتى نرى الله جهرة، فغضب الله تعالى فأصعقهم جميعًا، فقام موسى على قدميه يبكي ويتضرع وقال يا رب : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا ﴾ كيف أرجع إلى القوم وهؤلاء خيرهم ؟ فأحياهم الله تعالى، ولما رجع موسى إلى قومه وأخبرهم، فقالوا : كذب موسى وهؤلاء من الذين يعنيهم الله تعالى بقوله ﴿ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بأنهم خلقوا من غضب الله تعالى، وحكم عليهم بقوله : ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

أتى الله في هذه الآية بقد للتحقيق . والبيان هو كشف الحقائق حتى تكون جلية للأبصار أو للبصائر، وهنا تجلت الحقائق للبصائر . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ والإيقان أكمل مقامات الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ فأهل الإيمان إذا سمعوا تلك الآية تحققوا أن الفاعل المختار هو الله تعالى، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما جاءوا لسعادة من سبقت لهم الحسنى . وأما من سبقت لهم السوءى، فإن الرسل يكونون حجة عليهم يوم القيامة . وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ فمن منحه الله الهداية والاستقامة والمحبة الإلهية فليشكر الله شكرًا بقدر طاقته وعليه السمع والطاعة لرسل الله ولورثتهم في كل زمان و مكان ويجب على أهل الإيقان أن لا يعتقدوا أن رسولا أو وليًا يهدي من أضل الله.

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

عظم الله تعالى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ في هذه الآية الشريفة بخصوصيات ثلاث لم يعظم هن رسولا كريمًا قبله . عظمه أولا بقوله ﴿ إِنَّا ﴾ المفيدة للتعظيم وبإسناد الفعل إلى ﴿ نَّا ﴾ التي تفيد التعظيم أيضا و بذكر اسمه الشريف بالكاف إشارة إلى المخاطب القريب، ثم أيد هذا التعظيم بقوله الحق . والمعنى : أن الله تعالى أسند إرساله إلى ذاته المقدسة، وأخبرنا أن الذي أرسله به هو الحق، يعني الدين الكامل، الجامع للعقيدة الحقة والعبادة الخالصة والأخلاق الجميلة والمعاملة الحسنة . و لم يرسل الله تعالى رسولا بتلك الحقائق، بل كل رسول أرسله كان نقمة على الخلق . وأول رسول من أولي العزم هو نوح عليه السلام، أغرق به العالم . وثانيهم إبراهيم عليه السلام، أهلك الله به نمروذ وقومه . وثالثهم موسى عليه السلام، أهلك الله به فرعون وقومه و لم ينج به من بني إسرائيل إلا القليل . وقد بين لنا القرآن الكريم حوادث بني إسرائيل مع كليمه عليه

السلام في الآيات السابقة . ثم جاء عيسى عليه السلام فكان نقمة عظمى على أهـــل عصره ومن بعدهم، فأهلك الله به طائفتين اليهود والنصارى . أما اليهود فهلكوا بـــه لأنهم قالوا إنه ابن زنا، وأهلك به النصارى لأنهم قالوا إنه ابن الله . وقد فصلت جملا في الآيات السابقة تكشف تلك الحقائق، أما حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فـــإن الله تعالى أخبرنا أنه أرسله بشيرًا ونذيرًا، والبشير، هو الذي يهب الله لكثير من خلقه خيرًا كثيرًا على يديه في الدنيا والآخرة والأمر كذلك، أما في الدنيا فإن الله تعالى حفظ بـــه العالم الإنساني، لا فرق بين المسلم والكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَـــلْنَاكَ إِلَّـــا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ فكان رحمة لبني الإنسان ولكل الحيوانات، أما لبني الإنسان فإنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وصى أمته بالإحسان وبالرحمة لكل مخلوق، وأمرنا أن ندعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن ووضع الرأفة والرحمة بأمر الله في قلوبنا ، فإن الله تعالى جمله بـــاسمين من أسمائه المقدسة، فقال سبحانه : ﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وأخبرنا أنه حريص على نجاة العالم أجمع ، وأنه بنا رءوف رحيم، والرءوف الرحيم هو الله تعالى وكفانا بـــذلك شـــرفًا وسعادة .

عَلمنا البشير ومعناه . أما النذير فهو الذي ينذر أي يخوف مـــن لم يقبـــل الإســـلام وشرائعه فيبين له عواقب المعصية ومخالفة رسل الله عليهم الصلاة والسلام بالتي هـــي أحسن، فكان ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يُرمى بالأحجار حتى يسيل الدم من ساقيه فيرفع يديه إلى السماء ويقول (رب أهد قومى فإنهم لا يعلمون) وكان إذا سجد في الحرم وضع أبو لهب رجله بنعله على عنقه فلا يرفعه إلا فاطمة عليها السلام وبيدها العصا تصيح به، فإذا رآها فر هاربا لان قريشًا كانت لا تقف في وجه المرأة موقف عناد، لأنهم يـــرون أنفسهم أكبر من أن يقابلون امرأة . وكانت المرأة عند قريش كالمرأة عنـــد الإفـــرنج الآن، يقلدون الجاهلية العمياء ... كل ذلك ورسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يقول : ((رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون)) انظر إلى نوح عليه السلام وقد آذاه قومه في سفينته و لم

يؤذوه في نفسه، رفع يديه إلى السماء وقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَــذَرْ عَلَــى الْــأَرْضِ مِــنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ وانظر إلى موسى ولم يؤذه فرعون في ذاته، ولكنه آذى بني إسرائيل فرفع يديه إلى السماء وقال :(رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ

دَيَّارًا) وانظر الي موسي ولم يؤذه فرعون في ذاته، ولكنه اذي بني اسرائيل فرفع يديه الي السماء وقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَــا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّــى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ . وانظر إلى يونس بن متى كيف دعا على قومه، فأخبره الله أنه بعد ثلاثة أيام يهلكهم فجاء بعد الثلاثة الأيام وارتقى فرق شجرة ليرى الهلاك نــازلا عليهم فرآهم في مراعيهم ومزارعهم، فظن أن لن يقدر الله علــيهم ذلــك، فــذهب مغاضباً وأراد أن ينتقل من برهم إلى بر آخر، فلما هم أن يركب الســفينة التقمــه الحوت وصار في ظلمات ثلاث : ظلملة الليل، وظلمة بطن الحوت، وظلمــة البحــر فتذكر وذكر وتحقق أن الله رءوف رحيم وتواب كريم ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّــا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي أنا اعترفت أن الخلــق خلقــك، وأنك سبحانك ملك مطلق تغفر للمسيء وإن أكثر الخطايا، فأنا الآن من الظالمين لأنى غضبت لمغفرتك لخلقك، فلباه ربه تلبية الحبيب لحبيبه كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾وبشره بقوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُــؤْمِنِينَ ﴾ وكان يونس عليه السلام يعتقد أن الله لا يخلف وعده ولا وعيده، فــبين الله لــه سبحانه أنه لا يخلف وعده حقًا، ولكن يخلف إن شاء الله وعيده، فقد يعلــن أهــل المعصية بالنقمة ثم يوفقهم للتوبة فيخلف وعيده، وكذلك فعل مع قوم يــونس، فإنــه سبحانه ألهمهم التوبة فتابوا فأخلف وعيده، ولذلك ترى إبليس يطمع أن يدخل الجنة لأنه يعلم أن الله تعالى قادر أن يخلف وعيده، ويستند في ذلك إلى ما فعله مع يضــلهم بعد إضلاله فيقول : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هنا ظهر لك الفرق البين بين مقام رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ومقامات الأنبياء قبلــه، وهنا تقوم الحجة أن الله تعالى يحب رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، وأن الرســل والأنبيــاء يحبون الله فقط، وشتان بين العاشق والمعشوق، وبين المحب والمحبوب، نسأل الله تعــالى أن يحصننا بحصون شريعته المنيعة ،وأن يجعلنا من خيرة أمته ﴿ﷺ **وآله**﴾.

وفى هذه الآية ترويح لقلب رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ لأنه بلغ به الحزن على قومه أنــه كاد أن يموت حزنًا فقال الله له يا حبيبى إنى ما أرسلتك لتبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا، لكنى أرسلتك بشيرًا ونذيرًا، وقد أديت رسالتى على الوجه الــذي أحبــه فبشرت وأنذرت، فلا تذهب نفسك حزنًا على من سبق في قدَرى أنهم مــن أهــل جهنم، ولكنك كن مطمئن القلب بحبى لك، وبقبول من قبل منك وبعقوبة من أعرض عنك، أما الذين قبلوا منك وسلكوا صراطى المستقيم، فبشرهم في الدنيا بالعزة والقوة والتمكين في الأرض بالحق ماداموا محافظين على ما كنت عليه أنــت وأصــحابك، وبشرهم في الآخرة برضوانى الأكبر، بالنظر إلى وجهى الكريم، وبسماع كلامى على بساط منادمتى ومؤانستى، وأنذر من أعرضوا عنك في الدنيا بالخزى والذل والإهانة بأن يكونوا في الذل بدخولهم في ذمة أمتك، وبالهوان بدفع الجزية عن يد وهم صــاغرون، وفى يوم القيامة بخلودهم في الُحطمة التي تحطم عظامهم، ولا تسأل يا حبيبى يا محمــد عن مآل وعاقبة من خالفك وأنكر عليك فإن عاقبتهم الخلود في السعير، لأنهم أصحابها وصاحب الشيء يلازمه أبدًا . وفى هذه الآية قوة في إيمان أهل الإيمان فــإنهم إذا رأوا غير المسلمين في سعادات دنيوية من نفوذ الكلمة وكثيرة الأموال وكثيرة الصــناعات تحققوا أن ذلك غرور وأن سكرة واحدة من سكرات الموت تنسيهم تلك الملاذ، فإذا رأيناهم يوم القيامة في نار جهنم وسمعناهم يقولون ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ كان الفرح والهناءة تأمينا لنا، فيحصل لنا السرور في الدنيا لا عتقادنا أن العاقبة الحسني لنا .

ثم إنه سبحانه وتعالى ثبت فؤاد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وزاده طمأنينة في قلبه عليه الصلاة والسلام بخبره إياه بتلك الآية الشريفة وهي ، :

قوله تعالى : وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿[١٢٠]﴾

والمعنى أن الله تعالى يخبر رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بأن اليهود والنصارى سجل عليهم اللعنة إلا من سبقت لهم الحسنى منهم و ﴿أل﴾ في قوله : ﴿الْيَهُودُ﴾ و ﴿النَّصَارَى﴾ للعهد والمعهود من عاندوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و لم يؤمنوا به، ثم أمر رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله تعالى: (قل) لهم يا محمد ﴿إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ والمعنى أن الهدى الذي به القبول والإحسان من الله تعالى لا يكون إلا منه سبحانه وأما الرسل وورثتهم فهُداهم بيان الحقائق والله يهدي بإحسانه من يشاء ممن سمعوا كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام، فاستجابوا له سبحانه : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ .

بين الله سبحانه وتعالى حالة اليهود مع النصارى وحالة النصارى مع اليهود من العداوة المستحكمة في قلوبهم فترى كل فريق يبغض دين الفريق الآخر، والله تعالى يقول لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ إن لليهود هّوى وهو أن تتهود . والنصارى هّوى وهو أن تتنصر . ومن المستحيل الجمع بين الدينين لشخص واحد، وفضلا عن استحالة اتباع أهوائهم فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم﴾ المضلة التي ليس لها نصيب من الحق بعد ما بينا لك فيما جاءك من العلم بيانًا عن حقيقة ما هم عليه من الباطل والضلال مما لا حجة عليه ولا تقبله العقول السقيمة فضلا عن السليمة، وفيما قصصنا عليك من أخبارهم ما يوجب معاداتهم، وفضلا عن ذلك كله فإن من يتبع أهواءهم بعد هذا البيان ليس له من الله ولي ولا نصير . وقد تقدم تفسير الولى والنصير، وهذا تحذير من الله للمسلمين في ذات رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، لأن الله

تعالى قد يخاطب نبيه عليه الصلاة و السلام، ويكون الخطاب موجهًا إلينـــا ويخاطبنـــا ويكون الخطاب موجهًا إليه ﴿ ﷺ وآله﴾، وهذه الآية وأشباهها هي الـــتي طمأنـــت قلوب المؤمنين بكمال التوحيد والتفريد لله تعالي حتي حفظنا الله بتلك الآيات مـــن أن يكون للشيطان علينا سلطان، فيحجب قلوبنا عن مطالعة غيب الألوهة وعـــن العلـــم بمكانة النبوة الرسالة الأمر الذي أهلك أمم الرسل قبلنا .

قوله تعالى : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُـــرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١٢١]﴿

اختلف العلماء في المعنى بهذه الآية الشريفة، فمنهم من قال هم أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بدليل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِـــهِ ﴾ لأن معنى يتلونه حق تلاوته أي يتدارسونه فيفقهون المراد منه ويسارعون إلى القيام بحدوده والمسارعة إلى العمل بأوامره وترك نواهيه ورعاية الأدب مع الله تعالى ومراقبته سبحانه وتعالى فيما أودعه من معاني أسمائه وصفاته، ولا يكون ذلك إلا لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكنا نرى أنه لم يسبق لهم رضي الله عنهم ذكر سابق ولا لاحق لتعود الضمائر إليه والمذكور هنا قبلا وبعدًا فيما أخبرنا الله عنهم اليهود، فيظهـــر أن المـــراد بالكتاب هو التوراة وأن الخبر خاص بمن هداهم الله منهم وهم الذين يتلون الكتـــاب حق تلاوته ففقهوا منه البشائر برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فآمنوا بما جاء في القرآن وهم الذين لهم أجران كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بموســـى وعيســـى ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ ﴾ فيما أنزله عليكم من البشائر ببعثة خاتم الأنبياء، ومن بيان صفاته ﴿ ﷺ وآله﴾ في التوراة والإنجيل ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ الذي أخذت الميثاق له على الأنبيـــاء وأوجبت عليكم الإيمان به إذا أدركتم زمانه، فإنكم إن آمنتم به وبالنور الذي أنزلنـــاه إليه ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ . وقد آمن من أهل الكتاب من اجتباهم الله، كعبد الله بن سلام وكعـــب الأحبـــار وتمـــيم

الدارى وغيرهم، وهذا التأويل أولي بالآية بالنسبة لمراجع الضمائر، وإن جاز أن يكون المراد بهذه الآية أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن هداهم الله من اليهود معهم ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إسم الإشارة هنا مبتدأ . حكم الله تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب أي خصهم الله بعنايته، بأن يتفضل عليهم بإيتاء الكتاب لهم بمنحهم القابـــل الـــذي يفقهون به كلام الله تعالى . وبما تفضل عليهم يؤمنون بالكتاب، لأن الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ عائد على الكتاب، وقد علمت أن الإيمان هو التصديق .

ثم بين الله تعالى حال من لم تسبق لهم الحسنى منه سبحانه فقال تعالى : ﴿ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة وفى ذلك مـــن التشنيع على الذين جحدوا الحق بعد بيانه بالحجة ما ينبيء بالخلود في الحطمة .

قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية وهنا نبين مزيدًا فيها . يذكر الله معاصري رســـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من يهود بني إسرائيل نعمه عليهم وعلى سلفهم مما تقدم في الآيات السابقة لتقوم عليهم الحجة أن الله يعطف عليهم بهذا البيان الصريح، فإن تكـــرار الآيـــات في القرآن بلفظ واحد ليس بتكرار في الحقيقة، بل في كل آية من الآيات غـــامض علـــم ومكنون سر يكشف الحقائق للمخاطبين لتقوم الحجة تلو الحجة علـــيهم إذا أنكـــروا وعائدوا، أو لتنجذب قلوبهم إلى الهدى إن قدر الله لهم سابق الحسنى، فما مـــن آيـــة وردت في القرآن بلفظ آية أخرى إلا في الآية الثانية مزيد علم وبيـــان، ولكـــن لأولى الألباب، قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾، يخبرنا الله تعالى أنه فضـــل أصحاب موسى عليه السلام الذين آمنوا على العالمين في عصره حيث كان العالم أجمع جاهلية عمياء صماء، و لم يكن على وجه الأرض يومئذ يؤمن بالله إلا موســـى عليـــه

السلام وقومه، وبذلك يخبرنا ربنا جل جلاله أنه فضلهم على عالم زمانهم فقط، فإن آمنوا بمحمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وبما أنزله من النور والهدى دام لهم الفضل من الله على أهل الكفر بالله، وإن أنكروا ولم يؤمنوا سلب الله تلك النعمة منهم وصاروا أضل من الشياطين، وهذا حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ **وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ .

قوله تعالى : وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

بعد أن بين الله تعالى لنبيه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ولنا أخبار بني إسرائيل من زمان موسى إلى زمان عيسى، إلى أن بين حالة من كانوا بين ظهراني رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، بعد أن أعاد تذكيرهم بنعماه التي لا تحصى من نبع الماء من الحجر، إعطائهم المنّ والسلوى في التيه، ومن نصرهم على عدوهم ومن تمكينهم في بيت المقدس، أخبرنًا عنهم أنه كلما أغدق عليهم نعماه قاموا منكرين لها محاربين رسله عليهم الصلاة والسلام، ولا تزال تلك الخصال الشنيعة باليهود من بني إسرائيل من لدن موسى إلى زماننا هذا، فإنهم لعنة الله عليهم ما نزلوا أرضًا إلا سلبوا نعمها وفرقوا بين أهلها ،ولا أدلّ على ذلك مما حصل بفلسطين، فإنهم لعنهم الله بعد أن طردهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بيت المقدس وحرمه عليهم وأذلهم وشتتهم أيدى سببا في البلدان، قاموا بخبثهم وكيدهم وخدعوا دولة الظلم والاغتصاب (الإنجليز) أذلهم الله، وطلبوا منهم أن يكيدوا للمسلمين ويترلوهم في فلسطين ويجعلوها لهم وطنا قوميًا، والله يقول : ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ . وهاهم في فلسطين يسعرون نار الحرب بين إخواننا المسلمين ويحاربوهم كما حاربوا موسى وعيسى والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكما فعلوا مع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قبل أن يجليهم الله من خيبر وقينقاع والنضير وقريظة – البلدان الكائنة حول المدينة المنورة –

وبعد أن ذكرهم بنعمته عليهم خوفهم أشد التخويف بقوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا** ﴾ يعني يوم القيامة، ثم وصف ذلك اليوم بقوله : ﴿ **لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَــيْئًا** ﴾ يعني أن الأنبياء والأولياء ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم لا يتحملون عنـــهم من الجزاء شيئًا، فكيف بمن يدعون أنه نافع بالباطل وهو ضال مضل كدعاة الجهالـــة وعلماء السوء فإن هؤلاء يوهمون الناس أنهم ينفعونهم يوم القيامة، ويتحملون عنـــهم الجزاء ليسلبوا أموالهم، ويفسدوا عليهم عقائدهم، ويجعلوهم كالبـــهائم الســـائمة في البادية .

أما علماء السوء الذين يظهرون أمام الناس أنهم علماء ويلبسون لباس الأنبياء وقلوبهم قلوب الذئاب فإنهم يترددون على أبواب الملوك ولو كانوا كفارًا فإذا رآهـــم العامـــة قلدوهم في هذا العمل المضل، وأحبوا أعداء الله، وأحبوا العصاة تقليدًا لعلماء الســـوء، فتراهم يجلسون على قارعة الطريق في مجالس اللهو واللعب والغفلة، وليست علـــيهم مسحة التقوى، لأن كل صانع إذا تخلص من صناعته لا نعرف له صنعة إلا الأتقيـــاء، فإن الله جعل لهم نورًا في وجوههم، فحذر الله يهود بني إسرائيل الذين كانوا في عصر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا تجزى نفس عن نفـــس شـــيئًا، الذي يكون فيه كل إنسان مشغولا بهمه لا يلتفت والد إلى ولد ولا والدة إلى ابنها مما يغشى الناس من هول المحشر، فكيف يقوم رجل يقول أنا أتحمل العقوبة عن آخر، وقد ألجمه العرق أو أغرقه لقرب الشمس من رأسه ومن شرر جهنم التي ترمى به كالقصر كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وبَنِيه لِكُلِّ امْرِى مِنْهُمْ يَوَمئِذٍ شَأْنٌ يُنْغيه** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تنفعُهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ الإنسان في هذه الدنيا يمكنه أن يقدم عدلا يعني مثيلا له يقوم بعمله لمؤجره، ولكن يوم القيامة يكون الواجب عليه لله ولخلقه أثقل عليه من الجبل، فلا يجـــد إنســـان في المحشر رحميًا يرحمه ولا حميما يهتم به، لأن الله إذا غضب على قوم أغضـــب علـــيهم الأنبياء والأولياء في الدنيا والآخرة ﴿ **وَلاَ تَنفعُهَا شَفَاعَةٌ** ﴾. معلوم أن الشفعاء عند الله

هم أحبابه المقبولون لديه من الأنبياء والعلماء العاملين . أما شفاعة الأنبياء فلا تكـون إلا لمن اتبعهم وقصّر ممن لم يتعد حدود الله، بأن أخّر الصلوات عن أوقاتها، أو خاصم في حق له أهتم بالدنيا وترك نوافل البر للآخرة كالزراع والصناع والتجـار الـذين يهتمون بأمور الدنيا بعد تأدية الفرائض، فإن العلماء يقفون أمام ربنا ويقولون يا ربنـا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون ويحضرون مجالس العلم، فيقول الله للعلماء : قد أمر بهم إلى النار لأنهم لم يعملوا كعملكم، فيقول العلماء يا ربنا إنا كنا نعمل لنا ولهم كما كانوا يعملون لنا ولهم . كانوا يشاركوننا في أموالهم وأرزاقهم، ونحن نعمل لك مستريحين، ولولاهم لما تمكنا من العمل الذي تحبه، فيقول الله تعالى للعلماء : اذهبـوا فأخرجوا من عرفتم من النار، ولكن هل نبى أو عالم يقف أمام الله فيقـول أخـرج عدوك من النار هذا ما لا يقول به نبى ولا عالم، فإن أعداء الله في الدنيا هم أعداء في الآخرة، ولذلك فكثير من أدعياء العلم الذين لم تنكشف لهم حقائق أسرار كتاب الله تعالى ينكرون شفاعة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ويطلبون حجة مـن القـرآن عليهـا وبعيشك يا أخى هل من حرم شفاعة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يصدقها . وقد وردت في القرآن صريحة جلية لكل من يعقل . قال تعالى : ﴿ **عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًـا مَّحْمُودًا**﴾ وأنت تعلم أن عسى في القرآن بمعنى اللام، أي ليبعثك ربك مقامًا محمودًا وما هو ذلك المقام المحمود . . أليس هو موقف من المواقف التي تجعل العالم أجمع إنسًا وجنًا يحمدون رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وهنا يكون هو المقام المحمود ولا يتحقـق إلا بالشفاعة العظمى، لأن الناس لا يحمدون إلا من نالوا على يده خيرًا، وأى خير أعظم من دخول رسول الله دار القدس ويخر ساجدًا أمام ربه فيقول الله تعالى : ارفع محمـد فليس هذا مقام عبادة وإنما هو مقام إكرام اشفع تشفع وسل تعطه، فيشفع في جميـع الخلق يومئذ، فيرد الله النار عن المحشر ويرفع الشمس عن رؤوسهم، وتوضع المـوازين وينصب الصراط، ويجمع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ علماء أمته العاملين، فيقول : اذهبوا إلى ربكم فاشفعوا في أهل عصوركم، فيشفع العلماء، ثم ينادى رب العزة فيقـول :

اليوم شفع الأنبياء والعلماء و لم يبق إلا شفاعة أرحم الراحمين، ثم ينادى الملائكة فيقول أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من حبة من خردل من الإيمان، فيخـــرج من النار ما لم يفعل خيرًا أبدًا إلا أنه قال : (لا إلـــه إلا الله)، فيلقـــيهم الله في نهـــر الكوثر، فينبتون كما تنبت الحبة، ثم يعودون إلى الجنة فرحين آنسين مبشرين .

وهذه الشفاعة التي ينكرها من حجبهم علمهم عن الإيمـــان بالغيـــب، وقـــد وردت أحاديث كثيرة مبينه للشفاعة . أما اليهود بخصوصهم فإنهم لم يقدر الله لهم الشـــفاعة يوم القيامة، وإنما نفى الشفاعة عنهم ونفيها عنهم لا يقتضي نفيها عـــن الجميـــع وإذا تصور العلماء أن الشفاعة من الإكرام الذي يجعله الله لأنبيائه ولعلمائه يـــوم القيامـــة تعظيمًا لقدرهم لما أنكروها . ﴿ **وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى يقهر جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر والمعاصى، حتى أن ألسنتهم لا تنصرهم كما قال الله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُـــونَ** ﴾ وإن كانت جوارحهم تخذلهم فمن الذي ينصرهم يومئذ ؟

أما من أراد الله له السعادة وفقه للتوبة في الدنيا فأنسى الله جوارحه ومعالمه من الأرض ذنوبه حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب ومنهم من يبدل الله سيئاتهم حســـنات . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ .

قوله تعالى : **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًـــا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾**

الواجب على أهل الإيمان أن يسمعوا كلام الله تعالى بآذان قلوبهم، فتطمئن قلوبهم بمـــا أنزل الله تعالى، فلا يقيسون الغائب بالشاهد فيفتحون على الناس أبواب الفتن بقولهم " الابتلاء " هو الاختبار، وكيف يختبر الله تعالى خليله، لأن الله سبحانه قـــدر الأقـــدار أزلا، وأحاط علمًا بالكليات والجزئيات، ولا فرق في حضرة العلم بـــين الجزئيـــات

والكليات في أي زمان كانت أو في أي مكان . قال تعالى ﴿ **قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَــيْءٍ عِلْمًا** ﴾ ولكنه سبحانه تترل على قدر العقول فخاطبها لتعقل عنه أوامـــره ونواهيـــه وأسراره العلية فيما وضعه من الأسباب والأوساط، وخلق الأعمال الصالحة وتفضـــل فنسبها لمن أقامه سببًا لإبرازها، ثم تفضل فضلا بعد فضل فجازاه عليها بالنعيم المقـــيم في دار الفردوس الأعلى، وهو الملك المطلق، يقدر الاختبـــار كمـــا يقـــدر الفـــوز بالسعادتين، ويبين للخلق صراطه المستقيم، ويأمر باتباعه ويريد غير ذلك ممن لم تسبق لهم الحسنى، كما أمر أبا جهل بالإيمان و لم يرد هدايته،وقد يجمع للعبـــد إرادة الخـــير والأمر به كأبي بكر الصديق، فهو سبحانه أراد لإبراهيم الخلة والإمامة العظمى وأمره بما شاء أن يأمره به من تفريده بالعبادة دون غيره وقدّر أن يختبره في ذلك كله، وليس للعبد المسلم إلا أن يقول : ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ فله سبحانه أن يختبر مـــن يشاء كيف يشاء وبما يشاء، وليس لنا أن نزن ذلك بموازين عقولنا،فنحكم على الله بما نحكم به على أنفسنا في مخاطباتنا تتره الله وتعالى علوًا كبيرًا. وفتح أبواب تلك الفـــتن وإقامة الحجة بعدها على تأويل القرآن بحسب قياس الغائب بالشاهد بدعة مضـــلة لم يكن عليها السلف.ونحن ما علينا إلا أن نسلم تسليمًا والقرآن هو الحجة التي أبطلـــت كل حجة تخالفه،ولذلك فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتعلمون الإيمـــان قبـــل القرآن، فما وافق القرآن من إيماهم الذي تعلموه أثبتوه في قلوهم، وما خالف القـــرآن محوه من قلوهم، لأن القرآن هو الحق المهيمن على كل حق يحكم به الإنسان . أمـــا الخلف إلى هذا الزمان فإهم يتعلمون القرآن قبل الإيمان فيحكمون بما تعلمـــوه علـــى كتاب الله تعالى ويجتهدون في تأويله، وبذلك انتشرت التفرقة بين المسلمين وصـــارت كل فرقة تلعن الأخرى كأهم يحكمون على أنفسهم بأهم المعنيون بقوله تعـــالى : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا** ﴾ وإنا نسأل الله تعالى أن يعيد لنا النور الذي منحه الصحابة رضوان الله عنهم حتى تعود للمسلمين صحتهم الروحانية، ويكونوا كما قال الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ .

ونرجع إلى تفسير الآية : يقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْـرَاهِيمَ رَبُّـهُ بِكَلِمَـاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ وتلك الكلمات جائز أن تكون طهارة لذاته، وهي ، خمسة في الرأس وخمسة في الجسم – أما الخمسة التي في الرأس : فإعفاء اللحية، وقص الشارب، وقص شعر الرأس، والمضمضة، والاستنشاق . وأما التي في الجسم : فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وقلم الأظافر، وغسل المخرجين عند قضاء الحاجة بالماء . وهذه هي الكلمات التي أبتلاه الله بها . وقال بعض العلماء : بل ابتلاه الله بشرائع الإسلام، وهي ، عشرة في براءة وعشرة في سورة المؤمنين وقال بعض العلماء : ابتلاه سبحانه بالهجرة وبإقامة الحجة على أبيه وبالنظر في النجوم، وبتكسير الأصنام، وبذبح ابنه، وبالنار . وجائز أن يكون الله تعالى ابتلاه بكل ذلك لأنه ليس هناك نص صريح بعين حقيقة من تلك الحقائق، فشرائع الإسلام في براءة في قوله تعالى : ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّـاهُونَ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّه**﴾ وفى سورة (المؤمنون) قوله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِـمْ أوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَـنِ ابْتَغَـى وَرَاءَ ذَلِـكَ فَأُوْلَئِـكَ هُـمُ الْعَادُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ** ﴾ وفى الأحزاب قوله تعـالى : ﴿**إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّـادِقِينَ وَالصَّـادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِـعَاتِ وَالْمُتَصَـدِّقِينَ وَالْمُتَصَـدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّـهَ كَـثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ .

وقال بعض العلماء ابتلاه بما ذكره في الآية نفسها من قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾ ورفع القواعد من البيت، ومن دعائه عليه الصلاة والسلام بجعل مكة بلدًا آمناً ، وبأن يرزق أهلها من الثمرات من آمن منهم،فرد الله عليه في هذا الموضع بقوله :﴿ **وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾، وبدعائه بأن يبعث فيهم رسولا منهم – يعني من بني إسماعيل - يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فاستجاب الله دعاءه وبعث فيهم خاتم أنبيائه وسيدهم وإمامهم وقائدهم سيدنا ومولانا محمدا ﴿ ﷺ **وآله**﴾.

وهنا أبين لك معنى قوله تعالى : ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ ومعنى قوله : ﴿ **مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ** ﴾ أما قوله : ﴿ **لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ فإن المراد بالعهد هو النبوة والدعوة إلى الله تعالى وإرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، وهذه عطايا الله سبحانه، التي لا يعطيها إلا لمن أقامهم في محابه ومراضيه سبحانه . أما من قدر عليهم الشك أو الريب أو الشرك أو النفاق فإنه سبحانه لم يشأ أن ينالهم العهد فرد عليه دعوته، لأن الخليل عليه السلام إنسان عصمه الله من الكذب على الله في تبليغ رسالته، وجائز عليه الأعراض البشرية، فيحب لأولاده الخير رحمة بهم وشفقة عليهم، ليس هذا بقادح في العصمة، لأن هذا ليس مقام تبليغ رسالة ولكنه مقام التماس من فضل الله تعالى . والله سبحانه وتعالى يعطى من يشاء، ولكن ما يشاؤه هو ما لا يشاؤه الداعى قال تعالى : ﴿ **لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ** ﴾ أما قوله تعالى : ﴿ **وَمَن كَفَرَ** ﴾ فإن الخليل عليه السلام أراد أن يهلك الكافرين فلا يدع منهم أحدًا على وجه الأرض كما قال نوح عليه السلام ﴿ **رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ .

ولكن الله سبحانه وتعالى يعطى فضله الكونى للكافر والمؤمن وقد يضيق الرزق علـــى المؤمن ويوسعه على الكافر ليتجمل المؤمن بالصبر والرضا عـــن الله فيمـــا قـــدر الله وليحارب الكافر ربه بنعماه التي تفضل بها عليه، كما ترى أعمال أهل الكفــر بـــالله تعالى في بلاد الإفرنج وفى بلاد الشرق فإنهم . أذلهم الله لنا وقهرهم. ، يسلبون الأموال والأنفس بالحديد والنار . نسأل الله سبحانه أن يسلبهم مدد الإمهال، ويذيقهم عذاب الهون في الدنيا والآخرة، حتى يعود الإسلام كما كان في زمان سلفنا الصالح إنه مجيب الدعاء . والإمامة في اللغة تدل على معان كثيرة، فالمصلى بالقوم إمام ، و قائدهم إلى الجهاد إمام، وولى الأمر منهم إمام ، والعالم المبين كلام الله وكلام رسوله إمام، ولكن المراد بالإمامة في كلام الله تعالى هو النبوة. وقد أكرم الله الخليل فأقامه إمامًا للناس إلى عصرنا هذا، قال الله تعالى : ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ ولا يقتضي هذا عموم رسالته كرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، بل لأن رســـول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ دعوة أبيه إبراهيم و لأنه سمانا المسلمين من قبل، وأما رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فإنه بنص قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ فكل من أدرك زمانه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أو وجد بعد رفعه إلى الرفيق الأعلى و لم يؤمن به بعد أن بلغته الدعوة فهو كافر عدو لله ولرســـوله وعدو لنا، ويجب أن نراعى فيه المقتضيات فنكون بين بغض له بقلوبنا ومـــداراة لـــه بجوارحنا، ومن وجد في قلبه ميلا لعدو الله وعدو رسوله فليتب إلى الله، فـــإن ميـــل القلوب لأعداء الله و موالاتهم كفر بالله ورسوله وبذلك تحرم عليه زوجته

قوله تعالى : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِـــذُواْ مِـــن مَّقَـــامِ إِبْـــرَاهِيمَ مُصَلًّى﴿١٢٥﴾

أي جعلناه موئلا ومراجعًا للناس، يثوبون إليه للحج وللعمرة والاعتكـــاف، وجعلـــه سبحانه أمنًا لا تسمع فيه قعقعة السلاح ولا تحمل فيه السيوف، حتى لو رأى الرجـــل

قاتل أبيه أو ابنه لا يخطر على قلبه ذكرى تلك المأساة حتى يخرج من البلد الحرام ومن الشهر الحرم ، ولولا أن الله أحلها لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ساعة ما سفك فيها مْحجَمَ دم . فالحرم كله أمن . قوله تعالى ﴿ **وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾، وهو الموضع المعروف الذي يصلى فيه الطائف بعد طوافه ركعتين سنة الطواف إعلامًا من الله تعالى، لأنه حفظ ذكرى خليله، استجابة لدعوته التي قال فيها ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** ﴾ والأمر هنا للوجوب ما لم تأت قرينة تعينه للندب أو للإباحة كما قال تعالى : ﴿ **فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء** ﴾ فإن الأمر هنا للإباحة لا للوجوب . ﴿ **وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ**﴾ والعهد هنا الأمر أو التكليف .. ﴿ **أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾، ومعنى الطهارة هنا إخلاؤه من أن يكون محلا لغير ذلك، ومن أن يعبد فيه غير الله تعالى، ومن غير أن يوضع عليه أنداد وأوثان . وإن لم يكن في زمان إبراهيم عليه السلام شيء من ذلك إلا أن الأمر لإبراهيم وإسماعيل هو أمر في الحقيقة لكل سكان الحرم، يوفق الله من شاء منهم لذلك ويضل من شاء، وهو أمر من الله تعالى لا يقتضي اتحاده مع الإرادة، فقد يأمر بالأمر ويريد غيره، وذلك لأن البيت الحرام نجْسه أهل الجاهلية زمنًا طويلا بوضع الأوثان والأنداد عليه يعبدونها من دون الله تعالى حتى طهره الله تعالى بإشراق أنوار حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، فأعاده إلى ما كان عليه في زمان إبراهيم من الطهارة . . قوله تعالى : ﴿ **لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ** ﴾ الطواف معلوم بيناه في كتاب (هداية السالك في علم المناسك) . والعكوف هو الإقامة في الحرم للقيام بأنواع العبادة التي يتقرب إلى الله تعالى بها في الحرم . أما الركع السجود فهم الذين يتحرون أن يقيموا الصلاة في الحرم الشريف . ولما كان الركوع والسجود أهم أركان الصلاة ذكرهما الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

معنى هذه الآية ــ واذكروا إذ قال إبراهيم سائلا ربه ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا** ﴾ أي احفظه من أن يسلط عليه عدو يتبره كما تبر ((بختنصر)) بيت المقدس أو يقتل أهله فاستجاب الله دعاءه وجعل البلد جميعه آمنًا، قال تعالى : ﴿ **وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** ﴾ علم الخليل عليه السلام أن مكة قد أحاطت ها الجبال وليس ها زرع ولا ضرع، فسأل الله لأهلها أن يرزقهم من الثمرات، والثمرات معلومة وهي ، ما يقتات ها الإنسان من بقول الأرض ونباها وقيد الخليل دعاءه بأن تكون تلك الثمرات لمن آمن رغبة منه في أن يطهر الله البلد الحرام من الكفار والله تعالى هو الخلاق القوي القادر المريد الذي يفعل ما يشاء لا ما يشاء عبيده، رد عليه بقوله تعالى : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا** ﴾ أي أني استجبت دعاءك للمؤمن وأعمم به للكافر . وأعددت للمؤمن يوم القيامة نعيمًا مقيمًا وللكافر عذابًا أليمًا .

قوله تعالى : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

اختلف العلماء في هذه الآية، فمنهم من قال إن البيت نزل من السماء جوهرة بيضاء وكانت تحجه الملائكة وأمر الله آدم أن يحجه من بلاد الهند، فأتى ماشيًا إليه، وكان الأنبياء يحجونه بعد آدم حتى طاف به الحيض ولطخوه بالدماء وطافوا حوله عراة فرفعه

الله، وهو البيت المعمور الآن في السماء، حتى أمر الله إبراهيم ببنائه، وكانت قواعـده خفية فأمر الله سبحانه أن تظل البيت، وأمر جبريل أن يأمر إبراهيم بأن يبني بقدر ظل السحابة، وهنا دله الله على القواعد القديمة فرفعها بالبناء عليها .

وقال بعض العلماء : بل أسس إبراهيم دعائم البيت ورفعها بالبناء وكان إبراهيم عليه السلام يبني وإسماعيل يناوله الأحجار التي أتت بها الملائكة من جبال شتى وكـان في بنائه يدعو الله مع ولده إسماعيل قائلا : ﴿ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ دعاء منبعثًا من قلب حاضر مع الله تعالى مخاطب له . والإسم الأعظم أن تدعو ربـك حاضر القلب وموقنًا بالإجابة . وهذا هو الاسم الأعظم . وما دعـا داع مـتجملا بالحضور أو باليقين إلا قال الله له لبيك عبدى أعطيتك ما سألت إلا إذا دعا بعقوق أو قطيعة رحم أو ظلم، فإن الله لا يستجيب له . ولكن يؤجل إجابة الدعاء يوم القيامة . ورفع القواعد ارتفاعها بالبناء، والقواعد جمع قاعدة والقاعدة هي أساس البناء وانظـر إلى أدب الرسل عليهم الصلاة والسلام كيف يتقربون إلى الله تعـالى بتنفيـذ أمـره ويبتهلون إليه في أن يقبل منهم . وهذا الأدب يجب أن يتمسك به كل مسلم، فـإذا صلى أو صام أو تقرب إلى الله بمال أو نفس أو ملك يسأله بعد تتميم هذا العمـل أن يتقبل منه. ولرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أدب فوق هذا الأدب، وهو أنه عليه الصـلاة والسلام كان يستغفر عقب الصلاة ثلاث مرات، فانظر إلى هـذا الأدب المحمـدي، كيف يتقرب إلى الله بالصلاة، ثم يستغفر بعـدها ليعلمنـا الإنابـة إلى الله بالتوبـة والاستغفار بعد عمل القربات .

وقد بين الله لنا أحوال أحبابه في القرآن فقال سبحانه : ﴿ **وَالَّذين يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا ۞ وَالذِّينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرَف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إن عَـذَابَها كَـانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًا وَمُقَامًا** ﴾ بعد مبيتهم يصلون ويتقربون إلى الله بتلاوة كلامه العزيز، ثم يصيحون خائفين من عذاب النار . فكيف يكون حال من بات ليله

في معصية الله ويصبح آمنًا مكر الله وعذابه، أعاذنا الله تعالى من سوء القدر . ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ أي إنك أنت يا من أخاطبك مخاطبة مشاهد لجمالك الســـميع لأقوالنا بألسنتنا وبقلوبنا العليم بما تكنه نفوسنا، وبالهمم واللمم والخواطر التي ترد على قلوبنا وبأعمال جوارحنا وبالنوايا التي دعتنا لهذا العمل لك .

قوله تعالى : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِــكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

وقد بينت تلك الآية ما ورد من القراءآت الأخرى وهي ، قولــه تعــالى : ﴿ **رَبَّنَــا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾ وأسلم واستسلم وسلم بمعــنى واحد . وكان الخليل وابنه عليهما السلام يسألان الله أن يمنحهما التوفيق للاستســـلام لحضرته العلية بكليتهما، وأن يتفضل عليهما بأن يجعل من ذريتهما من يكون مستسلمًا لله وإن كانت (**مِن**) بمعنى الابتداء كان المراد جميع ذريتهما . ﴿ **وَأَرِنَا مَنَاسِــكَنَا** ﴾ أي وعملنا ما تحبه منا من أعمال الحج من طواف وسعي ووقوف، ولما بين الله لهمــا ذلك ورجعا من الوقوف بعرفة تعرض لهما الشيطان في أماكن الرجم ليشـــغلهما عـــن السرعة للرجوع إلى زيارة رب البيت في بيته المعروف بطواف الإفاضة، فأخذ الحجر إبراهيم عليه السلام وأخذ ولده إسماعيل عليه السلام ورجما إبليس في الأماكن الـــتي تعرض لهما فيها فكان الرجم من مناسك الحج للآن ﴿ **وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ هنا يقف العقل حيران سائلا : ما هي الذنوب التي أتاها إبراهيم وولده حتى يتوبا منها إلى الله تعالى ؟ ولنا أن نقول للعقل اسجد خاسئًا، فإنك لا سلطان لك على ما وراء الكون، ولا اطلاع لك على ما في قلوب الرسل من العلم بالله بل ولا علـــى قلوب أهل العلم بالله تعالى، فإن الله تعالى خلقك لتكون ميزانًا للشئون الكونية فقط، في تدبير أمور الناس وسياسة المجتمعات، واختراع الصناعات وإتقـــان الزراعـــات . والتجارات والانتفاع بالبر والبحر . وليس لك أن تطلع على الغيـــب المصـــون . إن

الخليل عرف نفسه وعرف ربه فهو في نظره بالنسبة لله خطاء مسيء مهما تقرب،لأنه ينظر إلى عظمة وكبرياء وجلال وجمال وبهاء وضياء ونور وكمال الله تعالى، وأنـــت أيها العقل تنظر إلى كون وإلى تدبير شئونه فسلم تسلم .

واعلم أن أقرب قربات الرسل يلزمهم عليها أن يتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروا كمـــا تجب التوبة على العصاة، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ** ﴾ وليس مـــن استدل على وجود الله بخلقه كمن استدل على وجود الخلق بالله تعالى فأهل المقامات العالية عرفوا الخلق بالخالق، وأهل العقول عرفوا الخالق بخلقه،وشتان بين من محل نظره وجه الله تعالى فلا يغيب عن الله ولو غاب الكون عنه وبين من محل نظره الكون فإنه إذا حل به خيرا أو مصيبة شغل عن الله تعالى لأنه ما عرف الله إلا بالكون المحســـوس وهنا أبين لك ما اختلف فيه المفسرون قالوا إن إبراهيم عندما سأل الله تعالى بقوله : ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِــكَنَا** ﴾ يلـــزم أن يكون عند هذا الدعاء غير مسلم وفى قوله تعالى : ﴿ **وَتُبْ عَلَيْنَآ** ﴾ يلزم أن يكـــون عاصيًا وهذا فتح لأبواب الفتنة، فإن الواجب علينا أن نسمع كلام الله بآذان قلوبنـــا، فإن فتح الله لنا كنوزه وآلاح لنا أسراره حمدناه وشكرناه، وإن لم تظهر لنـــا أنـــواره التجأنا إلى الله متضرعين متبتلين حتى يمنحنا الفقه في كتابه، فإن للرسل أسرارًا تناسب مكانتهم من الله تعالى لا تدركها العقول بما حصلته من العلوم، قال الله تعالى : ﴿ **يَـــا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ وعبد واجهه الجميل وجعل لـــه نورًا في قلبه تنكشف له أسرار القرآن وغوامضه . والخليل عليه السلام يعلم قصـــوره وعجزه عن بلوغ الكمالات التي تليق بالجناب العلى، فهو يســـأل الله تعـــالى المزيـــد والدوام . ولا ينبغى لمسلم أن يعلم أنه بلغ تمام النعمة إلا بدخول الجنة، وما من كمال

إلا وعند الله أكمل منه . قال تعالى مخبرًا عن أهل الجنة:﴿ اَلْحمْدُ لِلهِ الــذي هَــدَانَا لِهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ وقال تعالى مخبرًا عنهم أيضًــا ﴿ وَآخِــرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُــمُ الْكِتَــابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

بين الله لنا في هذه الآية الشريفة أنه يشرف بأرواح الرسل عليهم الصلاة والسلام على سر القدر كما أشرف بروح موسى عليه السلام على سر القدر، فرأى أن الله تفضــل على عبد من عباده بأن يمنحه النظر إلى وجهه العلي فأحب موسى أن يكــون ذلــك العبد، فقال : ﴿ رَبَّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾، وكما أشرف بروح داود عليه السلام على سر القدر فمكث يعبد الله في محرابه لينال مكانة عيسى السلام من الوحدة، مع أن الله تعالى اصطفاه بالخلافة عنه الأرض فقال الله لموسى ﴿ لَن تَرَانِى ﴾، وأرسل الله لداود ملكين في صورة إنسانين ليقيما عليه الحجة أنه خليفته في أرضه، وإن مقام الوحــدة خص بعيسى عليه السلام، والآية معلومة . فكذلك أشرف بروح إبراهيم عليه السلام على سر القدر، فأطلعه على أن نبي آخر الزمان من ولده، فسأل الله تعالى أن يكــون هذا النبي مبعوثًا في البلد الحرام فقال عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني من ولد إسماعيل .

وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، ولذلك أمرنا أن نصلى عليه في كل صلاة بأن نقول : ((اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صــليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)) جزاء للخليل على تلك الدعوة واستجابة مــن الله دعاءه في قوله : ﴿ وَاجْعَل لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْأَخِرِينَ ﴾ فجعله مذكورًا بالصــدق على لسان أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ثم سأل الله تعالى لهذا الرسول الكريم الذي يعلمه

الله أنه سيد الرسل وخاتمهم فقال : ﴿ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ إذن فأكمل صفات رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، أن يتلو علينــا الآيــات، ويعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا . وهناك وصف آخر ﴿ **وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُــوا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

بذلك يمكننا أن نحكم على كل داع قام يدعو إلى الله إذا تلا علينا الآيــات، وعلمنــا الكتاب والحكمة وزكى أنفسنا، وعلمنا من علوم الغيب والإشارات ما لم نكن نعلم، أنه وارث لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبذلك نتحقق أن الله تفضل علينا فضلا عظيمًا، فمنحنا ما منحه أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من بيان أسراره، وكشف حكمه وأحكامه، ولم نفقد إلا أن نكون معاصرين لذاته ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ونكون من أصــحابه رضي الله عنهم، ولكنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بشرنا أننا من إخوانه كما في حــديث الموطــأ بقوله عليه الصلاة والسلام : ((واشوقاه لإخواني الذين لم يأتوا بعد)) وبشــرنا الله بقوله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ وخير الأمة من جملــه الله بميراث رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ورسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لم يورث درهمًا ولا دينارًا ولا زرعًا ولا عقارًا، ولكنه ورث العلم والهدى والنور . وقد حفظ الله لنــا كتابــه وحفظ فينا رسوله . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ بحملته الراسخين في العلم العاملين بما علموا منه . قال تعالى : ﴿ **وَفِيكُمْ رَسُــولُهُ** ﴾ وإن كان سبب نزول الآية خاصًا، ولكن الحكم عام، وفينا بورثته الذين جملــهم الله بجماله المحمدى . أما قوله تعالى : ﴿ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ** ﴾ المعنى بالآية هنا ما أظهــره الله في الكون من عجائب قدرته وغرائب حكمته، ولك أن تقول الآيات هي ألفــاظ القرآن التي تتلى للتعبد . وقوله : ﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ أي يشرح لهــم غــوامض أسراره، ومكنون غيبه بعد تلاوته . وقوله : ﴿ **وَالْحِكْمَةَ** ﴾ قال بعــض العــارفين : الحكمة هي التخلق بأخلاق الله تعالى . وقال مالك والشافعى : الحكمة هــي الســنة

والعمل بمقتضاها . وقال بعض العلماء : الحكمة هي الآيات المتشابهات والحكمة هي بيان مراد الله تعالى في حكمة أحكامه وفى قصصه وأحكام عبادته وتقرير أسمائه العلية وصفاته ﴿ **وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ التزكية هي التطهير، أما من كان كافرًا فيزكيهم بالطهارة من الشرك . فأما أهل الإسلام فيزكيهم من الشبه ومن الأخلاق التي لا يحبها الله تعـــالى . وأما أهل الإحسان فيزكيهم بأن يدعوهم إلى الفرار إلى الله تعالى من الوقــوف عنــد الأسباب، وأما أهل اليقين فيدعوعهم الى الاتحاد بالحق قولا وعمـــلا وحـــالا . وأن يحفظون أسرارهم من أن يكشفوها للعامة لئلا يفتن الناس . قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ((إن الله يكره أن تبينوا كل البيان)) وقال تعالى : ﴿ **كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنــتُمْ تَعَلَّمُــونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُم تَدْرُسُونَ** ﴾ أي بينوا للناس من العلوم على قدر عقولهم .

وهنا أبين أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ دعا إبراهيم عليه السلام، أن الله يجعله يزكــى الأمة وبالفعل قد زكانا ﴿ ﷺ **وآله**﴾. جزاه الله عنا أكمل الجزاء بصلاة ذاتية وسلام ذاتى أسأل الله أن يمنحه الوسيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمــود . إلا أن التزكيــة ليست في مقدوره ﴿ ﷺ **وآله**﴾، إذ لو منحه الله القدرة على تزكيتنا لما أبقى علــى وجه الأرض كافرًا . ولكن الله منحه القدرة على تزكية من سبقت لهم الحسنى، كما منحه هداية البيان، والله تعالى هو الذي يزكى من يشاء ويهدى من يشاء . قوله تعالى مخبرًا عن خليله بدعائه مخاطبًا ربه : ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ كأنه يقول : أن ما سألتك سبحانك إلا ما هو ممكن تتعلق به قدرتك وما سألتك مكرهًا لــك علــى أن تفعل لأنك أنت العزيز الحكيم الذي لا تخرج أعمالك عن الحكمة التي اقتضْها إرادتك .

أورد الله تعالى تلك الآية من قوله تعالى : ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمــَاتٍ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ ليقيم الحجة على اليهود والنصارى والمشركين بدعوتهم إلى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بأسلوب الحكيم، فإن المشركين معتقــدون أن

إبراهيم عليه السلام هو الذي بني البيت وأهم نالوا ببيت إبراهيم الشرف والمجد، وأهم من أولاد ابنه إسماعيل، وفيما أخبر الله به عن إبراهيم عليه السلام يوجب عليهم الإيمان برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأما اليهود فإنهم أولاد إسرائيل (يعقوب) ويعقوب ابـــن إسحاق و إسحاق بن إبراهيم فهو أبوهم الأكبر وإليه ينتسبون. وما تلاه الله من الخبر عنهم يقتضي أن تنجذب قلوبهم إلى الإيمان برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾. وأما النصـــارى فهم أتباع عيسى عليه السلام وعيسى ابن مريم ومريم من أولاد إبراهيم، وكان يخبر في إنجيله أنه ابن إبراهيم، فخبر الله عن إبراهيم عليه السلام أن رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ دعوة إبراهيم، وأن الملة ملة إبراهيم، وأنه ﴿ﷺ وآله﴾ بشرى عيسى عليه السلام كل ذلك يجعلهم يسارعون إلى الإيمان به ﴿ﷺ وآله﴾، ولكن الله يهدي من يشاء . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ .

قوله تعالى : **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾**

كان اليهود والنصارى لا يؤمنون برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وكل فئة منهم يعتمدون على نبي لهم، فاليهود يدعون أهم من أمة موسى عليه الســـلام ولا يؤمنـــون بغـــيره، والنصارى يؤمنون بعيسى ولا يصدقون غيره . هؤلاء يقولون إنا نصـــارى واليهـــود يقولون إنا يهود لجهلهم بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن الله يرسل في كـــل عصر رسولا ليبين للناس ما يناسب عصرهم .وكل من أنكر عليه كفر . ولما كان الله تعالى أعلم بعقول عباده وبنفوسهم الأمارة بالسوء تنزل إحسانًا جل جلالـــه ودعـــا اليهود والنصارى إلى الحق المبين في التوراة والإنجيل، ودعا مشركى العـــرب إلى مـــن ينتسبون إليه ويفتخرون ببيته، وأثبت أن اليهودية والنصرانية ليستا دينًا يدان به، وإنمـــا هي بدع مضلة ابتدعها اليهود والنصارى وكذلك عبادة الأوثان، واتخاذ الشـــركاء لله ليس بدين إبراهيم، ولكنه دين الجاهلية العمياء الصماء . لذلك فإن الله تعالى أنكر على

اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين خالفوا ملة إبراهيم عليه السلام وابتدعوا بدعًا مضلة فقال سبحانه منكرًا عليهم : ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾ وملة إبراهيم هي الحنيفية . قال بعض العلماء : هي الحج والختان، لأن الخليل عليه السلام هو أول من اختتن بعد كبر سنه، وهو الذي بني البيت الحرام، وأراه الله مناسك الحج فحج .

وليس في هذه الآية إشارة إلى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ولا لأصحابه، لأن كل مسلم آمن بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، فلم يرغب مسلم عن ملة أبيه إبراهيم عليه السلام . إذن، يكون الإنكار على اليهود والنصارى والمشركين الذين مالوا عن ملة إبراهيم وخالفوا . . .

ولما كانت ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، فكل مسلم على ملة إبراهيم وزيادة، لأن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خاتم الأنبياء، فأكمل الله به الدين، وما جاءنا به ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من عند ربنا مما لم يكن عليه الخليل ولا أحد من الرسل من حيث العبادات والمعاملات والأخلاق، ومن حيث العلوم العالية التي تبين لنا الغيب المصون والسر المكنون، الذي خص به الخليل دون أمته بقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيم مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾ فذالك خاص بأمة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وقد أكرم الله الأمة بأن أقام لها في كل عصر عبدًا من عبيده يقيم حججه ويبين سبله، ويجمع الخلق لتقوم الحجة أن محمدًا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خاتم الأنبياء وأنه لا نبى بعده . قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ((العلماء سراج الدنيا ومصابيح الآخرة)) وقال عليه الصلاة والسلام : ((العلماء ورثة الأنبياء)) والمراد بالعلم . العلم النافع لا مجرد علم كعلم النجارة والبناء والصيادة والنسيج،وكعلوم الإفرنج التي هي الصناعات والسياسات المضرة . كل هذا ليس بعلم نافع لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأن بني الإنسان عاشوا أكثر من ستة آلاف سنة قبل ظهور تلك الصناعات وهو في سعادة

واجتماع وأمن وعافية وكانت تلك الفنون والصناعات التي أحدثها الإفرنج سـببًا في بلاء بني الإِنسان.

بين الله لنا أن من يرغب عن ملة إبراهيم سفَّه نفسه، والسفه هو الجهالـة والهـلاك والخسران . والأصل إلا من سفهت نفسه . ولما كان السفه لا توصف به إلا النفوس وذلك حكم على اليهود والنصارى الذين خالفوا ملة إبراهيم، لأَنهم سفهوا أنفسـهم أي خسروها وهلكوا أو جهلوا الحقيقة عنادًا، ثم بين مقام الخليل عليه السلام ليكـون ذلك أنكى في نفوسهم بقوله : ﴿ **وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أي اخترناه ورفعناه على العالم أجمع في زمانه وتفضلنا عليه بأن جعلنـاه إمامًا يقُتدى به من حياته وبعد مماته، وذلك ظاهر . فإن كل مسلم يصلى عليه في كل يوم في الصلاة عند التشهد، وقد منّ الله عليه بتلك النعم العظمـى، بعـد أن ابـتلاه واختبره أولا بالنجوم، وثانيًا بالنار التي ألقى فيها، وبإقامة الحجة على قومـه وعلـى والده وبذبح ابنه وببناء البيت الحرام بعد أن دعاه سبحانه إلى الإِسلام فأسلم بكله لله، ﴿ **وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ الضمير كناية عن الخليل عليه السلام، أي وإن إبراهيم في الآخرة لمن الصالحين الذين ينالون من الله تعالى المواجهة والقـرب ورفـع الدرجات عند الله تعالى .

قوله تعالى : **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٣١﴾

أى دعاه إلى الإِسلام والاستسلام له سبحانه، فأسلم لله مستعينًا به في القيام بما يكلفه به جل جلاله ولبى ربه منيبًا إليه قائلا أسلمت لرب العالمين، يعني استسلمت بكلـى مسلمًا جميع أمورى لرب العالمين، الذي ربانى بسوابغ نعماه، وأولانى جزيل عطايـاه، وخصنى بموجبات رضاه، وقام داعيًا إلى الله معلنًا رسالته، مفتتحًا بأقرب الناس إليـه بدليل الآية الآتية .

قوله تعالى : وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

يذكرنا ربنا ما كان عليه الخليل من كمال الاستسلام لله تعالى بخبره عنه وأوصى بنيه بشرائع الإسلام التي دعاه الله إليها، فأقبل بكليته عليها، وخبر الله تعالى عنه بما بينه بقوله : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ وورث يعقوب تلك الوصية، فوفّى كما وفى جده عليه السلام، ووصّى بنيه كما وصى الخليل وبيّن الوصية بقوله : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ أي الدين الحنيفي، فجاهدوا أنفسكم واحفظوا أنفاسكم فلا تخرجوها في معصية، فإن الموت غيب عن الإنسان ولا يعلم متى يحل، فقد يتنفس نفسًا في معصية فيموت مرتكبًا للمعاصي، والإنسان يحشر على ما يختم عليه به، وشتان بين من يموت حاضرًا ذا كرًا ومن يموت غافلا منكرًا، والإنسان إذا عبد الله ألف سنة ثم غفل وارتكب كبيرة ومات حال ارتكابها مات عاصيًا، أعاذنا الله من الغفلة ومن نسيان يوم الحساب . وليس المراد بقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أن الإنسان قادر أن يموت مسلمًا، لأن ذلك ليس في مقدوره، وإنما المراد مجاهدة النفس أن لا يعمل عملا يخالف الله تعالى فيخشى أن يموت وهو يعمله، وإنما الرسل أرسلهم الله تعالى ليبينوا للناس طريق الخير، وليعملوا أمامهم ما يحبه الله تعالى، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

قوله تعالى : أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

ينكر الله تعالى على اليهود من بني إسرائيل قولهم ما مات نبى إلا على اليهودية فيثبت فريتهم على الأنبياء، مثبتًا أنهم لم يحصروا وقت موت يعقوب، و لم يسمعوا وصيته

لأبنائه عند موته، مبينًا سبحانه للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حقيقة الأمر، وتلك الآية معجزة عظمى لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ نشــأ بين جاهلية عمياء صماء، لا علم لهم بتلك الأحداث، من أين علم هــذا إلا مــن الله تعالى، وهو معنى المعجزة . وتلك الأحداث لا يعلمها إلا أحبار اليهــود، ويعانــدون فينكرون هذا السر، ويدعون أن الخليل وابنه إسماعيل وإسحاق بل ويعقوب وبنيهم لم يعلموا بشيء اسمه يهودية ولا نصرانية إلى زمان موسى . قال تعالى : ﴿ **مَــا كَــانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلاَ نَصْرَانِيًا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْــرِكِينَ** ﴾، فإن بدعة اليهودية والنصرانية كانت بعد الخليل وأبنائه جميعًا فرد الله عليهم فريتــهم بقوله تعالى : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهدَاءَ** ﴾ أي حضورًا وقت موت يعقوب وساعة وصــيته لأبنائه لقوله في الآية السابقة : ﴿ **إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنــتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ فحكم الله لهم أنهم كانوا مسلمين لا يهودًا ولا نصارى، وقول يعقــوب في الآية الثانية حين موته : ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي** ﴾ الآية بل ولا سمعتم إجابتــهم لوالدهم حيث قالوا : ﴿ **نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ الآية . ولما كان قولهم : ﴿ **إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ** ﴾ الخ الآية ؛

ربنا ظن الجاهل أن الآلهة متعددون بينوا كل البيان خوفًا من اللبس بقــولهم ﴿ **إِلَهًــا واحدًا** ﴾، والمراد أن إله يعقوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴿ **إِلَهًا وَاحِدًا** ﴾ كمــا قال تعالى : ﴿ **إِلَهَكَمْ وَإِلَهَ وَاحِدًا** ﴾ ثم قصم الله ظهورهم بكمال قول الأسباط وهو ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾، فثبت أن اليهودية بدعة ليست من إبراهيم في شيء . ومعنى هاد يعني رجع، وقال بنو إسرائيل في زمان موسى مخبرين عن أنفسهم عند توبتهم من عبادة العجل ﴿ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** ﴾ أي رجعنا إليك، فظهر أن اليهودية ليســت دينًــا، ودعواهم أنها دين لكل الأنبياء من قبل، بهتان وبدعة ابتدعوها لأنفسهم، ما أنــزل الله بها من سلطان كما أن النصرانية ليست دينًا، ولكن عيسى كان من بلدة تســمى ((

ناصرة)) فكانوا يقولون عيسى الناصرى، فابتدعوا لهم دينًا يسمونه (نصرانى)، وهم كاذبون في كل ذلك، تقهرهم الحقائق التي وردت في التوراة والإنجيل والقرآن، بل وفى سير الملوك والأنبياء، فثبت أن دين الله تعالى هو الحنيفية البيضاء التي ليلها كنــهارها، وهي ، التي كان عليها الخليل عليه السلام، ووصى بها بنيه، وعاهدهم أن يموتوا علــى الإسلام . ومن العقيدة الإسلامية أن يعتقد كل مسلم أن الأنبياء جميعًا ماتوا مسلمين، و لم يكن لهم دين غير دين الإسلام، قال تعالى : ﴿ **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّا كُـمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ فإن دينهم كان اعتقاد توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة لذاته العلية، وقد جاءنا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فكشف الحجاب عــن أســرار العقيــدة وغيوبها، وبين لنا ما يحبه الله ويرضاه من عبادته، صلاة وصيامًا وزكاة وحجًا وجهادًا، ومن حسن معاملة خلقه في أن يحب كل مسلم لأخيه ما يحبه لنفسه، ومــن جمــال الأخلاق التي هي أخلاقه سبحانه وتعالى .

ثم بين لنا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ الحقائق التي يجب علينا أن نؤمن بها، التي جاءتنا مــن طريــق النقل، كأن نؤمن بالجنة والنار والصراط والميزان، وبالوقوف بين يدى الله، وبواســع رحمة الله تعالى وعفوه، وبشديد عذاب الله، وبما هنالك مما لم يسطر على الأوراق،مما أخبرنا به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من قوله ((فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) كل ذلك جاءنا به رسول الله ﴿ ﷺ **وآلــه**﴾، و لم يــأت في الأسفار السابقة، وبذلك كان رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خاتم الأنبياء، يعــني لا نــبى بعده، ومن ادعى النبوة بعده كفر ووجب قتله . قال الله تعالى : ﴿ **الْيَــوْمَ أَكْمَلْــتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾ .

قوله تعالى : **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّـا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٣٤﴾

بين الله تعالى لليهود ما هم عليه من الإنكار على الأنبياء الذين بعثهم الله إليهم خاصة، بل وعلى خاتم الأنبياء الذي بعثه الله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وحكم عليهم بالبهتان في قولهم حكمًا جللهم بالذل والخزى إلى يوم القيامة، والإشارة في (**تِلْكَ**) كناية عن الخليل وأولاده عليهم الصلاة والسلام، وأتى باللام فيها المفيدة للبعد، لبعدهم عن نيل هذا الشرف لا لبعد الزمان والمكان، لأن الله لما أراد أن يخبر عن قرب إبراهيم عليه السلام، قرب الأب . فقال سبحانه : ﴿ **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ فكان هذا القرب اتصال النسب الروحاني . وقوله تعالى : (**أُمَّةٌ**) أي جماعة من الناس و ﴿ **قَدْ خَلَتْ** ﴾ أي انتقلت إلى دار غير هذه الدار، يقال خلا فلان بنفسه : أي انتقل إلى مكان لا أنيس له فيه و ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ** ﴾ أي ينالها جزاء ما وفقها الله له من تحصيل العلم، ومن القيام بالعمل . وقوله تعالى ﴿ **وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ** ﴾ عطف من الله تعالى على اليهود ،ويقيم الحجة أنه سبحانه دعاهم بإحسان ولطف، فأبوا أن يقبلوا من الله، أو أن يعلقوا عنه، فإن قوله تعالى ﴿ **وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ** ﴾ تنزل حناني أو تبكيت قهرماني . كما قال تعالى : ﴿ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ . أعاذنا الله بوجهه الكريم من مكره بخلقه سبحانه .

وهنا أبين لك أن اعتماد الجهلاء على آبائهم وأسلافهم، والظهور أمام العامة بتعظيم أنفسهم بنسبتهم للأولياء العظام لمصائد طمع لحطام الدنيا، فإن الله تعالى يقول لذرية إسرائيل ((يعقوب)) ﴿ **وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ . وفى هذا الكلام اكتفاء، يعني ولا يسألون عما أنتم تعملون فأدحض الله تعالى قول من يقول إن الميت فلا نا ينفعني بما لى من النسبة إليه،والله تنزه وتعالى عن أن يظلم الناس شيئًا . قال سبحانه : ﴿ **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾، ولو أن الموتى ينفعون الأحياء للزم أن الموتى يعذبون بأعمال الأحياء . والواجب على كل مسلم أن يبحث عن أهل العلم بالله تعالى، وأن يحصل العلم النافع، وأن يعمل به ولا يعتمد إلا على فضل الله ورحمته،

فإن لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وهذا لا يفيد إهانة المعلـــم والازدراء بــــه، ولكنه يفيد تعظيمه وإجلاله لله تعالى، وأن يفديه بماله ونفسه . قال عمر بن الخطـــاب فداك أبي وأمي يا رسول الله فجبذه إليه وقال : ((لا يكمل إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه)) .. قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ هنا كمال التلطف من الله تعالى، وكان مقتضى سياق الآية : ولا ينــالكم خير من أعمالهم، ولكنه أراد أن تكون له الحجة البالغة، فلا يقف بين يديه منكـــر ولا كافر يقول إنك قدّرت وأعنت أما قَدَره بفتح الدال ومكره الخفى، ففوق مقدار العقل الكامل، وهو سبحانه أرحم الراحمين، فيتترل لخلقه حتى إذا أبوا وأخذهم لم يفلتـــهم، يعني أنه تعالى يخبرهم أنه لا يحاسبهم بما عمل أسلافهم، وإن كان سبحانه أخبر أنهم لم يبتدعوا ما يخالفه، ولكنه تعالى أراد أن يبين أن كل إنسان يحاسب بعمله وإن إنسانًا لا ينتفع بعمل غيره إلا إذا كان عمل به بعد علمه، وهذا لا يمنع قبول الشفاعة ممن يقبلهم الله تعالى يوم القيامة، لأن الشفاعة إنما هي شهادة أمام الله بأن الشفعاء رأوا المشـــفوع فيهم على حالة ترضى الله تعالى،ولم يشهدوا بما لم يروا ولا بما لم يعلموا، ولذلك يقبل الله شفاعتهم . وليست الشفاعة حكمًا على الله تعالى بأن يخرج من النار من مـــات كافرًا أو منافقًا أو مغضبًا لله تعالى . وهذا ما لا يقول به مسلم تذوّق طعم المعرفـــة . وقد أنكر الشفاعة قوم من العلماء لأنهم فهموا أن الشفاعة حكم من العبد المقبول على الله تعالى . والعبد المقبول أكبر من أن يسيء الأدب مع ربه، ويحفظه في غيبتـــه عنـــه سبحانه، ولا يفعل ذلك إلا إبليس، فإنه أساء الأدب في الغيبة والشهود وإنما الشفاعة ما قررته لك .

قوله تعالى : وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًـــا وَمَـــا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

إن أمر يهود بني إسرائيل الذين كانوا في عصر رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، لما تقوم بـه الحجة على لعنهم وطردهم عن الحق، لأنهم يعلمون بصريح التوراة أن إبراهيم عليـه السلام، سأل الله تعالى أن يبعث فيهم أي في أهل مكة ـ رسولا منهم ويعلمون صفته ومكان ولادته في التوراة، ومع ذلك تأخذهم العزة بالإثم محافظة علـى السـيادة في الدنيا، وطمعًا في غرور السذج من الناس، لينالوا ما يشـتهونه مـن خـير العاجلـة فيعاندون، ويقول اليهود لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: إن الهدى ما نحن عليـه فكونـوا هودًا تهتدوا . وكذا يقول النصارى له ﴿ﷺ وآله﴾ أن صريح إنجيل في إنجيل يحيى ((يوحنا)) حين قال له اليهود ((أإيليا أنت ؟ قال لا . المسيح أنت ؟ فقال لا . قـالوا الرسول أنت ؟ فقال لا . فأثبتوا ما أثبتته التوراة وهو بعثة إيليا والمسيح والرسول . ولما أن جاء الرسول أنكروه كفرًا بالله وافتراء على كلامه العزيز . وقال عيسى في إنجيـل برنابا : الرسول الذي يأتى بعدى أتمنى أن أحمل حذاءه : وهذا السفر لا يسع ما ورد في التوراة والإنجيل والزبور من نعوت رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقد بينت ذلـك في كتاب ((وسائل إظهار الحق)) فارجع إليه إن شئت .

وقد كذّبهم الله في دعواهم الباطلة، ردًا عليهم بحجة قاصمة للظهر، ليجمعهم علـى الحق، كما هي سنة الله تعالى في تتزله وتلطفه بخلقه، حتى لا تكون لهم حجـة يـوم القيامة على الله تعالى . فقال سبحانه : ﴿ **بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ ردًّا عليهم مضربًا عن كلامهم، ليبين لهم سبحانه وتعالى أنه ﴿ﷺ وآله﴾ جاء بما جاء به إبراهيم عليـه السلام، الذي يعتمدون عليه في دينهم . ومعنى الملة الدين، فملة إبـراهيم أي ديـن إبراهيم الذي بعثه الله به ليعمل به ويبلغه قومه . ومعنى (**حَنِيفًا**) أي مستقيمًا، يقال فلان أحنف وسليم، ويقال مفارة وهي ، ألفاظ توضع، فـالأحنف يوضـع لمعـوج الرجلين تمنيًا أن يكون مستقيمًا، والسليم يوضع لمن لدغته عقرب أو حية تمنيًا أن يسلم منها . والمفازة توضع للبادية المهلكة تمنيًا أن يفوز بالسلامة منها، فحنيفًا في اللغـة أي مستقيمًا، وأولها بعض العلماء بأنها ((حاجًّا)) أي متبعًا . وجائز أن تكون المعـانى

كلها، لأن ملة إبراهيم ليست خاصة بالحج فحسب، فهي جامعة لكل ذلــك فهــي للحج والاستقامة والاتباع . وتخصيصها بمعنى من تلك المعانى لم يرد به صـريح مـن السنة .

وفى هذه الآية بيان أن يهود بني إسرائيل إنما قالوا ما قالوه عنادًا وكفرًا، لأنهم لو طلبوا من حيث هو حق لما وسعهم إلا الإيمان برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بعـد أن قامـت الحجة ووضحت المحجة، ثم نفى الله عن إبراهيم عليه السلام وعن أولاده الشرك بـه سبحانه فقال : ﴿ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾، والمشرك من آمن بوجود الله تعـالى، ولكن جعل له نداً وشريكًا أو ولدًا أو زوجة أو بنات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا .

وهنا سؤال : هل المسلمون الذين يتمسكون ببعض الرجال الموتى ولا ينتفعون بأهـل العلم بالله من الأحياء . ينالهم قسط من هذه الآية التي تدل على أن اليهـود كفـروا بعيسى عليه السلام وبرسول الله ﷺ وأن النصارى كفروا برسول الله ﷺ بقولهم : ﴿ **كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ** ﴾ ومنعوا المسلمين عن أن يتلقوا العلم النافع تمسكًا بما كانوا عليه قبل أن يظُهر الله في الوجود رجلا عارفًا به ؟ .

والجواب : أنهم إن كانت عقيدتهم تدعو إلى إنكار فضل الله تعالى على من يشاء مـن خلقه، وأنه سبحانه وتعالى لم يقدر أن يوجد عالمًا يقيم الحجة لله تعالى، ويبين سـنن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فإن الآية تشملهم، وحفظنا الله وإخوتنا المسلمين من دعاة الجهالة ومن علماء الدنيا .

وإن كانت عقيدتهم أنهم لا يحبون أن يعادوا أهل العلم من السابقين، فإذا ظهرت لهم الحجة وعلموا أن المراد كله إحياء سنن رسول الله ﴿ ﷺ وآلـه﴾، فلـهم أجـران والواجب على الدعاة إلى الله أن يتمسكوا بقوله تعالى : ﴿ **أُدْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحسَنَةِ** ﴾ حتى يقتلوا الشيطان من الإنسان، بل الواجب عليهم

ألا يتعرضوا إلى ذم الشيوخ السابقين، فإن ذلك يؤجج نار الفتنة . قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْـمٍ** ﴾ هـذا كـلام في المشركين، فكيف يكون في المسلمين، يجب أن يكون بلطف وإحسان وتمنٍ أن يكون الداعى إلى الله خادمًا للأئمة السابقين لو أدركهم، ولكن أين هم ورســول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يقول : ((أمتى أمة مرحومة مغفور لها، لا يدرى أولها خير أم آخرها)) .

قوله تعالى : قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

بين الله في هذه الآية ما يجب أن يكون عليه من أحب رضاء الله تعالى، ورغب في نيل محبته سبحانه وتعالى، لأن ذلك لا يكون إلا بالإيمان بكـل رسـل الله صـلوات الله وسلامه عليهم، لأن الله تعالى أرسلهم وأقامهم في كل زمان ليبينوا للناس ما اختلفـوا فيه، ولينهج لهم سبحانه وتعالى من الأحكام الشرعية في كل حدث حدث في زمـان الرسول المتأخر، حتى بعث محمداً ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خاتم الأنبياء . فأكمل لنا دينه علـى يديه، وبين لنا ما نحتاج إليه في أنفسنا ومجتمعنا المترلى مع الزوجة والوالـدين والأولاد والأتباع .وما نحتاج إليه في بلدنا الذي نحن فيه وفى مجتمعنا المدنى، وما نحتاج إليـه في المجتمع الإسلامى جميعًا، بل وما نحتاج إليه في المجتمع الإنسانى، فلو ضاع من أحـدنا عقال بعير لوجدناه في كتاب الله كما قال علىٌّ عليه السلام : ((لو ضاع منى عقـال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى)) وحجة هذا قوله تعالى : (**قُولُوا**) يا أمة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ﴿ **آمَنَّا بِاللهِ** ﴾ بما أنتم عليه من الإيمان وشرائع الإسلام ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ** ﴾ الخ .

فبين سبحانه في تلك الآية رسلة الكرام وأنبيائه العظام، مكتفيًا بذكرهم عن بقية رسله وأنبيائه الذين يجب علينا الإيمان بهم، لحكمة هي قهر اليهود وإثبات بطلانهم، وكشف الحقيقة على أن رسول الله جاءنا بما جاء جميع الأنبياء والرسل من قبله . وكل رسول سبق مترل عندنا بمترلة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، من أنه بعثه الله تعالى لهداية أمته وبعث رسوله خاتم الأنبياء عامًا للناس، جامعًا بين علوم الشريعة المتعلقة بالتوحيد وصلاح العالم، فإن الشريعة إنما أنزلت لإصلاح الخلق ، وجاءنا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعلوم الغيب مما يتعلق بعلم القلوب وعلم الأرواح وعلم كمال وجمال وجلال وبهاء ونور الله تعالى . وفي قصة موسى والخضر ما يشهد بذلك، فإن الله جمع لنبيه صلوات الله وسلامه عليه كل العلوم المتعلقة بالحق والخلق، والعلوم التي تبين سبله سبحانه كما قال تعالى في دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ** ﴾ فإن الخليل عليه السلام دعا الله بقدر ما وصل إليه في شريعته وخصوصيته ،ولكن الله المتفضل العظيم بين لنا ما اختص به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بقوله : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ** ﴾ . أي لا تعلمونه بأى وسيلة من الوسائل ولا بآثار الرسل السابقين عليهم السلام، ونحن نرى ذلك عيانًا في العلماء الراسخين من المسلمين، بل وفيمن تلقي عنهم فإن الله يكشف بهم علومًا لنا أجلاها الله لهم شهدتها أرواحهم فترجمت بها ألسنتهم لم يسبق لهم تلقّيها بمدارسة ولا بمحاضرة وهذا من ميراث : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ** ﴾، فثبت أن ذكر الخليل ومن بعده في الآية حكمة قهر اليهود والنصارى، وإثبات الحجة عليهم أنهم قوم بهت لا علم لهم بحقيقة الأمر، وأن نجاتهم لا تكون إلا بالإيمان برسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ الذي جاء بما جاءت به جميع الرسل، وبالمزيد من فضل الله تعالى بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ** ﴾ . أما الأسباط الذين ذكرهم الله في هذه الآية، فمنهم اثنا

عشر رجلا من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . ولد كل رجل منهم أمة الناس . فسموا أسباطًا، وهم يوسف وبنيامين ورّوبيل ويهوذا وشمعون ولاوى ودان وريـــالون ويشجر ونفثالى وجاد وأشجر .

قوله تعالى : فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

إن الله تعالى أخفى سر قدره عن خلقه، وقد افتتحهم بالجمال جل جلاله ولا يـــزال يواليهم بالجمال، وفى هذه الآية تلطف من الله سبحانه لمعاصري رســـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من اليهود، وإن كان افتتاح الآية ((بإن)) المفيدة بعدم الجزم بنيلهم السعادة عندنا، إلا أن الآية تدل على العطف لا على اليأس والقنوط . وقوله تعالى : (**آمَنُوا**) أي صدقوا . وقوله تعالى : (**بِمِثْلِ**) **أي** بالذى، لأن مثل في اللغة تأتى بمعـــنى أنـــا، وأنت، وهو. فقولك : مثلى لا يتساهل في الواجب . يعني أنا لا أتساهل في الواجب، وقولك : مثلك لا يجفو حبيبه، يعني أنت . وقولك : مثل زيد لا يفعل القبيح، يعـــني هو . ومثل في هذه الآية بمعنى الذي : ولا حاجة لاختلاف التأويل، لأن الذي آمن به أصحاب رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ليس له مثل بعد بعثته عليه الصلاة والسلام، بل ولا مثل له في أيام الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، لأن الله أكمل دينه بمحمد ﴿ﷺ **وآله**﴾ من العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، ومن تفصيل إجمال الغيب المصـــون : إذن لا مثل لما آمنا به، فتعين أن تكون مثل بمعنى الذي بدليل قوله تعـــالى : ﴿ **ثُـــمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ** ﴾ فقوله تعالى : ﴿ **لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ** ﴾ دليل على أنه ﴿ﷺ **وآله**﴾ بعثه الله بما زاد على ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم . وكفانا شرفًا أن نبينا ﴿ﷺ **وآله**﴾ هو نبي الأنبياء . فكـــأن الله أنزلنا منزلة الأنبياء .

وقد وردت الآيات الكثيرة برهانًا على أن الله تعالى أنزل أمة حبيبه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ مترلة الأنبياء بدليل قوله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ وإنما الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هم الأنبيـاء عليهم السلام، وقولـه : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاس** ﴾ والشهداء على الناس يوم القيامة هم الأنبياء . وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ قال تعالى : ﴿ **مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَـهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْل** ﴾ وكما أن الله تعالى واثق الأنبياء بدءًا بالنيابة عـن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فقد بايعنا ختما بقوله تعالى : ﴿ **يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْـدِيهِمْ** ﴾، وكانت اليد التي فوق أيديهم يد رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فشرف الله البيعة بأن جعل يده فوق أيدينا . فخبر الله عنهم أهم إن آمنوا بما جاءنا به رسول الله ﴿ ﷺ **وآلـه**﴾، تفضل الله عليهم بأهم اهتدوا وفازوا بما بشر به أهل الإسلام في الدنيا والآخـرة . في الدنيا من التمكين في الأرض بالحق والعلو والعزة، وفى الآخرة بالرضوان الأكـبر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، تفضـل الله عليهم في الآية السابقة بمحو اليأس والقنوط، وبشرهم بقبولهم إن هم آمنوا بما جاءهم به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ثم أنذرهم عاقبة الالتفات عما جاءنا من الله تعالى .(تَوَلَّوْا) يعني التفتوا ولم يقبلوا الحق، فحكم عليهم حكمًا لا مفر منه بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ فحصرهم في الشقاق حتى لا يخرجوا عنه إلى الوفاق . والشقاق : إما مـن المشقة أو من شق عصا الطاعة، أي أعلن الحرب . وبيان الله تعالى حق . ولهذا فـإن اليهود في عصر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ همّوا بأن يقتلوه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ومـن معـه بالخدع والكيد خصوصًا عندما وضعوا له السم في ذراع الشاة . وعنـدما همّـوا أن يلقوا عليه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ حجر الطاحون ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عندما

توجّه إلى ديارهم يدعوهم إلى الإسلام،فأنجاهم الله منهم وكم كادوا له ﴿ ﷺ **وآله**﴾، مرة بالمعارضة والمجادلة،ومرة بإغراء الشعراء على ذمه،ومرة بإغراء المشركين على قتاله . ولكن الله سبحانه أخبرنا بقوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، يعني أن أحدًا في العالم لا يقدر على أذية رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾. وتلك الآية من كبريـــات المعجزات فإنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ غزا سبعًا وعشرين غزوة،بعضها هاجر إليها بأصـــحابه، وبعضها هاجمه المشركون في المدينة كغزوة الخندق وأحد، والله تعالى يحفظه كما حفظ الذكر الحكيم، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو على فراشه، مع أنه خاص ميـــادين الحرب مرارًا كثيرة .وناهيك بوقعة حنين عندما فر أصحابه جميعًا، ولم يبق معـــه إلا عمه العباس وأبناء عمه على بن أبي طالب وجعفر أخوه، وهو ﴿ ﷺ **وآله**﴾ راكـــب بغلته (دلدل) وهو يهزها برجليه وينادى في وسط جيوش هوازن وغيرها من قبائـــل العرب المجمعة على قتله، ويقول في ندائه : ((أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب)) غير هياب ولا وجل، وحوله من الأعداء بضعة آلاف فارس، وقال لمن معه ناولونى كفًّا من التراب، فأخذه في يد وقرأ عبيه ((شاهت الوجوه)) ورمى به جيوش الأعداء فهزمهم الله شر هزيمة . ولم يفر الصحابة من الميدان إلا بعد أن تمثل إبلـــيس رجـــلا ونادى بأعلى صوته إن محمدًا قتل، فخفقت قلوب أصحابه وذهلـــوا عـــن عقـــولهم ورجعوا إلى الوراء فزعين، فلما أن نادى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ((أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب)) .

سمع المترعجون صوته فرجعوا إليه، فأهلك الله الأعداء، وغنم رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خيلهم وأموالهم ونساءهم وأولادهم، وهـــذا الحفـــظ مصـــداق قولـــه تعـــالى : ﴿ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ** ﴾، وذكر السين هنا لكفاية الله إياه في المستقبل . وقد حفظـــه الله تعالى جسمًا ودينًا وجاهًا ورفعة من كيد أعدائه جميعًا . وإن كان الضمير هنا كنايـــة عن اليهود إلا أن الله تعالى أخبرنا أنه يكفيه شر اليهود وغيرهم : ﴿ **وهُـــوَ السَّـــمِيعُ**

الْعَلِيمُ ﴾ الذي يسمع أقوالهم في مداولتهم لمكيدة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ويسمع دعاءه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ودعاء أصحابه فيستجيب لهم.وقوله تعالى (**الْعَلِيمُ**) أي العالم الذي يعلم سرهم ونجواهم ويعلم ما قدره من الأزل إلى الأبد، فيخبر خبر القادر الفاعل المختار .

قوله تعالى : صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴿١٣٨﴾

أمرنا الله تعالى بأن نرد على اليهود بما تفضل به علينا من الإيمان به جل جلاله، وبرسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ في قوله تعالى في قولهم : ﴿ **كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ** ﴾ بما أمرنا الله به في قوله : ﴿ **بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ** ﴾ الآية . ثم أكد الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿ **صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً** ﴾، يعني ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين وتأكيدها ﴿ **صِبْغَةَ اللّهِ** ﴾ أو بدل وتفسير لها . والصبغة هي الدين أو هي اللون الذي يحبه الله من خلقه، والحق لون واحد، كما ورد في أول البقرة في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ والكفر لون واحد كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾، والنفاق ألوان كثيرة كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ إلى آخر الآيات التي ذكر فيها حال المنافقين ــــ وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **صِبْغَةَ اللّهِ** ﴾ أي دين الله، أو اللون الذي يحبه الله من عباده المؤمنين .

ولما كانت الأديان متعددة قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً** ﴾ أي لا صبغة بمعنى لا دين ولا لون عليه بنو الإنسان أحسن من دين الله، الذي بعث به محمدًا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعد بعثة الرسل السابقين . فما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أكمل

وأحسن من كل دين جاء به الأنبياء السابقون أما الأديان الوضعية التي ابتدعها أهل الكتابين أو وضعها أهل الضلالة من الجاهلية، أو المجوس، أو الصابئة، فهو ضلال وكفر صراح، ولا مناسبة بينه وبين دين الله تعالى، فيقال هذا دين حسن وذاك أحسن، بل المراد أن صبغة الله، أي دين الله الذي أنزله على محمد أحسن وأكمل من كل دين أنزله الله على أنبيائه السابقين، وأضاف الصبغة إلى الله تعالى إثباتًا بأنه هو الذي أنزله وبعث به حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾، وهذا أمر من الله للصحابة رضوان الله عنهم ليقولوا لليهود والنصارى بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا وكان من المشركين .

﴿ **صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ يعني أننا جميعًا نخصه ونفرده بالعبادة دون غيره، بعد أن انكشفت لعقولنا آياته العليَّة وحججه الجليَّلة وبعد أن ظهر لنا بطلان سوى هذا الدين بالدليل العقلي و النقلي، وبما جاء في التوراة والإنجيل مما غيَّره أهل الكتاب وحرفوه عن مواضعه والعابد في اللغة الذليل المتواضع المنقاد للخير : يقال طريق معبدَّ أي مذلل ليست فيه وُعورة، فأخذ منه العابد . وفي الاصطلاح هو العبد الذي قبل ما جاء به إليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسارع في القيام بشعائر الإسلام . قال تعالى مخبرًا عنهم بعد أمره لهم : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ وقول الله تعالى : (﴿ **صِبْغَةَ اللّهِ** ﴾ لأن اليهود والنصارى كانوا يصبغون أولادهم باليهودية والنصرانية فيغمسوهم في ماء المعمودية الأصفر فيهوّدوهم أو ينصّروهم، وكان ذلك صبغتهم فرد الله عليهم مسفهًا لأحلامهم قائلا لنا قالوا : ﴿ **صِبْغَةَ اللّهِ** ﴾، وقد قال عيسى عليه السلام : ((كان من كان قبلي يعمدّكم بالماء، وأنا أعمدّكم بروح القدس)) .

قوله تعالى : **قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** ﴿١٣٩﴾

أمرنا ربنا جل جلاله بالآداب التي تجذب قلوب السامعين ليجملنا بالرحمة على خلقه، فقال سبحانه (**قُولُوا**) يا أمة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لليهود الذين يقولـــون نحـــن أولي بالنبوة والرسالة لأننا أبناء الأنبياء وفينا حصرت النبوة من أبينا إبراهيم، كأهم يحكمون على الله تعالى بأن الفضل لهم يؤتونه من يشاءون وبقولهم إنا أولي بالله مـــنكم، فقـــد فضلنا الله على العالمين . وقد أكرمنا بسماع كلامه وبتوالى آلائه . وتلـــك الحقـــائق تقتضي أتباعكم لنا ن فإن ديننا القديم ودينكم جديد . وأمثال هذه الدعاوى الباطلـــة التي لا حجة عليها، فكذبهم الله في دعواهم بأمره لنا أن نقول لهـــم أتجادلوننـــا في الله الذي خلقنا وخلقكم وليس من ذاته سبحانه شيء في طائفة منا دون طائفة . بل كل بني الإنسان لآدم وآدم من الطين . ولا فضل لأبيض على أســـود إلا بـــالتقوى.والله سبحانه الذي تجادلوننا فيه هو ربنا وربكم وكلنا عبيده . فقوله تعالى لنا (**قُولُوا**) ﴿ **وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** ﴾ **يعني** أنه ربنا علمًا وشهودًا ويقينًا وحقيقة، وربكـــم حقًـــا وإن جهلتم ربو بيته عليكم وجهلتم أنفسكم، فإن جهلكم لا يقتضي أنه ليس ربكم، بـــل هو ربكم رغم أنوفكم، كما أنه ربنا بالعلم واليقين والشهود والحقيقة . وهو الـــذي وفقنا لمحابه ومراضيه وأضلكم عن نيل الخير في الدنيا والآخرة وبذلك يكون ســـبحانه ربنا وربهم ﴿ **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ كمال التلطف من الله تعالى بهم حـــتى لا يكون هناك ما يقتضي عداوتهم لنا .

ومعنى ﴿ **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ أن الأعمال التي وقفنا الله تعالى بحوله وطولـــه وقدرته للقيام بها شكرًا لله سبحانه على ما تفضل به علينا من نعمتي الإيجاد والإمـــداد هي لنا لا له سبحانه، لأنه غنى عنا وعن عملنا، وإنما هي الأعمال بتوفيقـــه وهدايتـــه يردها علينا يوم القيامة بالنعيم المقيم والإحسان الدائم ﴿ **وَلَكُمْ أَعْمَـــالُكُمْ** ﴾ **يعـــني** الأعمال التي قدرها الله عليهم وهي ، مخالفة الأنبياء والافتراء على الله، ووضع الأحكام لأتباعهم بحسب هواهم وحظهم، فإن ذلك كله لهم والله تعالى لا تنفعه الطاعات، كما أنه سبحانه لا تضره المعاصي فيرد عليهم يوم القيامة عملهم بالعدل والقسط، ويجازيهم

بالخلود في نار جهنم، أعاذنا الله تعالى منها . وظاهر اللفظ يقتضي التآلف لا النفـــور ومعناه والله أعلم كما قررت لكم .

ثم بين ما قررته بقوله تعالى : ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** ﴾ والإخلاص بينته لـــك فيمـــا سبق، ولكنى أزيدك فيه بيانًا وهو إفراد الله تعال بالألوهة والعبادة والاستعانة به، حتى لا يُرى معبودًا سواه ولا إلها سواه في القيام بكل ما أوجبه علينا . والإخلاص نهايـــة السالكين وبداية الواصلين . قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ((الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم)) ومعنى ذلك أن المخلص إذا شهد لنفسه وجودًا أو جهادًا في إخلاصه فهو على خطـــر عظيم، لأنه يقع في الشرك الأخفى ولا خلاص من وحلة التوحيد إلا بكمال التفريـــد ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال تعالى : ﴿ **أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ وقد ورد أنه على باب كل سمـــاء ملك يستقبل أعمال العباد، فإذا وجد عملا يقصد به الرياء أقفل باب السماء أمامــــه، وفى السماء الثانية ملك إذا وجد في العمل أملا أقفل باب السماء الثانية في وجهه إلى السماء السابعة، فإذا وجد فيه همًّا لغير الله أو هوى لغير الله أقفل بابها في وجهه، فـــلا يصل إلى الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصًا من الإخلاص الذي نفهمه نحـــن . نسأل الله تعالى أن ينشلنا من وحلة التوحيد، وأن ينفذنا من بادية الإلحاد إنه على كل شى قدير ...

هنا أثبت الله تعالى أن كل أمة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لا تثبت لهم النسبة إليه عليه الصلاة والسلام إلا بالإخلاص وقليل ما هم .

قوله تعالى : ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١٤٠]

بعد أن بين الله لنا ما تفضل به علينا من الإيمان برسله عليهم السلام جميعًا، وخصوصًا بمن ذكرهم في تلك الآية لحكمة اقتضاها حال اليهود والنصارى، تأليفًا لهم، رد على اليهود رداًّ قصم ظهورهم بقوله ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ الآية . فالهمزة هنا للإنكار الشديد ((وأم)) إن كانت متصلة فقد جمع لهم بين هذه الآية وما قبلها وإن كانت منفصلة فـ ((أم)) هنا بمعنى بل والهمزة للإنكار أيضًا عليهم فيما يدعونه بهتانًا وعنادًا للحقائق، فإن قولهم إن من ذكرهم الله في هذه الآية كانوا هودًا أو نصارى بعد خبر الله عنهم في التوارة أنهم مسلمون، وبعد علمهم أن اليهودية بدعة أبدعت في زمان موسى عليه السلام، و لم تكن ملة ولا دينًا، وكذلك بعد علم النصارى في الإنجيل بأن موسى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأن إبراهيم فمن بعده عليهم السلام لم يكونوا يهودا ولا نصارى، وأن النصرانية بدعة ابتدعها أهل الضلال الذين يدعون أنهم أتباع عيسى عليه السلام وما هم بأتباعه، ولكنهم أعداؤه، لأن عيسى في الإنجيل أنزل نفسه منزلة العبد الذليل لله رب العالمين لمن قال له : ((أيها المعلم الصالح، فقال عيسى له أنا لست المعلم الصالح، المعلم الصالح هو الله تعالى)) فرجل لا يرى نفسه أنه معلم صالح كيف يرضى أن يكون ابن الله ؟ كل ذلك صح في كتبهم، ولكن قاتلهم الله، أبت نفوسهم الخبيثة إلا عنادًا وشقاقًا فثبت أنه من إبراهيم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لم يكونوا يهودًا ولا نصارى، وأن اليهودية والنصرانية ما أنزل الله بهما من سلطان : ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ ﴾ كشف الحجاب لنا عن كفرهم بقوله ﴿ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ ﴾ فإن قالوا نحن أعلم وقعوا في الفتنة، وإن

قالوا الله أعلم، كذبتهم شهادة الله تعالى بقوله ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ يحكم الله على اليهود النصارى بأهم أظلم خلق الله جميعًا . وفى الآية تقديم وتأخير . وتقدير ذلك : ومن أظلم عند الله ممن كنتم شهادة ثبتت عنده من الله . وقد أخبرنا الله تعالى مبينًا أن إبراهيم فمن بعده لم يكونوا هودًا أو نصارى، وثبت أن اليهودية والنصرانية بدعتان لا علاقة لهما بالدين كما قررت لك، وثبت أن اليهود والنصارى هم أظلم العالم أجمع لافترائهم على الله وإنكارهم على ما بينه الله في التوراة والإنجيل، والكذب أنواع : شره كتم شهادة الله عند الإنسان، ثم الخبر عن غير حقيقة، ثم كتم بعض الخبر وتبليغ بعضه، ثم الإعانة على الكذب بإيماء أو بإشارة بيد : ومن شره شهادة الزور التي يبطل بها حقًا ويحق بها باطلا .

وأظلم الكذب من كنتم شهادة الله عنده، وهم اليهود والنصارى ومن جاراهم . حفظنا الله وإخواننا من الوقوع فيما يغضب الله تعالى .

﴿ **وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾، والخطاب خاص باليهود بدليل قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ** ﴾ وفى هذه الآية أقصى التهديد، لأنه تعالى يبين لنا أن أعمال وأقوال وأحوال اليهود والنصارى، يسجلها الله عليهم حتى يخزيهم في الدنيا والآخرة .ولو أن القوم يعقلون خطاب الله تعالى لما وسعهم إلا المسارعة إلى الإسلام ولكن ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ .

وهنا يقيم ربنا عليهم الحجة، لأن العالم بالشيء المنكر له يدعوه إلى إنكاره الغرور بنسيان الله له أو بغفلته عن الله، وتتره ربنا وتعالى عن النسيان والغفلة . قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبّكِ نَسِيًا** ﴾، قال تعالى : ﴿ **وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ .

قوله تعالى : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

تقدم تفسير هذه الآية، ولكني أبين لك سرًا من أسرار ذكرها هنا . ذكرها الله تعالى فيما تقدم لإقامة الحجة على اليهود من بني إسرائيل، وهنا يقيم الحجة على اليهود والنصارى في هذه الآية، ولكن الذي أزيدك فيه بيانًا، أن الله تعالى إذا وفق الخلف لما كان عليه السلف الصالح كان الخلف والسلف أمة واحدة، فإن خالف الخلف ما كان عليه السلف وسم بوصمة الباطل والمخالفة .

فقوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ حكم عليهم بأنهم على باطل ولو اتصفوا بصفات سلفهم لكانوا هم عند الله تعالى مكانة وقربًا، كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾: ((خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم إلى آخر الحديث)) ولو أن أهل آخر الزمان بعد أربعة عشر قرنًا كانوا على ما كان عليه أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لكانوا من قرنه عليه الصلاة والسلام، لا فرق بينهم وبين أصحابه، فإن تلك الخصوصية إنما كانت للسلف الصالح لما وفقهم الله تعالى له من خير الأعمال وخير الأحوال وخير الأقوال .ومن المحافظة على التمسك بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقدر الطاقة البشرية ولو أن أهل آخر الزمان جملهم الله بما جمل به أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لكانوا من أهل معية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مهما بعد زمانهم ومكانهم . وقد يزيدهم الله تعالى من خير الجزاء حاشا الأفضلية، لأن النساء في زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كنّ يخرجن من بيوتهن كأنهن الغربان لا يظهر منهن ظفر ولا عين مما يسترن به أجسامهن من الثياب السوداء، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليهم السلام يلبسون إلى سوقهم وإلى نصف سواعدهم، وأصبح النساء في هذا الزمان يلبسن كما كان يلبس الرجال في زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأصبح الرجال في هذا الزمن يلبسون كما كان يلبس النساء في زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فترى

أكمامهم تجرّ على الأرض لطولها، وترى ثيابهم إلى تحت أظافرهم، هذا دليـــل علـــى انقلاب قلوبهم، حتى لو جاء رجل من السلف لحكم أن الرجال نســـاء، وأن النســـاء رجال، فإنك ترى الرجل حلق لحيته وأطال شار به معاكسًا للسنة وترى النساء حدّدن عوراتّهن ولبسن الثياب إلى ركبهن وجعلن الأكمام إلى عواتقهن، وذلـــك لانقـــلاب قلوبهن .

أسأل الله تعالى أن يعيد لنا مجد سلفنا الصالح، وأن يوقظ قلوب المسلمين، حتى يكونوا من أهل معية رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾.

(تم الجزء الأول بحمد الله تعالى)

((ويليه الجزء الثاني وأوله ((سيقول السفهاء))

فهرس الكتاب

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
المدخل لأسرار القرآن للسيد عز الدين ماضى أبي العزائم	
مقدمة الطبعة الأولى للإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبي العزائم	
المقدمة	
بيان في معنى الاستعاذة	
حكمة الافتتاح بالبسملة ، وحكمها	
تفسير سورة الفاتحة	
بحث في الأقوال الواردة في أوائل السور المفتتحة بالحروف	
بحث في معاني التقوى وأنواعها	
خصال المتقين	
تعريف العلم والإيمان	
أنواع الناس في العلم والإيمان	
حكمة الصيام والركوع والسجود والجلوس ولفته الــرأس للســـلام فـــي الصلاة	
هل الحرام يحسب من الرزق ؟ وما هو معنى الإنفاق	
بيان في معنى إنزال القرآن الكريم	
بيان حقيقة الكفر حتى لا يكفرٌ بعض الناس فيما ليس بكفر	
شميم من عبير التوحيد	
قدر الله للسعادة العظمى قابلا في العبد وفيضًا مقدسًا منه سبحانه	
السر في أن الله تعالى افرد السمع وجمع البصر	
لم تظهر فتنة في دين ولا في عرض ولا في خلق إلا والمنـــافقون هـــم	

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
فاتحوا أبوابها	
أصول الكبائر ثلاثة	
الحكمة في أن الله أخفى علينا ما تكنه قلوب المنافقين	
الصحة الروحانية لا تتحقق إلا بعلم التوحيد	
أهل النفاق شر من الكفار	
سبب ما نحن فيه من الذل هو العمل بمعاصى الله تعالى جهرًا من غيـــر أن يمنع المجاهر	
الواجب على كل مسلم قهر أهل النفاق بما يبيحه له الدين	
الجدل والمعارضة من أنواع الفساد في الأرض	
الكمال إنما هو بالنفوس لا بالدروس	
ظهر كثير من المنافقين في زماننا لتسلط الأعداء على المسلمين	
بيان في معنى استهزاء الله تعالى بالمنافقين	
المنافق في المجتمع كالقرحة في الجسم	
المنافقون يعاملون الله يوم القيامة كمعاملتهم للمؤمنين	
حقيقة المراد من قوله تعالى : صم بكم عمى	
احذر أن تجالس أوتجانس النفوس التي تنكر كرامات الأوليـــاء أو تنكـــر القرآن والأحكام	
معنى إحاطة الله تعالى	
لولا الكتب التي سرقها الأوربيون من بلاد الإســـلام لطـــافوا كالبهـــائم السائمة	
أعظم أصول الدين معرفة الله تعالى بالطريق الشرعى	

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
القرآن الكريم يشير إلى أن الأرض كروية وأنها متحركة وليست ساكنة	
المادة وخواصها والعقل وصاحبه صنع الله الذي أتقن كل شيء	
من منافع حرارة الشمس المنتشرة على وجــه الأرض وحكمــة إنــزال المطر	
بيان أن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا	
السماء في النشأة الأولى كالزوج والأرض كالزوجة	
معنى إتخاذ الأنداد من دون الله سبحانه	
بيان أن الله تعالى أقام الحجة على كمال توحيده سبحانه	
القرآن المجيد هو معجزة رسول الله ﷺ الحقيقية	
بيان في حقيقة نار الآخرة وفى معنى الكفر	
ما من ذرة من ذرات الوجود إلا وهي ، تنطوى على آيات عجيبة	
الذين يكفرون الناس حكموا لأنفسهم أنهم علموا الغيب المصون واطلعوا على القدر المكنون	
بيان لبعض أنواع النعيم في الجنة	
تفسير قوله تعالى إن الله لا يستحى	
بيان في معنى الاستحياء	
السر في ذكر الله تعالى للبعوضة بالذات	
بيان أن العلماء قسمان	
ما هو العهد المنسوب إلى الله تعالى	
شر العقوبة ما ينتقم الله به ممن يفسدون في الأرض	
أدعياء العلم يشنعون على المسلمين ويوالون أعداء الدين	

الموضــــــــــــوع	الصفحة
بيان في معاني الحياتين والموتتين	
أول الأساطيل الحربية أسسها سلفنا الصالح	
بيان في معنى الاستواء إلى السماء	
بيان معنى أن الله بكل شيء عليم	
ما هو الخليفة ؟	
حاجة الأمة إلى مجلس الشورى وبيان صفات خليفة الأمة	
الإمام المجدد يعلن أن الإنجليز شر من فرعون موسى	
درس قرآنى في تعليم المسلمين الشورى وفى الأدب مع طلبة العلم	
شتان بين علم الخلاق العليم ، وعلم العبد المقهور الذليل	
ما هي الأسماء التي علمها آدم عليه السلام	
سرعة الإنابة بعد الخطيئة عناية كبرى من الله تعالى	
على أهل العقول السخيفة أن يتأدبوا أدبا يليق بمرتبتهم المادية	
السجود لله في مقام العبادة ، ولكنه لآدم تعظما واحتراما	
ساطعة من أنوار الغيب المصون	
من هم الكافرون الذين بلغوا من الكفر مبلغا صار إبليس منهم ؟	
إشارة إلى شيء من حقيقة نفس الإنسان	
الحكمـــة فـــي إســـكان آدم وزوجـــه الجنـــة وفـــى معصـــيتهما واهباطهماإلىالأرض وحكمة وسوسة إبليس لآدم	
السر في أن الله تعالى يسند الفعل إلى الأسباب في آيات كثيرة	
شتان بين حركة الروح وحركة الحس وحركة النفس الأمارة بالسوء	

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
دخول المسلم لحضرة القبول من الله تعالى بذل وإنكسار القلب	
كشف الستار عن حقيقة تزن بها كثيرًا من الآيات الشريفة المقدسة	
تحصيل علوم التوبة من أوجب الفرائض على المسلم	
الناس جميعًا بالنسبة لله تعالى عبيد مقهورون وعباد مربوبون	
من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم دوام التوبة والاستغفار عقب كل عمل صالح	
المؤمن بين الخوف والرجاء	
بيان في معاني النعمة التي لا تحصى	
بيان أن القرآن الكريم دعوى وحجة	
بيان في معاني الرهبة	
متى يحكم بالكفر على أحد ؟	
بيان أن الناس بحسب التقسيم العقلى أرعب أنواع	
فليتق الله من حصلوا علم الأحكام	
تفسير قوله تعالى : أتأمرون الناس بالبر ...	
بيان بأن الله وضع الأسباب وجعلها أواسط بين خلقه ليشهدون عجائـــب قدرته وبدائع حكمته	
الخشوع مقام من مقامات أهل اليقين فوق الإيمان	
بيان أن لقاء الله غير الرجوع إليه سبحانه	
بيان أن التقوى محصورة في أربعة أنواع	
بيان ان الله تعالى يمنح الفضل ثم يتفضل بما هو أعظم من التفضيل	
كم أهلك زعماء الأمم أمما بسبب جهالتهم ولاعتقادهم أن الزعيم معصوم	

الموضــــــــــــــــوع	الصفحة
بيان بأن للإكراه على العمل حدود مخصوصة بينتها الشريعة	
الشريعة تدين المباشر للجريمة ولو كان مقهورًا من ذي سلطان	
قصة غرق فرعون وقومه	
بيان أن الله تعالى إذا أحب بعض عبيده تفضل عليهم بمزيد الإحسان ثــم لم يمن عليهم	
بيان أن أمر النفوس وتأثيراتها فوق دائرة اختصاص العقل	
بعد القلوب أشد نكاية في القطيعة من بعد الزمان والمكان	
بيان أن الهداية أربعة أنواع	
بيان شروط التوبة	
معنى قتل النفس الذي أمر به بنوا إسرائيل	
بيان أن الرؤية شئ والإدراك شئ آخر	
بيان الفرق بين المعجزة والكرامة	
فتوى الإمام المجدد فيمن يبيع لليهود عقارا أو أطيانًا في فلسطين	
المؤمن في مقام القرب يجب أن يكون أخوف من غيره في مقام البعد	
بيان في معاني الغمام	
بيان في معاني الظلم واستحالة نسبته إلى الله تعالى	
بيان أن من أطاع وأخطأ في عمله ليس كمن خالف معاندًا	
تفسير قوله تعالى: وأذ استسقى موسى لقومه	
شتان بين المحبوب والمحب	
حكمة مرور الحجر بثياب موسى عليه السلام	
بيان للأدب في صحبة المرشد	

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
هبوط بني إسرائيل ليس مكانيا ولكنه هبوط قدر ومرتبة	
السر في أن اليهود أغنياء العالم مع أن الله حكم عليهم بالمسكنة	
بيان أن المعاصي ثلاثة أنواع	
إشارة عجيبة إلى الأجر الممنوح من الله تعالى	
لماذا عطف الله الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بذاته العلية ؟	
بيان في زوال الخوف والحزن عن المؤمن عند موته	
بيان في معنى الميثاق	
بيان أنه يجب أن تكون تلاوة القرآن وخدمته برعاية العمل به	
بيان في إعتداء اليهود في السبت ومسخهم قردة	
قصة بقرة بني إسرائيل	
قلوب بني إسرائيل قاسية كالحجارة أو أشد قسوة	
تفسير قوله تعالى: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم	
التاريخ يظهر لنا صحيفة سوداء عن اليهود	
بيان في أنواع النفاق	
بيان أن اليهود مصرون على الكفر	
الحكمة في أن الله تعالى بين صفات رسول الله ﷺ في التوراة بالإشارة لا بالتصريح	
المرشد كالسراج الذي يبين للسالكين آثار السلف الصالح	
بيان أنه ما فرق الأمة أيدي سبإ إلا الاختلاف في التفاضل بين الشيوخ	
بهتان اليهود دون باطل النصارى	
بيان أن الإيمان ينحصر في معان ثلاث	

الموضــــــــــــــوع	الصفحة
الميثاق من الله تعالى نعمة عظمى على بني إسرائيل	
عَجَب يحتار فيه عقل العاقل بخصوص الوالدين	
بيان أن الذين فرقوا المسلمين هم دعاة الجهالة	
بيان في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة	
بيان يجذب الأرواح إلى حظائر الرحمة والشفقة	
المسلم الجاهل بأحكام القرآن لا يقبل الله منه يوم القيامة عذر الجهل	
أمثلة من الذين يوالون أعداء الله تعالى	
بيان في معنى الخزي الذي يصيب المخالفين في الدنيا ومعنى أشد عذاب	
معنى إشتراء الحياة الدنيا بالآخرة	
سر من حكمة توالى الرسل	
السر في أن اليهود من بني إسرائيل كانوا يبغضون الأنبياء والرسل	
بيان في معنى روح القدس الذكر الكثير لا بد أن يكون بكل الجوارح	
أهل الكتاب كانو يتوسلون برسول ﷺ قبل بعثته	
جمع الله في اليهود معاصي إبليس فمن دونه	
تفسير قوله تعالى : ولقد جاءكم موسى بالبينات	
حدود الله تعالى زواجر وجوابر	
حال اليهود السيئة لا يقع فيها إلا ظلوم جهول	
بيان أن الله تعالى يريد تزكية أنفسنا من التشبه باليهود	
حجة قاطعة على كذب اليهود	

الموضــــــــــــــوع	الصفحة
مثل يبين حال من سجنوا في سجن المادة ، وذوى النفوس الطاهرة	
تشنيع الله تعالى على اليهود من بني إسرائيل لمكانتهم من العلــم بيــوم القيامة	
بيان لمكانة رسول الله ﷺ عند الله تعالى	
بيان أن كل القرآن بشرى للمؤمنين	
القرآن المجيد يبين غيب الغيب المصون	
أخبرنا الله عن يهود بني إسرائيل في القرآن لنسارع إلى اجتناب أفعالهم	
بيان لنظائر اليهود من المسلمين	
من أخلاق من جملهم الله بمعانى صفاته	
الواجب علينا بغض العصاة وحب الصالحين	
بيان الذي تلته الشياطين على ملك سليمان	
من هم شياطين الإنس ؟	
قصة هاروت وماروت	
بيان أن السحر نوعان	
بيان أن الإذن كما أنه يدل على الأمر فكذلك يدل على العلم	
العلم يهتف بالعمل وإلا أرتحل	
بيان سر من نداء الله لعباده	
لولا سماحة الإسلام ما بقى على الأرض يهودى ولا نصرانى	
الإمام المجدد يجيب على سؤال وجه إليه عند إملاء الدرس	
الإمام المجدد يوضح موقف المسلمين الواجب عليهم بالنسبة للنصـــارى واليهود والمشركين المواطنين للمسلمين	

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى : ما ننسخ من آية أو ننسها	
بيان معنى النسيء والنسيان	
الوجود ليست له وحدة إلا عند من أوقعهم الله في التيه	
الإنسان جامع لكل الأنواع الكونية بحسب مراتب الوجود	
من الأدب أن لا يسأل الإنسان فإن الله أعلم بالإنسان من نفسه	
تحذير من الله تعالى وايقاظ لقلوب المؤمنين	
دعاة النصرانية ليسوا مبشرين ولكنهم مهلكون	
بيان في أنواع الحسد	
بيان أن شياطين الإنس قد كثروا في هذا العصر	
يهودى يخاصم أمير المؤمنين عند القاضى المسلم فيحكم لليهودى	
بيان في معاني إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة	
تكذيب الله تعالى لليهود والنصارى في زعمهم أنه لا يدخل الجنة سواهم	
بيان في زوال الخوف والحزن عن المسلم عند موته	
بيان أن اليهود والنصارى قوم بهت عميت عيون بصائرهم عن الحق	
إنذار من الله تعالى لكل من منع مساجد الله أن يذكر فيها أسمه	
شراب طهور لأرواح الواصلين والمتمكنين يدار عليهم في صلاتهم	
الذين يعتقدون أن لله ولدًا لا عقول لهم ولا قيمة لهم في الوجود	
مزيد بيان عن اليهود والنصارى فيما كانوا فيه من الضلال والعناد	
بيان في معنى البشير والنذير	
الفرق بين مقام رسول الله ﷺ ومقامات الأنبياء قبله	
ترويح لقلب رسول الله ﷺ وتثبيت لفؤاده	

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
تحذير من الله للمسلمين من اتباع أهواء اليهود والنصارى	
بيان أن تكرار الآيات في القرآن بلفظ واحد ليس بتكرار في الحقيقة	
من خصال اليهود الشنيعة من لدن موسى إلى يومنا هذا	
بيان في المقام المحمود و الشفاعة	
تفسير قوله تعالى : وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات	
بيان ما هي الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم عليه السلام	
بيان في معنى الإمامة	
من أقوال العلماء في بناء البيت الحرم	
مقارنة بين أدب سائر الرسل وبين أدب رسول الله ﷺ	
بيان أن قربات الرسل يلزمهم عليها التوبة إلى الله تعالى	
بيان أن الله تعالى يشرف بأرواح الرسل على سر القدر	
بيان في معاني الحكمة والتزكية	
إقامة الحجة على اليهود والنصارى والمشركين	
يقيم الله للأمة في كل عصر عبد من عبيده يقيم حججه ويبين سبله	
نعم عظمى من الله بها على الخليل عليه السلام	
اليهودية والنصرانية بهتان وبدعة ما أنزل الله بها من سلطان	
بيان أن الواجب على كل مسلم ألا يعتمد إلا على فضل الله ورحمتــه ، وبيان في الشفاعة	
عيسى يقول في إنجيل برنابا : الرسول الذي يأتى بعدى أتمنى أن أحمل حذاءه	
ما موقف المسلمين الذين يتمسكون برجال من الموتى ولا ينتفعون بأهل	

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
العلم من الأحياء	
إشارة إلى العلماء الراسخين من المسلمين	
بيان أن الله تعالى أنزل أمة حبيبه ﷺ منزلة الأنبياء	
آية من كبريات المعجزات	
بيان معنى صبغة الله	
بيان في معنى الإخلاص	
بيان أن اليهود والنصارى أظلم خلق الله جميعا	
بيان أن لو تجمل أهل آخر الزمان بجمال الصحابة لكانوا من أهل معيـــة رسول الله ﷺ	